موسوعة

الخطب المنبرية

سلسلة تحكى سيرة الرسول وقصص الأنبياء و الصحابة و التابعين

مواقف مؤثرة ... وعظات بالغة ... ودروس مستفادة

لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء



موسوعة

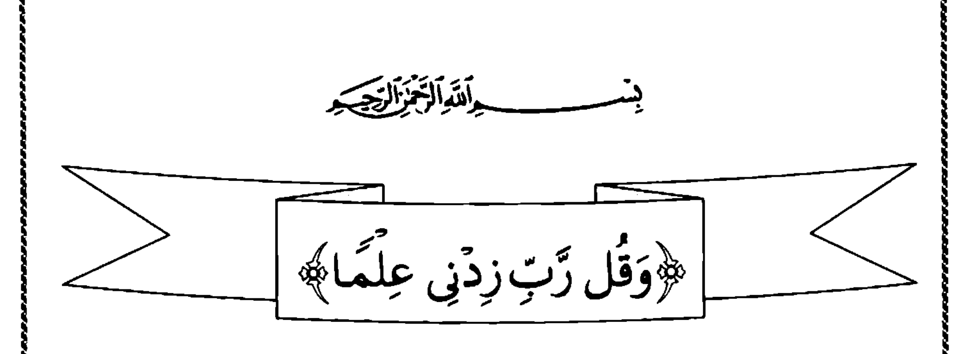


سلسلة تحكى سيرة الرسول وقصص الأنبياء والصحابة والتابعين
مواقف مؤثرة... وعظات بالغة... ودروس مستفادة
لا غنى عنه للوعاظ والدعاة والخطباء

سعد يوسف أبو عزيز

المجلد الأول

دار التوفيقية للتراث



الكتـــاب: موسوعة الخطب المنبرية
(الجزء الأول)

المؤلـــف: سعد يوسف أبو عزيز

النـــاشر: دار التوفيقية للتراث

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٥١٨٤

دار التوفيقية للتراث

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر – القاهرة

تليفون: ٢٥١٠٥٦٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى رسولِهِ المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد..

فهذا الكتاب «مَوسُوعة الخُطَب المنبريّة» يضمّ بين دفتيه سلسلة متتابعة تحكي قصص الأنبياء، والصَّحابة، والتَّابعين، وبعض الصَّالحين.

تحرّيت فيها صحّة النَّقل - قدر استطاعتي - ورددت فيها عَلَى شبهات أثيرت حول بعض الأنبياء والصحابة، وركّزت فيها عَلَى الدروس المستفادة من كلّ قصّة - تقريبًا - وأبرزت فيها المواقف المؤثرة، والعظات البالغة، وربطت فيها بين الماضي والحاضر.

فقد قَالَ ربّ العزّة سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال جلّ شأنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تبارك اسمه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

وهنا يظهر سؤال: لماذا سيقت القصّة في القرآن؟ وما السّرُّ في اختلاف الأسلوب للقصّة الواحدة؟ ولماذا كررت في عدة سور؟

ولقد كان القصص في كل لغة لونًا من ألوان الأدب الفنّي الرائع، لما له من الأثر النفسي في قلوب سامعيه، والقصص في القرآن ينبئنا عن أخبار الأنبياء

والرُّسل، وما حصل لهم، وكيف قاموا بدعوتهم، وكيف عالجوا أزماتهم، وما انتهى إليه أمرهم، وعلى العموم فهو مدرسة إلهيّة مُعَلمُوها الأنبياء، وتلاميذها الأُمم.

ولقد سيقت للعبرة والعظّة، حيث يقف المسلمون والمشركون عَلَى أحوال من تقدمهم من الأمم، فيعتبر ذوو الألباب ويتعظون، وفيها التسلية الكاملة للنبي ﷺ وصحبه، من حيث يقفون عَلَى أخبار الرُسل وأممهم، وكيف كانت العاقبة للمتقين، والدائرة عَلَى الكافرين المعاندين، وفي هَذَا تثبيت لهم، وشحذ لعزائمهم، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الـحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

والعبرة والعظة تظهر في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ولقد سيقت القصّة دليلًا عَلَى صدق الرَّسول، وأن خبره من السّماء إذ هو يقصّ أخبارًا ما كان يعلمها هو ولا أحد من قومه، ولا يكون هَذَا إلا بوحي من السماء ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وهي علاج للقلوب، ودواء للنفوس، لما فيها من أخبار الأمم وما حلّ بالعاصين من عاجل بأس الله، فأهل اليقين وغيرهم إذَا تلوها تراءى لهم من ملكه وسطانه وعظمته وجبروته، حيث يبطش بأعدائه ما تذهل منه النفوس، وتشيب منه الرءوس، كما قَالَ رسول الله ﷺ: «شَيَّبَتني سورة هُود وأخواتها»[1]. صدق رسول الله ﷺ، والقصّة مدرسة للمؤمنين المنتفعين بهدى القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةً

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» بلفظ: «شيبتني هود وأخواتُها»، وصححه الشيخ العلّامة المحدّث ناصر الدين الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٥٥).

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ فيها أحسن الدروس، وأقوى الأمثال الَّتِي تضرب لتحمل الدعاة والمرشدين ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. إلى آخر قصة نوح عليه السلام.

أما تكرارها في القرآن فلما في أغراضها ومقاصدها من معان جليلة وفوائد سامية يحرص القرآن دائمًا عَلَى ذكرها لتكون ماثلة أمام أعين المسلمين بكل لون وأسلوب، ولا غرابة فإنا نرى أصحاب الثورات والدعوات دائمًا في كل خطبة وفي كل موقف يرددون مبادئهم وأغراضهم وأعمالهم بأساليب مختلفة.

ولعل السّر في اختلاف الأسلوب في القصّة الواحدة تجديد النشاط وطرد السآمة، والملل من نفس القارئ والسامع، ولا تنس أن لكل سورة لونًا خاصًّا وصفة خاصة وجرسًا خاصًّا، وفواصل خاصة وحالًا للمخاطب خاصة تتناسب مع السياق.

وعلى العموم فلكل قصّة سياق يتناسب مع ما سبقها وما أتى بعدها، وهذا بحث يحتاج إلى كتاب يبحث فيه حال القصّة الواحدة مع كل الملابسات السابقة. ا.هـ[(١)].

هذا؛ وفي ذكر قصص الصحابة والتَّابعين فوائد جمّة:

الفائدة الأولى: التأسّي بهم:

فهم أفضل المصطفَيْن من هَذِهِ الأمّة:

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيميّة - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لقول الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

(١) «في رحاب التفسير» للشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله - (١٧٣٥، ١٧٣٦).

لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْـخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْـحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْـحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُـغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢- ٣٥]

فأمّة محمد ﷺ الَّذِين أورثوا الكتاب بعد الأمتين قبلهم اليهود والنصارى، وقد أخبر الله تعالى أَنَّهُمْ الذين اصطفى، وتواتر عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «خَيْرُ الْقُرون الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[١]. ومحمد ﷺ وأصحابه هم المصطَفون من المصطفين من عباد الله. ا.هـ[٢].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَـهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قَالَ الإمام الطبريّ - رحمه الله - عند تَفْسِيرِهذه الآية: «هذه الآية اشتملت عَلَى أبلغ الثناء من الله رب العالمين عَلَى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان حيث أخبر - تَعَالَى - أنه رضي عَنهُم ورضوا عنه بما أكرمهم الله به من جنات النعيم والنعيم المقيم فيها الَّذِي لا يفنى ولا يبيد، فقد خسر نفسه بعد هَذَا من ملأ قلبه ببغضهم واستعمل لسانه في سبّهم والوقيعة فيهم كالطائفة المخذولة من الرافضة الَّتِي عميت عن ثناء الله عليهم في كتابه العزيز بمثل هَذَا الثناء وغيره، فأخذوا يعادونهم ويبغضونهم ويسبونهم - عياذًا بالله - وهذا يدل عَلَى أن قلوبهم انتكست وعقولهم فسدت وإلّا فأين هم من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رَضِيَ الله عَنهُم ورضوا عنه؟! وقد عصم الله أهل السُّنة والجماعة مما وقع فيه الرافضة فلم يقولوا في أسلاف هَذِهِ الأمة منكرًا، أو يطعنوا فيهم طعنًا، فلم يقولوا في المهاجرين والأنصار وأعلام الدِّين ولا في أهل بدر وأُحُد وأهل بيعة الرضوان إلّا أحسن المقال.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٨٧).

(٢) «منهاج السّنة النبوية» لابن تيمية (١/ ١٥٦).

واختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾ فقال بعضهم: هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان»[1].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية: «فالصحابة -رَضِي الله عَنهُم- خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم.

وقال مالك ﷺ: بلغني أن النصارى كانوا إذَا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هَذِهِ الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قَالَ سُبحانه هاهنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه، ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: شده وقواه، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: شبَّ وطال.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

ومن هَذِهِ الآية انتزع الإمام مالك -رحمه الله في رواية عنه- تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأَنَّهُمْ يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة -رَضِي الله عنهم- فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء عَلَى ذلك.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ «من»

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٦).

هَذِهِ لبيان الجنس، ﴿مَغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الَّذِي لا يلحقهم فيه أحد من هَذِهِ الأمة، رَضِي الله عَنهُم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل»[1].

الفائدة الثانية: أنَّهُمْ - أي الصحابة - أمنة الأمة:

عَنْ أَبِى بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِي عَنهُ قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّىَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: **«مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا؟»**. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّىَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: **«أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ»**. قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: **«النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِى فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِى مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِى أَمَنَةٌ لأُمَّتِى فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِى أَتَى أُمَّتِى مَا يُوعَدُونَ»**[2].

قَالَ أبو حاتم محمد بن حِبَّان البستيّ مبينًا معنى هَذَا الحديث: «ويشبه أن يكون معنى هَذَا الخبر أن الله جلّ وعلا جعل النجوم علامة لبقاء السماء وأمنة لها عن الفناء، فإذا غادرت واضمحلت أتى السماء الفناء الَّذِي كُتب عليها، وجعل الله -جل وعلا- المصطفى أمنة أصحابه من وقوع الفتن، فلما قبضه الله - جلّ وعلا - إلى جنته أتى أصحابه الفتن الَّتِي أوعدوا، وجعل الله أصحابه أمنة أمته من ظهور الجور فيها، فإذا مضى أصحابه أتاهم ما يوعدون من ظهور غير الحق من الجور والأباطيل» ا.هـ[3].

وقال النووي: «ومعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٣٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٣١، ٤/ ١٩٦١)، وأحمد (٤/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» للأمير علاء الدين أبي الحسن عليّ بن بلبان الفارسيّ.

وقوله ﷺ: «**وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ**» أي: من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذَلِكَ مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك، قوله ﷺ: «**وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**» معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدِّين والفتن فيه، وطلوع قرن الشَّيطان وظهور الروم وغيرهم وانتهاك المدينة ومكّة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ». ا.هـ[(١)].

فهذا الحديث تضمن فضيلة الصحابة رَضِي الله عنهم عَلَى وجه عام كما اشتمل عَلَى بيان منزلتهم ومكانتهم العالية في الأمة، وأنّهم في الأُمَّة بمنزلة النُّجوم من السَّماء[(٢)].

الفائدة الثالثة: التمسّك بأسباب الفتح:

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ**[(٣)] **مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُونَ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ. ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ**»[(٤)].

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «وفي هَذَا الحديث معجزات الرسول ﷺ وفضل الصحابة والتابعين وتابعيهم». ا.هـ[(٥)].

الفائدة الرابعة: علوّ الهمّة:

فمتابعة أخبار الصحابة والتّابعين، والاطّلاع عَلَى سيرهم، يشحذ الهمم،

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٨٣).
(٢) «فرسان النهار» د. سيد العفاني (١/ ٨٦).
(٣) الفئام: الجماعة الكثيرة.
(٤) رواه البخاري (٣٦٤٩)، ومسلم (٢٥٣٢)، وغيرهما.
(٥) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٨٣).

ويقوِّي العزائم، ويحثّ عَلَى مكارم الأخلاق.

روى **الحافظ أبو نعيم** بإسناده إلى الحسن البصريّ أن بعض القوم قَالَ له: أخبرنا صفة أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فبكى وقال: ظهرت مِنْهُمْ علامات الخير في السيماء والسمت والهدى والصدق وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستفادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم، ظمأت هواجرهم، ونحلت أجسامهم واستخفوا بسخط المخلوقين في رضا الخالق لم يفرطوا في غضب ولم يحيفوا في جور ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن، شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين. حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم(١).

وقال بشر بن الحارث - رحمه الله -: «بحسبك أن أقوامًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقوامًا أحياء تعمى الأبصار بالنّظر إليهم»(٢).

الفائدة الخامسة: اتِّباع سَنَنِ الفرقة النَّاجية:

روى **أبو نعيم الأصبهانيّ** بإسناده إلى عبد الله بن عمر رَضِي الله عَنهُما أنه قَالَ: «مَن كان مستنًا فليستنّ بمن قَدْ مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هَذِهِ الأُمَّة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ وكانوا عَلَى الهدي المُستَقِيم».

وروى الإمام أحمد في «المسند» بإسناده إلى عبد الله بن مسعود أنه قَالَ: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثُمَّ نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٠).

(٢) «المنتظم» (٢/ ٢١٩).

قلوب العباد فَجَعَلَهُم وزراء نبيّه يقاتلون عَلَى دينه فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ».

وروى ابن بطة - كما في «منهاج السنة» لشيخ الإسلام ابن تيميّة - بإسناده إلى عبد الله بن مسعود أنه قَالَ: «من كان منكم مستنًا فليستنّ بمن قَدْ مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، وكانوا والله أفضل هَذِهِ الأمة، وأبرها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا عَلَى الهدي المُستَقِيم».

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله تعالى -: «فأما أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه وإظهار حقه فرضيهم له صحابة وجعلهم لنا أعلامًا وقدوة فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله ﷻ وما سنّ وشرع وحكم وقضى وندب وأمر ونهى وحظر وأدب، ووعوه واتقنوه، ففقهوا في الدِّين وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعاينة رسول الله ﷺ، ومشاهدتهم منه تَفْسِيرِ الكتاب وتأويله وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرفهم الله ﷻ بما من عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة، فنفى عنهم الشك والكذب والغلط والريبة والغمز وسماهم عدول الأمة فقال ﷻ في محكم كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ففسّر النبي ﷺ عن الله ﷻ قوله: ﴿وَسَطًا﴾ قال: «عَدْلًا». فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسُّنة.

وندب الله ﷻ إلى التمسك بهديهم والجري عَلَى منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥]، ووجدنا النبي ﷺ قَدْ حضَّ عَلَى التبليغ عنه في أخبار كثيرة ووجدناه يخاطب أصحابه فيها، منها أن دعا لهم فقال: «**نَضَّر الله امرءًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها**

حتى يبلغها غيره» (١)، وقال ﷺ في خطبته: «فَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ مِنكم الْغَائِبَ» (٢)، وقال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» (٣).

ثم تفرقت الصحابة رضى الله عنهم في النواحي والأمصار والثغور وفي فتوح البلدان والمغازي والإمارة والقضاء والأحكام، فبث كل واحد مِنْهُمْ في ناحيته وبالبلد الَّذِي هو به ما وعاه وحفظه عن رسول الله ﷺ وحكموا بحكم الله ﷻ وأمضوا الأمور عَلَى ما سنّ رسول الله ﷺ وأفتوا فيما سئلوا عنه مما حضرهم من جواب رسول الله ﷺ عن نظائرها من المسائل وجردوا أنفسهم مع تقدمة حسن النيّة والقربة إلى الله تقدس اسمه لتعليم الناس الفرائض والأحكام والسنن والحلال والحرام، حتى قبضهم الله ﷻ رضوان الله ومغفرته ورحمته عليهم أجمعين».ا.هـ. (٤)

وقال العلَّامة ابن القيّم - رحمه الله تعالى - مبينًا فضل الصحابة عمومًا عَلَى غيرهم ممن جاء بعدهم وذاكرًا الصفات الَّتِي أهلتهم لذلك عند كلامه عَلَى ذكر أنواع الرأي المحمود:

«النوع الأول: رأي أفقه الأمة وأبر الأمة قلوبًا، وأعمقهم وأقلهم تكلفًا، وأصحهم قصودًا وأكملهم فطرة وأتمهم إدراكًا وأصفاهم أذهانًا، الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل، فهموا مقاصد الرسول، فنسبة آرائهم وعلومهم وقصودهم إلى ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلى صحبته، والفرق بينهم وبين من بعدهم في ذَلِكَ كالفرق بينهم وبينهم في الفضل فنسبة رأى من بعدهم إلى رأيهم كنسبة قدرهم إلى قدرهم.

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه، وغيرهما.

(٢) صحيح: عند البخاري بلفظ: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب» وعند مسلم بدون لفظة «منكم». «البخاري/ فتح» (١/ ١٩٩)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٦).

(٣) صحيح: عند البخاري بلفظ: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج...» الحديث، من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (صحيح البخاري/ فتح) (٦/ ٤٩٦).

(٤) «مقدمة الجرح والتعديل» (١/ ٨٠٧).

والمَقْصُودُ: أن أحدًا ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته...

وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة أن يكون رأيهم لنا خيرًا من رأينا لأنفسنا وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نورًا وإيمانًا وحكمة وعلمًا ومعرفةً وفهمًا عن الله ورسوله ﷺ، ونصيحة للأمة وقلوبهم عَلَى قلب نبيهم ولا وساطة بينهم وبينه وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضًا طريًّا لم يشبه إشكال ولم يشبه خلاف ولم تدنسه معارضة، فقياس رأي غيرهم بآرائهم من أفسد القياس»[(١)].

وقال الإمام أحمد بن إدريس الشافعي - رحمة الله عليه -: «وقد أثنى الله -تبارك وتعالى- عَلَى أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم عَلَى لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذَلِكَ ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وأدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول ولم نخرج من أقاويلهم، وإن قَالَ أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله». ا.هـ[(٢)].

الفائدة السادسة: بذل النفوس النفيسة في سبيل مرضاة الله تعالى:

قال السفارينيّ - رحمه الله تعالى -: «ولا يرتاب أحد من ذوي الألباب أن الصحابة الكرام هم الذين حازوا قصبات السبق واستولوا عَلَى معالي الأمور من

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٧٩ - ٨٢).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ٤٤٢، ٤٤٣).

الفضل والمعروف والصدق، فالسعيد من اتبع صراطهم المُستَقِيم واقتفى منهجهم القويم، والتعيس مَن عدل عن طريقهم، ولم يتحقق بتحقيقهم فأي خطة رشد لم يستولوا عليها، وأي خطة خير لم يسبقوا إليها، تالله لقد وردوا ينبوع الحياة عذبًا صافيًا زلالًا ووطدوا قواعد الدِّين والمعروف فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالًا فتحوا القلوب بالقرآن والذكر والإيمان، والقرى بالسيف والسنان، وبذل النفوس النفيسة في مرضاة الرحيم الرحمن، فلا معروف إلا ما عنهم عرف ولا برهان، إلا ما بعلومهم كشف، ولا سبيل نجاة إلا ما سلكوا، ولا خير سعادة إلا ما حققوه وحكوه، فرضوان الله تعالى عليهم أجمعين» ا.هـ(١).

الفائدة السابعة: الزهد في الدُّنْيَا، والشوق إلى الآخِرَة:

روى أبو نعيم الأصبهانيّ بإسناده إلى أبي أراكة قال: صَلَى عليٌّ الغداة ثُمَّ لبث في مجلسه حتى ارتفعت ا لشمس قيد رمح كأن عليه كآبة، ثُمَّ قال: لقد رأيت أثرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحدًا يشبههم والله إن كانوا ليصبحون شعثًا غبرًا صفرًا بين أ عينهم مثل ركب المعزي، قَدْ باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذَا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم، حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

وقد تقدّم قول الحسن - رحمه الله - فيهم.

أخي:

هذه بعض فوائد ذكر الصحابة والتابعين، وهي غيض من فيض، وقطرة من بحر، سيأتي في سياق الحديث عنهم المزيد من الفوائد - إن شاء الله.

ولله دَرُّ من قَالَ في فضل الصحابة:

الصّحبُ إن نطقوا أصغى الزمان لهم ... والصّحب إن أقدموا فالمجدُ ينتظِرُ

سبائكُ الدّهر من أغلى معادنه ... كأنَّهُمْ معدن في الدهر مبتكرُ

---

(١) «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٣٧٩، ٣٨٠).

قد أسرجوا النَّجم خيلاً في مراحلهم إلى العُلا وهي من تاريخهم صُوَرُ
فالبحر إن وهبوا، والنَّار إن غضبوا والعدل إن ملكوا، والعفو إن قدروا

رضي الله عنهم وأرضاهم.

أخي:

وبعد هَذَا التمهيد، نشرع في بيان المقصود، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله العليّ العظيم.

تنبيهات مهمة

قبل إعداد خطبة الجمعة

التنبيه الأول:

قال الإمام ابن القيم - رَحِمَهُ الله - في «زاد المعاد» (١/ ١٨٨): «كان مدار خطبته ﷺ على حمد الله والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجَنَّة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، فعلى هذا مدار خُطبه... ولم يكن يخطب خطبةً إلا افتتحها بحمد الله، ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة» ا.هـ.

هذا؛ واشترط الفقهاء لخطبة الجمعة شروطًا لا تصحّ الخطبة بدونها، ومن هذه الشروط: حمد الله، والصلاة على النَّبيّ ﷺ، والشهادتان، وقراءة آية من القرآن، والوصية بتقوى الله.

والراجح: أن ما ذكر من هذه الأمور لا تعد شروطًا لخطبة، لأن الأحاديث الواردة في ذلك لا تدلّ على الشرطية، إنما هي مستحبات ومكملات لها.

وأما الشرطية فلا، ويستثنى من ذلك: الشهادتان، فهما شرط، وذلك لحديث النبي ﷺ: «**الخطبة التي ليس فيها شهادة كاليد الجذماء**»[(١)] ا.هـ[(٢)].

قال العلَّامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله -: «وأمَّا اشتراط تلك الشروط بين الخطبتين: الحمد، والصلاة على رسول الله ﷺ، وقراءة آية من القرآن، فليس على اشتراط ذلك دليل.

والصواب: أنه إذا خطب خطبةً يحصل بها المقصود والموعظة أن ذلك كاف... نعم مِن كمال الخطبة الثناء فيها على الله وعلى رسوله ﷺ، وأن تشتمل على قراءة

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٨٤١)، والترمذي (١١٠٦)، وصححه الألباني.

(٢) «تمام المنة» للعزازي (٢/ ١٨).

شيء من كتاب الله، وأمَّا كون هذه الأمور شروطًا لا تصحّ إلا بدونها سواء تركها عمدًا أو خطأ أو سهوًا؛ ففيه نظر ظاهر» ا.هـ[١].

وفي «الروضة الندية»(ص١٣٧): «الوعظ في خطبة الجمعة هو الذي يساق إليه الحديث، فإذا فعله الخطيب فقد فعل الأمر المشروع، إلا أنه إذا قدَّم الثناء على الله وعلى رسوله ﷺ أو استطرد في وعظه القوارع القرآنية كان أتمّ وأحسن» ا.هـ.

قلت: وهذا ما حاولت ذكره في هذه السلسلة - بفضل الله تعالى - قدر استطاعتي، وعلى الأخ الخطيب أن يستكمل ما يراه ناقصًا، هذا للعلم.

التنبيه الثاني:

هذه السلسلة مهمّتها مساعدة الخطيب في اختيار الموضوع، وعلى الخطيب أن يضيف أو يحذف ما يراه مناسبًا، ويحاول ربط الأحداث بالواقع المعاشي، حتى لا يعيش بمعزلٍ عن الزمن الذي يعيش فيه.

التنبيه الثالث:

لا يشترط ذِكر الخُطب مسلسلة كما هو مدوّن، فالأفضل التنويع، بمعنى إلقاء خطبة عن نبيّ من الأنبياء، أو صحابيّ من الصحابة مثلًا، والخطبة التي تليها تكون عن خُلُقٍ من أخلاق الإسلام، أو تذكيرٍ بالموت وما بعده، وذلك حتى لا يسأم المستمع.

وقد حاولت بناء خطب كثيرة على مواقف ومواعظ عديدة.

وأخيرًا...

أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفِّقتُ فيما أردتُ، وعلى الله قصد السبيل.

❖❖❖❖❖

(١) «المختارات الجلية» (ص٧٠).

أولاً

مع الأنبياء والمرسلين

الخطبة الأولى:

من دلائل القدرة في خلق آدم عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيده، ونفخ فيه من روحه.

دلّت عَلَى ذَلِكَ آيات القرآن، وأحاديث سيِّد ولد عدنان - صلوات ربِّي وسلامه عليه -.

فمن آيات القرآن:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ

كُنتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ [ص: ٧١- ٧٥].

ومن السُّنَّة:

ما جاء في حديث الشفاعة الطويل، ونسوقه بتمامه لأهميته:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِي الله عَنهُ - قَالَ: كُنَّا مع النَّبي ﷺ في دَعوةٍ(١)، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ(٢)، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَس مِنْهَا نَهْسَةً(٣) وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذلك؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُبْصِرُهُمْ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لبعض: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نفسي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وقَدْ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّى قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ - نَفْسِى نَفْسِى نَفْسِى، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّى قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا،

(١) أي: في وليمة ونحوها.

(٢) أي: ذراع شاة.

(٣) نهس نهسة: أي أخذ منها بأطراف أسنانه.

نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»(١).

عباد الله:

من أي شيء خَلق الله آدم؟

الجواب: خلقه من تراب، من قبضة قبضها من جميع الأرض.

يدلّ عَلَى ذلك:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»(٢).

---

١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

٢) صحيح: رواه الترمذي وأبو داود، وانظر «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني برقم (١٦٣٠).

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: «بعث الله جبريلَ إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقُص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ. وقال: ربِّ إنها عاذت بك فأعذْتُها. فبعث الله ميكائيل، فعاذَت منه، فأعاذها، فرجع فقال كما قَالَ جبريل. فبعث مَلَك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض، وخَلَط فلم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تُرْبة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خَرَجَ بنو آدم مختلفين - ولذلك سُمي آدم لأنه أُخذ من أديم الأرض - فصعد به فقال الله تعالى له: أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك؟ قال: رأيت أمرك أوجب من قولها، فقال: أنت تصلح لقبض أرواح ولده، فصَعِد به، فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا، ثُمَّ ترك حتى أنتن، فذلك حين يقول: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]. قال: منتن، ثُمَّ قَالَ للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]. فخلقه الله بيديه لكيلا يتكبر إبليس عنه، يقول: أتتكبر عما عملت بيديّ، ولم أتكبر أنا عنه؟ فخلقه بشرًا، فكان جسدًا من طين أربعين سنة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه. وكان أشدّهم منه فزعًا إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوّت الجسدُ كما يصوّت الفخار وتكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول لأمرٍ ما خُلقت! ودخل من فيه فخرج من دُبُره. فقال إبليس للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإنّ ربكم صَمَدٌ وهذا أجوف. لئن سُلطت عليه لأهلكنّه، ويقال إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذا الذي لم تروا شيئًا من الخلائق يشبهه إن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا، فأسرَّ إبليس في نفسه لئن فضل علي فلن أطيعه، ولئن فضلت عليه لأهلكنه. فلما بلغ الحين الَّذِي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح، قَالَ للملائكة: إذَا نفختُ فيه من رُوحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الرّوح فدخل الروح في رأسه عَطَس، فقالت له الملائكة: قل الحمدُ لله. فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربُّك. فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل في جوفه اشتهى الطعامَ، فوَثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].... وذكر تمام

نقصة[١].

عباد الله:

وآدم عليه السلام هو أبو البشر، ومَن زَعم أنَّ هناك بشرًا قبله فقد أعظم الفريّة عَلَى الله.

وكذلك مَن زعم أن أصل الإنسان قرد، فقد كفر بالله.

هل هناك عاقل يرضى أن يكون من فصيلة «الغوريلا» و «الشمبانزي»، وسائر أنواع القردة؟!

رَبِّ إن الهُـــــدَى هُـــــداك وآياتُـك حَـقّ تَهْـدي بهـا مَـن تشاء

أيها المسلمون:

وخلق الله – تعالى – آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة، اقرأ معي الحديثين التاليين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»**[٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – أيضًا – قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِى فَقَالَ: **«خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ العَصْرِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فِى آخِرِ الخَلْقِ وَفِى آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»**[٣].

ولَـمَّا خلق الله آدم، وقبل أن ينفخ فيه الرّوح، طاف به إبليس!

فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«لَـمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ**

---

(١) إسناده لا بأس به: وهو من الإسرائيليات، أخرجه الطبري (١/ ٩٣، ٩٤).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

أَنْ يَدَعَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لاَ يَتَمَالَكُ»(١).

ومن هنا بدأت العداوة.

عباد الله:

وأوَّل كلمة نطق بها آدم عليه السلام: «الحمد لله».

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لَـمَّا بلغ الحين الَّذِي أُريد أن ينفخ الروح، دخل الرّوح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قُل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال الله له: رحمك ربّك»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «**لَـمَّا نُفِخَ في آدم الرّوح مَارَتْ وطَارَتْ، فصارت في رأسِهِ، فَعَطَس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله: يَرحمك الله**»(٣).

وعلَّم الحقُّ سُبحانه آدم عليه السلام تحيّة الإسلام:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ وهُم نَفَرٌ مِن الملائكة جلوس، فإنّها تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فذهب فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ. فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ. فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ في طوله ستّون ذراعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ**»(٤).

قال الشيخ ابن العثيمين - رحمه الله تعالى - عند شرحه لقوله ﷺ: «خلق الله آدم عَلَى صورته»:

«أحد الوجهين الصحيحين في تأويلها: أن الله خلق آدم عَلَى الصورة الَّتِي اختارها واعتنى بها، ولهذا أضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، كإضافة

---

(١) رواه مسلم (١٦٠٥).

(٢) جزء من الأثر الذي تقدّم قبل قليل.

(٣) صحيح: رواه ابن حبان في «الموارد» (٢٠٨١)، والحاكم (٤/ ٢٦٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وإن كان مرفوعًا، ووافقه الذهبيّ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١)، وأحمد (٢٧٣٨٨).

ناقة[١] والبيت إلى الله والمساجد إلى الله؟

والقول الثاني: أنه عَلَى صورته حقيقةً، ولا يلزم من ذَلِكَ التماثل» ا.هـ[٢].

عباد الله:

وآدم مشتقٌّ من أديم الأرض.

قال سعيد بن جُبير: «إِنَّما سُمِّي آدم لأَنَّهُ خُلق مِن أديم الأرض، وإِنَّما سُمِّي إنسانًا لأَنَّهُ نَسِيَ» [٣].

وبالجملة: فإن خلق آدم عليه السلام يذكِّر الإنسان بالقدرة الإلهيّة الفائقة الَّتِي تخلق من العدم وجودًا، وتجعل من الضعف قوَّة، ومِن السّكون حركة، ومِن الجماد حياةً وروحًا.

فإذا التراب يتحرك.

وإذا الطين يتكلّم.

وإذا الجماد بشرٌ سويّ، في أجمل صورة وأحسن تقويم.

حقًّا إنها آية...

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فيا عجبًا كيف يُعصَى الإله ... أم كيف يَجْحَده الجاحِد؟

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدًا شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل عَلَى أنه واحد

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣].

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» (١٨٧).

(٣) ذكره ابن سعد في «الطبقات»، وانظر «تفسير القرطبي» (١/ ٢٦٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسَلَامٌ عَلَى عِبادِهِ الذِين اصطفى.

وبعد..

وكان الله - تعالى - قبل أن يخلق آدم ﷺ قَدْ أخبر الملائكة بهذا الخلق.

قَالَ تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهذا استفهامٌ أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم، وهو استفهامٌ خالٍ من الاعتراض، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا، فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

وإنها قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ لأنها رأت ما كان يفعله الجنّ قبل خلق آدم من وجوه الفساد والإفساد، وقد نطق القرآن بأن الجنّ خُلقت قبل آدم، قَالَ تَعَالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

قال ابن عُمر - رَضِي الله عَنهُما -: «كانت الجنّ قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدّماء، فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور».

عباد الله...

وللحديث بقيّة، انتظروها...

«اللهم أرنا الحَقَّ حَقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرِنَا البَاطِل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلتَبِسَا علينا فَنَضِلّ» آمين... آمين... آمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

الخطبة الثانية:

آدمُ عليه السَّلام يَسكُن الجَنَّة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «قصّة آدم عليه السَّلام».

عباد الله..

لَـمَّا خَلق الحقُّ سُبحانَهُ وتَعَالى آدم - كما تقدّم - علَّمه الأسماء كلّها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١- ٣٣].

عن ابن عباس - رَضِيَ الله عَنهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: «هي هَذِهِ الأسماء الَّتِي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذَلِكَ من الأمم وغيرها».

وقال مجاهد: علَّمه اسم كُلّ دابة، وكلّ طير، وكل شيء.

وهذا هو أولى الأقوال بالصواب، ففي حديث الشفاعة الطويل: «...قَالَ: **يَجْمَعُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَمَا تَرَى النَّاسَ؟ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ...**» الحديث.

ثم ماذا؟

بعد هَذَا التكريم المبارك لأبينا آدم، صدر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

واختلف المفسرون في سجود الملائكة لآدم عَلَى أقوال، فقال قوم: كان سجود الملائكة لآدم سجودًا عَلَى حقيقته.

وقال قوم: بل كان السجود لله ﷻ وآدم قِبلة فيه.

وقال آخرون: المراد بالسجود: الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة عَلَى الأرض.

ورجّح الفخر الرازيّ في «تفسيره» القول الأول، وقوّاه وضعّف ما سواه، وأن السجود كان جائزًا للمخلوقين إلى عصر رسول الله ﷺ، وهذا قول الأكثر كما قَالَ الإمام القرطبيّ في «تفسيره» ثُمَّ حُرِّم وقال ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»... الحديث.

قَالَ الإمام القرطبيّ: قلت: وهذا السجود المنهيُّ عنه قَدْ اتخذه جُهَّال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم عَلَى مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد مِنْهُمْ إِذَا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة

منه، ضل سعيهم وخاب عملهم. ا.هـ.

أيّها المسلمون...

لماذا رفض إبليس السجود لآدم؟

كان إبليس من الجنّ بنصّ القرآن ولم يكن من الملائكة طرفة عين، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [ص: ٧٦]، ومعلوم أن الملائكة خلقت من نور، قَالَ ﷺ : «خُلِقَتِ المَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». رواه مسلم. وبدليل أنه عصى ربَّهُ والملائكةَ: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، غير أنه وصل بعبادته إلى مصافّ الملائكة الكرام.

فعن ابن مسعود وغيره: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدُّنيا، فشمله الأمر الإلهي بالسجود... ولكن ما أن صدر الأمر الإلهي بالسجود لآدم حتى امتنع إبليس ورَدّ الأمر عَلَى الآمر سبحانه، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، ورأى أنه خلق من النَّار ولها العلو، وأن آدم خُلق من الطين وله الدنو، ورأى أيضًا أن النَّار أقوى من الطين، فهي تحرقه، وغاب عنه أن النَّار رمز للإحراق والدَّمار بينما الطين رمز للنماء والخير... ومن ثَمَّ قَالَ ما قال، كيف يأمر الله الأقوى بالسجود للأضعف؟! وكيف يأمر الله مَن له العلو بالسجود لمن له الدنو؟! فالقضية معكوسة، وهذا تخيّل إبليس وذلك ظنه الَّذِي ظن بربِّه أرداه وأورده المهالك، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: قاس إبليس وهو أول من قاس.

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير.

قال الحافظ ابن كثير: والقياس إذًا كان مقابلًا بالنَّصِّ كان فاسد الاعتبار.

ولما رفض إبليس السجود، طرده الله من رحمته، ولعنه إلى يوم الدِّين فطلب الإنظار: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤- ١٧]

عباد الله...

والغباءُ والكِبر والحَسَد من أسباب عدم الانصياع للحقّ، وهذا هو الَّذِي وقع فيه إبليس، فأخزاه الله، وأرداه، وجعل النَّار مثواه.

قَالَ الإمام ابن القيّم - رحمه الله -:

«أركانُ الكفر أربعةٌ: الكبرُ والحسدُ والغضبُ والشهوةُ.

فالكبرُ يمنعُهُ الانقياد، والحسدُ يمنعُهُ قبولَ النَّصيحةِ وبذلَها، والغضبُ يمنعُهُ العدلَ، والشهوةُ تمنعُهُ التفرُّغَ للعبادةِ.

ومنشأُ هَذِهِ الأربعةِ من جهلِهِ بنفسِهِ، فإنَّهُ لو عرفَ ربَّه بصفات الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، وعرفَ نفسَه بالنقائصِ والآفاتِ، لم يتكبَّر ولم يغضب لها ولم يحسد أحدًا عَلَى ما آتاه الله. فإنَّ الحسدَ في الحقيقةِ نوعٌ من معاداةِ الله، فإنَّه يكرهُ نعمةَ الله عَلَى عبدِهِ وقد أحبَّها الله، ويحبُّ زوالهَا عنه والله يكرهُ ذلك. فهو مضادٌّ لله في قضائهِ وقدرِهِ ومحبَّتِهِ وكراهته، ولذلك كان إبليسُ عدوَّه حقيقةً لأنَّ ذنبَه كان عن كبرٍ وحسدٍ، فقلعُ هاتين الصِّفَتينِ بمعرفةِ الله وتوحيدِهِ والرِّضا به وعنه والإنابةِ إليه. وقَلعُ الغضبِ بمعرفةِ النَّفسِ وأنَّها لا تستحقُّ أَنْ يغضبَ لها وينتقمَ لها، فإنَّ ذَلِكَ إيثارٌ لها بالرِّضا والغضبِ عَلَى خالقِها وفاطرِها.

وأعظمُ ما تُدفَعَ به هذهِ الآفةُ أَنْ يُعَوِّدَهَا أن تغضبَ له سبحانهَ وترضى له، فكلّما دخلَها شيءٌ من الغضبِ والرِّضا له خَرَجَ منه مقابلُه من الغضبِ والرِّضا لها، وكذا بالعكس.

أمَّا الشهوةُ فدواؤُها صحّةُ العلم والمعرفةِ بأنَّ إعطاءَها شهواتِها أعظمُ أسبابِ حرمانِها إيَّاها ومنعِها منها. وحِميَتُها أعظمُ أسبابِ اتصالِها إليها، فكلَّما فَتَحتَ عليها بابَ الشهواتِ كُنْتَ ساعيًا في حرمانها إيَّاها، وكلَّما أغلقْتَ عنها ذَلِكَ البابَ كُنت ساعيًا في إيصالها إليها عَلَى أكملِ الوجوهِ.

فالغضبُ مثل السَّبُع إذَا أَفلَتَهُ صاحبُه بدأ بأَكلِهِ، والشهوةُ مثلُ النَّار إذَا أضرمَها صاحبُها بدأت بإحراقِهِ، والكِبرُ بمنزلةِ منازعةِ المِلكِ مُلْكَه فإنْ لم يُهلكَكَ

طردَكَ عنه، والحسدُ بمنزلِةِ معاداةِ مَنْ هو أقدرُ منكَ، والذي يغلبُ شهوتَهُ وغضبَهُ يَفْرَق(١) الشَّيطانُ من ظلِّهِ، ومَنْ تغلبُـهُ شَهوتُهُ وغَضبُهُ يَفْرَقُ من خيالِهِ». ا.هـ(٢).

عباد الله...

ومن دلائل قدرة الله تعالى: أن الله خلق «حوَّاء» من ضلع آدم، وسُمِّيت حوَّاء لأنَّها خُلِقَتْ مِن حَيٍّ.

والدليل عَلَى أنها خُلقت من ضلع آدم:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وفي «صحيح البخاري» عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا».

ومن العجيب أن بعض العقلانيين - الذين لا عقل لهم - أنكر خلق حواء من ضلع آدم، بعد هَذَا الوضوح.

فماذا نقول؟

نقول كما قَالَ الشَّاعر:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ... وآفتهُ من الفهم السَّقيمِ

ثم ماذا؟

لَـمَّا سجدت الملائكة لآدم وأبى إبليس، أصدر الله لآدم عليه السلام وزوجه حوَّاء بالسُّكنى في الجَنَّة.

(١) الفرق: الخوف والفزع.
(٢) «مختصر الفوائد» د. أحمد المزيد (٦٦ - ٦٨).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

ونهاهما عن الأكل من شجرة معيّنة.

قَالَ الإمام ابن جرير - رحمه الله تعالى -: «ولا علم عندنا أيّ شجرة كانت عَلَى التعيين، وقد قيل: كانت شجرة البرّ (القمح) وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك إن علمه عالم لم ينفع به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به» ا.هـ[(١)].

وحذّرهما من عداوة الشيطان، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ [طه: ١١٧- ١١٩].

عباد الله...

وهكذا كرَّم الله - تعالى - آدم عليه السلام.

كرَّمه حين خلقه بيده.

وكرَّمه حين نفخ فيه من روحه.

وكرَّمه حين أسجد له الملائكة.

وكرَّمه حين علَّمه الأسماء كلها.

وكرَّمه حين أسكنه وزوجه الجَنَّة.

واختلف العلماء في الجَنَّة الَّتِي أسكنها آدم وأُهبط منها، عَلَى أقوال، سيأتي ذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

❊❊❊

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٢٣٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد..

فمما سبق يتبيّن لنا ما يلي:

أولًا: أن الإنسان أفضل عند الله من الجِنّ، وهذا واضحٌ بَيّن.

ثانيًا: أن الكِبر والغباء والحسد من أسباب الكفر والعصيان والفسوق والطغيان.

ثالثًا: أن الله تعالى شرَّف آدم، وفضلّه عَلَى كثيرٍ مِمَّن خَلق تفضيلًا.

رابعًا: أن في خلق آدم، ومنه زوجه حوَّاء، ردٌّ عَلَى بعض الأغبياء الذين قالوا: إن الإنسان خُلق صدفةً، وكذلك ردّ عَلَى من قالوا: إن الإنسان أصله قرد!!

هذا؛ وللحديث بقيّة إن شاء الله تعالى.

«اللَّهمَّ اجعلنا من أحبِّ خَلْقِك إليك، ومِن المقرَّبين لَدَيْك».

❖❖❖❖❖

الخطبة الثالثة:
الجَنَّةُ الَّتِي أسكنها الله آدم وحواء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة آدم عليه السَّلام.

عباد الله...

قلنا في الخطبة الماضية: إن الله تعالى أسكن آدم عليه السلام وزوجه حوَّاء الجَنَّة.

واختلف النَّاس في الجَنَّة الَّتِي أُسكنها آدم عليه السلام وأُهبط منها:

هل هي جَنَّة الخُلد، أم جَنَّة أخرى غيرها في موضع عالٍ من الأرض؟

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رحمه الله -: «اختلف النَّاس في الجَنَّة الَّتِي أُسكنها آدم

وزوجه عَلَى قولين:

أحدهما: أنها جَنَّة الخُلد.

الثاني: أنها جَنَّة أعدها الله تعالى لهما، وجعلها دار ابتلاء، وليست جَنَّة الخُلد الَّتِي جعلها دار جزاء.

ومن قَالَ بهذا اختلفوا فيه عَلَى قولين:

أحدهما: أنها في السماء.

والثاني: أنها في الأرض.

حُجَج مَنِ اخْتَار أَنَّها جَنَّة الخُلد الَّتِي يدخلها يوم القيامة:

قالوا: قولنا: هَذَا هو الَّذِي فطرَ الله عليه الناسَ صغيرهم وكبيرهم، لم يخطر بقلوبهم سواه، وأكثرُهم لا يعلم في ذَلِكَ نزاعًا.

قالوا: وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي مالك عن أبي حازم عن أبي هريرة وأبي مالك عن ربعي عن حذيفة قالا: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «**يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمْ الجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ...**» الحديث[1].

قالوا: وهذا يدل عَلَى أن الجَنَّة الَّتِي أخرج منها هي بعينها الَّتِي يطلب منه أن يستفتحها.

وفي الصحيحين حديث احتجاج آدم ومُوسَى، وقول مُوسَى: «أخرجتنا ونفسك من الجَنَّة»[2]، ولو كانت في الأرض فهم قَدْ خرجوا من بساتين فلم يخرجوا من الجَنَّة.

وكذلك قول آدم للمؤمنين يوم القيامة: «**وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ**» وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدُّنْيَا.

قالوا: وقد قَالَ تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الـجَنَّةَ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦].

فهذا يدل عَلَى أن هبوطهم كان من الجَنَّة إلى الأرض من وجهين:

أحدهما: من لفظة ﴿اهْبِطُوا﴾ فإنه نزول من عُلو إلى سفل.

والثاني: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عقب قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ فدلّ عَلَى أنّهُمْ لم يكونوا قبل ذَلِكَ في الأرض، ثُمَّ أكَّد هَذَا بقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، ولو كانت الجَنَّة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا: وقد وصف سبحانه جَنَّة آدم بصفات لا تكون إلَّا في جَنَّة الخلد، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، وهذا لا يكون في الدُّنْيَا أصلًا.

حجج الطائفة الَّتِي قالت: ليست جَنَّة الخُلد، وإنَّما هي جَنَّة في الأرض:

قالوا: هَذَا قول تكثر الدلائل الموجبة للقول به فنذكر بعضها:

قالوا: قَدْ أخبر الله سبحانه عَلَى لسان جميع رسله أن جَنَّة الخلد إنَّما يكون الدخول إليها يوم القيامة، ولم يأت زمن دخولها بعد، وقد وصفها الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى لنا في كتابه بصفاتها، ومحال أن يصف الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى شيئًا بصفته ثُمَّ يكون ذَلِكَ الشيء بغير تلك الصفة الَّتِي وصفها.

قالوا: فوجدنا الله تعالى وصف الجَنَّة الَّتِي أعدت للمتقين بأنها ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥]، فمن دخلها أقام بها ولم يقم آدم بالجنة الَّتِي دخلها.

ووصفها بأنَّها ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥]، وآدم لم يخلد فيها.

ووصفها بأنَّها دار ثواب وجزاء، لا دار تكليف وأمر ونهي.

ووصفها بأنّها دار سلامة مطلقة لا دار ابتلاء وامتحان وقد ابتلي فيها آدم بأعظم الابتلاء.

ووصفها بأنَّها دار لا يُعصى الله فيها أبدًا، وقد عصى آدم ربَّه في جنته الَّتِي دخلها.

ووصفها بأنَّها ليست دار خوف ولا حزن، وقد حصل للأبوين فيها من خوف والحزن ما حصل.

وسمَّاها: ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ولم يسلم فيها الأبوان من الفتنة.

وسمَّاها ﴿دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، ولم يستقرا فيها.

وقال في داخليها: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقال: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقد ندّ فيها آدم هاربًا فارًّا، وطفق يخصفُ ورق الجَنَّة عَلَى نفسه، وهذا النصب بعينه.

وأخبر أنه: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقد سمع فيها آدم لغو إبليس وإثمه.

وأخبر أنه: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]، وقد سمع فيها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كذب إبليس.

وقد سمَّاها الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وقد كذب فيها إبليس، وحلف عَلَى كذبه.

وقال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولم يقل: إني جاعل في جنة المأوى، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومحال أن يكون هَذَا في جَنَّة المأوى.

وقد أخبر الله تعالى عن إبليس أَنَّهُ قَالَ لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، فإن كان الله - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - قَدْ أسكن آدم جَنَّة الخلد والملك الَّذِي لا يبلى، فكيف لم يرد عليه ويقول له: كيف تدلني عَلَى شيء أنا فيه وقد أعطيته؟! ولم يكن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى قَدْ أخبر آدم إذ أسكنه الجَنَّة أنه فيها من الخالدين، ولو علم أنها دار الخلد لما ركن إلى قول إبليس ولا مال إلى نصيحته، ولكنه لما كان في غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد.

قالوا: ولو كان آدم أُسكن جَنَّة الخلد وهي دار القُدس الَّتِي لا يسكنها إلا طاهر مقدس، فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم عليه السلام ووسوس له؟

قالوا: ولا نزاع أن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى خلق آدم في الأرض، ولم يذكر في موضع واحد أصلًا أنه نقله إلى السماء بعد ذَلِكَ، ولو كان قَدْ نقله بعد ذَلِكَ إلى السماء لكان هَذَا أولى بالذكر لأنه من أعظم الآيات.

قالوا: وكيف ينقله سبحانه ويسكنه فوق السماء وقد أخبر ملائكته أنه ﴿**جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ وكيف يسكنه دار الخلد الَّتِي من دخلها خلد فيها ولا يخرج منها، قَالَ تعالى: ﴿**وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾ [الحجر: ٤٨].

قالوا: ومِمَّا يدلّ عَلَى أن جَنَّة آدم لم تكن جَنَّة الخُلد الَّتِي وُعد المتقون: أنَّ الله سُبحانَهُ لَـمَّا خلقه أعلمه أن لعمره أجلًا ينتهي إليه، وأنه لم يخلقه للبقاء، كما روى الترمذي في «جامعه» من حديث أبي هريرة، وفيه: «... **هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ أَوْ مِنْ أَضْوَئِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْهُ فِي عُمْرِهِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ**...» الحديث [(١)].

قالوا: ومن المعلوم أن ما فوق السموات ليس بمكان للطين الأرضي المتغير الرائحة الَّذِي قَدْ أنتن من تغيره.

قالوا: وقد قَالَ الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ [هود: ١٠٨]، فأخبر سبحانه أن عطاء جَنَّة الخُلد غير مجذوذ.

قالوا: ولو لم يكن في هَذِهِ المسألة إلَّا أن الجَنَّة ليست دارُ تكليف، وقد كلَّف الله سُبحانَهُ الأبوين بنهيهما عن الأكل مِن الشَّجرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، وهو حديث صحيح.

عباد الله...

وجواب أرباب هَذَا القول لأصحاب القول الأول:

قالوا: أما قولكم: إن قولنا: هو الَّذِي فطر الله عليه عباده بحيث لا يعرفون سواه فالمسألة سمعية لا تعرف إلا بأخبار الرُّسل، ونحن وأنتم إنما تلقينا هَذَا من القرآن لا من المعقول ولا من الفطرة، فالمتّبع فيه ما دلّ عليه كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ونحن نطالبكم بصاحب واحد أو تابع أو أثر صحيح أو حسن بأنها جَنَّة الخلد الَّتِي أعدَّها الله للمؤمنين بعينها، ولن تجدوا إلى ذَلِكَ سبيلا.

وأما استدلالكم بحديث أبي هريرة ﷺ وقول آدم: «**وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ**» فإنما يدلّ عَلَى تأخر آدم الطَّيْلا عن الاستفتاح للخطيئة الَّتِي قَدْ تقدمت منه في دار الدُّنْيَا، وأنه بسبب تلك الخطيئة حصل له الخروج من الجَنَّة كما في اللفظ الآخر: «**إِنِّي نُهيت عن أكل الشَّجرة فأكلتُ مِنها**» فأين في هَذَا ما يدل عَلَى أنها جَنَّة المأوى بمطابقة أو تضمن أو استلزام، وكذلك قول مُوسَى له: «**أخرجتنا ونفسك من الجَنَّة**» فإنه لم يقل له: أخرجتنا من جَنَّة الخُلد.

وأما استدلالكم بقوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا**﴾ [البقرة: ٣٦]، عقيب إخراجهم من الجَنَّة فلفظ «الهبوط» لا يستلزم النزول من السماء إلى الأرض، غايته أن يدل عَلَى النزول من مكان عالٍ إلى أسفل منه.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة: ٣٦]، فهذا لا يدل عَلَى أَنَّهُمْ لم يكونوا قبل ذَلِكَ في الأرض، فإن «الأرض» اسم جنس وكانوا في أعلاها وأطيبها وأفضلها في محل لا يدركهم فيه جوع، ولا عُري ولا ظمأ ولا ضحى، فأُهبطوا إلى أرض يعرض فيها ذَلِكَ كله.

وأما قولكم: إنَّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى وصفها بصفات لا تكون في الدُّنْيَا.

فجوابه: أن تلك الصفات لا تكون في الأرض الَّتِي أهبطوا إليها فمن أين لكم أنها لا تكون في الأرض الَّتِي أهبطوا إليها منها؟.

وأما قولكم: إنَّ آدم الطَّيْلا كان يعلم أن الدُّنْيَا فانية منقضية فلو كانت الجنة فيها لعلم كذب إبليس في قوله: ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ**﴾ [طه: ١٢٠].

فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن اللفظ إنَّما يدلّ عَلَى الخلد وهو أعمّ من الدوام الَّذِي لا انقطاع له، فإنه في اللغة: المكث الطويل.

الوجه الثاني: أن العلم بانقطاع الدُّنْيَا ومجيء الآخِرَة إنَّما يعلم بالوحي، ولم يتقدم لآدم عليه الصلاة والسلام نبوَّة يعلم بها ذلك.

وأما قولكم: إنَّ الجَنَّة وردت معرفة باللام، غير مراد بها جَنَّة الخلد قطعًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الـجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

وأما قولكم: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ضمن لآدم عليه السلام إن تاب أن يعيده إلى الجَنَّة، فلا ريب أن الأمر كذلك ولكن ليس يعلم أن الضمان إنما يتناول عوده إلى تلك الجَنَّة بعينها، بل إذَا أعاده إلى جَنَّة الخلد فقد وَفَّى سبحانه بضمانه حق الوفاء.

أيها المسلمون...

وجواب مَن زعم أنَّها جَنَّة الخُلد عما احتجّ به منازعوهم:

قالوا: أما قولكم: إنَّ الله سبحانه أخبر أن جَنَّة الخلد إنَّما يقع الدخول إليها يوم القيامة ولم يأت زمن دخولها بعد، فهذا حق في الدخول المطلق الَّذِي هو دخول استقرار ودوام، وأما الدخول العارض فيقع قبل يوم القيامة.

وقد دخل النبيُّ ﷺ الجَنَّة ليلةَ الإسراء، وأرواح المؤمنين والشهداء في البرزخ في الجَنَّة وهذا غير الدخول الَّذِي أخبر الله به في يوم القيامة، فدخولُ الخلود إنَّما يكون يوم القيامة، فمن أين لكم أن مطلق الدخول لا يكون في الدُّنْيَا؟! وبهذا خَرَجَ الجواب عن استدلالكم بكونها دار المقامة ودار الخلد.

وأما استدلالُكم بقصةِ وسوسة إبليس له بعد إهباطه وإخراجه من السماء، فلعمرُ الله أنَّه لمن أقوى الأدلة وأظهرها عَلَى صحة قولكم، وتلك التعسُّفات لدخوله الجَنَّة وصعوده إلى السماء بعد إهباط الله له منها لا يرتضيها منصف، ولكن لا يمتنع أن يصعد إلى هنالك صعودًا عارضًا لتمام الابتلاء والامتحان الَّذِي قدره الله تعالى وقدَّر أسبابه.

وإن لم يكن ذَلِكَ المكان مقعدًا له مستقرًّا كما كان، وقد أخبر الله سبحانه عن الشَّياطين أنَّهُمْ كانوا قبل مبعث رسول الله ﷺ يقعدون من السماء ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] ، فيستمعون الشيء من الوحي، وهذا صعود إلى هناك ولكنه صعود عارض لا يستقرون في المكان الَّذِي يصعدون إليه مع قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، فلا تنافي بين هَذَا الصعود وبين الأمر بالهبوط فهذا محتمل، واللَّـهُ أعْلَمُ.

وأما استدلالُكم بأن الله سبحانه أعلم آدم عليه السلام مقدار أجله وما ذكرتم من الحديث وتقرير الدلالة منه.

فجوابه: أن إعلامه بذلك لا ينافي إدخاله جنة الخلد، وإسكانه فيها مدة، وأما إخباره سبحانه أنَّ داخلها لا يموت، وأنَّه لا يخرج منها، فهذا يوم القيامة.

وأمَّا احتجاجكم بكونه خُلق من الأرض، فلا ريب في ذَلِكَ، ولكن من أين لكم أنه كَمُلَ خلقهُ فيها[١].

عباد الله...

ومِمَّا تقدَّم يُعلم: أنَّ الجَنَّة الَّتِي أُسكنها آدم عليه السلام وزوجه هي جَنَّة الخلد، ومال إلى ذَلِكَ أيضًا ابن كثير، وبعده الشيخ ابن العثيمين -رحمهما الله-.

وقد يسأل سائل: ولماذا أطلت النَّفَس في ذِكْرِ هَذَا الخِلاف؟

والجواب: إن تحرير المسائل الخلافية أمر في غاية الأهمية، فهو سببٌ في فضّ النزاع، ورفع الإشكال، وانحسار دائرة الخلاف بين الأمَّة، وهذا يؤدّي في المنتهى إلى جمع كلمتها، وهو من أفضل الأعمال.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم..

❊❊❊

---

(١) «حادي الأرواح» لابن القيم (٢٢ - ٣٩) باختصار شديد.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذِين اصطفى.

وبعد..

وبعد أن أسكن الحقُّ - سُبحانَهُ وتَعَالى - آدم الطَّيْلاً وزوجه حوَّاء الجَنَّة، ونهاهما عن الأكل من الشَّجرة، وحذرهما من كيد إبليس، ماذا حدث؟

بمجرَّد أن استقرَّت قدمُ آدم الطَّيْلاً في الجَنَّة، بدأ الشَّيطان يمارس مهمَّتهُ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]. أي: هل أدلك عَلَى الشَّجرة الَّتِي إذَا أكلت منها حصل لك الخُلد فيما أنت فيه من النعيم، واستمررت في ملك لا يبيد، ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

وأقسم إبليس إنه لهما من الناصحين حتى خدعهما، قَالَ تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وقد يخدع المؤمن بالله، وكان بعض أهل العلم يقول: مَن خدعنا بالله انخدعنا له.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، قَالَ ابن عباس: «غَرَّهما باليمين»، وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذبًا، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما، وفي الحديث الشريف: «الْمُؤْمِنُ غِرٌّ[١] كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خِبٌّ[٢] لَئِيمٌ»[٣].

فَصدَّقَ آدم قوله، وضعفت عندئذٍ نفسه، وقلّ عزمه، ونسي عهد ربه، وأكل من الشجرة ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

وعن أُبي بن كعب قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله خلق آدم رجلًا طوالًا كثير

---

(١) الغر: هو الذي لا يفطن للشر.

(٢) الخب: الخَدَّاع الفاسد.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٩١٢٩).

شعر الرأس كأنه نخلة سحوق[١]، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأوَّل ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجَنَّة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرَّحمن ﷻ: يا آدم... مني تفر؟ فلما سمع كلام الرَّحمن قَالَ: يا ربّ، لا، ولكن استحياءً»[٢].

عباد الله...

هل كانت حَوَّاء السَّبب؟

سنجيب عن هَذَا السؤال في الخطبة التالية، فما زال الحديث موصولًا إن شاء الله تعالى.

«اللَّهمَّ وَفِّقنا لأحسن الأعمال، لا يُوفِّق لأحْسَنِها إلَّا أنت، واصرْف عَنَّا سيِّئها، لا يصرف عَنَّا سيئها إلَّا أنت».

آمين.... آمين... آمين

والحمد لله ربِّ العالمين

۞۞۞۞۞

---

(١) السحوق: الطويلة.

(٢) رواه الحاكم بنحوه، وقال: «صحيح الإسناد» ولم يخرجاه، وقال في «التلخيص»: صحيح.

الخطبة الرابعة:

مداخل الشَّيطان علَى بني الإنسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قِصّة آدم عليه السَّلام.

عباد الله...

هل كانت أُمُّنَا حَوَّاء السَّبب في أكل آدم عليه السلام من الشَّجرة؟

الجواب: لاشك أن حوَّاء شاركت آدم في المعصية، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَـهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الـجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

وقد ورد أن حوّاء هي الَّتِي زين لها إبليس الأكل من الشجرة، ومن ثَمَّ زينت

لآدم المعصية، فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنَّ أُنْثَى زَوْجَهَا**»(١).

قَالَ الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «قوله: «**لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ**» يخنز: ينتن، والخنز: التغير والنتن.

قيل: أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السّلوى وكانوا نُهوا عن ذَلِكَ، فعوقبوا بذلك، حكاه القرطبيّ وغيره عن قتادة.

وقال بعضهم: معناه: لولا أنَّ بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن.

وقوله: «**وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنَّ أُنْثَى زَوْجَهَا**» إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذَلِكَ، فمعنى خيانتها: أنها قبلت ما زيّن لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش - حاشا وكلَّا - ولكن لَـمَّا مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذَلِكَ لآدم عُدَّ ذَلِكَ خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهنَّ بحسبها، وقريب من هَذَا حديث: «**جحد آدم فجحدت ذريته**».

وفي هَذَا الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهنّ الكبرى، وأن ذَلِكَ من طبعهنّ، فلا يفرط الرَّجُلُ في لوم مَن وقع منها شيء من غير قصد إليه أو عَلَى سبيل الندور، وينبغي لهنّ أن لا يتمكنّ بهذا الاسترسال في هَذَا النوع، بل يضبطن أنفسهنّ ويجاهدنّ هواهنَّ، والله المستعان» ا.هـ.

عباد الله...

ومِمَّا يُجدر الإشارة إليه، والتنبيه عليه:

أن استدعاء الخواطر الَّتِي يلقيها الشَّيطانُ في النَّفس، من أخطر الأمور الَّتِي

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٠).

تجرّ إلى المعصية جرًّا، وتدفع إلى المخالفة دفعًا.

لذا ينبغي ردّ هَذِهِ المخاطر، ودفع هَذِهِ الوساوس، وسدُّ الأبواب الَّتِي يدخل منها الشَّيطان عَلَى العبد.

فما هي أبواب المعاصي؟

قَالَ الإمام الهُمام العلَّامة ابن القيّم - رحمه الله تعالى -: «أكثر ما تدخل المعاصي عَلَى العبد من أربعة أبواب: اللّحظات، والخطرات، واللّفظات، والخطوات.

فإن الحوادِث مبدؤُها من النظر، كَما أنَّ مُعظَم النَّارِ مِن مستصْغَرِ الشَّررِ، فتكونُ نظرةٌ ثُمَّ خطرةٌ ثُمَّ خطوةٌ ثُمَّ خطيئةٌ.

ولهذا قيل: مَن حَفظَ هَذِهِ الأربعةَ أحرزَ دِينه: اللحظاتِ، والخطراتِ، واللفظاتِ، والخُطُوات.

فينبغي للعبد أن يكون بوَّاب نفسه عَلَى هَذِهِ الأبواب الأربعة، يُلازِمُ الرِّباطَ عَلَى ثُغورِها، فمنْها يدخُل عليه العدوُّ، فيجوسُ خلالَ الديارِ، ويتّبر مَا عَلا تتبيرا.

فأمّا اللحظاتُ: فهي رائد الشهوةِ ورسولُها، وحفظها أصل حفظِ الفرجِ، فمن أطلقَ بصرَه أورد نفسَه مواردَ الهلكاتِ.

قَالَ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**» فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**» قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «**غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ**» (١).

والنظرُ أصلُ عامَّةِ الحوادِث الَّتِي تُصيبُ الإنسانَ، فإنَّ النظرةَ تُولِّد خطرةً، ثُمَّ تولِّد الخطرةُ فكرةً، ثُمَّ تولِّد الفكرةُ شهوةً، ثُمَّ تولِّد الشهوةُ إرادةً، ثمَّ تقوى فتصير عزيمةً جازمةً، فيقعُ الفعلُ ولابد، ما لم يمنَع مِنه مانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيل: «الصبرُ عَلَى غضِّ البصرِ أيسَرُ مِنَ الصبْرِ عَلَى ألم مَا بَعدَه».

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

قَالَ الشَّاعر:

كُلُّ الحوادثِ مبداها من النَّظرِ ومعظمُ النَّارِ مِن مستَصْغَرِ الشررِ
كم نظرةٍ بلغت من قلبِ صَاحِبها كمبلغِ السَهْمِ بينَ القوسِ والوترِ
والعبدُ ما دام ذا طرفٍ يُقَلِّبهُ في أعينِ الغيد موقوفٌ عَلَى الخطرِ
يسرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَهُ لا مَرحبًا بسُرورٍ عادَ بالضَّررِ

ومِن آفاتِ النَّظرِ: أَنَّهُ يُورث الحسرات والزَّفَراتِ والحرقاتِ، أن تَرى ما لَا صبر لَكَ عَلَى بعضِه، ولا قُدرةَ لَكَ عَلَى بعضِه.

وأمَّا الخطراتُ: فشأنُها أصعبُ؛ فإنَّها مبدأُ الخيرِ والشرِّ، ومنها تتولَّد الإراداتُ والهممُ والعزائمُ، فمن رأى خطراتِه ملك زمامَ نفسه وقهرَ هَواه، ومن غلبته خطراتُه فهواه ونفسهُ له أغلبُ، ومن استهان بالخطراتِ قَادَته قهرًا إلى الهلكاتِ.

ولا تَزالُ الخطراتُ تتردَّد عَلَى القَلْبِ حَتَّى تصير مُنًى باطلةً ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ**﴾ [النور: ٣٩]، وأخسُّ النَّاس همَّةً وأوضعُهم نَفسًا مَنْ رَضِي من الحقائقِ بالأمانيِّ الكاذبةِ، واستجلبهَا لنفسهِ، وتحلَّى بها، وهِي لعمر الله رءوسُ أموالِ المفلسينَ، ومتاجر البطَّالين، وهي قوت النفسِ الفارغةِ التِي قَدْ قنعت من الوصلِ بزورَةِ الخيَالِ، ومِن الحقائق بكواذِب الآمال.

وأمَّا اللفظاتُ: فحفظُها بأن لا يخرج لفظةً ضائعة، بأن لا يتكلمَ إلَّا فيما يرجُو فيه الربحَ والزيادةَ في دينه، فإذا أراد أن يتكلَّم بالكلمةِ نَظَر: هل فيها ربحٌ وفائدةٌ أم لَا؟ فإنْ لم يكن فيها ربحٌ أمسكَ عنها، وإنْ كَانَ فِيها ربحٌ نَظَر: هل تفوتُ بِها كلمةٌ هِي أربحُ مِنها؟ فَلا يضيِّعها بهذِهِ، وإذا أردتَ أن تستدلَّ عَلَى ما في القلبِ فاستدلَّ عليهِ بحركةِ اللِّسانِ، فإنَّه يُطلِعُكَ عَلَى ما في القلبِ، شَاء صاحبهُ أم أبَى.

قال يحيى بنُ مُعاذٍ: القلوبُ كالقُدورِ تَغلي بما فيها، وألسنتُها مغارفُها، فانظُر إلى الرَّجُلِ حينَ يتكلَّمُ، فإنَّ لسانه يغترف لك مما في قلبهِ، حلوٌ وحامضٌ، وعذبٌ وأُجاجٌ، وغيرُ ذَلِكَ، ويبيّن ذَلِكَ طعم قلبه اغترافُ لسانه، أي: كما تطعم بلسانك

طعم ما في القُدورِ مِنَ الطَّعام فتدرك العلمَ بحقيقةِ ذَلِكَ، كذلك تطعَمُ ما في قلبِ الرَّجُلُ من لسانه، فتذُوقُ مَا فِي قلبهِ مِن لسانِهِ، كما تذوقُ ما في القِدر بلسانِكَ.

وسُئِل ﷺ عَنْ أكثَرِ ما يُدخِل النَّاس النَّار؟ فقال: «الفَمُ وَالفَرْجُ»(١).

ومِنَ العَجب أنَّ الإنسانَ يهونُ عليهِ التحفُّظُ والاحترازُ من أكلِ الحَرام والظلْم والزِّنا والسرقة وشُرب الخَمرِ، ومِن النَّظرِ المحرَّم وغير ذَلِكَ، ويصعبُ عليه التحفُّظ مِن حركَةِ لسانِه، حتَّى تَرى الرَّجُلَ يُشارُ إليهِ بالدِّين والزهدِ والعبَادةِ، وهو يتكلَّم بالكلماتِ من سخطِ الله لا يُلقِي لها بَالًا ينزلُ بالكلمةِ الواحِدَةِ منها أبعدَ مِمَّا بيْنَ المشرقِ والمغرِبِ، وكَم تَرى مِنْ رَجلٍ متورِّع عَن الفواحِش والظُّلمِ، ولسانُه يفرِي في أعراضِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا يُبالي مَا يَقُولُ.

وفي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»(٢).

وفي اللِّسَانِ آفتَانِ عظيمتَانِ، إن خلص من إحداهما لم يخلُص مِنَ الأخرَى: آفة الكلام، وآفةُ السكوتِ، وقد يكونُ كُلٌّ منهُما أعظمَ إثمًا مِنَ الأخرى في وقتِها، فالسَّاكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسُ، عاصٍ لله، مُراءٍ مُداهِنٌ إذَا لم يَخف عَلَى نفسِه، والمتكلِّمُ بالباطِلِ شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله.

وأكثرُ الخلقِ منحرفٌ في كلامهِ وسُكوتِه، فهم بينَ هذينِ النوعينِ، وأهلُ الوسَطِ - وهُم أهلُ الصِّرَاطِ المُستَقِيم - كَفُّوا ألسنتَهم عَن البَاطِلِ، وأطلقُوها فِيما يعُودُ عليهِم نفعُه في الآخِرةِ، فَلا تَرى أحدَهُم يتكلَّم بكلِمةٍ تذهبُ عليهِ ضائعةً بلا منفعةٍ، فَضلًا أن تضرَّه في آخرَتِه، وإنَّ العبدَ ليأتي يَوم القِيامة بحسناتٍ أمثَال الجبالِ، فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها عليهِ كُلَّها، ويأتي بسيئاتٍ أمثالِ الجبالِ فيجدُ لسانَه

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وهو حديث صحيح.

(٢) البخاري (٦١١٢)، ومسلم (٢٩٨٨).

قدْ هدمَها مِن كثرةِ ذِكرِ الله ومَا اتَّصلَ به.

وأما الخطُواتِ، فَحفظُها بأن لا ينقِل قدَمَه إلَّا فِيما يرجُو ثوابَه، فإنْ لم يكنْ في خُطاهُ مزيدُ ثوابٍ فالقُعودُ عَنْها خيرٌ له، ويمكنه أن يستخرجَ مِن كُلِّ مباحٍ يخطُو إليهِ قُربة ينويها لله، فتقعُ خُطَاه قربةً». ا.هـ[1].

فكن - أخا الإسلام - بوّاب نفسك عَلَى هَذِهِ الأبواب الأربعة.

ولازم الرِّباط عَلَى ثغورها، حتى لا يدخل إليك منها العدوّ، فيجوسُ خلال الديار، ويتبّر ما علا تتبيرا.

فإذا حفظت هَذِهِ الأبواب الأربعة، يقول ابن القيم - رحمه الله - كما مرّ: «مَن حفظ هَذِهِ الأربعة أحرز دينه».

والله المستعان، وعليه التكلان.

أقول قولي هَذَا، وأستغفر الله لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسَلَامٌ عَلَى عِبادِهِ الذِين اصطفى.

وبعد..

لم يتمتع آدم وحوّاء بالجنَّة طويلًا، يقول ابن عباس ﷺ: «ما أسكن آدم الجنَّة إلَّا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس». رواه الحاكم في «المستدرك» وقال: صحيح الإسناد.

حتى قَالَ الله تعالى لهما: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وهكذا أخرج آدم عليه السلام من الجنَّة بذنبٍ واحد.

وكم من أكلة منعت أخاها ... بلذة ساعة أكلات دهر

---

(١) «مختصر الداء والدواء» د. أحمد المزيد (٦٧ - ٧٠).

وكم من طالب يسعى لشيء ... وفيه هلاكه لو كان يدري

ورحم الله القائل:

بفرد خطيئة وبفرد ذنب ... من الجنَّات أُخرجت البرايا

فكيف وأنت تطمع في دخول ... إليها بالألوف من الخطايا

عباد الله...

وماذا بعد أن أُخرج آدم عليه السلام وزوجه من الجَنَّة؟

هَذَا ما سيأتي ذِكره في الخطبة التالية إن شاء الله تعالى.

اللَّهمَّ أعِنا عَلَى ذِكرِك، وشُكرِك، وحُسنِ عِبادتِك

آمين... آمين... آمين

والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الخامسة:

نتائج المعصية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة آدم عليه السَّلام.

عباد الله...

قَالَ بعض العلماء: لَـمَّا أكل آدم عليه السلام من الشجرة المنهي عنها ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء:

الأولى: معاتبة الله إياهما عَلَى ذَلِكَ بقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

والثانية: الفضيحة، فإنه لَـمَّا أصابا الذنب بدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما ما

كان عليهما من لباس الجَنَّة.

الثالثة: أخرجه من جواره، فلا ينبغي أن يجاوره مَن عصاه، ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ [الأعراف: ٢٤].

الرابعة: الفرقة بينه وبين حوَّاء زمنًا طويلًا، هَذَا بالهند، وهذه بِجَدة، حتى التقيا بعد ذَلِكَ بعرفات[١].

الخامسة: العداوة، كما قَالَ تعالى: ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ [الأعراف: ٢٤].

السادسة: النداء عليه باسم العصيان، ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾ [طه: ١٢١].

السابعة: تسليط العدوّ عَلَى أولاده، وهو قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ...**﴾ [الإسراء: ٦٤].

الثامنة: جعل الدُّنْيَا سجنًا له ولأولاده. قَالَ إبراهيم بن أدهم: لقد أورثتنا تلك الأكلة حزنًا طويلًا.

التاسعة: التعب والشقاء، وذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الـجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ [طه: ١١٧].

العاشرة: أوهن جلده وصيره مظلمًا بعد أن كان جلده كله كالظفر، وأبقى عليه قدرًا يسيرًا عَلَى أنامله ليتذكر بذلك أوَّل حاله.

قَالَ الإمام أبو حيان - رحمه الله تعالى -: «قَالَ ابن عباس وقتادة وابن جبير: كان عليهما - أي عَلَى آدم وحواء - ظفر كاسٍ، فلمَّا أكلا تلبّس عنهما فَبَدَتْ سوآتهما، وبقي منه عَلَى الأصابع قدر ما يتذكّران به المخالفة فيجدان الندم» ا.هـ[٢].

قلت: ولم يحضرني الآن إسناد لهذه الآثار، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

---

(١) جاء ذَلِكَ في بعض الآثار.

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٢٧).

أيها المسلمون...

ومما ينبغي أن يُعلَم: أنَّ الذُّنوبَ والمعَاصِي تَضُر ولابدَّ، وأنَّ ضَرَرَها في القلبِ كضررِ السُّمومِ في الأبدانِ، عَلَى اختلافِ درجاتِها في الضَّرر، وهل في الدُّنيا والآخِرَةِ شرٌّ وداءٌ سببهُ الذُّنوبُ والمعاصِي؟

- فَما الذِي أخرجَ الأبوينِ من الجَنَّة، دارِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ والبهجةِ والسُّرورِ، إلى دارِ الآلامِ والأحزانِ والمصائبِ؟
- ومَا الذِي أخرجَ إبليسَ مِنْ مَلكُوتِ السَّماءِ وطردَهُ ولعنَهُ، ومسَخَ ظَاهِرَهُ وباطَنهُ فجعلَ صورتَهُ أقبَحَ صورةٍ وأشنَعها، وباطنَهُ أقبح مِن صورتِه وأشنعَ.
- ومَا الذِي غرَّقَ أهلَ الأرضِ كُلَّهم حتَّى عَلا الماءُ فوقَ رُءوسِ الجبال؟
- ومَا الذِي سلَّطَ الرِّيحَ عَلَى قومِ عادٍ حَتَّى ألقتهُم موتَى عَلَى وجهِ الأرضِ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خَاويةٍ، ودمَّرت ما مرَّت عليهِ من ديارِهم وحُروثِهم وزروعِهم ودوابِّهم، حتَّى صارُوا عِبرةً للأممِ إلى يومِ القيامة؟
- ومَا الذِي أرسلَ عَلَى قومِ ثمودَ الصَّيحةَ حتَّى قطَّعت قلوبَهم في أجوافِهم، وماتُوا عن آخرِهم؟
- ومَا الذِي رفعَ قرى اللوطيَّة حتَّى سمعتِ الملائكةُ نبيحَ كلابِهم، ثمَّ قلبَها عليهم، فجعلَ عاليَها سافِلَها، فأهلكَهم جميعًا، ثُمَّ أتبَعهم حِجارةً مِنَ السَّماءِ أمطرَها عليهم، فجمعَ عليهم مِنَ العقوبَةِ مَا لَم يجمَعه عَلَى أُمَّةٍ غيرهم، ولإخوانِهم أمثالُها، وما هِيَ مِنَ الظَّالمينَ ببعيدٍ؟
- ومَا الذِي أرسلَ عَلَى قومِ شُعيبٍ سَحابَ العذابِ كالظُّللِ، فلَمَّا صارَ فوقَ رءوسهم أمطرَ عليهم نارًا تَلظَّى؟
- ومَا الذِي أغرَق فِرعَون وقومَه في البحرِ، ثُمَّ نُقِلَت أرواحُهم إلى جهنَّم، فالأجسادُ للغرقِ، والأرواحُ للحرقِ؟
- ومَا الذِي خسفَ بِقَارونَ ودارِه ومالِه وأهلِه؟
- ومَا الذِي أهلك القرونَ مِن بعدِ نوحٍ بأنواعِ العقوباتِ ودمَّرها تدميرًا؟

- ومَا الذِي أهلَك قومَ صاحبِ يس بالصَّيحَةِ حتَّى خمُدوا عن آخرِهم؟
- ومَا الذِي بعثَ عَلَى بني إسرائيل قومًا أولِي بأسٍ شديدٍ، فجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ، وقتلُوا الرِّجالَ، وسبُوا الذريَّة والنِّساء، وأحرقُوا الدِّيار ونهبُوا الأموال، ثُمَّ بعثُهم عليهم مرةً ثانيةً فأهلكُوا ما قدرُوا عَليه وتبَّروا ما عَلَوا تتبيرًا؟
- ومَا الذِي سلَّطَ عليهم أنواع العُقوباتِ، مرةً بالقتلِ والسَّبي وخرابِ البلادِ، ومرَّةً بجورِ الملوكِ، ومرَّةً بمسخِهم قردةً وخنازيرَ، وآخرَ ذَلِكَ أقسمَ الربُّ تباركَ وتَعَالى: ﴿**لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ [الأعراف: ١٦٧]»[(١)].

إنَّها الذنوب - يا عباد الله - فتوبوا إلى ربّكم، واجعلوا هَذِهِ السَّاعة، ساعة توبة وإنابة.

ردّوا المظالم إلى أهلها.

واستقيموا عَلَى الطَّريق.

واعلموا أنَّ البرَّ لا يَبْلَى، وأنَّ الذَّنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت.

قَالَ الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «وهاهُنا نكتةٌ دقيقةٌ يغلطُ فيها النَّاس في أمر الذنب، وهي أنَّهم لا يرونَ تأثيرَهُ في الحالِ، وقد يتأخَّرُ تأثيرُه فيُنْسَى، ويظنُّ العبدُ أنَّه لا يُغَبّر بعد ذَلِكَ، وأنَّ الأمر كما قَالَ القائلُ:

إذا لم يُغَبِّــر حــائطٌ في وُقُــوعِهِ فَلَــيسَ لَــهُ بَعــدَ الوُقُــوعِ غُــبَارُ

وسبحانَ الله! كم أهلكتْ هذهِ النكتةُ مِن الخَلق، وكم أزالت من نعمةٍ، وكم جلبت من نقمةٍ، وما أكثرَ المغترِّينَ بِها ولم يعلم المغترُّ أنَّ الذنبَ ينقُضُ ولو بعدَ حينٍ، كَمَا ينقُضُ السُّمُّ وكما ينقُضُ الجرحُ المندَمِل عَلَى الغِشِّ والدَّغَل[(٢)].

وقال يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيّ: عجبتُ مِن ذِي عقلٍ يقولُ في دُعائهِ: اللَّهمَّ لا

---

(١) «مختصر الداء والدواء» (١٨، ١٩).

(٢) **الدَّغل**: الشجر الملتف الذي مكمن أهل الفساد فيه.

تشمَّت بِي الأعداءَ، ثُمَّ هو يُشمِّتُ بنفسِه كلَّ عدوٍّ له، قيل: وكيفَ ذَلِكَ؟! قَالَ: يَعْصِي الله ويشمتُ به في القيامة كلَّ عدوٍّ». ا.هـ[١].

عباد الله...

وعندما أكل آدم من الشجرة ومعه حوَّاء، أحسَّا بالندم فعادا إلى الله تعالى من قريب، ورحمة الله أوسع من ذنوبنا، ومن دعاء الصالحين: «اللَّهمَّ أدخل عظيم جُرمنا في عظيمِ عفوك»، فهتفا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قَالَ تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. قَالَ مجاهد: هي قوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. ورَجَّح الإمامُ الطبريّ في «تفسيره» قول مجاهد رحمه الله.

إنَّها رحمة الله الواسعة، وفضله العظيم، فالحمد لله الَّذِي شرع لنا التوبة، ووفقنا إليها، وقَبِلَها مِنَّا.

أقول قولي هَذَا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام عَلَى عباده الذين اصطفى.

وبعد...

ونزل آدمُ عليه السلام إلى الأرض يبكي:

عن ابن عباس قَالَ: «نزل آدم بالحجر - أي الحجر الأسود - يمسح به دموعه حين أهبط من الجَنَّة ولم ترقأ عين آدم حين خَرَجَ من الجَنَّة حتى رجع إليها». رواه البيهقي وإسناده صحيح.

وعن الوضين بن عطاء قَالَ: «يذكر أن آدم قَالَ: كنا نسلًا من نسل الجَنَّة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى الأرض، فلا ينبغي لنا الفرح في الدُّنْيَا ولكن الحزن والبكاء ما

---

(١) «مختصر الداء والدواء» ص٢١.

دمنا في دار السباء حتى نردّ إلى الدّار الَّتِي سبينا منها».

يـا ناظـرًا يـرنو بعـيني راقـد ومـشاهد الأيـام غـير مـشاهد
منـتك نفـسك وصـلة فأبحـتها سـبل الـرجاء وهـنَّ غـير قواصـد
تـصل الذنـوب إلى الذنـوب وترتجي درج الجِـنان بهـا وفـوز العابـد
ونـسيت أن الله أخـرج آدمًـا مـنها إلى الدُّنْـيَا بـذنب واحـد

حقًّا، إنه درس عظيم ﴿لِمَن كَانَ لَـهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فهل استفاد النَّاس؟

الحق، كلَّا، لقد وقع أكثرهم فريسةً للشيطان ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، رغم التحذير الإلهي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الـجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أيها المسلمون...

وقد يسأل سائل: ما الفرق بين معصية آدم، ومعصية إبليس؟

إبليس لَـمَّا عصى، كفر، وطُرد ولُعن.

أمَّا آدم لَـمَّا عصى تاب، واستغفر فتاب الله عليه.

فما الفرق بين المعصيتين؟

يجيب عن هَذَا السؤال عبد الله بن عباس - حبر الأمّة - ﷺ وعن أبيه - فيقول: «إذا كانت خطيئة الرَّجُل في كِبْر فلا تَرجُه، وإن كانت خطيئته في معصية فارْجُه، وكانت خطيئة آدم ﷺ معصية، وخطيئة إبليس كِبرًا».

قلت: فكفر إبليس كان كفر إباء واستكبار.

نعوذ بالله من سوء المصير وعذاب السعير.

آمين... آمين... آمين.

الخطبة السادسة:

[١] حِكَمُ نزول آدم عليه السلام من الجنَّة إلى الأرض

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصَّة آدم عليه السَّلام.

عباد الله...

قد يسأل سائل: لماذا أهبط الله -سبحانه- آدم من الجَنَّة إلى الأرض؟

يجيب عن هَذَا السؤال: الإمام ابن القيّم - رحمه الله تعالى - فيقول:

«إنَّ الله سبحانهُ لما أُهبَطَ آدم أبا البَشرِ مِن الجنَّة لما له في ذَلِكَ من الحِكَمِ التَّي تعجزُ العقولُ عن مَعرفَتها، والألسُنُ عن صفَتها.

فكَانَ إهباطُهُ منها عَينَ كمالِهِ، ليَعودَ إليها عَلَى أحسَنِ أحوالِهِ، فأرادَ سبحانَهُ

أن يُذيقَهُ وَوَلدَهُ مِن نَصَبِ الدُّنيا وغُمومِها وهمومِها وأوصابِها ما يَعظُم به عندَهُم مقدارُ دخولِهِم إليها في الدَّار الآخِرَةِ؛ فإنَّ الضدَّ يُظهرُ حُسنَهُ الضدُّ، ولو تَرَبُّوا في دارِ النَّعيم لم يَعرِفوا قَدْرها.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ أرادَ أمرَهُم ونَهيَهُم وابتلاءَهُم واختبارَهُم وليسَت الجنَّة دارَ تكليفٍ، فأهبَطَهُم إلى الأرض وعَرَّضَهُم بذلك لأفضَلَ الثَّواب الَّذِي لم يَكُن ليُنَالَ بدونِ الأمرِ والنَّهي.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ أرادَ أن يَتَّخِذَ مِنْهُمْ أنبياءَ ورُسلًا وأولياءَ وشُهداءَ يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ، فَخلَّى بينهُم وبَيْنَ أعدائِهِ، وامتَحَنَهُم بهم، فلما آثَروه وبَذلوا نُفُوسَهُم وأموالَهُم في مَرضاتِهِ ومحابِّه؛ نالوا مِن مَحبَّته روضوانِهِ والقُربِ منه ما لم يكن ليُنالَ بدونِ ذَلِكَ أصلًا؛ فَدَرجةُ الرِّسالةِ والنبوَّةِ والشهادَةِ والحُبِّ فيه والبُغض فيه وَموالاةِ أوليائه ومُعاداةِ أعدائه عنده مِن أفضَلِ الدَّرَجات، ولم يَكُن ينالُ هَذَا إلَّا عَلَى الوجه الَّذِي قَدَّرَهُ وقضاه مِن إهباطِهِ إلى الأرضِ، وجَعْلِ مَعيشته ومَعيشة أولادهِ فيها.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ له الأسماءُ الحُسنى، فَمِن أسمائِهِ: الغَفورُ، الرَّحيمُ، العَفُوُّ، الحَليمُ، الخافِضُ، الرَّافعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، المُحيي، المُميتُ، الوارِثُ، الصَّبورُ، ولا بُدَّ مِن ظهورِ آثارِ هَذِهِ الأسماءِ، فاقتَضَت حكمتُهُ سُبحَانَهُ أن يُنزِلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ دارًا يَظهرُ عليهم فيها أثرُ أسمائِهِ، فَيغفرُ فيها لِمَن يشاءُ، ويَرحَمُ مَن يشاءُ، ويَخفضُ مَن يشاءُ، ويَرفعُ مَن يشاءُ، ويُعزُّ مَنْ يشاءُ، ويُذِلُّ مَن يشاءُ، ويَنتقِم مِمَّن يَشاءُ، ويُعطى ويَمنَعُ وَيَبسُطُ، إلى غَير ذَلِكَ مِن ظهورِ أثر أسمائه وصفاتِهِ.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ، والمَلكُ هو الَّذِي يأمُرُ ويَنْهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ، ويُهينُ ويُكرِمُ، وَيعِزُّ وَيَذِلُّ، فاقتضى مُلكُهُ سُبحَانَهُ أن أنزل آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ دارًا تجرى عليهم فيها أحكامُ الملك، ثُمَّ ينقُلُهُم إلى دارٍ يتمُّ عليهم فيها ذلك.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ أنزَلَهُم إلى دارِ يَكونُ إيمانُهُم فيها بالغَيبِ والإيمانُ النَّافِعُ، وأمَّا الإيمانُ بالشهادةِ فكلُّ أحدٍ يؤمِنُ يومَ القيامَةِ يَومَ لا يَنفعُ نفسًا إلَّا إيمانُها في الدُّنيا، فلو خُلقوا في دارِ النَّعيم لَم ينالوا درجةَ الإيمانِ بالغَيبِ، واللَّذَّةُ والكرامةُ

الحاصلةُ بذلك لا تَحصُلُ بدونهِ، بل كان الحاصِلُ لَهُم في دارِ النَّعيم لذَّةً وكرامةً غَيرَ هذه.

وأيضًا فإنَّ الله سُبحَانَهُ خَلَقَ آدَمَ مِن قَبضةٍ قَبَضها مِن جَميعِ الأرضِ، والأرضُ فيها الطيِّبُ والخَبيثُ، والسَّهلُ والحَزْنُ[1]، والكريمُ واللئيمُ، فعَلِمَ سُبحَانَهُ أنَّ في ظَهرِهِ مَن لا يَصلُحُ لمُساكنَتِهِ في دارهِ، فأنزَلَهُ إلى دارٍ استَخرَجَ فيها الطيِّبَ والخَبيثَ من صُلبِهِ، ثُمَّ مَيَّزهُم سُبحَانَهُ بدارَين فَجَعلَ الطيِّبِينَ أهلَ جِوارهِ ومُساكنَتِهِ في دارِهِ، وَجَعلَ الخَبيثَ أهلَ دارِ الشقاءِ دارِ الخُبثاء، قَالَ الله تعالى: ﴿**لِيَمِيزَ اللَّـهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٧].

فلما علم سُبحَانَهُ أن في ذُرِّيَّته مَن لَيسَ بأهلٍ لِمُجاوَرَتِهِ أنزلَهُم دارًا استَخرَجَ منها أولئكَ وألحَقَّهُم بالدَّارِ الَّتِي هم لها أَهلٌ حكمةً بالغةً وَمشيئةً نافذَةً ذَلِكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليمَ.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ لما قَالَ للملائكةِ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾، أجابهُم بقوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، ثُمَّ أظهر سُبحَانَهُ علمَهُ لِعبادِهِ ولملائكتِهِ بما جَعَلَهُ في الأرضِ من خَواصِّ خَلقِهِ ورُسُلهِ وأنبيائهِ وأوليائهِ، ومَن يَتَقرَّبُ إليه ويَبذُلُ نَفسهُ في مَحَبَّتِهِ وَمَرضاتِهِ مَعَ مُجاهدَةِ شَهوتِهِ وهَواهُ، فيتركُ مَحبوباتِهِ تَقَرُّبًا إليَّ، وَيَترُكُ شَهواتِهِ ابتغاءَ مَرضاتِي، وَيَبذُلُ دَمَهُ وَنَفسَهُ في مَحبَّتي، وأُخُصُّهُ بِعِلمٍ لا تَعلمونَهُ، يُسَبِّحُ بِحمدي آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، وَيَعبدني مَعَ مُعارَضاتِ الهَوى والشهوةِ والنَّفسِ والعَدوِّ إذ تَعبُدوني أنتُم مِن غَيرِ مُعارضٍ يُعارِضُكُم ولا شَهوَةٍ تَعتَريكُم، ولا عَدوٌّ أُسلِّطُهُ عَلَيكُم بل عِبادَتُكُم لي بِمَنزلَةِ النَّفَسِ لأحدِهِم.

وأيضًا فإنِّي أُريدُ أن اظهرَ ما خَفى عليكُم من شأن عَدوِّي وَمُحارَبتهِ لي وَتَكبُّره

(١) أي: المكان الغليظ، وهو الخشن.

عَن أمري وَسَعيِهِ فِي خلافِ مَرضاتي.

وهذا وهذا كانا كامنَيْنِ مُستَترينِ في أبي البَشر وأبي الجِنِّ فأَنزَلَهُم دارًا أظهَرَ فيها ما كانَ الله سُبحَانَهُ مُنفَردًا بعلمِهِ لا يَعلَمُهُ سواهُ، وظَهرَت حِكمَتُهُ وتَمَّ أمرُهُ وبَدَا للملائكَةِ مِن علمِهِ مَا لَم يَكونوا يَعلَمون.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ لما كانَ يُحبُّ الصَّابِرينَ، ويُحبُّ المُحسنين، ويُحبُّ الذينَ يُقاتلونَ في سبيله صفًّا، ويُحبُّ التَوَّابين، ويُحبُّ المُتَطَهِّرينَ، ويُحبُّ الشاكرينَ، وكانت مَحبَّتُهُ أعلى أنواعِ الكرامات، اقتضتِ حكمتُهُ أن يُسكِنَ آدمَ وَبَنيهِ دارًا يأتونَ فيها بهذه الصِّفاتِ الَّتِي ينالون بها أعلى الكرامات من مَحَبَّته فكان إنزالهُم إلى الأرضِ من أعظَمِ النِّعَم عليهم، ﴿وَاللَّـهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ أرادَ أن يَتَّخِذَ مِن آدَمَ ذُرِّيَّةً يواليهم ويودُّهم ويُحبُّهم ويُحبُّونَهَ، فَمَحَبَّتُهُ لَهُم هي غايةُ كمالهم ونهايةُ شَرَفهم، وَلَم يمكُن تَحقيق هَذِهِ المرتَبَةَ السَّنيَّةَ إلَّا بمُوافقة رِضاهُ واتِّباعِ أمرِهِ، وَتَركِ إراداتِ النَّفسِ وشهواتِها الَّتِي يكرَهُها مَحبوبُهُم، فأنزلَهُم دارًا أمرَهُم فيها ونَهاهُم؛ فقاموا بأمرِهِ وَنَهيِهِ، فَنَالوا دَرَجةَ مَحَبَّتِهِم له، فأنالهُم دَرَجَةَ حُبِّه إيَّاهُم، وهَذَا مِن تَمامِ حِكمَتِهِ وكمالِ رَحمَتِهِ وَهُوَ البرُّ الرَّحيم.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ لما خَلَقَ خَلْقَهُ أطوارًا وأصنافًا وسَبَقَ في حُكمِهِ تَفضيلُهُ آدَمَ وَبَنيهِ عَلَى كثيرٍ من مَخلوقاتِهِ جَعَلَ عُبوديَّتَهُ أفضَلَ دَرَجاتِهم - أعنى العُبوديَّةَ الاختياريَّة الَّتِي يأتونَ بها طوعًا واختيارًا لا كُرهًا واضطرارًا.

وقد ثَبَتَ أنَّ الله سُبحَانَهُ أرسَلَ جبريلَ إلى النَّبيِّ ﷺ يُخيِّرُهُ بَيْنَ أن يَكونُ مَلِكًا نَبيًّا أو عبدًا نَبيًّا، فَنَظَرَ إلى جِبريلَ كالمستشيرِ له، فأشارَ إليه أن تواضَع، فقال: «**بَل أن أكونَ عبدًا نَبيًّا**»[(١)].

وذَكَرَهُ سُبحَانَهُ باسم عُبوديَّتِهِ في أشرفِ مقاماتِهِ، في مقامِ الإسراءِ، ومقامِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، والبزار (٢٤٦٢)، وغيرهما، وهو حديث ثابت.

الدَّعوة، ومقامِ التَّحدِّي، فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]. ولم يَقُل: «بِرَسولِهِ»، ولا «نَبيِّهِ» إشارةً إلى أَنَّهُ نَالَ هَذَا المقَامَ الأعظَمَ بكَمالِ عُبوديَّتِهِ لربِّهِ.

وفي الصحيحين في حَديث الشفاعةِ وَتَراجُعِ الأنبياءِ فيها، وقولِ المسيح ﷺ: «اذهَبوا إلى مُحمَّدٍ، عَبدٍ غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ وَمَا تَأَخَّر» فدلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ نالَ ذَلِكَ المقامَ الأعظَمَ بِكمالِ عُبوديَّتِهِ لله، وكمالِ مَغفرَةِ الله له.

وإذا كانت العُبوديَّةُ عند الله بهذه المنزلةِ اقتَضَت حِكمَتُهُ أن أسكَنَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَه دارًا ينالون فيها هَذِهِ الدرَجة بكمالِ طاعَتِهم لله، وتَقَرُّبهم إليه بِمحابِّهِ وَتَركِ مألوفاتِهِم من أجلِهِ، فكانَ ذَلِكَ من تَمامِ نِعمَتِهِ عَلَيهم وإحسانِهِ إليهم.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ أرادَ أن يُعَرِّفَ عِبادَهُ الذينَ أنعَمَ عَلَيهم تمامَ نعمَتِهِ عَليهم، وقَدرَها ليكونوا أعظَمَ محبَّةً، وأكثرَ شكرًا، وأعظَمَ التِذاذًا بما أعطاهُم مِن النَّعيم، فأراهُم سُبحَانَهُ فِعلَهُ بأعدائِهِ، وما أعدَّ لَهُم مِن العَذابِ وأنواعِ الآلام، وأشهَدَهُم تخليصَهُم من ذلك، وتَخصيصَهُم بأعلى انواعِ النَّعيم ليَزدادَ سُرورُهُم وَتكمُلَ غِبطَتُهُم، ويَعظُمَ فَرَحُهُم وتَتِمَّ لَذَّتُهُم، وكانَ ذَلِكَ مِن إتمام الإنعامِ عليهم وَمحبَّتِهم.

ولم يَكُن بُدٌّ في ذَلِكَ من إنزالِهِم إلى الأرضِ، وامتحانِهِم، واختبارِهِم، وتَوفيقِ مَن شاءَ منهُم، رَحمةً منهُ وَفَضلًا، وخِذلانِ مَن شاءَ منهُم، حكمَةً منهُ وَعَدلًا، وَهُوَ العليمُ الحَكيم.

ولا رَيبَ أنَّ المُؤمنَ إذَا رأى عَدو مَحبوبِهِ الَّذِي هو أحبُّ الأشياءِ إليه في أنواع العذابِ والآلام، وهو يَتَقلَّبُ في أنواعِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ، ازدادَ بذلك سرورًا وعَظُمتَ لَذَّتُهُ، وكَمُلَت نِعمتُهُ.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ إنَّما خَلقَ الخَلْقَ لِعبادَتِهِ، وَهِي الغايةُ مِنْهُمْ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَمَعلومٌ أنَّ كمالَ العُبوديَّةِ المَطلوبَ مِن الخَلقِ لا يَحصُلُ في دارِ النَّعيمِ والبَقاءِ،

إنَّما يَحصُلُ في دارِ المحنةِ والابتلاءِ، وأمَّا دارُ البقاءِ فدارُ لَذذَةٍ وَنَعيمٍ لا دَارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ وَتَكليفٍ.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ اقتَضَت حِكمتُهُ خَلْقَ آدَمَ وذُرّيّتَه مِن تَركيبٍ مستَلزِمٍ لِداعي الشهوةِ والفتنة، وداعي العَقلِ والعلمِ، فإنَّهُ سُبحَانَهُ خَلَقَ فيهِ العَقلَ والشهوةَ ونَصَّبَهُما داعيين بمُقتضياتِهما، لِيتمَّ مُرادَهُ، ويُظهرَ لِعبادِهِ عِزَّتَهُ في حكمَتهِ وجَبَروتِهِ، ورَحمَتَهُ وبرَّهُ ولُطفَهُ في سُلطانِهِ ومُلكِهِ، فاقتَضَت حكمتُهُ ورحمتُهُ أن أذاقَ أباهُم وَبِيلَ مُخالَفَتهِ، وعَرَّفَهُم مَا يَجنى عَواقِبَ إجابةِ الشَّهوةِ والهوى، ليكونِ أعظَمَ حَذَرًا فيها وأشدَّ هروبًا، وهذا كحالِ رَجُلٍ سائرٍ عَلَى طَرِيقٍ قَد كَمُنَت الأعداءُ في جَنَباتِهِ وَخَلفِه وأمامِهِ وهو لا يَشعُرُ، فإذا أصيبَ منها مَرَّةً بمُصيبةٍ استَعَدَّ في سيرِهِ، وأخَذَ أُهبةَ عَدوِّه، وأعَدَّ لَهُ مَا يَدفَعُهُ، ولولا أنَّهُ ذاقَ أَلَمَ إغارَةِ عَدوِّهِ عليهِ وتَبييتِهِ لَهُ لما سَمَحَت نَفسُهُ بالاستِعدادِ والحَذَرِ وأخذِ العُدَّةِ.

فَمِن تمامِ نِعمَةِ الله عَلَى آدَمَ وذُرّيّتَه: أن أراهُم مَا فَعَلَ العدوُّ بهم، فَاستعدُّوا لَهُ وأخَذوا أُهبتَهُ.

فإنَ قِيلَ: كَانَ مِن المُمكن أنْ لا يُسلِّطَ عَليهم العَدوّ؟

قيل: قَدْ تَقدَّم أنَّهُ سُبحَانَهُ خَلَقَ آدَمَ وذُرّيّتَه عَلَى بُنيةٍ وتَركيبٍ مُستَلزِمٍ لِمُخالَطَتِهم لعَدوِّهِم وابتلائِهم به، وَلَو شَاءَ لَخَلقَهُم كَالملائكةِ الذينَ هم عقولٌ بلا شهواتٍ، فلم يكن لعَدوِّهِم طريقٌ إليهم، ولكن لو خُلِقوا هكذا لكانوا خَلقًا آخَرَ غَيرَ بَني آدَمَ، فإنَّ بنى آدَمَ قَدْ رُكِّبوا عَلَى العِقلِ والشَّهوةِ.

وأيضًا فإنَّهُ لما كانت محبة الله وحَدهُ هي غايةُ كمالِ العَبدِ وسَعادَتِهِ الَّتِي لَا كمالَ له ولا سَعادَةَ بدونها أصلًا، وكانت المحبَّةُ الصَّادِقَةُ إنَّما تتحقَّقُ بإيثارِ المحبوبِ عَلَى غَيرِهِ مِن محبوبات النُّفوس واحتمال أعظَمِ المشاقِّ في طاعَتِهِ ومَرضاتِهِ - فَبِهَذا تَتحقَّق المحبَّةُ ويُعلَمُ ثُبوتُها في القَلبِ - اقتَضَت حكمتُهُ سُبحَانَهُ إخراجَهُم إلى هَذِهِ الدَّار المحفوفةِ بِالشهواتِ ومحابِّ النُّفوسِ الَّتِي بإيثارِ الحَقِّ عليها والإعراضِ عنها يتحقَّقُ حبُّهُم له وإيثارُهُم إيَّاهُ عَلَى غيرهِ، وذَلكَ بِتحمُّلِ المشاقِّ الشديدةِ، ورُكوبِ

الأخطارِ، واحتمالِ الملامةِ، والصَّبرِ عَلَى دواعي الغيِّ والضَّلالِ ومُجاهدَتِها يَقوى سُلطانُ المحبَّةِ وتَثْبت شَجَرتَها في القَلبِ، وتطعمُ ثمرتُها عَلَى الجوارح، فإنَّ المحبَّةَ الثَّابتَةَ اللازمةَ عَلَى كثرةِ الموانعِ والعَوارِضِ والصَّوارِفِ هي المحبَّةُ الحَقيقيَّةُ النَّافعةُ، وأمَّا المحبَّة المشروطةُ بِالعافيةِ والنَّعيمِ واللَّذةِ وحُصولِ مُرادِ المُحبّ مِن محبوبِه، فليسَت محبَّةً صادقَةً، وَلا ثباتَ لها عند المُعارَضاتِ والموانِعِ، فإنَّ المُعلَّقَ عَلَى الشرطِ عَدمٌ عِندَ عَدمِهِ، ومَن وَدَّكَ لأمرٍ وَلَّي عِندَ انقضائه، وَفَرقٌ بَيْنَ مَن يَعبُدُ الله عَلَى السرَّاءِ والرَّخاءِ والعافيةِ فَقَط، وبَيْنَ مَنْ يَعبُدُهُ عَلَى السرَّاءِ والضرَّاءِ والشدَّةِ والرَّخاءِ والعافيةِ والبلاءِ.

وأيضًا فإن الله سُبحَانَهُ له الحَمدُ المُطلَقُ الكاملُ الَّذِي لا نهايةَ بَعدهُ، وكانَ ظهورُ الأسبابِ الَّتِي يُحمَدُ عَليها مِن مُقتَضى كونِهِ محمودًا، وهي من لوازِمِ حَمدِهِ تعالى، وهي نوعان: فَضلٌ، وَعَدلٌ، إذ هو سُبحَانَهُ المحمودُ عَلَى هذا، وعلى هذا، فلا بُدَّ من ظهورِ أسبابِ العَدلِ واقتضائها لُمسمَّياتِها، ليَترتَّب عليها كمالُ الحمدِ الَّذِي هو أَهلُهُ، فكما أَنَّهُ سُبحَانَهُ محمودٌ عَلَى إحسانِهِ وَبرّهِ وفَضلِهِ وثوابِهِ، فهو محمودٌ عَلَى عَدلِهِ وانتقامِهِ وَعقابِهِ، إذ مَصدرُ ذَلِكَ كلهِ عن عزَّتِهِ وحكمَتِهِ.

ولهذا نَبَّهَ سُبحَانَهُ عَلَى هَذَا كثيرًا كما في سورة الشعراء حيثُ يَذكُرُ في آخرِ كلِّ قصَّةٍ من قَصَص الرُّسُل وأممِهِم: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَـهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ [الشعراء: ٨، ٩].

فأخبَرَ سُبحَانَهُ أنَّ ذَلِكَ صادِرٌ عن عزَّتِهِ المتضمِّنةِ كمالَ قُدرَتِهِ، وحكمَتِهِ المتضمِّنَةِ كمالَ علمهِ ووضعَهُ الأشياءَ مواضِعَها اللائقةَ بها، ما وَضَعَ نعمَتَهُ ونجاتَهُ لِرُسِلِهِ ولاتباعِهِم ونقمتَهُ وإهلاكَهُ لأعدائهم إلَّا في محلِّها اللائقِ بها لكمالِ عِزَّتِهِ وحكمَتِهِ، ولهذا قالَ سُبحانَهُ عَقيبَ إخبارِهِ عَن قَضائهِ بينَ أهلِ السَّعادَةِ والشقاوةِ ومَصيرِ كلٍّ منهُم إلى ديارِهم الَّتِي لا يَليقُ بهم ولا بِغيرِهِم ولا تَقتضى حكمتُهُ سواها ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْـحَقِّ وَقِيلَ الـحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الزمر: ٧٥]»[١].

---

(١) «تنقيح الإفادة من مفتاح دار السعادة» للشيخ سليم الهلالي (٢٣ - ٣٣).

عباد الله...

هذه بَعْضُ حِكَمِ نزول آدم عليه السَّلام من الجَنَّة إلى الأرض.

أقول قولي هَذَا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام عَلَى عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فقد تقدَّم طرف «مهم» من حِكَم نزول آدم ﷺ من الجَنَّة إلى الأرض، استخرجها لنا الإمام ابن القيّم - رحمه الله - وهي دليل عَلَى سعة علمه، ورسوخ قدمه، وكما قيل: «الحكمة كالجواهر في الصّدف في قعور البحار، فلا تُنال إلّا بالغوَّاصين الحُذّاق».

وفي الخطبة التالية - إن شاء الله تعالى - نواصل الحديث عمّا تبقى مِن حِكَم.

«اللَّهمَّ ثَبِّتنا عَلَى هُدَاك حتى نَلْقَاك».

آمين... آمين... آمين

والحمد لله رب العالمين

۞۞۞۞۞

الخطبة السَّابعة:

[٢] حِكَم نزولِ آدم ﷺ من الجَنَّة إلى الأرض

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة آدم عليه السَّلام.

عباد الله...

تكلمنا في الخطبة الماضية عن طرفٍ من حِكَم نزول آدم ﷺ من الجَنَّة إلى الأرض.

ونواصل اليوم إن شاء الله تعالى الحديث عمَّا تبقى من الحِكَم، والله الموفق لـمَا يُحب ويرضى.

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رحمه الله -: «وأيضًا[1] فإِنَّهُ سُبحَانَهُ اقتضَت حكمَتُهُ وحَمدُهُ أن فاوَتَ بَيْنَ عِبَادِهِ أعظَمَ تفاوُتٍ وأبينَهُ؛ ليَشكُرهُ مَن ظَهَرت عليه نعمتُهُ وفَضلُهُ، ويَعرِفَ أنَّهُ قَدْ حُبِيَ بالأنعام، وخُصَّ دونَ غَيرِهِ بالإكرام، ولَو تساوَوا جَميعُهُم في النِّعمَةِ والعافيَةِ لم يَعرف صاحبُ النِّعمَةِ قَدرَها، ولَم يَبذُلْ شُكرَها، إذ لا يَرى أحدًا إلَّا في مثل حالِهِ.

ومِن أقوى أسبابِ الشكرِ وأعظَمِها استِخرجًا له من العَبدِ أن يَرى غَيرَهُ في ضدِّ حالِهِ الَّذِي هو عليها مِن الكمالِ والفَلاحِ.

فاقتضَت محبَّتُهُ سُبحَانَهُ لأنَّ يُشكرَ خَلقَ الأسبابِ الَّتِي يكونُ شُكرُ الشاكِرينَ عندها أعظَمَ وأكمَلَ، وهذا هو عَيْنُ الحكمةِ الصَّادِرَةِ عَن صفَةِ الحَمد.

وأيضًا فإِنَّهُ سُبحَانَهُ لا شيءَ أحبُّ إليه من العَبدِ مِن تَذلُّلِهِ بَيْنَ يَدَيهِ وخُضوعِهِ وافتِقارِهِ وإنكسارِهِ وتَضرُّعِهِ إليه.

ومَعلومٌ أن هَذَا المَطلوبَ مِن العَبدِ إنَّما يتم بأسبابه الَّتِي تتوقف عليها، وحصول هَذِهِ الأسباب في دارِ النَّعيمِ المُطلَقِ والعافِيَةِ الكاملِةِ يَمتَنعُ، إذ هو مُستَلزِمٌ للجَمع بَيْنَ الضدَّين.

وأيضًا فإِنَّهُ سُبحَانَهُ له الخَلقُ والأمرُ، والأمرُ هو شَرعُهُ وأمرُهُ ودينُهُ الَّذِي بَعثَ به رَسُلَهُ وأنزلَ به كتُبَهُ، وَليسَت الجَنَّة دارَ تكليفٍ تجرى عليهم فيها أحكامُ التَّكليفِ ولوازِمُها، وإنَّما هي دارُ نَعيمٍ وَلذَّةٍ، فَاقتضَت حكمَتُهُ سُبحَانَهُ استخراجَ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ إلِى دارٍ تجرى عَليهم فيها أحكامُ دينِهِ وأمرِهِ، ليظهَرَ فيهم مُقتَضى الأمر ولوازِمهُ، فإنَّ الله سُبحَانَهُ كما أنَّ أفعالَهُ وخَلقَهُ من لوازِمِ كمالِ أسمائِهِ الحُسنى وصفاتِهِ العُلى، فكذلكَ أمرُهُ وشَرعُهُ، وما يَترَتَّبُ عليهِ من الثَّوابِ والعِقابِ.

وقَدْ أرشد سُبحَانَهُ إلى هَذَا المَعنى في غَيرِ مَوضعٍ من كتابِهِ، فقال تَعَالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. أي: مهملًا معطلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى ولا يُثابُ ولا يُعاقَب.

---

(١) يعني: من حِكَم نزول آدم من الجَنَّة إلى الأرض.

وهذا يَدُلُّ عَلَى أنَّ هَذَا مُنافٍ لكمالِ حكمَتِهِ، وأنَّ ربوبيَّتَهُ وعِزَّتَهُ وحكمَتَهُ تأبى ذلك، ولهذا أخرَجَ الكلامَ مخرَجَ الإنكارِ عَلَى مَن زَعَمَ ذلك، وهو يدلُّ عَلَى أنَّ حُسنَهُ مستَقرٌّ في الفِطَرِ والعُقولِ، وقُبحَ تَركِهِ سُدًى معطَّلًا أيضًا مستَقرٌّ في الفِطَرِ، فكيفَ يُنسبُ إلى الرَّبِّ ما قُبحُهُ مستَقرٌّ في فِطَركُم وعُقولِكُم؟!

وقال تَعَالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، نَزَّه نَفسَهُ سُبحَانَهُ عَن هَذَا الحُسبانِ الباطلِ المُضادِّ لمُوجِبِ أسمائِه وصِفاتِهِ، وأنَّهُ لا يَليقُ بجلالِهِ نِسبتُهُ إليه. ونظائر هَذَا في القُرآنِ كثيرةٌ.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ يُحبُّ من عِبَادِهِ أمورًا يَتوقَّف حصولُها مِنْهُمْ عَلَى حصولِ الأسبابِ المُقتضيَةِ لها، ولا تَحصُل إلَّا في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ، فإنَّهُ سُبحَانَهُ يُحبُّ الصَّابرينَ، ويُحبُّ الشَّاكرينَ، ويُحبُّ الذين يُقاتِلونَ في سبيلِهِ صَفًّا، ويُحبُّ التَّوابينَ، ويُحبُّ المُتطهِّرينَ، ولا رَيبَ أنَّ حصولَ هَذِهِ المَحبوبات بدونِ أسبابِها مُمتَنع كامتناعِ حصولِ المَلزوم بدونِ لازمه، والله سُبحَانَهُ أفرَحُ بتَوبَةِ عَبدِهِ حينَ يَتوبُ إليه مِن الفاقِدِ لراحلَتِهِ الَّتي عليها طعامَهُ وشرابَهُ في أرضٍ دَوِيَّةٍ[1]، مُهلكَةٍ إذَا وَجدَها كما ثَبتَ في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»[2].

وَالمَقصودُ: أن هَذَا الفَرحَ المَذكورَ إنَّما يكون بعدَ التَّوبةِ من الذُّنوبِ، فالتَّوبةِ والذَّنب لا زمانَ لهذا الفَرح ولا يوجَد المَلزومُ بدون لازِمِهِ، وإذا كانَ هَذَا الفَرحُ المذكور إنَّما يحصُلُ بالتَّوبةِ المستلزِمَةِ للذَّنب، فحصولُه في دارِ النَّعيم الَّتي لا ذَنبَ فيها ولا مخالَفَة ممتَنِعٌ.

---

(١) أي: الأرض القفر والفلاة الخالية، وهي المفازة.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ١٠٢ - فتح)، ومسلم (٢٧٤٤).

ولَمَّا كانَ هَذَا الفَرحُ أحبَّ إلى الربِّ سُبحَانَهُ من عَدمِهِ اقتَضَت محبَّتُهُ لَهُ خَلقَ الأسبابِ المُفضيةِ إليه لِيَتَرتَّبَ عليها المُسبِّبُ الَّذِي هو محبوبٌ له.

وأيضًا فإنَّ الله سُبحَانَهُ جَعَلَ الجَنَّة دارَ جزاءٍ وثَوابٍ، وقَسَّمَ منازِلَها بَيْنَ أهلِها عَلَى قَدرِ أعمالِهم، وعلى هَذَا خَلقَها سُبحَانَهُ لِما له في ذَلِكَ من الحكمةِ الَّتِي اقتَضتها أسماؤه وصِفاتُهُ، فإنَّ الجَنَّة درجاتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وَبَينَ الدَّرجتين كما بَيْنَ السَّماءِ والأرض؛ كما في «الصَّحيح» عَن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»(١).

وحكمةُ الربِّ سُبحَانَهُ مُقتضيةٌ لعمارَةِ هَذِهِ الدَّرجاتِ كلِّها، وإنَّما تَعمُرُ ويَقَعُ التَّفاوُتُ فيها بحَسبِ الأعمالِ، كما قَالَ غيرُ واحدٍ من السَّلَف: «يَنجونَ مِن النَّارِ بِعَفو الله ومَغفِرتهِ، ويَدخُلونَ الجَنَّة بِفَضلِهِ ونِعمَته ومَغفرَتِهِ، ويتقاسمونَ المنازِلَ بأعمالِهِم».

وعلى هَذَا حَمَلَ غيرُ واحدٍ ما جاء من إثباتِ دخولِ الجَنَّة بالأعمالِ كقوله تَعَالَى: ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقولِهِ تَعَالَى: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٣٢].

قالوا: وأمَّا نفيُ دخولِها بالأعمالِ كما في قوله ﷺ: «**لَن يَدخُلَ الجَنَّة أَحدٍ بِعمَلِهِ**» قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أنا**»(٢).

فالمُرادُ منه نفيُ أصلِ الدُّخول.

وَأحسَنُ من هَذَا أن يُقال: الباءُ المُقتَضيَةُ للدُّخولِ غيرُ الباءِ الَّتِي نُفِيَ مَعها الدُّخولُ، فالمُقتضيةُ هي باءُ السببيَّةِ الدَّالَّةُ عَلَى أنَّ الأعمالَ سببٌ للدُّخولِ مُقتضيةٌ له كاقتضاءِ سائر الأسباب لمُسبِّباتها، والباءُ الَّتِي نُفِيَ بها الدُّخولُ هي باءُ المُعاوَضةِ والمُقابَلة الَّتِي في نحو قولِهم: اشتَريتُ هَذَا بهذا، فأخبَرَ النَّبي ﷺ أنَّ دخولَ الجَنَّة ليسَ في مُقابلِهِ عَمَلِ أحدٍ، وأَنَّهُ لولا تَغمُّدُ الله سُبحَانَهُ لعبدِهِ بِرحمَتِهِ لَما أدخلَهُ

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١١ - فتح).
(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١٢٧ - فتح)، ومسلم (٢٨١٦).

جَنَّة، فليسَ عملُ العَبدِ وإنْ تناهى مُوجِبًا بِمُجَرَّده لِدُخول الجنَّة، ولا عِوضًا لها، فإنَّ أعمالَه وإنْ وقعَت منه عَلَى الوَجه الَّذِي يُحبُّه الله ويَرضاه فهي لا تُقاومُ نعمةَ الله الَّتِي أنعمَ بها عليهِ فِي دار الدُّنيا ولا تُعادِلُها، بل لو حاسَبَهُ لوَقعَت أعمالهُ كلُّها فِي مقابلة اليَسير من نِعمِهِ، وتَبقى بَقيَّةُ النِّعم مُقتضِيَةً لِشكرِها، فلو عَذَّبهُ فِي هَذِهِ الحالةِ لَعذَّبهُ وهو غَيرُ ظالمٍ له، ولو رَحِمَهُ لكانت رحمتُهُ خيرًا له من عمله كما في «السُّنن» من حديث زيد بن ثابت وحُذيفةَ بن اليَمان وغيرهما مَرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»(١).

والمَقْصُودُ: أنَّ حكمَتَهُ سُبحَانَهُ اقتضَت خَلْقَ الجَنَّة درجات بَعضُها فوق بَعض وعِمارتَها بآدَم وذريَّتِهِ وإنزالَهُم فيها بِحسَب أعمالهم، ولازمُ هَذَا إنزالُهُم إلى دار العَمَل والمُجاهدة.

وأيضًا فإنَّهُ سُبحَانَهُ خَلَقَ آدَمَ وذريَّته لِيستَخلِفَهُم في الأرض، كما أخبر سُبحَانَهُ في كتابه بقولِهِ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فأرادَ سُبحَانَهُ أن ينقله وذريَّته من هَذَا الاستخلاف إلى تَوريثه جَنَّة الخُلدِ، وعَلِمَ سُبحَانَهُ بِسابقِ علمهِ أنَّهُ لِضعفِه وقُصورِ نَظرِهِ قَدْ يَختارُ العاجلَ الخَسيسَ عَلَى الآجلِ النَّفيس، فإنَّ النَّفسَ مُولعَةٌ بِحُبِّ العاجلةِ وإيثارِها عَلَى الآخِرَة، وهذا من لوازِمِ كونِهِ خُلِقَ من عَجَل، وكَونِهِ خُلِقَ عَجولًا، فَعلمَ سُبحَانَهُ ما في طَبيعتِهِ من الضَّعف والخَور، فاقتضَت حكمَتُهُ أن أدخَلَهُ الجَنَّة لِيَعرفَ النَّعيمَ الَّذِي أُعِدَّ له عَيانًا، فَيكونَ إليه أشوقَ وعليه أحرصَ، وله أشدَّ طلبًا، فإنَّ مَحبَّةَ الشيء وَطَلَبَهُ والشَّوقَ إليه من لوازِمِ تَصوُّرِه، فَمَن باشر طِيبَ شيء ولَذَّته وتذوَّق به لم يَكد

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ١٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٤٩٤٠)، وغيرهما من حديث زيد، وأخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وغيرهما من حديث حذيفة ولكنه موقوفٌ عليه.

يصبرُ عنه، وهذا لأنَّ النَّفس ذوَّاقةٌ تَوَّاقةٌ، فإذا ذَاقت تاقَت، ولهذا إذَا ذاقَ العَبدُ طَعمِ حلاوَة الإيمان وخالَطَت بشاشتُه قلبُه رسخَ فيه حبُّه، ولم يُؤثر عليه شيئًا أبدًا.

وفي «الصحيح» من حديث أبي هُرَيرة - رضى الله عنه- المرفوع: إنَّ الله ﷻ يسأُلُ الملائكةُ فيقول: **«ما يسألُني عبادي؟ فيقولون: يسألونَكَ الجَنَّة، فيقول: وهل رَأَوها؟ فيقولون: لا يَا رَبِّ، فيقول: كيف لو رأَوها؟ فيقولون: لو رَأَوها لكانوا أشدَّ طلبًا»** (١).

فاقتَضَت حكمَتُهُ أن أراها أباهُم وأسكنَه إيَّاها، ثُمَّ قَصَّ عَلَى بنيه قِصَّتَهُ فصاروا كأنَّهُم مُشاهِدون لها حاضِرون مع أبيهم، فاستجاب مَن خُلِقَ لها وخُلِقَت لَهُ وسارع إليها فلم يُثنه عنها العاجلةُ، بل يَعُدُّ نفسَهُ كأنَّه فيها، ثُمَّ سَباهُ العدوُّ فيراها وَطَنهُ الأوَّلَ فهو دائمُ الحنين إلى وَطنِهِ، ولا يقرُّ له قَرارٌ حتَّى يَرى نَفسَه فيه.

عباد الله...

سِرُّ هَذِهِ الوجوهِ: أَنَّهُ سُبحَانَهُ وتَعَالى سَبَقَ في حُكمِه وحكمَتِه أنَّ الغاياتِ المَطلوبةَ لا تُنال إلَّا بأسبابها الَّتِي جَعَلَها الله أسبابًا مُفضِيَةً إليها، ومِن تلك الغاياتِ أعلى أنواع النَّعيم وأفضلُها وأجلُّها فلا تُنالُ إلَّا بأسبابٍ نَصَبَها مفضيةٍ إليها، وإذا كانت الغاياتُ الَّتِي هي دون ذَلِكَ لا تُنالُ إلَّا بأسبابِها مع ضَعفِها وانقِطاعها كتحصيل المأكولِ والمشروبِ والملبوسِ، والولدِ والمالِ والجاهِ في الدُّنيا، فكيف يُتَوهَّم حصولُ أعلى الغايات وأشرفِ المقامات بلا سَببٍ يُفضي إليه؟ ولم يَكُن تَحصيلِ تلك الأسبابِ إلَّا في دارِ المُجاهدة والحَرث، فكان إسكانُ آدَمَ وذريَّتِهِ هَذِهِ الدَّارَ الَّتِي ينالون فيها الأسبابَ الموصِلَةَ إلى أعلى المَقامات من إتمامِ إنعامه عليهم.

وسِرُّها أيضًا: أَنَّهُ سُبحَانَهُ جَعلَ الرِّسالةَ والنبوَّةَ والخُلَّة والتَّكليمَ والولايةَ والعبوديَّةَ من أشرف مقامات خلقِه ونهاياتِ كمالهم، فأنزلهم دارًا أخرَجَ مِنْهُمْ الأنبياءَ، وبعث فيها الرُّسُل، واتَّخَذَ مِنهم مَن اتَّخَذَ خليلًا، وكلَّم مُوسَى تكليمًا،

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٢٠٨، ٢٠٩ - فتح) ومسلم (٢٦٨٩).

واتَّخَذَ مِنْهُمْ أولياءَ وشهداءَ وعبيدًا وخاصَّةً يُحِبُّهم ويُحِبُّونه، وكان إنزالُهُم إلى الأرض مِن تمامِ الإنعامِ والإحسانِ.

وأيضًا: أَنَّهُ أظهرَ لِخَلقهِ مِن آثارِ أسمائهِ وجَريَانِ أحكامِها عليهم ما اقتضَتهُ حكمَتُهُ ورحمتهُ وعلمهُ.

وسِرُّها أيضًا: أَنَّهُ تعرَّف إلى خَلقهِ بأفعالهِ وأسمائهِ وصفاتهِ، وما أحدثه في أوليائهِ وأعدائهِ من كرامتهِ وإنعامِهِ عَلَى الأولياء، وإهانتهِ وإشقائهِ للأعداء، ومِن إجابتهِ دَعَواتِهِم، وقضائهِ حوائجهم، وتفريج كُرُباتِهم، وكشفِ بلائهم، وتصريفهم تحتَ أقدارهِ كيف يشاءُ، وتقليبهم في أنواع الخيرِ والشرِّ، فكان في ذَلِكَ أعظمَ دليل لهم عَلَى أَنَّهُ ربهم ومليكهم، وأَنَّه الله الَّذِي لا إله إِلَّا هو، وأنه العليم الحكيم السميع البصير، وأَنَّه الإله الحق وكل ما سواه باطل، فتظاهرَت أدلَّةُ ربوبيَّتِهِ وتوحيدِهِ في الأرضِ وتنوَّعت وقامَت من كلِّ جانبٍ، فعرفهُ المُوفَّقون من عِبَادِهِ وأقرُّوا بتوحيده إيمانًا وإذعانًا، وجَحدهُ المَخذُولون مِن خليقتهِ وأشركوا به ظُلمًا وكفرانًا، فَهلكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنةٍ وحَيَّ من حَيَّ عَن بَيِّنةٍ، والله سميعٌ عليمٌ.

عباد الله...

ومَن تَأمَّل آياتهِ المشهودَةَ والمَسموعةَ في الأرضِ ورأى آثارَها، عَلِمَ تَمامَ حكمَتهِ في إسكانِ آدَمَ وذريَّته في هَذِهِ الدَّار إلى أجلٍ معلوم، فاللهُ سُبحَانَهُ إِنَّمَا خَلقَ الجَنَّة لآدَم وذُريَّته وجعلَ الملائكةَ فيها خَدَمًا لهم، ولكن اقْتَضَت حكمَتُهُ أنْ خَلَقَ لهم دارًا يتزوَّدون منها إلى الدَّار الَّتِي خُلقَت لهم، وأَنَّهُم لاينالونها إِلَّا بالزَّاد، كما قَالَ تَعَالى: في هَذِهِ الدَّار: ﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ٧]، فهذا شأنُ الانتقالِ في الدُّنيا من بلدٍ إلى بلدٍ، فكيفَ الانتقالُ من الدُّنيا إلى دارِ القَرار، وقال تَعَالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ [البقرة: ١٩٧]، فباع المَغبونون منازلَهُم منها بأبخَس الحظِّ وأنقصِ الثَّمن، وباعَ المُوفَّقون نُفوسَهُم وأموالَهُم من الله، وجعلوها ثَمنًا للجَنَّة فَربحَت تجارتُهم ونالوا الفَوزَ العظيم، قَالَ الله تَعَالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة: ١١١]، فَهُو سُبحَانَهُ ما أخرجَ آدَمَ منها إِلَّا وهو يُريدُ أن

يُعيدَه إليها أكملَ إعادَةٍ».

عباد الله...

هذه حكَمُ نزول آدم عليه السلام من الجنَّة إلى الأرض.

أقول قولي هَذَا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد..

ولـمَّا أهبطهُ سُبحَانَهُ مِن الجنَّة وعرَّضَهُ وذريَّتهُ لأنواع المِحَنِ والبلاءِ، أعطاهُم أفضلَ مِمَّا منعهم وهو عَهدُهُ الَّذِي عَهِدَ إليه وإلى بنيه، وأخبَرَ أنَّهُ مَن تمَسَّكَ به مِنْهُمْ صارَ إلى رضوانه ودارِ كرامته.

قال تَعَالَى: عَقِبَ إخراجهِ منها: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي الآيةِ الأُخرى قال: ﴿**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى**﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

فلمَّا كسرَهُ سُبحَانَهُ بإهباطه من الجنَّة جَبرَهُ وذريَّتهُ بهذا العَهد الَّذِي عَهدَه إليهم، فقال تَعَالَى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾ [طه: ١٢٣]، وهذه هي «إن» الشرطيَّة المؤكَدَة بـ«ما» الدَّالَّةِ عَلَى استغراق الزّمان، والمعنى: أيُّ وقتٍ وأيُّ حينٍ أتاكم منِّي هُدَىً، وجعلَ جوابَ هَذَا الشرط جملةً شرطيَّة وهي قوله: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى**﴾ [طه: ١٢٣].

قَالَ عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: «تكفَّلَ الله لمَن قَرَأَ القُرآن وعَمِلَ بما فيه أن لا يضلَّ ولا يشقى في الآخِرَة، ثُمَّ قرأ: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ**

فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾» (١).

فيا أيُّها المسلم...

وبعد أن بانَ لك الحقّ، فشمّر عن ساعد الجدّ:

وحَـيَّ عَلَـى جَـنَّات عَـدْن فإِنَّهـا مَـنَازِلُـك الأولى وفـيها المُخَـيَّمُ
ولكنَّـنا سَـبْيُ العـدوّ فهـل تَـرى نعـودُ إلى أوطَانِـنا ونـسلمُ

اللَّهمَّ أعِنَّا عَلَى ذِكْرِك، وشُكْرِك، وحُسْنِ عِبَادَتِك

آمين ... آمين ... آمين

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨١)، وصححه، ووافقه الذهبيّ.

الخطبة الثامنة:

وفاةُ آدمَ عليه السَّلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فاللَّيلُ مهما طال فلابُدَّ مِن طُلوع الفَجر، والعُمر مَهما طال فلابُدّ مِن دخول القَبر.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وجلّ جلالهُ الحقّ إذ يَقول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

تاللّـه لـو عـاش الفتـى فِي دَهْـرِه ... ألفًـا مِـن الأعـوام مَالِـك أمْـرِه

مـتلَذِذًا فـيها بكـلِّ نفيـسةٍ ... مِتـنعِّمًا فـيها بنُعْمَـى عَـصْره

لا يَعتَـريه الـسّقم فـيها مَـرَّةً كَـلاً ولا تَـرد الهمـومُ بـباله
مـا كـان هَـذا كلـه في أن يَفِـي بمبـيتِ أوّل لـيلةٍ في قَبْـره

يا بن آدم...

اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

يـا ناظـرًا يَـرْنُو بعـيني راقـد ومـشاهدًا للأَمْـر غـير مـشاهد
تـصل الذنـوبَ إلى الذنـوب وتَرتَجي درج الجـنان ونَـيْل فـوز العابـد
أنـسيتَ رَبَّـك حـين أَخْـرج آدمَ مـنها إلى الدُّنـيا بـذنبٍ واحـد؟

عباد الله...

إن الموت الحق، وسيفه مُصْلت عَلَى رقاب الخلق جميعًا، لا يترك نبيًّا ولا وليًّا، فقد نزل بجميع الأنبياء والأولياء، ولا يدع جبارًا شقيًّا، فقد نزل بجميع الجبابرة والأشقياء فأبادهم، وأزهق نفوسهم، وجعلهم أثرًا بعد عَيْن، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

فأين ثمود وأين عاد؟

وأين الفراعنة الشداد؟

تلـك بـيوتهم خاويـة سـكنتها الـذئاب العاويـة

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَـهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

فالسعيد من اتعظ بغيرهِ، والعاقل مَن استعدّ للقاء الله قبل أن يلقاه:

يـا نفـسُ قَـدْ أزِفَ الـرَّحِيلُ وأظلَّـكِ الخَطْـبُ الجَلَـيلُ
فـتأهَبي يـا نفـس لا يلعـبنَّ بـك الأمـلُ الطـويلُ
فَلَتُنـزِلينَّ بمَنْـزِل يَنْسَـى الخلـيلُ بـه الخلـيلُ
وليركـبنَّ علـيك فـيه مـن الثَّـرى ثِقَـلٌ ثقـيلُ

قُــــرنَ الفـــناء بـــنا جمـــيعًا فمــا يبقــى العزيــزُ ولا الذّلــيلُ

أيها المسلمون...

نزل آدم ﷺ وزوجه حوَّاء إلى الأرض، وقد تقدَّم طرفٌ من حِكَمُ نزوله من الجَنَّة إلى الأرض.

وعلى ظهر الأرض بدأ الصراع بين الشَّيطان وبين بني الإنسان، كما قَالَ ربنا الرحمن: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦].

وعلى ظهر الأرض ولدت حوَّاء لآدَمَ أولادًا كثيرين، وعمَّر آدمَ ﷺ كثيرًا.

ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في «تاريخه» عن بعضهم: أن حوَّاء ولدت لآدَمَ ﷺ أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، قاله ابن إسحاق، وقيل: مائة وعشرين بطنًا في كل واحد ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته، وآخرهم عبد المغيث وأخته، ولا دليل عَلَى العدد وما ذكر معه، ثُمَّ انتشر النَّاس بعد ذَلِكَ وكثروا، وامتدوا في الأرض ونموا، كما قَالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

والمهم أن آدمَ ﷺ أطال الله عمره حتى رأى الكثير من ذريَّته، رأى مِنْهُمْ الصالح والطالح، والخبيث والطيّب.

وبعد هَذِهِ الرحلة الطويلة، والحياة الحافلة بالآلام والآمال، والمحن والمنح، والبلايا والعطايا، آن وقت الرحيل.

فـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْـجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، نام آدم ﷺ عَلَى فراش الموت، وتأهبت الروح الكريمة لملاقاة ربِّها الرَّحيم.

وقبل الموت كان آدم ﷺ يشتهي شيئًا، ما هو؟

عَنْ عُتَيٍّ بن ضَمرة السَّعدي قَالَ: رَأَيْتُ شَيْخًا بِالْمَدِينَةِ يَتَكَلَّمُ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا: هَذَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ، فَقَالَ (ورفعه إلى النَّبيِّ ﷺ): «**إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيْ بَنِيَّ إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ، فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ،**

فَاسْتَقْبَلَتْهُمْ المَلَائِكَةُ وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ وَمَعَهُمْ الْفُؤُوسُ وَالمَسَاحِي وَالمَكَاتِلُ، فَقَالُوا لَهُمْ: يَا بَنِي آدَمَ مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ؟ أَوْ مَا تُرِيدُونَ؟ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ قَالُوا: أَبُونَا مَرِيضٌ فَاشْتَهَى مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ، قَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ، فَجَاءُوا فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ فَلَاذَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكِ عَنِّي، فَإِنِّي إِنَّمَا أُوتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ، خَلِّي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَبَضُوهُ وَغَسَّلُوهُ وَكَفَّنُوهُ وَحَنَّطُوهُ وَحَفَرُوا لَهُ وَأَلْحَدُوا لَهُ وَصَلَّوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلُوا قَبْرَهُ فَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ وَوَضَعُوا عَلَيْهِ اللَّبِنَ ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْقَبْرِ ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ، ثُمَّ قَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ هَذِهِ سُنَّتُكُمْ»[(١)].

عباد الله...

وقبل موته ﷺ أوصى ولده «شيث» ﷺ بحمل أمانة العلم من بعده، ومعلومٌ أن آدم ﷺ كان نَبيًّا مُكَلَّمًا، وكذلك كان ولده شيث ﷺ.

وهكذا انتهت حياةُ أبينا آدم ﷺ عَلَى ظهر الأرض، وبقيت قصَّتُه عبرةً وذكرى وموعظة لأولي الألباب.

أقول قولي هَذَا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

واختلفت الروايات في المكان الَّذِي دُفن فيه آدم، فمن قائل: أَنَّهُ دُفن بِجَبل أبي قبيس بمكَّة.

والمشهور: أَنَّهُ دُفن عند الجبل الَّذِي أُهبط فيه في الهِند، والقطع في هَذَا يستحيل لعدم ورود دليلٍ عن المعصوم ﷺ.

عباد الله...

ومن أنباء الغيب عن آدم بعد وفاته، ما أخبر الله تعالى به نبيِّنا ﷺ في

---

(١) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح، ووافقه الذهبيّ وابن كثير.

الروايات التالية:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنْ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ، قَالَ: قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

قَالَ ابن كثير: مَن كذب بهذا الحديث فمعاند، لأَنَّهُ متواتر عن أبي هريرة، وناهيك به عدالة وحفظًا وإتقانًا، ثُمَّ هو مرويٌّ عن غيره من الصحابة.

وقال العلماء: بأن جواب آدمَ إنَّما كان احتجاجًا بالقدر عَلَى المصيبة لا المعصية.

وقال ابن كثير: لو كان الجواب عَلَى اللوم عَلَى الذَّنب بالقَدرِ المتقدّم كتابته عَلَى العبد، لانفتح هَذَا لكل من ليم عَلَى أمر قَدْ فعله، فيحتج بالقدر السابق فينسدّ باب القِصاص والحدود، ولو كان القَدر حجةٌ لاحتج به كل أحدٍ عَلَى الأمر الَّذِي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة. ا.هـ.

وقال الإمام النووي -رحمه الله تعالى-: معنى كلام آدم: أنك يا مُوسَى تعلم أن هَذَا كُتب عليَّ قبل أن أُخلق، فلابد مِن وقوعه، ولو حصرت أنا والخَلق أجمعون عَلَى ردّ مثقال ذرةً منه لم نقدر، فلا تلمني فإنَّ اللَّوم عَلَى المخالفة شرعي لا عقلي، وإذا تاب الله عليَّ وغفر لي زال اللَّوم، فمن لاَمَنِي كان محجوبًا بالشرع.

فإن قيل: فالعاصي اليوم لو قَالَ: هَذِهِ المعصية قُدرت عليَّ فينبغي أن يَسقط عنِّي اللّوم.

قلنا: الفرق أن هَذَا العاصي باقٍّ في دار التكليف جاريةً عليه الأحكام من العقوبة واللّوم، وفي ذَلِكَ له ولغيره زجر وعظة، فأمَّا آدمَ ميّت خارجٌ عن دار التكليف مستغنٍ عن الزجر، فلم يكن للومه فائدةً بل فيه إيذاءٌ وتخجيلٌ، فلذلك كان الغلبة له. ا.هـ.

وقد أخبرنا المعصوم ﷺ أنَّهُ التقى مع آدم ﷺ في السَّماء الدُّنيا ليلة الإسراء والمعراج، ففي حديث المعراج الطويل: «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام لِخَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا

جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ: أَفَأُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَتَحَ قَالَ: فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ قَالَ: فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، قَالَ: فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ عليه السَّلام، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الجَنَّةِ وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى» متفق عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: «إِنَّ أُمَّتِي فِي الْأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ». رواه البخاري وغيره.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ - أي بخورهم المسك - وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ». رواه البخاري ومسلم.

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام قصَّة آدَمَ عليه السلام.

والله الموفق إلى أقوم سبيل.

اللَّهمَّ اجعلنا مِن أَحبِّ خَلْقِك إليك، ومِن الْمُقرَّبِينَ لَدَيك

الخطبة التاسعة:

مَعَ إدريس عليه السَّلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَلِقَاؤنَا اليَوم - إنْ شَاء الله تعالى - مع النَّبيِّ إدريس عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصَّلاةُ وأزكى التسليم.

عباد الله...

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «كان إدريس عليه السلام أوّل بني آدمَ أُعطي النبوَّة بعد آدم وَشِيث عليهما السَّلام».

وذكر ابن إسحاق: أَنَّهُ أوّلُ مَن خَطَّ بالْقَلَم.

وقد قالت طائفةٌ من النَّاس: إنَّهُ المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم

السُّلميّ لَـمَّا سأل رسول الله ﷺ عن الخطِّ بالرَّمل، فقال: «**كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**»[١].ا.هـ[٢].

قَالَ العلَّامة أبو الطيّب محمد شمس الحق العظيم آبادي - رحمه الله - عند شرح هَذَا الحديث قوله ﷺ: «**كَانَ نَبِيّ مِنْ الْأَنْبِيَاء يَخُطّ**»: أَيْ فَيُعْرَف بِالْفِرَاسَةِ بِتَوَسُّطِ تِلْكَ الْخُطُوط.

قِيلَ: هُوَ إِدْرِيس أَوْ دَانْيَال عَلَيْهِمَا الصَّلَاة وَالسَّلَام كَذَا فِي «الْمِرْقَاة».

«**فَمَنْ وَافَقَ** »: ضَمِير الْفَاعِل رَاجِع إِلَى مِنْ أَيْ فَمَنْ وَافَقَ فِيمَا يَخُطّ، «**خَطّه**»: بِالنَّصْبِ عَلَى الْأَصَحّ.

وَنَقَلَ السَّيِّد جَمَال الدِّين عَنْ الْبَيْضَاوِيّ: أَنَّ الْمَشْهُور خَطّه بِالنَّصْبِ فَيَكُون الْفَاعِل مُضْمَرًا. أَيْ مَنْ وَافَقَ خَطَّهُ خَطَّهُ أَيْ خَطّ ذَلِكَ النَّبِيّ.

«**فَذَاكَ**»: أَيْ فَذَاكَ مُصِيب أَوْ يُصِيب، أَوْ يُعْرَف الْحَال بِالْفِرَاسَةِ كَذَلِكَ النَّبِيّ وَهُوَ كَالتَّعْلِيقِ بِالْمُحَالِ. قَالَهُ فِي «الْمِرْقَاة».

قَالَ النَّوَوِيّ: اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَاهُ، **فَالصَّحِيح** أَنَّ مَعْنَاهُ: مَنْ وَافَقَ خَطّه فَهُوَ مُبَاح لَهُ وَلَكِنْ لَا طَرِيق لَنَا إِلَى الْعِلْم الْيَقِينِيّ بِالْمُوَافَقَةِ فَلَا يُبَاح.

وَالْمَقْصُود: أَنَّهُ حَرَام لِأَنَّهُ لَا يُبَاح إِلَّا بِيَقِينِ الْمُوَافَقَة وَلَيْسَ لَنَا يَقِين بِهَا، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**فَمَنْ وَافَقَ خَطّه فَذَاكَ**» وَلَمْ يَقُلْ: «هُوَ حَرَام» بِغَيْرِ تَعْلِيق عَلَى الْمُوَافَقَة لِئَلَّا يَتَوَهَّم مُتَوَهِّم أَنَّ هَذَا النَّهْي يَدْخُل فِيهِ ذَاكَ النَّبِيّ الَّذِي كَانَ يَخُطّ فَحَافَظَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى حُرْمَة ذَاكَ النَّبِيّ مَعَ بَيَان الْحُكْم فِي حَقّنَا.

فَالْمَعْنَى: أَنَّ ذَلِكَ النَّبِيّ لَا مَنْع فِي حَقّه. وَكَذَا لَوْ عَلِمْتُمْ مُوَافَقَته وَلَكِنْ لَا عِلْم لَكُمْ بِهَا.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: هَذَا الْحَدِيث يَحْتَمِل النَّهْي عَنْ هَذَا الْخَطّ، إِذَا كَانَ عَلَمًا لِنُبُوَّةِ ذَلِكَ النَّبِيّ، وَقَدْ اِنْقَطَعَتْ فَنُهِينَا عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ.

---

(١) رواه مسلم (١١٩٩)، وأبو داود (٩٣٠)، وغيرهما.
(٢) «البداية والنهاية» (١/ ١٢٥).

قَالَ القَاضِي عِيَاض: المُخْتَار أَنَّ مَعْنَاهُ مَنْ وَافَقَ خَطّه فَذَاكَ الَّذِي يَجِدُونَ إِصَابَته فِيمَا يَقُول لَا أَنَّهُ أَبَاحَ ذَلِكَ لِفَاعِلِهِ. قَالَ: وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذَا نُسِخَ فِي شَرْعنَا فَحَصَلَ مِنْ مَجْمُوع كَلَام العُلَمَاء فِيهِ الِاتِّفَاق عَلَى النَّهْي عَنْهُ الآن». ا.هـ[١].

هَذَا؛ وكذّب ابنُ القيّم - رحمه الله - نسبة الخطّ إلى إدريس عليه السلام[٢]، وجاء في تفسيره: «أن «الحازي» أي المحترف لذلك يأتيه الرَّجُلُ ليعرف خطّه، فيخطّ عَلَى أرض رخوةٍ خطوطًا كثيرة بالعجلة، ومعه غلامٌ، ثُمَّ يمحو منها عَلَى مهلٍ خطّين، والغلامُ يقول: ابني عيان، أسرعا البيان، فإن بقي خطّان فهما علامة النجح، وإن بقي خطّ واحد فهو علامة الخَيبة»[٣].

وقال العلّامة ابن كثير - رحمه الله -[٤]: «ويزعم كثيرٌ من علماء التّفسير والأحكام أن إدريس عليه السلام أوَّلُ من تكلّم في ذَلِكَ ويسمُّونه «هَرْمِسَ الهرَامِسَة»، ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا عَلَى غَيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء» ا.هـ.

عباد الله...

وإدريس عليه السلام هو: إدريس بن يَرْدَ بن مَهْلائيل بن قينن بن أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام.

وقيل: سُمّي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى.

وكان عليه السلام خياطًا.

فعن ابن عباس رَضِي الله عَنهُما - قَالَ: «إِنَّهُ كَان خيّاطًا، فكان لا يغرز إبرة إلَّا قَالَ: سبحان الله، فكان يُمسي حين يُمسي وليس في الأرض أحدٌ أفضل منه عملًا»[٥].

---

(١) «عون المعبود» (٣/ ١٤٢).

(٢) وأقول: وكم يصحّ نسبته إلى «دانيال» عليه السلام كذلك، والخطّ هو ما يُعرف بضرب الرّمل.

(٣) «بيان للناس» من الأزهر الشريف (٢/ ١٠٦).

(٤) «البداية والنهاية» (١/ ١٢٥).

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٣).

▪ ودعا إدريس عليه السلام إلى دِين الله تعالى، وأمر قومه بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وصبر عَلَى ذَلِكَ صبرًا جميلًا.

قَالَ تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

ومَدَحهُ الله تعالى فِي كِتابِهِ كذلك بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧].

وَوَصَفهُ الله تعالى بأمور:

أحدها: أَنَّهُ كان صِدِّيقًا.

ثانيها: أَنَّهُ كان نبيًّا.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾، وفيه قولان:

أحدهما: أَنَّهُ من رفعة المنزلة كقوله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

والثاني: أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عالٍ، وهذا أَوْلى.

قلت: هو مرفوع المنزلة والمكان عليه السلام، فقد ثبت أن النَّبيّ ﷺ لقيه ليلة الإسراء والمعراج في السَّماء الرابعة، وإليكم الحديث الوارد في ذَلِكَ بتمامه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: «**بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ - وَرُبَّمَا قَالَ فِي الْحِجْرِ - مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ**»، فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ - وَهُوَ إِلَى جَنْبِي - مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصِّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ. «**فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ، أَبْيَضَ**»، فَقَالَ لَهُ الْجَارُودُ: هُوَ الْبُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ، قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ. «**فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا**

بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ. فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»[1].

عباد الله...

والشاهد في الحديث المتقدّم: أن إدريس عليه السلام في السماء الرابعة، كما أخبر الصادقُ المصدوق - صلوات ربِّي وسلامه عليه - ومِمَّا تقدَّم يتبيَّن لنا: أن إدريس عليه السلام مرفوع المكان والمنزلة.

المكان لما تقدَّم من حديث مالك بن صعصعة، والمنزلة؛ لأنَّهُ من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام عَلَى عبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

واختُلفَ في تَفْسِيرِ قوله تعالى - عن إدريس الطَيْلاِ-: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

- فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قَالَ: سألت كعبًا - رحمه الله - عن رفع إدريس - عليه الصلاة والسلام - مكانًا عليًّا؟

فقال: أما رفع إدريس مكانًا عليًّا، فكان عبدًا تقيًّا، يرفع له من العمل الصالح ما يرفع لأهل الأرض في زمانه، قَالَ: فعجب الملك الَّذِي كان يصعد عليه عمله، فاستأذن ربّه إليه، قَالَ: رب ائذن لي إلى عبدك هَذَا فأزروه، فأذن له، فنزل فقال: يا إدريس، أبشر فإِنَّهُ يرفع لك من العمل الصالح ما لا يرفع لأهل الأرض، قَالَ: وما علمك؟ قَالَ: إنِّي مَلَكٌ، قَالَ: وإن كنت ملكًا.

قَالَ: فإنِّي عَلَى الباب الَّذِي يصعد عليه عملك، قَالَ: أفلا تشفع لي إلى ملك الموت فيؤخر من أجلي لأزداد شكرًا وعبادة؟ قَالَ له الملك: لا يؤخِّر الله نفسًا إذا جاء أجلها، قَالَ: قَدْ علمت، ولكنه أطيب لنفسي.

فحمله الملك عَلَى جناحه فصعد به إلى السماء فقال: يا ملك الموت هَذَا عبدٌ تقيٌّ نبيٌّ، يرفع له من العمل الصالح ما لا يرفع لأهل الأرض، وإنه أعجبني، فاستأذنت إليه ربِّي، فلما بشرته بذلك سألني لأشفع له إليك لتؤخِّر من أجله فيزداد شكرًا وعبادة لله، قَالَ: ومَن هَذَا؟ قَالَ: إدريس، فنظر في كتاب معه حتى مَرَّ باسمه، فقال: والله ما بقيَ من أجل إدريس شيء، فمحاه فمات مكانه[(١)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٣) في «مصنفه» بسند صحيح، وحسّنه محققو «البداية والنهاية» (١/ ١٢٥) ط. دار ابن رجب.

▪ وعن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: «إدريس رُفع ولم يمت كما رُفع عيسى»[١].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - معلِّقًا: «إن أراد أنَّهُ لم يمت إلى الآن، ففي هَذَا نظرٌ، وإن أراد أنَّهُ رُفع حيًّا إلى السماء ثُمَّ قُبض هناك، فلا ينافي ما تقدَّم عن كعب الأحبار، واللَّـهُ أعْلَمُ». ا.هـ[٢].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى ختام قصّة نبيّ الله إدريس عليه السلام، سائلًا المولّى جلّت قدرته أن يحشرنا وإيَّاكم في زمرته.

اللَّهمَّ أعنَّا عَلَى ذِكرك، وشُكرك، وحُسن عِبادتك...

آمين... آمين... آمين...

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين



(١) صحيح الإسناد: أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٩/ الجزء ١٦/ ٩٦).

(٢) «البداية والنهاية» (١/ ١٢٦).

الخطبة العاشرة:

مع شيخ الأنبياء نوحٌ عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم - إن شاء الله - مع شيخ الأنبياء والمرسلين وأطولِهم عُمرًا، مع نبيِّ الله نوح عليه السلام.

مع صاحب العزمِ الَّذي لا يلين، والصَّبر الَّذي لا يعرف الجَزع، والهِمَّةِ الَّتي لا تَعرف الهمود، والثِّقة بالله الَّتي لا تهتزّ، واليقين بالمولى - عزَّ وجلَّ - الَّذي لا يضعف.

عباد الله...

ونوح عليه السلام هو: نوح بن لامك بن متُّوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد

بن مهلائيل بن قينن بن أُنوش بن شيث بن آدم أبي البشر ﷺ.

وكان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون.

- فعن أبي أُمامة ﷺ: أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدَمَ؟ قال: «**نَعَمْ، مُكَلَّمٌ**»، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عَشَرةُ قُرونٍ**»[١].
- وعن ابن عباس - رَضِي اللَّـهُ عَنْهُمَا - قال: «كان بين آدمَ ونوح عشرةُ قرون، كلُّهم عَلَى الإسلام»[٢].

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمورٌ اقتضت أن آل الحال بأهل ذَلِكَ الزمان إلى عِبادة الأصنام، وكان سبب ذَلِكَ ما رواه البخاريّ من حديث ابن جريج عن عطّاء عن ابن عباس عن تَفْسِيرِقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح: ٢٣].

قَالَ: «هَذِهِ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الَّتِي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد حتى إذَا هَلك أولئك وانتسخ العلم عُبدت».

قَالَ ابن عباس: وصارت هَذِهِ الأوثان الَّتِي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

وذكر الإمام ابن جرير في «تفسيره» عن محمد بن قيس، قَالَ: «كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلمَّا ماتوا قَالَ أصحابهم الذين كانوا يقتون بهم: لو صوَّرناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذَا ذكرناهم، فصوروهم، فلمَّا ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم».

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أَنَّهُ قَالَ: «ودّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر: أولاد آدم وكان ودّ أكبرهم وأبرّهم به»[٣].

---

(١) صحيح الإسناد: رواه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٤٥).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٦)، والطبري في «التفسير» (٢/ ٣٣٤).

(٣) «البداية» (١/ ١٧٠).

عباد الله...

والمَقْصُودُ: أن الفساد لَـمَّا انتشر في الأرض وعمَّ البلاد بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فلما دعوهم كذّبوه وعاندوه، وأصرّوا عَلَى كفرهم واستكبروا استكبارًا، ويصوّر القرآن حالهم وحال نبيّهم فيقول تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَـهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَـهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَـهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١- ١٤]

فذكر أنَّهُ دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في اللَّيل والنَّهار والسّر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هَذَا لم ينجح فيهم بل استمرّ أكثرهم عَلَى الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقّصون وتنقّصوا من آمن به وتوعّدوهم بالرجم والإخراج ونالوا مِنْهُمْ وبالغوا في أمرهم.

﴿قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾، أي: السادة الكبراء منهم. ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١]. أي: لست كما تزعمون من أنّي ضال بل عَلَى الهُدى المُستَقِيم، رسولٌ مِن ربِّ العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا أي: فصيحًا، أعلم النَّاس بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، تعجّبوا أن يكون بشرًا رسولًا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم.

وقوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الَّذِي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه - رضِي الله عنهم - فإن الحقّ الظاهر لا يحتاج إلى رويّة ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قَالَ رسول الله ﷺ مادحًا للصّدّيق: «**ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلَّا كانت له كبوة، غير أبي بكر فإنَّهُ لم يتلعثم**».

ثم طلبوا منه أن يطرد عنه الضعفاء والفقراء، حتى يجتمعوا به، فأبى عليهم ذَلِكَ قائلًا: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ولهذا قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ومع هَذِهِ المدة الطويلة ما آمَنَ به إلَّا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيلٌ وصّوا مَن بعدهم بعدم الإيمان به، ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذَا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصّاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش، ودائمًا ما بقي.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحقّ، ولهذا قَالَ: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] فقال لهم نوح: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣].

ثم أوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أَنَّهُ لم يؤمن مِنْهُمْ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ، أي: لا يسوأنَّك ما جرى فإنَّ النَّصر قريب والنبأ عجيب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ولما يئس نوح عليه السلام من صلاحهم وفلاحهم ورأى أَنَّهُم لا خَير فيهم دعا عليهم دعوةً فلبَّى الله دعوته وأجاب طلبه.

قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيّهم عليهم.

فعند ذَلِكَ أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة الَّتِي لم يكن لها نظير.

وقدَّم الله تعالى إليه أَنَّهُ إِذَا جاء أمره وحلّ بهم بأسه الَّذِي لا يُردّ عن القومَ المجرمين أَنَّهُ لا يُعاوده فيهم ولا يُراجعه فإنَّه لعله قَدْ تدركه رقّة عَلَى قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

قَالَ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ

تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

عباد الله...

واستجاب نوح ﷺ لأمر ربّهُ، وبدأ يصنع السفينة كما علّمهُ ربّهُ، ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، أي: يستهزئون، وهذه عادة الكافرين والمجرمين مع الأنبياء والصالحين، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، أي: نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم عَلَى كفركم وعنادكم الَّذِي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدُّنْيَا، وهكذا في الآخِرَة يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ»[1]، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وَالوَسَطُ: العَدْلُ.

أيها المسلمون...

وبقيت في قصة نوح عليه السَّلام بقية، نلتقي معها في الجمعة التالية إن شاء الله تعالى.

سائلًا المولى تبارك وتعالى لي ولكم التوفيق لطاعته، والبُعد عن كُلِّ ما يُغضبه.

آمين... آمين... آمين. والحمد لله ربِّ العالمين

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩).

الخطبة الحادية عشرة:

هلاك الكافرين، ونجاة المؤمنين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وَحْدَه لا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجه، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصة نوح عليه السلام.

عباد الله...

وانتهى نوح عليه السلام من صنعه السفينة، قَالَ أهل السِّير: كان ارتفاعها ثلاثين ذراعًا وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشرة أذرع.

فالسفلى: للدَّواب والوحوش.

والوسطى: للنَّاس.

والعُليا: للطيور.

وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوق مطبق عليها[1].

وأمره ربه ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧] والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض، أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها. ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

ثم قال له ربه: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩].

ولما فتحت السماء أبوابها بماء منهمر بإذن ربها، وفجر الله الأرض عيونًا، والتقى الماء عَلَى أمر قَدْ قُدر، امتثل نوح عليه السلام لأمر ربه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

ولما استووا عَلَى ظهرها، جرت السفينة تحت عين الله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

ويصور القرآن حالها عَلَى وجه الماء فيقول تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

عباد الله...

وكانت امرأة نوح قَدْ وقفت في خندق واحد مع قومها ضد زوجها، بل وتحرض قومها عليه، وتتهمه بالجنون.

قَالَ تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

لقد ضرب الله تعالى هَذَا المثل تنبيهًا عَلَى أنَّهُ لا يُغني أحدٌ في الآخرة عن قريب ولا نسيب إِذَا فرّق بينهما الدين.

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٧٧).

وقوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي: نبيّين رسولين عندهما في صحبتهما ليلًا ونهارًا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما عَلَى الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة، فسبحانك ربِّي، تهدي مَن تشاء وتُضل مَن تشاء، ترفعُ مَن تشاء وتخفضُ مَن تشاء، تُعزّ مَن تشاء وتُذلُّ مَن تشاء.

رب إن الهـــدى هـــداك وآياتـك حـق تهـدي بهـا مَـن تشاء

وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدِّين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء.

عن سليمان بن قرم: سمعت ابن عباس - رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا - يقول في الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أمَّا خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأمَّا خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها عَلَى أضيافه[١].

وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: كانت خيانتهما أنَّهما كانتا عَلَى غير دينهما، فكانت امرأة نوح تُطلع عَلَى سرّ نوح ﷺ، فإذا آمَنَ معه أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأمَّا امرأة لوط فكانت إذَا أضاف لوط أحدًا أخبرت به أهل المدينة مِمَّن يعمل السوء.

وقال الضحاك عن ابن عباس: «ما بغت امرأة نبيٍّ قط، إنما كانت خيانتهما في الدِّين».

قَالَ القرطبيّ: «وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكره القُشيريّ».

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لم يدفع نوح ولوط -عليهما السلام- مع كرامتهما عَلَى الله تعالى عن زوجتيهما - لَـمَّا عصتا - شيئًا من عذاب الله، تنبيهًا عَلَى أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة.

﴿وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فلا كرامة ولا شفاعة في الكفر، وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦١٤).

فمن بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا**»، وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١].

جلست امرأة نوح أمام التنور[١] تصنع الخبز وإذا بالماء يتفجّر من بين ألسنة اللهب، متدفقًا في عنف فيدفعها في صدرها، فتكون أول الهالكين غرقًا وحرقًا في نفس الوقت، لأن الماء خارج من التنور.

﴿**وَفَارَ التَّنُّورُ**﴾ وفجرت الأرض عيونًا، وفتحت أبواب السماء بماءٍ منهمر والتقى الماء، ماء الأرض وماء السماء، وقيل: لم يقلع أربعين يومًا، وقيل: كان ماء السماء باردًا كالثلج، وماء الأرض حارًّا مثل الحميم، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

أيها المسلمون...

وكان من المغرقين أيضًا أحدُ أبناء نوح، وكان قَدْ تابع أمَّه في عنادها وكفرها، فلمَّا رأى نوح الَطِيلاِ ولده هَذَا قَدْ أحاط به الموج من كل مكان، دار بينهما هَذَا الحوار:

قَالَ تعالى: ﴿**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ**﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث أولاد نوح الَطِيلاِ، وقيل اسمه كنعان.

ولما رأى ابنه بمقربة من السفينة حيث يسمعُ النِّداء، طمع في سلامته، وحَسَنَ الظَّنَّ أنَّهُ مؤمن، فقال له: ﴿**بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ**﴾ وقوله لابنه: ﴿**وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ**﴾ دليل عَلَى أن نوحًا كان يعتقد إيمان ابنه، فلمَّا قَالَ له ابنه: ﴿**سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي**[٢] **مِنَ المَاءِ**﴾ قَالَ له نوح: ﴿**لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ**

---

(١) هو الفرن المسجور.

(٢) **يعصمني**: يمنعني.

مَن رَّحِمَ ﴾.

قَالَ الشوكانيّ عن كنعان بن نوح: كان منافقًا فظن - أي نوح ﷺ - أَنَهُ مؤمن[(١)].

قَالَ الله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، ثُمَّ أصدر الله تعالى أمره للأرض وللسماء: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ والبلع: الشرب.

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ الإقلاع: الإمساك.

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نقص.

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: استقرت السفينة عَلَى الجبل المعروف بـ«الجودي»، وهو جبل قرب الموصل بالعراق.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكًا للقوم الظالمين[(٢)].

قلت: ومرة أخرى أخذ الحنين نوحًا ﷺ فاتجه لربِّه وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي: ذو عمل غير صالح.

﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لما بيَّن له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرَّع عَلَى ذَلِكَ النهي عن السؤال.

﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين.

وهنا بادر نوح ﷺ إلى الاعتراف بالخطأ، فـ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٤٩٩).

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٥٠٠).

مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

قَالَ تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

قوله: ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا ﴾ أي: انزل من السفينة إلى الأرض بسلامة وأمن.

﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أي: نِعَم ثابتة، وفي هَذَا الخطاب له دليل عَلَى قبول توبته ومغفرة ذلته[١].

ثم قَالَ الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

نعم العاقبة للمتقين والهلاك والخُسران للمنافقين والكافرين.

أقول: ومن هَذِهِ القصّة يتبيّن لنا بأنَّ الأنساب بغير الإيمان لا تنفع، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾.

قَالَ الإمام الفخر الرازيّ: فبيَّن أن قرابة النسب لا تفيد إذَا لم تحصل قرابة الدِّين[٢].

عباد الله...

وسيأتي بعد قليل المزيد من فوائد القصّة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥٠٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٨/ ٥٤٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي قصّة نوح عليه السلام فوائد وعظات:

الفائدة الأولى: قوّة العزيمة، وعلوّ الهمّة:

فها هو نبيّ الله نوح عليه السلام يعطينا درسًا في قوّة العزيمة ومضائها واستمرارها عبر دعوته الَّتِي استمرّت زمنًا طويلًا دون أن تهن له إرادة أو تتزعزع له عقيدة.

ومن الصور البارزة الَّتِي يعرضها القُرآن لمضاء عزيمته: هو ذَلِكَ الاستمرار المتواصل لدعوة قومه إلى الله سواء بالليل أو النَّهار، بالسّر والعلانية ولكن هؤلاء القوم رفضوا دعوته جملة وتفصيلًا، حتى أَنَّهُمْ رفضوا الاستماع والنظر إليه، وهذا نهاية الإعراض عنه والإيذاء لشعوره.

أضف إلى هَذَا: وصفهم إياه بالجنون، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، ونمشي قُدمًا فتتراءى لنا صورة من مضاء عزيمته وذلك أنه كان يتلقّى تهديدهم بشجاعة فلا ينثني عن دعوته، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، ولكن نوحًا عليه السلام أمام هَذَا التهديد لم يتراجع بل لجأ إلى ربِّه؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

وحينًا نرى صورة من قوة عزيمته حيث أنه كان يتقبّل سخرية قومه وهو يصنع السفينة بصدر رحب ونفسٍ مطمئنة إلى نصر الله؛ ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

ولكن ما مبعث هَذِهِ العزيمة القوية وما ركائزها في نفس نبيّ الله نوح؟ لقد كان مبعثها إيمانه القويّ بربّه واعتماده عليه في كل ما يصادفه من صعاب وأذى.

الفائدة الثانية: الحبّ في الله والبغض في الله:

كانت رابطة القربى وما تزال من أهم الحوافز الَّتِي ينقاد إليها الإنسان ويخصها بقسط كبير من تضحيته وميله الشخصي.

والإسلام أعطى لصلة القرابة حظًّا كبيرًا من العناية والرعاية؛ لأنَّ طبيعة الإنسان ومصلحته تقوم عَلَى مراعاتها والقيام بواجباتها.

ولكن مراعاة القُربى لها شرط أساسي للقيام بحقها ألا وهو الإيمان بالله والسَّير بموجب شِرعته، فالمسلم عليه ألَّا يخصّ بالود مَن يكفر بالله ويعصيه ولو كان مِن أقرب النَّاس إليه نسبًا، جاء في القرآن: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي قصة امرأة نوح يعرض لنا القُرآن مثلًا حيًّا عَلَى ذَلِكَ، فنوح عليه السلام تأخذه عاطفة الشفقة عَلَى ولده فيطلب من ربِّه أن ينجّي ابنه من الهلاك، فيعاتبه الله عَلَى ذَلِكَ ويعتبر عمله من الجهل الَّذِي لا يليق أن يتصف به: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

والذي ينشده القُرآن من وراء ذَلِكَ: توجيه الإنسان إلى أن أعماله الصالحة هي المعوّل عليها في نَيْل السعادة في الآخِرَة، وإنَّه ليس للشفاعات والقرابات أي تأثير في نجاته من عذاب الله إن كان عاصيًا، وهذا ما أكده القرآن أيضًا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ففي هلاك امرأة نوح وامرأة لوط بسبب بغيهما وانحرافهما عن الطَّرِيق المُستَقِيم عظة قرآنية بليغة هي: أن القرابة مهما اشتدت لا يمكن أن تُغني عن الإنسان شيئًا إذَا كان سيئ العمل.

وكثيرًا ما ضلّ البشر في مفهوم طريق النجاة، فظنوا أن النجاة تكون في محاباة

رجال الدِّين والزلفى إليهم بالهدايا والطاعة العمياء لهم، غير عابئين بإصلاح نفوسهم ومحاسبة ضمائرهم، فأدى هَذَا المفهوم الخاطئ إلى الإساءة إلى الدِّين وجعله سببًا من أسباب التأخر والجمود والفساد، بدلًا من أن يكون من أهم الدوافع للإصلاح والرُّقي والسموّ»[١].

عباد الله...

وبعد هَذَا العمر المبارك الطويل، نام نبيُّ الله نوح عليه السلام عَلَى فراش الموت، وأصدر لابنه الَّذِي آمن به آخر وصاياه:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِي الله عَنهما - قال: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا عليه السلام لَـمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنْ الشِّرْكِ وَالكِبْرِ**»[٢].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام قصّة نوح عليه السلام، سائلًا المولى تبارك وتعالى أن يُعلِّمنا ما جَهِلنَا، وأن يَنفَعنَا بما عَلَّمنا.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) «مع الأنبياء في القرآن» للأستاذ عفيف طبّارة (٨٠ - ٨٢) بتصرّف يسير.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، وغيرهما.

الخطبة الثانية عشرة:

مع نبيّ الله هود عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله هود عليه السلام.

عباد الله...

وهود عليه السلام هو ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وكان من قبيلة يقال لهم «عاد بن عوص بن سام بن نوح»، وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمال - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قَالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧].

وقبيلة عاد تلقب بـ «إرم» أيضًا، فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لـ ﴿عَادٍ﴾ للدلالة أَنَّهُمْ عاد الأولى، لا عاد الآخِرَة[١].

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله -: «الضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يرجع إلى القبيلة أي: لم يخلق مثل القبيلة في البلاد: قوّة وشدّة، وعِظَم أجساد، وطول قامة، عن الحسن وغيره» ا.هـ[٢].

أيها المسلمون...

وكان من الواجب عليهم أداء شكر هَذِهِ النِّعم لِمُسدِيها لهم وهو الله سبحانه.

ولكن القوم استخدموها في محاربته - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - فكانوا كما قَالَ تَعَالَى: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

فعبدوا الأصنام من دون الله تعالى، وكانوا أوَّل قومٌ عبدوها بعد قوم نوح عليه السلام.

قَالَ الإمام ابن كثير: كانت الأصنام الَّتِي عبدوها ثلاثة: [صمدًا، وصمودًا، وهرا][٣].

فأرسل الله تعالى لهم هودًا عليه السلام، فدعاهم إلى التوحيد[٤]، قَالَ تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم عَلَى ذَلِكَ خير الدُّنْيَا والآخِرَة وتوعدهم عَلَى مخالفة ذَلِكَ عقوبة الدُّنْيَا والآخِرَة، ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، أي: هَذَا الأمر الَّذِي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هَذِهِ الأصنام الَّتِي يُرتجى منها النصر

---

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (١٧/ ٦١٤٧).
(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٢).
(٣) «البداية» (١/ ١٣٨).
(٤) وترك عبادة الأصنام.

والرزق، ومع هَذَا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، أي: ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلَّغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هَذَا البلاغ عَلَى هَذِهِ الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص عَلَى هدايتهم لا يبتغي مِنْهُمْ أجرًا ولا يطلب مِنْهُمْ جعلا بل هو مخلص لله ﷻ في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الَّذِي أرسله فإن خير الدُّنْيَا والآخِرَة كله في يديه وأمره إليه ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. أي: ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الَّذِي تشهد به فطركم الَّتِي خلقتم عليها وهو دين الحق الَّذِي بعث الله به نوحًا وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرًا عليه بل أبتغي ذَلِكَ عند الله مالك الضر والنفع.

وقال قومُ هود له فيما قالوا: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]، يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هَذَا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذَلِكَ وهو قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

وهذا تحدٍّ منه لهم وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر

وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعنٌ لها ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ أنتم جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. أي: أنا متوكل عَلَى الله ومتأيد به وواثق بجنابه الَّذِي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقًا سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إيَّاه، وهذا وحده برهان قاطع عَلَى أن هودًا عبدالله ورسوله وأنَّهُمْ عَلَى جهل وضلال في عبادتهم غير الله لأنَّهُمْ لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهًا، فدل عَلَى صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قَدْ استدل به نوح الطَّيْلاِ قبله في قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولًا بشريًا، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا، كما قَالَ تَعَالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

ولهذا قَالَ لهم هود الطَّيْلاِ: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، أي: ليس هَذَا بعجيب، فإن اللَّهُ أعْلَمُ حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٥- ٣٩].

استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا وقالوا هيهات هيهات أي بعيد بعيد هَذَا الوعد، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: يموت قوم ويحيى آخرون وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلغ.

وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]، يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأَنَّهُمْ كانوا يسكنون الخيام.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: هي القصور، وقيل: بروج الحمام، وقيل: مآخذ الماء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: رجاء منكم أن تعمروا في هَذِهِ الدار أعمارًا طويلة، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠ - ١٣٥].

وقالوا له مما قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي: أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه فإن كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب

والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨]. أي: أن هَذَا الدين الَّذِي نحن عليه إلَّا دين ﴿الأَوَّلِينَ﴾ الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به.

عباد الله...

فماذا قَالَ لهم هود عليه السلام؟

قال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]. أي: قَدْ استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان أي لم ينزل عَلَى ما ذهبتم إليه دليلا ولا برهانًا وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الَّذِي لا يرد ونكاله الَّذِي لا يصُد.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩- ٤١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا العِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٣- ٢٥].

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية مجملًا ومفصلاً، كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨- ٦٠]، وكقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠].

أيها المسلمون...

وأمَّا تفصيل إهلاكهم فكما قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنَّهُمْ كانوا مُمْحِلين[١]، فطلبوا السُّقيا فرأوا عارضًا في السماء وظنوه سُقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قَالَ تَعَالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي: من وقوع العذاب، وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، أي: كوامل متتابعات، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، شبَّههم بأعجاز النخل الَّتِي لا رءوس لها؛ وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثُمَّ تنكسه عَلَى أمِّ رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، أي: في يوم نحسٍ عليهم مستمر عذابه عليهم. ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، ومَن قَالَ: إن اليوم النحس المستمر يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القُرآن، فإنه قَالَ في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، ومعلوم أنَّها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئمة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: عليهم.

---

(١) مُمْحِلين: أي: انقطع عنهم المطر ويبست أرضهم من الكلأ.

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي: الَّتِي لا تنتج خيرًا، فإن الريح المفردة لا تثير سحابًا ولا تلقح شجرًا، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي: كالشيء البالي الفاني الَّذِي لا يُنتفع به بالكليّة.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - أَنَّهُ قَالَ: «نُصرتُ بالصَّبا[١]، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور[٢]»[٣].

عباد الله...

وهكذا، أهلك الله - تعالى - بعدلِهِ الظالمين، ونجَّى برحمته المؤمنين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والعاقل يسأل نفسه:

ماذا بقي من تِركة عاد؟ وأين ذهبت ديارهم؟

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقف أبو الدرداء ﷺ عَلَى منبر دمشق لَـمَّا رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الأشجار، قام في مسجدهم فنادى: «يا أهل دمشق» فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قَالَ: «ألا تستحيون؟ تَجْمَعون ما لا تأكلون، وتَبْنُون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون؟

---

(١) الصَّبا: هي الريح الشرقية.

(٢) الدَّبُور: هي الريح الغربية، وهي مشئومة.

(٣) «البداية والنهاية» (١٤٩ - ١٥٨) باختصار شديد.

قد كان القرون من قبلكم يجمعون فَيُوعون، ويأملون فَيُطيلُون، ويبنون فيوثّقون، فأصبح جمعهم بُورًا، وأملهم غرورًا، وبيوتهم قبورًا.

هذه عاد قَدْ ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالًا وأولادًا، فَمَنْ يشتري مِنِّي تَرِكَةَ آل عادٍ بِدْرِهَمَيْن؟!»[١].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام هَذِهِ القصّة، سائلًا المولى التوفيق لي ولكم.



(١) «حياة الصحابة» للكاندهلوي (٣/ ٥١٦).

الخطبة الثالثة عشرة:

مع نَبيّ الله صالح عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله مع نبيّ الله صالح عليه السلام.

عباد الله...

وصالح هو صالح بن عُبيد بن ماسخ بن عُبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

أرسله الله تعالى إلى قبيلة ثمود، وكانت ثمود قبيلة تعبد الأصنام، وكانوا عربًا يسكنون الحِجْر الَّذِي بين الحجاز وتبوك.

وكانوا خلفاء لقوم عاد في الحضارة والعُمران والقوّة والبأس، وكانوا يبنون

في الأرض قصورًا، وينحتون من الجبال بيوتًا.

أرسل الله تعالى لهم صالح عليه السلام فدعاهم إلى التوحيد قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

أي: هو الَّذِي خلقكم فأنشأكم في الأرض، وجعلكم عمّارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الَّذِي يستحق العبادة وحده لا سواه.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أقلعوا عمّا أنتم فيه وأقبلوا عَلَى عبادته، فإنَّهُ يقبل منكم ويتجاوز عنكم، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هَذِهِ المقالة، وهي دعاؤكم إيَّانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد، ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟

ما عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منِّي أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هَذَا لأنه واجب عليَّ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

عباد الله...

ولم يؤمن الثموديون بما نصحهم به صالح عليه السلام، ولم يسيروا في طريق الحق كما أرشدهم، بل راحوا يتهمونه بالهذيان وأنَّ السحر سيطر عَلَى عقله فسوَّل له أنَّهُ رسول من عند الله، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل عَلَى أنَّهُ رسول الله حقًّا،

فأتاهم الله بالناقة الَّتِي خلقها الله غير المألوف[1]، وأمرهم ألَّا يمسّوها بسوء، فلا تعذّب ولا تطرد ولا تركب ولا تُذبح، وجعل الله لها شِربًا في يوم معلوم، وجعل لهم شِربًا في يوم غيره، وأوعدهم بالعذاب إن هم اعتدوا عليها بسوء، وأن سلامتهم مقرونةٌ بسلامتها.

قَالَ تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾. [القمر: ٢٧، ٢٨]

عباد الله...

ومكثت النَّاقة بينهم زمنًا تأكل من نبات الأرض، ترد الماء يومًا وتصدّ عنه يومًا آخر، ولا ريب أن قيامها عَلَى هَذِهِ الحال قَدْ استمال إليه كثيرًا من قوم صالح إذ رأوا فيها آية عَلَى صدق نبوّته فأفزع هَذَا الأمر طبقة الأشراف فخافوا عَلَى دولتهم أن تبيد، وعلى سلطانهم أن يزول، فبيّتوا في أنفسهم شرًّا نحو النَّاقة، ووقفوا من صالح ومَن آمَنَ معه موقف العداوة والخصام.

وقد أحسّ صالح بما يبيّتون من شرٍّ فقال لهم: يا قوم لِمَ تستعجلون العذاب الَّذِي توعدون به قبل التوبة، هلَّا طلبتم المغفرة من ربكم ليرحمكم.

ولكن القوم أجابوه: تشاءمنا بك وبمن آمَنَ معك، وقد أصابنا القحط بعد أن جئتنا بدعوتك. فقال لهم صالح: ليس هناك شيء يتشاءم منه، فأسباب الخير والشرّ هي من عند الله، والله سبحانه يختبركم بهذه الشِّدة الَّتِي أنتم عليها لعلكم تؤمنون.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٦، ٤٧].

---

(١) ذكر ابن كثير وغيره أنها خرجت من صخرة صمَّاء، والله على كل شيء قدير.

وكان الأشراف المتكبرون يلومون المؤمنين عَلَى إيمانهم، فيؤكد لهم هؤلاء المؤمنون المستضعفون بأنَّهُمْ مؤمنون برسالة صالح.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

ولم يطق الأشراف احتمال هؤلاء المؤمنين، ولا وجود النَّاقة بينهم، ولعلها كانت ضخمة الجسم فأرهبت أنعامهم، ولعلهم أفزعهم أن يكثر المؤمنون بسبب هَذِهِ النَّاقة، ولعلّ هَذَا كله دفعهم إلى قتلها بالرغم من تحذير نبيّهم بالعذاب وتوعده إيَّاهم بالهلاك إن مسّوها بسوء، ولكنهم أقدموا عَلَى ذبح النَّاقة غير مبالين، وطلبوا من نبيّهم أن يعجّل لهم العذاب الَّذِي هددهم به، ليثبت لهم أَنَّهُ رسول الله[1].

ذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسّرين أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صدوق بنت المحيا بن زهير بن المختار» وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم، ففارقته فدعت ابن عمٍّ لها يقال له «مصرع بن مهرج بن المحيا»، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر النَّاقة، واسم الأخرى: «عُنيزة بنت غنيم بن مجلَز» وتكنى «أمّ عثمان»،وكانت عجوزًا كافرة لها بنات من زوجها «ذؤاب بن عمرو» أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع عَلَى «قِدار بن سالف» إن هو عقر النَّاقة، فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لِعقرها، وسعوا في قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وسعوا في بقيّة القبيلة وحسّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذَلِكَ وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون النَّاقة، فلمَّا صدرت[2] من ورِدها كَمَن لها مُصْرعٌ، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن

(١) «مع الأنبياء في القرآن» (٩٤، ٩٥).

(٢) صدرت: أي رجعت، وفي القرآن: ﴿حَتَّى يُصدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣].

وجوههن ترغيبًا لهم، فابتدرهم «قِدار بن سالف» فشدّ عليها بالسّيف فكشف عن عرقوبها، فخرّت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذِّر ولدها[1]، ثُمَّ طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقيها، وهو فصيلها، فصعد جبلًا منيعًا ودعا ثلاثًا.

وروى عبد الرزَّاق عن مُعمِّر عمَّن سمع الحسن أنَّهُ قَالَ: «يا ربّ أين أُمِّي؟ ثُمَّ دخل في صخرة فغاب فيها».

ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضًا، قَالَ الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَـهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٢ - ١٥].

عباد الله...

قال الإمام ابن كثير: «وذكروا أنَّهُمْ لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها «قِدار بن سالف» لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض، ثُمَّ ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذَلِكَ سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قَالَ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّام ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. أي: غير يومهم ذَلِكَ فلم يصدقوه أيضًا في هَذَا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَـهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثُمَّ نجحدن قتله وننكرن ذَلِكَ إن طالبنا أولياؤه بدمه.

ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

(١) كانت الناقة عُشراء عندما أخرجها الله من الصخرة.

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٠- ٥٣].

وذلك أن الله تعالى أرسل عَلَى أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح عليه السلام حجارة رضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو يوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قَدْ مضى يوم من الأجل، ثُمَّ أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوهم محمرّة، فلما أمسوا نادوا ألا قَدْ مضى يومان من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قَدْ مضى الأجل.

فلمَّا كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب.

فلمَّا أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل مِنْهُمْ ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقَّت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها، قالوا: ولم يبق مِنْهُمْ أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السلق، ويقال لها «الذريعة» وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيًّا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت، قَالَ الله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود: ٦٨]، أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء.

﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٨]، أي: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

وهكذا أبادهم الَّذِي خلقهم، وأسكتهم كما أنطقهم.

أما صالح عليه السلام والذين آمنوا معه فنجَّاهم الله تعالى برحمته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ

يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

فالحمد لله، مغيث المظلومين، وكاسر الظالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد بيَّن لنا النَّبيُّ ﷺ أن عاقر النَّاقة أشقى الرَّجُلَيْن.

عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ - أي ابن أبي طالب-: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَى النَّاسِ رَجُلَيْنِ؟**» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ - يَعْنِي قَرْنَهُ - حَتَّى تُبَلَّ مِنْهُ هَذِهِ - يَعْنِي لِحْيَتَهُ**»[1].

عباد الله...

وهذا الحديث من معجزات النبوّة، فقد تحقّق ما أخبر به النبيُّ ﷺ، وقُتِل عليٌّ رضي الله عنه عَلَى يد رجل من الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم.

عباد الله...

وقد يسأل سائل: ما السبب الَّذِي أردى قوم صالح وأنزل بهم بأس الله الَّذِي لا يُردّ عن القوم المجرمين.

والجواب: السبب ردّهم لنصيحة نبيِّهم، واستمرارهم عَلَى كفرهم.

قَالَ الله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٩]، إخبارٌ عن صالح عليه السلام، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلًا لهم: ﴿**لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ**﴾ أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني،

(١) حسن: رواه أحمد (٤/ ٢٦٣)، وغيره، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٧٤٣).

وحرصت عَلَىٰ ذَٰلِكَ بقولي وفعلي ونيَّتي.

﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع يدَان، والذي وجب عليَّ من أداء الرسالة والنصح لكم قَدْ فعلته وبذلته لكم، ولكنَّ الله يفعل ما يريد.

وهذا تحذير لكل مَن كان هَذَا حاله في هَذِهِ الحياة.

إن ردَّ النصيحة علامة شئوم، ونذير عذاب.

عباد الله...

وبقيت في قصّة صالح عليه السلام مع قومه بقيّة، وهي:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَامَ تَبُوكَ، نَزَلَ بِهِمْ الحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنْ الآبَارِ الَّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَصَبُوا القُدُورَ بِاللَّحْمِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَهَرَاقُوا القُدُورَ وَعَلَفُوا العَجِينَ الإِبِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى البِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى القَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا، قَالَ: «**إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**»[1].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ ﷺ وَهُوَ فِي الحِجْرِ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»[2].

وفي بعض الروايات: أَنَّهُ ﷺ لَـمَّا مر بمنازلهم قنّع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلَّا أن تكونوا باكين، وفي رواية: «**فإن لم تبكوا فتباكوا خشيّة أن يُصيبكم مثلُ ما أصابهم**».

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١١٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٧٣٢٠، ٧٣٢١).

قَالَ النووي: «وفيه - أي الحديث - الحثّ عَلَى المراقبة عند المرور بديار الظالمين، ومواضع العذاب، ومثله الإسراع في وادي محسر؛ لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغي للمارّ في مثل هَذِهِ المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك» ا.هـ[١].

۞۞۞۞۞

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٤٣٢).

الخطبة الرابعة عشرة:
قصّة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله مع أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.

عباد الله...

وإبراهيم عليه السلام هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وقد ورد آيات كريمة في فضائله:

منها:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٢].

قَالَ الإمام القرطبيّ - رحمه الله تعالى -: «الأُمَّة: الرَّجُلُ الجامع للخير، وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قَالَ: بلغني أن عبد الله بن مسعود قَالَ: يرحم الله معاذًا[١]، كان أمَّةً قانتًا، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن إنما ذكر الله ﷻ بهذا إبراهيم ﵇، فقال ابن مسعود: إن الأُمَّة الَّذِي يُعلِّم النَّاس الخير، وإن القانت هو المطيع» ا.هـ[٢].

(٢) وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١].

(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

الحليم: الكثير الحلم، وهو الَّذِي يصفح عن الذنوب ويصبر عن الأذى، وقيل: الَّذِي لم يعاب أحدًا قطّ إلَّا في الله، ولم ينتصر لأحد إلَّا الله.

والأوَّاه: قَالَ ابن مسعود: الدَّعَّاءُ، وقيل: هو الرَّحيم أي: بعباد الله، وقيل: المُوقن. وقيل: التوَّاب. وقيل: المسبِّح. وقيل: لا يُحافظُ عَلَى سُبْحة الضُّحى إلَّا أوَّاه. وقيل: الأوَّاه: الحفيظُ الوَجِلُ، يُذْنب الذَّنب سرًّا ثُمَّ يتوب منه سرًّا، وقيل: الفقيه.

قَالَ الإمام أبو جعفر بنُ جَرير: وأَوْلَى الأقوال قولُ مَن قَالَ: إنَّهُ الدَّعَّاء، وهو كثير الدُّعاء[٣].

والمنيب: الراجع، يقال: أناب، إذَا رجع. وإبراهيم ﵇ كان راجعًا إلى الله تعالى في أموره كلّها.

أيها المسلمون...

وقد وردت أحاديث عن المعصوم ﷺ في صفة إبراهيم ﵇؛ منها:

---

(١) يعني: معاذ بن جبل - رَضِيَ الله عَنْهُ -.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٧٩).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣١).

عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ[١]»[٢].

عباد الله...

واختلفوا في الموضع الَّذِي كان فيه، والموضع الَّذِي وُلِدَ فيه.

فقال بعضهم: كان مولده بـ«بابل»، ورجّحه ابن كثير، وصحّحه ابن عساكر.

وقال بعضهم: كان مولده بِـ«حَرَّان»، ولكن أباه نقله إلى أرض بابل.

وعامَّة السَّلف من أهل العلم: أن إبراهيم ﷺ وُلِدَ في زمن النمرود بن كنعان[٣].

وقد انتقل إبراهيم مع أبيه إلى أرض حرَّان وهي أرض الكلدانيين في ذَلِكَ الزمان، وكان أهل حَرَّان يعبدون الكواكب والأصنام، وكل مَن كان عَلَى وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم ﷺ وامرأته سارة وابن أخيه لوط ﷺ.

ولم يكن بين إبراهيم ونوح عليهما السلام نبيّ إلا هود وصالح عليهما السلام.

وإبراهيم ﷺ هو خليل الرحمن ووالد الأنبياء، وإمام الحنفاء.

قَالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وفي هَذِهِ الآية أمرٌ من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ باتباع ملّة إبراهيم ﷺ، فملة إبراهيم ﷺ هي ملة نبينا ﷺ وهي ملتنا وهي أسوة نبينا ﷺ وأسوتنا، كما قَالَ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

(١) يعني: دحية الكلْبيّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وكان جميل الصورة.
(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٣٤).
(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٣٣).

قَالَ ابن كثير: والحنيف هو المائل عن الشرك قصدًا، أي: تاركًا له عن بصيرة ومقبل عَلَى الحق بكليته، ولا يصده عنه صادّ ولا يردّه عنه راد. وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّـهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمامٌ يُقتدى إلى درجة الخلة الَّتِي هي أرفع مقامات المحبَّة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربِّه، كما وصفه به في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. قَالَ كثير من علماء السلف: أي: قام بجميع ما أمر به وفي كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمرٌ جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير.

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ما هي هَذِهِ الكلمات؟

قَالَ ابن عباس - رَضِي الله عَنْهُما -: «ابتلاه بالطّهارة: خمسٌ في الرَّأس، وخمسٌ في الجسد. في الرأس: قصُّ الشارب، والمضمضةُ، والاستنشاق، والسِّواك، وفَرْقُ الرَّأس. وفي الجسد: تقليمُ الأظفار، وحَلْقُ العَانَةِ، والخِتانُ، ونَتْفُ الإبط، وغَسْلُ أثَر الغائِطِ والبَوْل بالماء»[١].

عباد الله...

وقد أنعم الله عَلَى إبراهيم عليه السلام بأن آتاه رشده في صغره، قبل أن يبعثه ويتخذه خليلًا في كبره، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

قَالَ ابن كثير: يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أَنَّهُ آتاه كما قَالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، أي: وكان أهلًا لذلك.

وكانت أوَّل دعوةُ إبراهيم عليه السلام لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، لأَنَّهُ أحقّ النَّاس بإخلاص النصيحة له، كما قَالَ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لاَ

---

(١) قَالَ ابن كثير «صحّ ذَلِكَ عن ابن عباس». انظر «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ١٥٣).

تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١- ٤٨]

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بيَّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان الَّتِي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئًا أو تفعل به خيرًا من رزق أو نصر؟! ثُمَّ قَالَ منبهًا عَلَى ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سنًّا من أبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]. أي: مستقيمًا واضحًا سهلًا حنيفًا، يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك.

فلما عرض هَذَا الرشد عليه وأهدى هَذِهِ النصيحة إليه، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال، ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قَالَ له إبراهيم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] أي: لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذًى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيرًا فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

قَالَ ابن عباس وغيره: أي: لطيفًا، يعني: في أن هداني لعبادته والإخلاص له، ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ» [١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، هَذَا يدل عَلَى أن اسم أبي إبراهيم آزر، وجمهور أهل النَّسب - مِنْهُمْ ابن عباس - عَلَى أن اسم أبيه «تارح»، وأهل الكتاب يقولون: «تارخ» بالخاء المعجمة، فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر[٢].

وقال ابن جرير: والصواب: أن اسمه «آزر» [٣] ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لَقب، والآخر عَلم، وهذا الَّذِي قاله محتمل، واللَّـهُ أَعْلَمُ[٤].

عباد الله...

وهكذا أقام إبراهيم عليه السلام الحُجَّة عَلَى أبيهِ، فلمَّا عاند الوالد، وتبيَّن لإبراهيم أَنَّهُ عدوٌّ لله، تبرَّأ منهُ.

وهذا أصل من أصول الاعتقاد.

الولاء والبراء، الحبّ في الله، والبُغض في الله.

فتمسكوا **عباد الله** بهذا الأصل العقديّ، ولا تُفرِّطوا فيه، فلن يَستكمل العبدُ الإيمانَ إلَّا بهذا الأصل.

أمَّا التفريط فيه، فقد يجرُّ عَلَى العبد ويلات وويلات، بل قَدْ يعصف بإيمانه

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٠).
والذِّيخ: هو الضَّبْع.
(٢) وهذا ضعيف.
(٣) ومن قَالَ: إن آزر عمَّهُ فقد أبعد النجعة.
(٤) من «البداية والنهاية» **باختصار**.

وهو لا يشعر، فقد يُحب من يكرهه الله، ويكره من يُحبّه الله.

نسأل الله تعالى السَّلامة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن أقام إبراهيم عليه السلام الحُجَّة عَلَى أبيه، وكان من أمرهما ما مرّ بنا قبل قليل، التفتَ عليه السلام إلى قومه الذين عبد بعضُهم الأصنام(١)، وعبدَ الآخرون الكواكب(٢)، فالتقى بهم وناظرهم، وأقام عليهم الحجَّة، وهذه مهمَّة الدُّعاة إلى الله عَلَى مرِّ العُصور، وكرِّ الدُّهور.

أمَّا تفصيل ما حدث، فسنلتقي معه إن شاء الله في الخطبة التالية، فإلى اللقاء.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمة عَلَى الرشد، ونسألك حُسن عبادتك، وشكر نعتمك

آمين... آمين... آمين

والحمد لله ربِّ العالمين

❁❁❁❁❁

---

(١) وهم أهل بابل، كما سيأتي.

(٢) وهم أهل حرَّان، كما سيأتي.

الخطبة الخامسة عشرة:

إقامة الحجَّة عَلَى عَبَدةَ الأصنام والكواكب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصّة إبراهيم عليه السلام.

عباد الله...

ولَـمَّا أقام إبراهيم الخليل عليه السلام الحجَّة عَلَى أبيه - كما مرَّ - عمد إلى عُبَّاد الكواكب والأصنام من قومه، فناظرهم، وأفحمهم وأقام عليهم الحُجَّة.

قَالَ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ

الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم باللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٧٥- ٨٣].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «البداية» ما مختصره:

«وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هَذِهِ الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هَذَا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبيَّن لهم أولًا: عدم صلاحية الكواكب لذلك. قيل هو الزهرة، ثُمَّ ترقى منها إلى القمر الَّذِي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثُمَّ ترقى إلى الشمس الَّتِي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً، فبيَّن أنَّها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي: طالعةً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: لست أبالي هَذِهِ الآلهة الَّتِي تعبدونها من دون الله، فإنَّها لا تنفع شيئًا ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته هَذِهِ في الكواكب لأهل حرّان؛ فإنَّهُم كان يعبدونها». ا.هـ.

عباد الله...

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم، وأهانها وبيّن بطلانها، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١- ٧٠]

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي

بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٩- ٨٣].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٨٣- ٩٨].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «البداية» ما مختصره:

«يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله ﷺ أنه أنكر عَلَى قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، أي: معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤]، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٥- ٨٧]، قَالَ قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟

وقال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢- ٧٤]، سلموا له أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر شيئًا وإنما الحامل لهم عَلَى عبادتها الإقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهَّال، ولهذا قَالَ لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧]، وهذا برهان قاطع عَلَى بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، يقولون: هَذَا الكلام الَّذِي تقوله لنا وتُنتَقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا، أتقوله محقًّا

جادًا فيه أم لاعبًا؟

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، يعني: بل أقول لكم ذَلِكَ جادًا محقًا وإنَّما إلهكم الله الَّذِي لا إله إلا هو، ربكم ورب كل شيء، فاطر السموات والأرض الخالق لها عَلَى غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا عَلَى ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، أقسم ليكيدنَّ هَذِهِ الأصنام الَّتِي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم.

قيل: إنه قَالَ هَذَا خفية في نفسه، وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم.

وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال: إني سقيم، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام الَّتِي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]، أي: ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانًا إليها، فقال لها عَلَى سبيل التهكم والإزدراء: ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١- ٩٣]، لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم في يده، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]، أي: حطامًا، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هَذِهِ الصغار.

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حلَّ بمعبودهم قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وهذا فيه دليلٌ ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتهم الَّتِي كانوا

يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، أي: يذكرها بالعيب والتنقص لها والإزدارء بها، فهو المقيم عليها والكاسر لها.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أي: في الملأ الأكبر عَلَى رءوس الأشهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ مقالته ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هَذَا أكبر مقاصد الخليل ﷺ أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم عَلَى جميع عُبَّاد الأصنام الحجَّة عَلَى بطلان ما هم عليه، كما قَالَ مُوسَى ﷺ لفِرعَون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا قالوا: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهِيم قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء:٦٢، ٦٣]، قيل: معناه هو الحامل لي عَلَى تكسيرها، وإنما عرض لهم في القول ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وإنما أراد بقوله هَذَا أن يبادروا إلى القول أن هَذِهِ لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، أي: فعادوا عَلَى أنفسهم بالملامة، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، قَالَ قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي فأطرقوا ثُمَّ قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هَذِهِ لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها؟

فعند ذَلِكَ قَالَ لهم الخليل ﷺ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

كما قَالَ في موضع آخر: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤]، قَالَ مجاهد: يسرعون ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، أي: كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون، ﴿وَاللَّهُ

خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطلٌ فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له».ا.هـ.

عباد الله...

وبهذا أقام إبراهيمُ عليه السلام الحجَّة عَلَى قومه، فماذا كان ردّ فعلهم؟

هذا ما سوف نتحدَّث عنه بعد قليل إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فماذا كان ردّ فعل قوم إبراهيم لَـمَّا أقام عليهم الحُجَّة؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَـهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الـجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرَّب جلَّ جلالهُ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨- ٧٠].

وذلك أنَّهُمْ شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أنَّ المرأة مِنْهُمْ كانت إذَا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملنَّ حطبًا لحريق إبراهيم، ثُمَّ عمدوا إلى جوبة[١] عظيمة فوضعوا فيها ذَلِكَ الحطب

(١) الجوبة: الأرض الصَّلبة الملساء، يُحاط عليها بالحجارة.

وأطلقوا فيه النار فاضطربت وتأججت والتهبت وعلاها شَرَرٌ لم ير مِثلهُ قطّ، ثُمَّ وضعوا إبراهيم ﷺ في كِفَّة منجنيق[١]،ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وُضع الخليل ﷺ في كِفَّة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثُمَّ ألقوه منه إلى النَّار قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. كما روى عن ابن عباس أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] [٢].

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، قَالَ علي بن أبي طالب: أي: لا تضر به.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لأذى إبراهيم بردها.

فأرادوا أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يَغلبوا فَغُلبوا، قَالَ الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]، ففازوا بالخسارة والسفال هَذَا في الدُّنْيَا، وأمَّا في الآخِرَة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يلقون فيها تحية ولا سلامًا، بلى هي كما قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

عباد الله...

ومِمَّا سبق: نأخذ درسًا عظيمًا في حُسن الثبات عَلَى المبدأ، ودرسًا آخر في الثقة في الله تعالى، فما دام الإنسان عَلَى حق، فلو اجتمعت عليه الدُّنْيَا، فلن يضرّه كيدُها شيئًا.

---

(١) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت تلقى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٣).

لماذا؟

لأنَّ الله تعالى حَسبُهُ، أي: كافيه، ومَن كان الله حَسبهُ فَنِعمَ المولى ونِعم النَّصير.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «والله ما عزَّ ذو باطل ولو طلع القمرُ بين عينيه، وما ذلّ ذو حقٍّ ولو قامت الدُّنْيَا عليه».

اللَّهمَّ انصُر دينَك، وكِتَابك، وسُنَّة نبيِّك، وعِبادَكَ الصَّالحين.

آمين... آمين ... آمين

الخطبة السادسة عشرة:

مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديثُ موصولًا عن قصّة إبراهيم عليه السَّلام.

عباد الله...

- وهذه مناظرة أخرى، أقام إبراهيم عليه السلام فيها الحُجَّة عَلَى النمرود بن كنعان.

قَالَ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فمن هو النمرود؟

هو النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد.

وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قَالَ المفسرون وغيرهم من علماء النَّسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، وذكروا أن النمرود هَذَا استمر في ملكه أربعمائة سنة[١]، فاللَّـهُ أَعْلَمُ.

والنمرود هو أحد الأشقياء الذين نفخهم الشيطان، وغَرَّهم المُلك، فظنَّ المنحوس أن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يُجار عليه، وحاشى لله وكلا، فادَّعى الشقي الألوهية، والربوبية، وظنَّ أَنَّهُ يجب أن تُذعن له الرقاب، وتنحني له الأصلاب، وتعفّر له الوجوه في التراب.

غريب أمر هَذَا الإنسان، وعجيب حاله إذَا نسي نفسه.

قَالَ الحسن - رحمه الله تعالى -: «العجب من ابن آدم، يغسل الخِراء بيدهِ كل يومٍ مرة أو مرتين، ثُمَّ يعارض جبار السموات»[٢].

وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزُّبير[٣] عَلَى سريره، فجاء يومًا ومصعبٌ مادّ رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذَلِكَ في وجهه، فقال: «عجبًا لابن آدم يتكبر وقد خَرَجَ من مجرى البول مرتين»[٤].

وعن أبي بكر الهذليّ، قَالَ: بينما نحن مع الحسن إذ مرّ علينا ابن الأهتم (الأمير) يريد المقصورة وعليه جباب خز - أي حرير - قَدْ نضد بعضها فوق بعض عَلَى ساقه وانفرج عنه قباؤه وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرةً فقال: «أفٍّ... أفٍّ... شمخ بأنفه، ثاني عِطفه، مصعَّر خدِهِ، ينظر في عطفيهِ، أي حميق أنت تنظر في عِطفكَ في نِعمٍ غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله

---

(١) «البداية» (١/ ٢٩٩).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٣٨).

(٣) أمير العراق، وهو مصعب بن الزبير بن العوام.

(٤) «الإحياء» (٣/ ٣٣٩).

فيها ولا المؤدَّى حقّ الله منها، والله أن يمشي أحدٌ طبيعته يتخلّج تخلّج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان لفتة».

فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: «لا تعتذر إليَّ وتب إلى ربِّك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]»[(١)].

عباد الله...

كان أهل بابل يعبدون الأصنام، فناظرهم إبراهيم عليه السلام في عبادتها، وكسّرها عليهم وأهانها وبيّن بطلانها، وأقام عليهم الحجّة، فلمَّا انقطعت حُجَجُهم لجأوا إلى القوَّة - كما تقدَّم - ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وخرج إبراهيم عليه السلام من النَّار مرفوع الرأس، عالي الهامة، لم تُحرق النارُ منه سوى وثاقه، وكانت هَذِهِ الآية كافة لإذعان الرقاب إلى ربِّ الأرباب سبحانه، لو كان بالقلوب حياة، ولكن القوم أصرّوا عَلَى عنادهم، واستمروا عَلَى كُفرهم.

ولما كان النمرود هو ملكهم المطاع، فقد دعاه إبراهيم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولكن النمرود طغى وبغى وتجبَّر وعتا، وآثر الحياة الدُّنْيَا، وحمله الجهل والضلال عَلَى إنكار الخالق الصانع جلّ وعلا، ودار بينه وبين إبراهيم الخليل هَذَا الحوار:

قَالَ تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّـهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّـهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ذكر السُّدِّيُّ - رحمه الله - أن هَذِهِ المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خَرَجَ من النَّار ولم يكن اجتمع به، فكانت بينهما هَذِهِ المناظرة[(٢)].

---

(١) «الإحياء» (٣/ ٣٣٩).

(٢) «البداية» (١/ ١٧٩).

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قَالَ الفرَّاء: بمعنى: هل رأيت، أي: هل رأيت الَّذِي حاجَّ إبراهيم وهو النمرود بن كوش بن كنعان(١).

وقوله: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ قَالَ الإمام الطبريّ: يعني: الَّذِي خاصم.

وقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّـهُ الْمُلْكَ﴾ أي: لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله الملك، عَلَى معنى: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو، فحاجَّ لذلك.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قَالَ الطبري: يعني بذلك: ربِّي الَّذِي بيده الحياة والموت يُحيي مَن يشاء ويميت مَن أراد بعد الإحياء.

قَالَ النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي: قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميت، أستحيي مَن أردتُ قتله فلا أقتله، فيكون ذَلِكَ منِّي إحياءً له، وأقتل آخر فيكون ذَلِكَ منِّي إماتةً له.

وقال الشوكاني: أراد إبراهيم ﷺ أن الله هو الَّذِي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذَلِكَ إحياءً، وعلى أن يقتل فيكون ذَلِكَ إماتةً، فكان هَذَا جوابًا أحمق لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراد الكافر، فلو قَالَ له: ربه الَّذِي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر عَلَى ذلك؟ لبهت الَّذِي كفر باديء ذي بدء وفي أوَّل وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسًا لخناقه، وإرسالًا لعنان المناظرة(٢).

قَالَ ابن جريج: كان قَدْ أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، فقال: أنا أحيي وأميت(٣).

قَالَ إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ لكون هَذِهِ الحجة لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسّر للكافر أن يخرج منها بمخرج مكابرة ومشاغبة.

---

(١) «فتح القدير» (١/ ٢٧٧).
(٢) «فتح القدير» (١/ ٢٧٧).
(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ٣٩).

قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ يعني: وقعت عليه الحُجَّة أي: انقطع وسكت متحيرًا.

قوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: والله لا يهدي أهل الكفر إلى حجة يدحضون بها حجَّة أهل الحقّ عند المحاجّة والمخاصمة، لأنَّ أهل الباطل حججهم داحضة.

قال محمد بن إسحاق: أي: لا يهديهم في الحجة عند الخصومة، لما هم عليه من الضلالة[1].

عباد الله...

وحكى زيد بن أسلم - رحمه الله - أن الله تعالى سلَّط عَلَى النمرود بعوضةً دخلت في مِنْخَرِه، وَمَكَّنها الله بقدرته من رأسه، وأمدَّها الله بالقوَّة، فكان لا يَستَريح إلَّا إذَا ضُرب بالنِّعال عَلَى أمِّ رأسه.

وصدق رَبُّنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَـهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وإن الناظر الحصيف ليرى من خلال صفحات التاريخ أن مآل كل متكبِّر، ونهاية كل متغطرس، ومصارع الظالمين عبر التاريخ، فيها من العِبر والعِظات ما يدل عَلَى أن العِزة بيد الله وحده، والملك له وحده، وأنَّ المهانة والذُّل لِمَنْ تَعَالى عَلَى الله سبحانه، وتطَاوَل عَلَى آياته ورسله، ﴿فَلِلَّهِ الـحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَـهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الـحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

❊❊❊

(١) نفس المرجع (٣/ ٤٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونَختِم الحديث عن هَذِهِ القصّة بكلام نفيس للإمام ابن القيّم - رحمه الله -: «وفي هَذِهِ المناظرة نكتة لطيفة جدًّا، وهي أن شرك العَالِم إنَّما هو مسند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثُمَّ صوِّرت الأصنام عَلَى صورها، فتضمَّن الدليلان اللَّذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملةً، بأن الله وحده هو الَّذِي يحيي ويميت ولا يصلح الحي الَّذِي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإنَّ له ربًّا قادرًا قاهرًا متصرفًا فيه إحياءً وإماتةً،ومن كان كذلك فكيف يكون إلهًا حتى يتخذ الصنم عَلَى صورته؟ ويعبد من دونه؟ وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحسّ، هَذِهِ الشمس وهي مربوبة مدبَّرة مُسخَّرة، لا تصرف لها في نفسها بوجه ما، بل ربّها وخالقها سُبحَانَهُ يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخَّرة مدبَّرة، لا إله يعبد من دون الله». ا.هـ[1].

عباد الله...

وبهذا نأتي إلى ختام حديثنا عن هَذِهِ المناظرة، سائلًا المولى تبارك وتعالى أن يجعلنا هُداةً مهتدين، غير ضالين ولا مُضلين.

آمين... آمين... آمين

---

(١) من كتاب «مفتاح دار السعادة».

الخطبة السابعة عشرة:

هجرة إبراهيم عليه السلام إلى أرض مصر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة إبراهيم عليه السلام.

أيها المسلمون...

قَالَ الله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا

إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١- ٧٣]

وذلك أنه لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته سارة عاقرًا لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحدًا، بل معه ابن أخيه لوط الَّذِي آمن معه وهبه الله تعالى بعد ذَلِكَ الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء عَلَى نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة من الله وكرامة له.

والأرض الَّتِي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي الَّتِي قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، قاله أُبي بْن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم، وكانت هجرته من أرض بابل بعد نجاته من نار أهلها، وبعد مجادلته الملك النمرود وإفحامه بالحجَّة - كما سبق.

عباد الله...

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه «إني جاعل هَذِهِ الأرض لخلفك من بعدك» فابتنى إبراهيم مذبحًا لله شكرًا عَلَى هَذِهِ النِّعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس، وأنه كان جوع أي: قحط وشدة وغلاء، فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها، وإن إبراهيم قَالَ لها: قولي: أنا أخته، وذكروا إخدام الملك إيَّاها هاجر، ثُمَّ أخرجهم منها، فرجعوا إلى بلاد اليمن - يعني أرض بيت المقدس - وما والاها، ومعه دواب وعبيد وأموال.

عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ[١] قَوْلُهُ حِينَ دُعِيَ إِلَى آلِهَتِهِمْ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: وَقَوْلُهُ: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾: وَقَوْلُهُ لِسَارَةَ إِنَّهَا أُخْتِي، قَالَ: وَدَخَلَ إِبْرَاهِيمُ قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ[٢] فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ اللَّيْلَةَ بِامْرَأَةٍ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، قَالَ:

(١) ليس الكذب هنا على الحقيقة، بل هو من نوع استعمال المعاريض كما قيل: وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.
(٢) هو ملك مصر، ويُسمَّى «سنان بن علوان».

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ المَلِكُ أَوْ الجَبَّارُ مَنْ هَذِهِ مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي[١]، قَالَ: أَرْسِلْ بِهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ وَقَالَ لَهَا: لَا تُكَذِّبِي قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، إِنْه ما عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَتَوَضَّأُ وَتُصَلِّي وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ، قَالَ: فَغُطَّ - ضغط بشدة - حَتَّى رَكَضَ - ضرب - بِرِجْلِهِ.

قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّهَا قَالَتْ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ إِنْ يَمُتْ يُقَلْ هِيَ قَتَلَتْهُ»، قَالَ: فَأُرْسِلَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَتَوَضَّأُ وَتُصَلِّي وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ، قَالَ: فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ».

قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ إِنْ يَمُتْ يُقَلْ هِيَ قَتَلَتْهُ» قَالَ: فَأُرْسِلَ، فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ: مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَعْطُوهَا هَاجَرَ، قَالَ: فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَدَّ كَيْدَ الكَافِرِ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً»[٢].

وفي رواية: «فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ. فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ. فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ. فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ فَأَتَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا[٣]، قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الكَافِرِ - أَوِ الفَاجِرِ - فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ». متفق عليه.

ثم إنَّ الخليل عليه السلام رجع من بلاد مِصْرَ إلى أرض التيمن - وهي الأرض المقدسة الَّتِي كان فيها - ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

---

(١) أي في الدِّين.
(٢) قَالَ الحافظ ابن كثير: تفرّد به أحمد من هَذَا الوجه، وهو على شرط الصحيح.
(٣) كلمة بمعنى: ما الخبر.

ثُمَّ إنَّ لوطًا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذَلِكَ إلى أرض الغور، بالمعروف بـ«غور زغر» فنزل بمدينة «سدوم» وهي مدينة قديمة في فلسطين عَلَى شاطئ البحر الميت، وهي قرية قوم لوط، وجاء عن أهل الكتاب: أن الله أمطرها مع مدينة «عامورة» نارًا قِصاصًا عَلَى خطايا أهلها، وهي أم تلك البلاد في ذَلِكَ الزمان، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا، ثُمَّ إن طائفة من الجارين تسلطوا عَلَى لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا ماله، واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم عليه السلام سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلًا فاستنقذ لوطًا عليه السلام، واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقًا كثيرًا، وهزمهم وسار في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده صلوت الله وسلامه عليه.

عباد الله...

وقد قصَّ علينا عبد الله بن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - ما حدث بعد ذَلِكَ فقال: «**أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهْيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَ وَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾. وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ - فَانطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ، الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ، حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ، فَقَامَتْ**

عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ. تُرِيدَ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ. فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ - أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا».

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْغُلاَمُ، وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ، حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ - أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا. فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ. قَالُوا نَعَمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهْيَ تُحِبُّ الإِنْسَ». فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلاَمُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ. فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ

أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ. فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ، وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا. وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾. قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]»[(١)].

عباد الله...

هَذَا ما حدث بالتمام والكمال، كما أخبر سيِّد الأنام ﷺ.

وفي القصّة دروس وعظات وفوائد، نلتقي بها بعد قليل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «مختصر صحيح البخاري» (١٣٥١).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ففي القصّة السابقة فوائد، نذكر منها:

الفائدة الأولى: الثقة في الله تعالى:

ويظهر ذَلِكَ في هاجر لَـمَّا قالت لإبراهيم عليه السلام: آلله أمرك بهذا؟ قَالَ: نعم، قالت: إذًا لا يضيِّعنا.

وهذا لا يكون إلَّا من قلب امتلأ إيمانًا بالله عز وجل.

الفائدة الثانية: الصبر عَلَى الابتلاء من صفات الأصفياء والأولياء:

فكون الإنسان يترك زوجته في وادٍ غير ذي زرع وليس فيه أحد، وينصرف وقلبه متعلِّق بالولد، فهذا ابتلاءٌ عظيم ولا يصبر عليه إلَّا مَن رزقه الله الصَّبر، ثُمَّ ابتلاه الله بعد ذَلِكَ بذبح هَذَا الولد لَـمَّا كبر وبلغ معه السَّعي، ولما استسلما وتلهُ للجبين ليذبحه من قفاه حتى لا يرى آلام إسماعيل وهو يُذبح لم يتردد، وبدأ فعلًا في الذَّبح، فإذا بالله تعالى يبطل مفعول السِّكين: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]. وفداه الله بذبحٍ عظيم.

وبسبب إبراهيم عليه السلام وأهله شُرِّعت لنا عبادات منها الأضحية والحج، والسَّعي بين الصفا والمروة، وعندما ترك إبراهيم زوجه وولده رزقهما الله بهذا الماء الَّذِي هو ماء زمزم.

الفائدة الثالثة: الأخذ بالأسباب:

فَهَاجَرَ لَـمَّا نفد ما عندها قالت: لو ذهبت فنظرت لعليَّ أحسّ مِن أحدٍ، وذهبت وصعدت الصَّفا وصعدت المروة سبع مرات، وكانت بينهما تجري وهي

امرأة لا تملك شيئًا وفعلت كل ما بوسعها، ولم تقل: أبقى في مكاني وينزل الله لي من السماء رزقًا، ولذلك فلابد من الأخذ بالأسباب.

الفائدة الرابعة: أنَّ الفَرج يأتي بعد الشِّدة:

وأنَّهُ إذَا بلغ الأمر منتهاه في الشدة جاء الفَرج، قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، والإنسان إذَا وصل إلى حالة اليأس بعد الأخذ بكل الأسباب الَّتِي في متناوله جاءه الفرج من الله.

وقد جاء الفرج من الله لِهَاجَر وجاءها الملك ليس بعد المرة الأولى ولا الثانية ولكن بعد المرة السابعة، وسعت سعي الإنسان المجهود بين الصفا والمروة، وكانت تصعد جبلًا وتنزل جبلًا سبع مرات، وتجري في الوادي، وهذه من سُنَّة الله تعالى أن يأتي بالفرج بعد الشِّدة.

الفائدة الخامسة: حِرص الإنسان ربما يمنع من مزيد من الخير:

فقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**». أي: نهرًا يجري.

الفائدة السادسة: حنان الأُمّ وعطفها عَلَى ولدها:

يدلُّ على ذلك: أن هاجر لما رأت ولدها يتلبط، ما استطاعت أن تتحمَّلَ هذا المنظر، وراحت تبحثُ عن حلٍّ.

الفائدة السابعة: تفقد الآباء للأولاد:

فإنَّ إبراهيم عليه السلام كان يأتي من الشام يتفقد تركته، فيجب عدم إضاعة الأولاد، وهذا مهمّ للذين يعملون خارج بلادهم ويتركون أهاليهم وأولادهم، فعليهم ألَّا يتركوا فرصةً يستطيعون الذهاب فيها إلى زوجاتهم وأولادهم إلَّا وينتهزوها لتفقّد الزوجات والأولاد، لأنَّ المرأة إذَا تُركت لمدة طويلة كسنة أو أكثر بعيدة عن زوجها فإن هَذَا شيء يُشعرها بالخوف لأنها لا تشعر بالأمان إلَّا مع زوجها، وربما احتاجت فمدت يدها إلى النَّاس، وطول المدّة مدعاة للفساد والوقوع في الفاحشة والرذيلة خصوصًا في هَذَا الزمان، وكم حدثت من مآسي في

هَذَا الشأن، والأولاد إذَا كبروا ولم يجدوا أباهم بجانبهم فإنهم ينشأون عَلَى الفساد فيصير مِنْهُمْ مَن يُدخن ومنهم مَن يشرب المخدرات، ومنهم مَن يقيم عَلَى المنكرات، وذلك كله بسبب غياب الأب.

نحن لا نُنكر أن المادة مهمّة ولكن بقاء الأب بجانب زوجته وأولاده أهم، فعلى الإنسان ألَّا يدع فرصة إلَّا ويتفقد فيها تِركته.

ولا يجوز للإنسان أن يترك زوجته فوق الأربعة أشهر أو السّتة أشهر إلَّا برضاها، فإذا قالت: أنا لا أرضى أن تتركني أكثر من أربعة أو ستة أشهر، فعند ذَلِكَ لها أن تطلب الطلاق أو يرجع إليها.

نعم؛ هناك صعوبات موجودة في بعض الأحيان ليس للإنسان فيها يد، فهو يريد أن يكون بجانب زوجته وأن يحضرها معه، لكن تحول بينه وبين ذَلِكَ عوائق لا تكون له يد فيها، فعليه في هَذِهِ الحالة أن يشكو أمره إلى الله ويأخذ بأقل المفاسد، فإن كان أقل المفاسد أن يعمل بعيدًا عنهم فيعمل، وإن كان أقل المفاسد أن يرجع إليهم فليرجع.

وربما العيش عَلَى شيء من الضيق وهو مع أولاده وأهله خير من توفير ثمن أرض أو بناء، وهو راعٍ بعيد عن رعيته.

كذلك إسماعيل عليه السلام يخرج ليصيد، وهذا يؤخذ منه سعي الزوج لإعطاء العائلة والأولاد حقهم والقيام عليهم، وبعض النَّاس كُسالى يقول لزوجته: اذهبي واشتغلي أنتِ، ويأخذ راتب الزوجة وهو نائم، ولو أَنَّهُ حاول ولم يجد وظيفة قَدْ نقول: إنه معذور.

فها هو إسماعيل عليه السلام يبري النَّبل ويذهب ليصيد ويخرج ويبتعد مسافة طويلة، ويأتي أبوه إبراهيم عليه السلام ويذهب ولا يراه.

الفائدة الثامنة: الحث عَلَى انتقاء الزوجة الصالحة القنوعة الَّتِي تعرف النعمة وتشكر الزوج:

فزوجة إسماعيل الأولى لَـمَّا سألها إبراهيم عليه السلام قالت: «نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ»، فكانت تشتكي، وهذا من سوء الخُلق، وعندما جاء غريب إليها لم

تُقدّم إليه واجب الضيافة، بل شكت زوجها إليه، ولو أنها شكت زوجها إلى أبيه وهي تعرف أَنَهُ أبوه لقلنا: إنها تُريد حلًّا في نطاق الأسرة، ولكنها تشكو زوجها إلى الغريب، لهذه لا يوجد فيها خير، لذلك أمره أن يطلقها.

وهنا حكم شرعي ألا وهو:

حُكم أمر الأب أو الأم للابن بطلاق زوجته؟

هناك تفصيل:

أولًا: إن كانت الزوجة سيئة الدِّين والخُلق، وجب عليه أن يطيع أبويه، مثل إسماعيل لَـمَّا أمره أبوه إبراهيم عليهما السلام أن يُطلق زوجته لَـمَّا رأى أنها سيئة الخُلق وتتبرم ولا يعجبها شيء، وتشكو زوجها للأغراب، وكذلك إذَا كانت زوجة لا تصلي وتفعل المنكرات كأن تقول الزوجة: إما أنا أو التلفاز، فتخيره بين ترك أولادها إذَا لم يأت لها به وبين التلفاز، فهي عندها استعداد أن تُضحي بذلك من أجل التلفاز، ففي تلك الحالات تنتفي السكينة المرجوَّة من الزواج في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم: ٢١]، فإنه يكون له من الخير أن يطيع أبويه في أن يطلقها، فإنَّها ستكون له جحيمًا في الدُّنيا، وجحيمًا في الآخِرَة إذَا كانت تجر عليه المعاصي.

ثانيًا: أما إذَا كانت المرأة حسنة الدِّين وحَسنة الخُلق، فجاء الأب وقال لولده: طلِقها، لغرض غير معتبر في نفس الوالد، كأن يقول: أنا أدخل البيت فلا تحمل حذائي وتمشي ورائي، فإذا حصل الطلاق وشرِّد الأولاد وخُرِّب البيت من أجل ذَلِكَ فهذا من الجور، فهناك بعض الآباء عندهم عُقد نفسيَّة وعِناد وعصبية في آرائهم وعندهم عنجهية، وكأنه لا يُبالي بخراب بيت ابنه وتفكك أسرته لأن مزاجه أن تحمل زوجة ابنه نعليه وتمسحهما، ولذلك لا يُطاع الأب في مثل ذَلِكَ.

الفائدة التاسعة: أن إسماعيل ﷺ أول من نطق بالعربية الفصحى:

قَالَ ﷺ: «أوَّل مَن فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة

سنة» (١).

الفائدة العاشرة: التعاون عَلَى البرّ والتقوى:

فَإسماعيل عليه السلام قَدْ أعان أباه عَلَى بناء البيت الحرام فصار يأتي بالحجارة وإبراهيم عليه السلام يبني، ولما ثقل أتاه بالمقام يقوم عليه ليبني.

ومن ذَلِكَ عُلم أنَّ مقام إبراهيم عليه السلام هو الحجر الَّذِي وقف عليه ليبني البيت الحرام، وكان المقام ملصقًا بالكعبة، والناس يصلون خلف المقام عملًا بالآية: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صار المكان ضيقًا عَلَى الحجيج والمصلين، فاستخار عمر رضي الله عنه والصحابة أن يؤخروا الحجر عن مكانه إلى الخلف حتى يمكن أن يمرّ الطائفون والناس يصلون خلف المقام، وفعلًا هَذَا ما حدث وأُخِّر (٢).

عباد الله...

هذه بعض الفوائد المستفادة من القصّة، وبها نأتي إلى خِتام خطبة اليوم.

اللَّهمَّ اجعلنا مِمَّن توكّل عليك فكفَيْتَه، ومِمَّن اسْتَهْدَاك فهديته، ومِمَّن استرحمك فرحمته

آمين... آمين... آمين...

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) صحيح: رواه الشيرازي في «الألقاب»، وانظر «صحيح الجامع» (٢٥٨١).

(٢) معظم مادة هذه الفوائد مستفادة من كتاب «من القصص النبوي» للشيخ محمد بن صالح المنجد.

الخطبة الثامنة عشرة:

مع نَبيِّ الله إسماعيل عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله إسماعيل عليه السلام.

وإسماعيل هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

عباد الله...

وقد وصف الحقّ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - إسماعيل عليه السلام بصفات حميدة وخِلال كريمة.

قَالَ الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قَالَ ابن كثير: هَذَا ثناء من الله تعالى عَلَى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم، بأَنَّهُ كان صادق الوعد.

قَالَ ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلَّا أنجزها، يعني: ما التزم عبادة قط بنذر إلَّا قام بها ووفاها حقها.

وقَالَ بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الوَعْدِ﴾ لأنه قَالَ لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّـهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خلفهُ من الصفات الذميمة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[١]، ولما كانت هَذِهِ صفات المنافقين كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى عَلَى عبدهِ ورسولهِ إسماعيل بصدق الوعد.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هَذَا دلالة عَلَى شرف إسماعيل عَلَى أخيه إسحاق، لأنه إنما وُصف بالنبوّة فقط، وإسماعيل وُصف بالنبوَّة والرسالة.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله اصطفى مِن ولد إبراهيم إسماعيل»... وذكر الحديث، فدل عَلَى صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَـهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عَندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ هَذَا أيضًا من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة، حيث كان صابرًا عَلَى طاعة ربه عَزَّ وَجَلَّ آمرًا بها لأهله كما قَالَ تَعَالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] الآية، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالـحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، أي: مروهم بالمعروف وانهوهم من المنكر ولا تدعوهم هَمَلًا فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٢٠٧).

«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»(١). وعن أبي سعيد وأبي هريرة - رَضِي اللَّـهُ عَنْهُمَا - عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»(٢)(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

قال القرطبيُّ: «أي: رضيًا زاكيًا صالحًا»(٤).

وقال الإمام الفخر الرازيّ - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ هو في نهاية المدح؛ لأنَّ المرضيّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات»(٥).

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

هذا؛ وقد كان إسماعيل عليه السلام رسُولًا إلى أهل مكَّة وما والاها من قبائل جُرهم والعماليق وأهل اليمن(٦).

وكان رسول الله ﷺ من الرّماة المهرة، فقد مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»(٧).

عباد الله...

وكان إسماعيل عليه السلام برًّا بأبيه، راضيًا بقضاء الله وقدره، موقنًا بما عند الله،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٣٠٨)، وابن ماجه (١٣٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٥٠).
(٢) صحيح: رواه أبو داود برقم (١٤٣٥).
(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٥ - ٧٧).
(٤) «تفسير القرطبي» (٦/ ٤١٥٥).
(٥) «مفاتيح الغيب» (٢٠/ ٤٨٠).
(٦) «قصص القرآن» للشيخ محمد بيومي (١٥٠).
(٧) رواه البخاري (٣٣٧٣).

مستسلمًا لأمره سبحانه.

قَالَ تعالى - حكايةً عن إبراهيم عليه السلام -: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ٩٩- ١١٣]

قال ابن كثير: «يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه، سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا، فبشره الله تعالى بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أوّل مَن وُلد عَلَى رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل؛ لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه، قَالَ مجاهد: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

فلما كان هذا، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعًا: «**رؤيا الأنبياء وحي**» [(١)]، قاله عبيد بن عمير أيضًا، وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هَذَا الولد العزيز الَّذِي جاءه عَلَى كبر وقد طعن في السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله في ذَلِكَ وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه، فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

---

(١) **حسن موقوف**: رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢)، وابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٤٣١)، وقد جاء معناه مرفوعًا عند البخاري (٧٥١٧)، قوله ﷺ: «**وكذلك الأنبياء تنام أعيُنهم ولا تنام قلوبُهم**».

ثم لما أمر بعد هَذَا كله بذبح ولده هَذَا الَّذِي قَدْ أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيده الَّذِي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته.

ثُمَّ عرض ذَلِكَ عَلَى ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرًا، ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّـهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّـهُ لِلْجَبِينِ﴾ قيل: أسلما، أي: استسلما لأمر الله وعزما عَلَى ذلك، وتله للجبين أي: ألقاه عَلَى وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه.

فعند ذَلِكَ نودي من الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي: قَدْ حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبذول للضيفان، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَـهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي: الاختبار الظاهر البيِّن.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن(١)، رآه مربوطًا بسمرة في ثبير، قَالَ ابن عباس: «كبش قَدْ رعى في الجَنَّة أربعين خريفًا»، وقال سعيد بن جبير: كان يرتع في الجَنَّة حتى تشقق عنه ثبير. وكان عليهم عهن(٢) أحمر، وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه.

عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أُمِّ مَنْصُورٍ قَالَتْ: أَخْبَرَتْنِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَلَدَتْ عَامَّةَ أَهْلِ دَارِنَا: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ وَقَالَت مَرَّةً إِنَّهَا سَأَلَتْ

---

(١) أي: عظيم سواد العينين، وكبير القرنين.

(٢) العهن: الصوف.

عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ: لِمَ دَعَاكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: «إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنَيْ الكَبْشِ حِينَ دَخَلْتُ البَيْتَ فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تُخَمِّرَهُمَا[١] فَخَمِّرْهُمَا فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي البَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ المُصَلِّيَ»[٢].

قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وكذا روى عن ابن عباس: أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند ميزاب الكعبة قَدْ يبس، وهذا وحده دليلٌ عَلَى أن الذبيح إسماعيل؛ لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره، واللَّـهُ أَعْلَمُ.

وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نصّ عَلَى أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثُمَّ قَالَ بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ومن جعله حالًا فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما ههنا قطعًا لا محيد عنه، فإن عندهم أن اللهِ أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة من المعربة: بكره إسحاق، فلفظة إسحاق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملهم عَلَى هَذَا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين مِنْهُمْ رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هَذَا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهتٌ ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال: بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السَّلف وغيرهم، وإنما أخذوه واللَّـهُ أَعْلَمُ من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب، وليس فِي ذَلِكَ حديث صحيح عن المعصوم ﷺ حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هَذَا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل عَلَى أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظيّ عَلَى أنه إسماعيل وليس بإسحاق

---

(١) خَمّر الشيء: ستره وغطّاه.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٦٨)، وأبو داود (٢٠٣٠).

من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثُمَّ يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟! هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة، واللَّـهُ أَعْلَمُ.

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب: أنه حدثهم أنه ذكر ذَلِكَ لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة، إذ كان معه بالشام - يعني استدلاله بقوله بعد القصة: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فقال له عمر: إن هَذَا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت، ثُمَّ أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبدالعزيز: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب عَلَى أن يكون أباكم الَّذِي كان من أمر الله فيه، والفضل الَّذِي ذكره الله منه لصبره لما أُمر به، فهم يجحدون ذَلِكَ ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم». ا.هـ[1].

عباد الله...

هذه بعض خِصال إسماعيل عليه السلام وفيها عظات وعِبر، ﴿لِمَن كَانَ لَـهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ففي قصة إسماعيل عبر وعظات يجب عَلَى الدعاة استيعابها وجعلها من جملة مواضيع الدعوة الَّتِي يحرصون عَلَى تبيانها للناس لا سيما للشيوخ والشباب

---

(١) «البداية» (١٨٩ - ١٩٣) باختصار. ط. دار ابن رجب.

والأبناء والآباء، ونذكر فيما يلي بعض هَذِهِ العبر والعظات المستفادة من قصة إسماعيل عليه السلام.

فمنها: الانقياد لأمر الله:

الشأن بالمسلم انقياده لأمر الله ومبادرتُه إلى تنفيذه بكامل الرضا والقبول دون تردد ولا كسل ولا تعقيب، وهذا ما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وقد تلقى أمر ربه بذبح ابنه إسماعيل، فعلى الدعاة المسلمين تعميق هَذَا المعنى في قلوب المدعوين، فما أحوج المسلمين اليوم لهذا الانقياد لأوامر الله.

ومنها: في إسماعيل أسوة حسنة للشباب المسلم:

قصة إسماعيل هي قصة شاب مسلم آمن بالله وامتُحن امتحانًا شديدًا بأن يموت ذبحًا عَلَى يد أبيه إبراهيم، ومع هَذَا لم يرتجف، ولم يهتز عندما أَخْبَرَهُ أبوه بأنه رأى في المنام أنه يذبحه بل راح يشجِّع أباه عَلَى المضي في تنفيذ ما يأمره به الله، فعلى الدعاة المسلمين أن يُذكروا الشباب المسلم بقصة إسماعيل، إنَّ شبابنا المسلم الضائع لابد لهم من مُثُل عُليا تملأ عيونهم، وتثير فيهم معاني الإيمان، وتحملهم عَلَى طاعة الرحمن، والاستعلاء عَلَى الشهوات، ومن أعظم ما يثير فيهم هَذِهِ المعاني عرض النماذج الإيمانية العالية من المؤمنين السابقين ومن سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

ومنها: تفريج الكُرُبات بإحسان الطاعة لله:

إن الله تعالى يفرج عن المسلمين المنقادين لأمر الله ما هم فيه من شدائد وكربات ما داموا حاضرين ومستعدين وعازمين عَلَى تنفيذ أمر الله، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٤].

ومنها: ابتلاء الله عباده المؤمنين:

وليعلم الدعاة المسلمون أنَّ الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين عَلَى وجه الاختبار والامتحان، وليتبين مخبؤ نفوسهم، ومدى طاعتهم في الشدائد، ومدى استمساكهم بمعاني الإسلام في أوقات الشدائد والصعاب، وعلى هَذِهِ السُّنة الإلهية امتحن الله خليله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل نفسه، أيعصي أباه أم يطيعه..؟

وليكن معلومًا أيضًا للدعاة: أنَّ امتحان الله عباده المؤمنين من اختصاص وتفرّد رب العالمين، فهو الَّذِي يقرر امتحان المؤمنين في الوقت الَّذِي يريده وبالكيفية الَّتِي يريدها، ولا اعتراض ولا تعقيب عَلَى حكم أحكم الحاكمين، وهذا ما يجب عَلَى الدُّعاة توضيحُهُ للمدعوين؛ لأَنَّهُ يتعلَّق بالعقيدة، والعقيدة أهم مطالب الدِّين[(١)].

ومنها: طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى:

رأينا كيف استجاب إسماعيل لأبيه إبراهيم عندما طلب منه أن يُطَلِّق امرأته، وهكذا ينبغي عَلَى الابن أن يطيع والده إذَا أمره بتطليق امرأته، ولكن هَذِهِ الطاعة تكون مشروطة بسوء خُلق الزوجة، فيكون الفراق في هَذِهِ الحالة لمصلحة دينية، وأما إذَا كانت الزوجة حسنة الخُلق وأمر الوالد ولده بتطليقها، فعلى الولد في هَذِهِ الحالة أن يتلطف مع أبيه في الخطاب ويجهد نفسه في إقناعه بالحُسنى حتى يعدل عن رأيه، وليحذر الابن كل الحذر من التطاول عَلَى أبيه أو التحدث معه بطريقة غير ملائمة، قَالَ تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣][(٢)].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام قصّة إسماعيل عليه السلام، وإلى لقاء مع قصّة إسحاق عليه السلام.

أسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق لطاعته، إنه سميعٌ قريب.

---

(١) «المستفاد من قصص القرآن» (١/ ٢٥٥، ٢٢٦).

(٢) «قصص القرآن» للشيخ محمد بيومي (١٥١، ١٥٢).

الخطبة التاسعة عشرة:

قصّة إسحاق عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله إسحاق عليه السلام.

عباد الله...

وإسحاق عليه السلام هو إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وأُمّه سارة.

وقد أثنى عليه القُرآن في أكثر من موضع:

قَالَ الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لَـمَّا مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم.

قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

يذكر تعالى أن الملائكة - وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل - لَـمَّا وردوا عَلَى الخليل حسبهم أولًا أضيافًا فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلًا سمينًا من خيار بقره، فلما قرَّبه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همَّة إلى الأكل بالكليّة؛ وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوَّة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم وأوجس مِنْهُمْ خيفة، قالوا: ﴿لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]. أي: لندمر عليهم، فاستبشرت عند ذَلِكَ «سارة» غضبًا لله عليهم، وكانت قائمة عَلَى رءوس الأضياف كما جرت به عادة النَّاس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت

استبشارًا بذلك قَالَ الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي في صرخة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩]، أي: كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أي: كيف يلد مثلي وأنا كبير وعقيم أيضًا، ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ أي: زوجي شيخًا؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هكذا، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤، ٥٥]، أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلامٌ عليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربَّه بصدق الوعد والصَّبر، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وهذا مما استدَّل به محمد بن كعب القرظي وغيره عَلَى أن الذَّبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يُؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتقّ من العقب من بعده(١).

وقد وُلد إسحاق عليه السلام ولأبيه مائة سنة، بعد أخيه إسماعيل بأربعة عشرة سنة، وكان عُمر أمّه سارة حين بُشرت به تسعين سنة، قَالَ تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣].

وقد ذكره الله بالثناء عليه في غير ما آيةً من كتابه العزيز.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسحاق بْنِ إِبْرَاهِيمَ...»(٢).

---

(١) «البداية» (١٩٤، ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٣٣٩٠)، وانظر: «قصص القرآن» للشيخ بيومي (١٥٥).

عباد الله...

وقبل أن نختم الحديث عن إسحاق ﷺ، نقول: إن إسحاق ﷺ فيما يظهر مات مُعمَّرًا، واختلف في موضع دفنه.

ولم يرد دليلٌ عن المعصوم ﷺ يقطع في موضع دفنه، فاللَّـهُ أعْلَمُ أين دُفن، والمَقْصُودُ: أخذ العظات والعبر من قصّته.

والله الموفق لما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا تقدَّم يتبيَّن لنا:

أوَّلًا: أنَّ الله تعالى خَلق الأسباب ثُمَّ بيَّن لنا أن الأسباب ليست فاعلة بذاتها، ولكن بإرادته سبحانه وقدرته.

فها هي سارة رضي الله عنها لم تُنجب في حال شبابها، فلما بلغت سنّ اليأس من المحيض، أجرى الله تعالى قدرته وأنجبت إسْحَاق ﷺ.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَـهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢].

فثق أيُّها المسلم بِربِّك، ولا تتعلَّق بأحدٍ سواه.

ثانيًا: بيان فضل الصَّلاح والعلم؛ فها هو سُبحانه يُثني عَلَى إسحاق ﷺ بقوله جلّ وعلا: ﴿**قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**﴾ [الذاريات: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [الصافات: ١١٢].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام قصّة إسحاق ﷺ، سائلًا المولى تبارك وتعالى أن

يَحشرنا معه بِفضلهِ وكرمهِ ورحمتهِ، إنَّهُ وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

اللَّهمَّ إن نبيّك ﷺ قَالَ: «يُحشَرُ المرْءُ مَع مَنْ أَحَبَّ»، ونحنُ نُشهدك يا مولانا أنَّا نُحبّ رُسلك وأنبياءك، وعِبادك الصَّالحين، فاحشرنا معهم يا أكرم الأكرمين، ويا رب العالمين.

آمين... آمين... آمين...

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الخطبة العشرون:

قصة لوط عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله تعالى مع قصّة نبيّ الله لوط عليه السلام.

عباد الله...

ولوط عليه السلام هو لوط بن هاران بن تارخ، وهو آزر - كما تقدَّم.

ولوطٌ ابنُ أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة.

وكان لوط عليه السلام قَدْ نزح عن محلة عمِّهُ إبراهيم عليه السلام بعد أن آمن به، كما تقدَّم.

فنزل بمدينة سدوم، وكان أهل سدوم[1] ذوي أخلاق رديئة لا يستحيون من

---

(١) سدوم: هي ثلاث قرى يقال لها مجتمعة «سدوم»، وهي بين المدينة والشام.

منكر ولا يتعففون عن معصية يأتونها عَلَى رءوس الأشهاد، كانوا من الشرّ بمكان، وكانوا يقطعون الطَّرِيق، ويأتون في ناديهم المنكر، وكانوا قَدْ ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله، وذلك أَنَّهُمْ كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوةً من دون النِّساء يستعلنون بذلك ولا يستسرون ولا يرون في ذَلِكَ سوءًا أو قبحًا.

فلما رأى لوط - عليه السلام - ما هم عليه دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ عبادة ما سواه، ونهاهم عن المنكر، وخوّفهم من بأس الله، فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا، فلما ألحّ عليهم بالعظات والإنذار هددوه بالرجم تارةً، وتارة بالإخراج من بينهم.

قَالَ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠- ٨٢].

وبلغ من عتوهم ورسوخ ضلالهم أن استعجلوا العذاب فقالوا لنبيِّهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم، فعند ذَلِكَ دعا عليهم نبيِّهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره عَلَى القوم المفسدين.

فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمرّوا عَلَى الخليل إبراهيم وبشّروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣١- ٣٤].

قَالَ المفسرون: لَـمَّا فصلت الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل

وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبَّان حِسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجّة عليهم، فاستضافوا لوطًا ﷺ وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضيِّفهم أن يضيّفهم غيره، وحسبهم بشرًا من النَّاس، ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

قَالَ ابن عباس ومجاهد ومحمد بن إسحاق: قوله: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد بلاؤه، وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا - أي قومه - قَدْ اشترطوا عليه ألَّا يضيف أحدًا، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وعن جندب: قَالَ حذيفة - رحمه الله -: لَـمَّا أرسلت الرسل إلى قوم لوط ليهلكوهم قيل لهم: لا تهلكوا قوم لوط حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات، وطريقهم عَلَى إبراهيم، قال: فأتوا إبراهيم ﷺ فبشروه بما بشّروه، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُـوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

قال: كان مجادلته إيَّاهم أن قَالَ لهم: إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى انتهى إلى عشرة، وخمسة. شك سليمان(١).

فأتوا لوطًا ﷺ وهو في أرض يعمل فيها فحسبهم ضيوفًا، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأمسوا معه، فالتفت إليهم فقال: ما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قَالَ: ما مِن النَّاس أحدٌ أشرّ منهم.

قَالَ: فانتهى بهم إلى أهله، فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه فقالت: لقد تضيّف لوطًا قومًا ما رأيت قطّ أحسن وجوهًا، ولا أطيّب ريحًا مِنْهُمْ، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب، حتى كادوا أن يغلبوه عليهم، فمال مَلَكٌ بجناحه فصفقه دونهم، ثُمَّ أغلق الباب، ثُمَّ علوا الجدار فعلوا معه، ثُمَّ جعل يخاطبهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۞

(١) أحد الرواة.

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود:٧٨- ٨١] (١).

قَالَ: فما بقي أحد مِنْهُمْ تلك الليلة إلَّا عمي (٢).

قَالَ: فباتوا بشر ليلة عميًا ينتظرون العذاب.

قَالَ: وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام في هلكتهم فأذن له.

فارتفعت الأرض الَّتِي كانوا عليها فعلًا بها حتى سمع أهل السماء الدُّنْيَا كلابهم، وأوقد تحتها نارًا، ثُمَّ قلبها بهم، قَالَ: فسمعت امرأته الوجبة وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب (٣).

ويفصِّل ما تقدَّم حديث ابن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - ولفظه:

«لَـمَّا جاءت رسل الله لوطًا ظَنَّ أَنَّهُمْ ضيفان لقوه، فأدناهم حتى أقعدهم قريبًا، وجاء ببناته وهن ثلاث، فأقعدهن بين ضيفانه وبين قومه، فجاء قومه يهرعون إليه، فلما رآهم قَالَ: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (٤) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي

---

(١) مسألة: كيف سمحت نفس لوط عليه السلام بابنتيه أو بناته يقدمهن هؤلاء الفسقة وهو نبيٌّ معصوم من المعصيّة؟ وهذه المسألة لها عدة أجوبة:

أولها: أن لوطًا لم يعرض عليهم بناته الصلبيَّات، وإنما عرض عليهم بنات القرية وهنَّ أزواجهم؛ لأنَّ كل نبي أُرسل إلى قوم فأولادهم أبناؤه ونساؤهم بناته مجازًا، وردّ هَذَا الجواب الأستاذ عبد الوهاب النجار «قصص الأنبياء» (١٤٩).

ثانيها: أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة، ولا يعقل أن يكون كل واحد من أهل القرية الذين جاءوا إليه يزفون يأمل أن ينال حاجته منهم، وأهل القرية يبلغون ألفًا أو يزيدون، ولكن المعقول أَنَّهُ كان هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة في القوم هم الذين يطلبون الملائكة، فعرض لهم لوط ابنتيه على سبيل التزويج لا على سبيل الزنا.

ثالثها: أن لوطًا عليه السلام عرض على القوم بناته عرضًا لا يقصد به الجد، ولكن اعتمادًا على أن يستحيوا منه.

(٢) قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر: ٣٧، ٣٨].

(٣) صحيح: وإسناده حسن، فيه ابن أبي الدنيا، وهو صدوق، «ذم اللواط» للإمام الحافظ أبي بكر الآجريّ (٣٨، ٣٩).

(٤) دعوة للزواج أو للحياء.

ﱡضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﱠ [هود:٧٨]

قالوا: ﱡقَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﱠ [هود:٧٩]

فقال: ﱡإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﱠ.

قَالَ: فطمس أعينهم فرجعوا وراءهم يركب بعضهم بعضًا حتى خرجوا إلى الذين بالباب، فقالوا: جئناك من عند أسحر النَّاس، قَدْ طمس أبصارنا، فانطلقوا يركب بعضهم بعضًا حتى دخلوا القرية، فرفعت في بعض اللَّيل، حتى كانت بين السماء والأرض، حتى إنهم ليسمعون أصوات الطير في جوّ السماء، ثُمَّ قُلبت فخرجت الأفِكة عليهم - يريد العذاب الَّذِي أرسل إليهم - فمن أدركته الأفكة قتلته، ومن خَرَجَ اتبعته حيث كان حجرًا فقتلته[1].

قَالَ: فارتحل ببناته وهنَّ ثلاث، حتى إذَا بلغ مكان كذا وكذا من الشام فماتت ابنته الكبرى، فخرجت عندها عين يقال لهم «الورية»، ثُمَّ انطلق حيث شاء أن يبلغ فماتت الصغرى فخرجت عندها عين يقال لها «الرعونة»، فما بقي منهن إلا الوسطى[2].

عباد الله...

وأصاب امرأة لوط عليه السلام العذابُ كما أصاب قومها، بسبب كفرها وعنادها، وإعانتها لقومها عَلَى زوجها.

قَالَ الله تعالى للوط عليه السلام قبل نزول العذاب: ﱡفَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﱠ [هود: ٨١].

---

(١) قَالَ تعالى: ﱡوَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﱠ [هود: ٨٢، ٨٣]، وقوله تعالى: ﱡمُسَوَّمَةًﱠ أي: مُعلّمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه. «قصص الأنبياء» لابن كثير (١٥٢، ١٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٤)، من حديث ابن عباس، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

قال ابن كثير: ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت عَلَى دينهم، وكانت عينًا لهم عَلَى من يكون عند لوط من الضيفان.

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿**ضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُـوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ [التحريم: ١٠].

أي: خانتاهما في الدِّين فلم يتبعاهما فيه، وليس المراد أَنَّهُمَا كانتا عَلَى فاحشة حاشا وكلا، ولما فإن الله لا يقدِّر عَلَى نبيّ أن تبغى امرأته، كما قَالَ ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: «ما بغت امرأة نبيّ قطّ، ومن قَالَ خلاف هَذَا فقد أخطأ خطأ كبيرًا».

قال الله تعالى في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قَالَ لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنَّبَ وزجر ووعظ وحذَّر وقال فيما قال: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٥، ١٦]. أي: سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة[١].

وهكذا أهلك الله الظالمين وأباد المجرمين، وترك مكانهم موعظة إلى يوم الدِّين. قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الحجر: ٧٦، ٧٧]. وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. وقال تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [الذاريات: ٣٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «قصص الأنبياء» لابن كثير (١٥٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: «وأعتقد أن البحر الميّت المعروف الآن ببحر لوط وبحيرة لوط، لم يكن موجودًا قبل هَذَا الحادث، وإنما حدث من الزلزال الَّذِي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر وقد جاءت الأخبار في السنتين الماضيتين بأنَّهُمْ اكتشفوا آثار مدن قوم لوط عَلَى حافة البحر الميّت»(١).

وهكذا ترك الله مكانهم عظة وعبرة لمن خاف عذاب الآخِرَة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربّه ونهى النَّفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط، «**ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم**»(٢)، وإن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه، كما قَالَ بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم … فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من رَبِّه يمتثل ما أمره الله به ﷻ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، وإيَّاه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٣].

نسأل الله السَّلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برٍّ، والفوز بالجَنَّة، والنَّجاةَ من النَّار.

❁❁❁❁❁

(١) «قصص الأنبياء» (١٤٧، ١٤٨).

(٢) حسن: أخرجه أحمد وغيره.

الخطبة الحادية والعشرون:

فوائد وعظات من قصة لوط عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصة لوط عليه السلام.

عباد الله...

وفي قصّة نبيّ الله لوط عليه السلام عظات وعبر، مِن هَذِهِ العظات والدروس والعبر:

١- التحذير من الإعانة عَلَى المنكر:

فمن أعان عَلَى منكر أو سهّل طريق الفاحشة، يدخل تحت الوعيد المذكور في

آية سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَـهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وها هي امرأة لوط عليه السلام كانت تُعين قومها عَلَى الإثم والمعصية - كما تقدَّم معنا - فشملها العذاب، قَالَ تعالى: ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١].

٢- التحذير من فِعل قوم لوط:

ففي القصّة استهجان لجريمة فعل قوم لوط، ووعيد من الله بالعذاب الشديد لمرتكبها في الدُّنيا والآخِرَة.

وهذه الجريمة من أقبح وأشنع الفواحش، فهي تدل عَلَى فساد ومرض في المزاج الإنساني، خطره جسيم عَلَى المجتمع الإنساني، فهو انحدار بالإنسان إلى ما دون الحيوانية البهيمية.

ومما يسجل للقرآن أَنَّهُ أولى هَذِهِ الجريمة كثيرًا من الأهمية، وذمَّها في عدَّة مواضع منه، ففي «لوط» وصفهم القرآن بالعديد من الصفات الذميمة:

وصفهم الله بالعدوان: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. أي: أَنَّهُمْ تعدوا عَلَى حدود الشريعة الإلهية، وتعدوا عَلَى قيم الحقّ والخير فأصبحوا من المجرمين الذين يجب كبح إجرامهم بالعقاب الَّذِي يردعهم.

ووصفهم الله تعالى بالجهل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. والجهل يشمل الجهل الَّذِي هو ضدّ العلم، كما يشمل الجهل الَّذِي هو بمعنى السفه والطيش، والسفيه الطائش لا يُترك له المجال لأن يصول ويجول، بل يجب الحَجْر عَلَى تصرفاته، ومعاقبته عَلَى سفهه وطيشه.

ووصفهم الله تعالى بالإسراف: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]. أي: أسرفوا في الشهوات، وفي تجاوز الحدود الَّتِي رسمها الله لعباده، والمسرفون هم قرناء الشيطان الذين يفسدون مجتمعهم فيجب الوقوف في وجوههم والحؤول دون إسرافهم.

عندما نجد استنكار القرآن الكريم لهذه الفاحشة ثُمَّ نسمع أن الإنسان المتمدن في الثلث الأخير من القرن العشرين بدأ يزاول هَذِهِ الفاحشة علنًا في بعض الدول الغربية متعللًا بالحرية الشخصية ومستغلًا تساهل السلطة التشريعية فيها، يأخذنا العجب والاستغراب.

هل الحرية الشخصية تعني إباحة هَذِهِ الشهوة الَّتِي تفسد النساء بسبب انصراف الرجال عنهنّ والتي تقضي عَلَى نظام الأسرة الَّتِي عمادها المسئولية والعطف والرحمة؟!

هل الحرية الشخصية تعني تعطيل النسل الَّذِي سنَّه الله لعمارة الكون وترك الشهوات بلا ضابط، مما يقضي قضاءً تامًّا عَلَى تماسك المجتمع وسلامته؟!

هل الحرية الشخصية تعني التعدي عَلَى حدود الله، وإهدار القيم، وقتل الفضائل؟!

هل الحرية الشخصية تعني أن ينسلخ الإنسان من آدميته ويتحول إلى كلب عقور وحيوان مسعور؟!

صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

عن ابن عباس - - رَضِي الله عَنْهُما - أن رسول الله ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ[١] الأَرْضِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمِهَ[٢] أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[٣].

---

(١) تخوم: جمع تخم، وهو الحدّ الفاصل بين أرضين، والمعالم يهتدى بها في الطريق.
(٢) كمّه الأعمى: أضلّه.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩، ٣١٧).

٣- مضار فعل قوم لوط:

وهذه الفعلة بجانب مضارّها الاجتماعية لها آثار سيئة في صحة الإنسان، فهي تنقل إلى الإنسان ما ينقله الزنا من الأمراض: كالزهري، والسيلان، والقرحة الرخوة، وأمراض الجلد كالجرب وسواه، مع ما تحدَّث بالشرج علامات:

منها: ضعف العضلة العاصرة حتى أنها قَدْ تفقد السيطرة عَلَى عملية التبرز فيحدث عن غير إرادة.

ومنها: تمزق الشرج وزوال الأنسجة حوله، والشرج مليء بالميكروبات الَّتِي قَدْ تنتقل إلى عضو الجاني فتحدث فيه التهابات في مجرى البول، وقد يصبح المجني عليه مخنثًا إذَا لازمته هَذِهِ العادة.

عباد الله...

خلق الله تعالى النَّاس من ذكر وأنثى، وشرَّع لهم ما ينظم سلوكهم عَلَى طريق مستقيم، فلما انحرفت البشرية عن الصِّرَاط السوي وغَيَّرت المنهج الربَّاني، كان ما كان من عقاب سماوي، فقد سمعنا بمرض سماه البعض لعنة السماء، وهو مرض خطير استشرى كالسم في الأحشاء والنار في الحلفاء، وانتشر في الأوساط الراقية الَّتِي عُرفت بالمدينة الحديثة، انتشر في أمريكا ودول أوروبا ويسمى بالإيدز.

وقد صدر كتاب يحمل عنوانه اسم هَذَا المرض، وقد جاء فيه من المعلومات عن هَذَا المرض ما يعطينا صورة وافية عن كل ما يتعلق به، وكتبه مؤلفه د. رفعت كمال في صورة سؤال وجواب نحاول التقاط ما يلقي الضوء عَلَى أهمية الموضوع وخطورته ولِمَ استحق آل لوط العقاب عَلَى فعلتهم تلك:

«اكتشفت العلماء وجود مرض الإيدز في عام ١٩٨١، حيث بلغ عدد المصابين بهذا المرض حتى الآن حوال ١٢٠٠٠ مريض، وصل عدد الوفيات بينهم إلى النصف، ويمكن أن يحمل الإنسان عدوى المرض دون أن تظهر عليه أي أعراض، وفي هَذِهِ الحالة يمكن أن تنتقل منه العدوى إلى الآخرين عن طريق تداخل سوائل الجسم مثل: الدماء، السائل المنوي، الدموع، اللعاب. والتي يوجد فيها الفيروس المسبب للمرض فتحدث العدوى خلال اللقاء الجنسي، أو نقل

الدماء من شخص مريض إلى شخص سليم، أو استعمال محقن واحد في حقن شخصين، وبذلك تنتقل العدوى من شخص لآخر.

فإذا هاجم فيروس المرض الخلايا الَّتِي تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإن هَذِهِ الخلايا تعجز عن أداء دورها، ويتم تدمير قدرة الجسم عَلَى مقاومة الأمراض.

ويحدث لمريض الإيدز تلك الأعراض:

- تضخم الغدد الليمفاوية مع استمرار هَذَا التضخم لأكثر من شهر.
- ظهور أورام حمراء داكنة وتظهر في أي مكان بالجسم، وهي تزيد في الحجم.
- حدوث نقص واضح في وزن الجسم، ويكون ذَلِكَ خلال شهرين.
- فقدان الشهيَّة.
- الإحسان بالتعب والإرهاق عند القيام بأقل مجهود.
- ارتفاع في درجة الحرارة.
- العرق بغزارة خصوصًا أثناء اللَّيل.
- سعال جاف مصحوب بارتفاع في درجة الحرارة.
- إحساس بالضيق عند التنفس.
- الإصابة بالإسهال.
- ضعف في العضلات.
- ظهور بعض البثرات.
- ظهور بقع بيضاء في الفم وهذه البقع تكون سميكة نوعًا ما، وتظهر عَلَى كل أجزاء الفم من الداخل.

إن العدوى في البيت تنتقل بين الزوجين خلال اللقاء الجنسي، ومن الأم الحامل إلى جنينها، أما الطفل المولود قبل إصابة الأم أو الابن الشاب فإنه لا يصاب بالعدوى.

وتعتبر فترة الحضانة لهذا المرض هي الفترة الَّتِي تبدأ من التعرض إلى العدوى،

وتنتهي مع ظهور أعراض المرض، وهي تتراوح بين عامين وخمسة أعوام، يكون فيها المريض قادرًا عَلَى نقل العدوى للآخرين خلال هَذِهِ الفترة، وقد اتضح أن ٩٠٪ من الحالات الَّتِي سُجلت في هَذَا المرض تنقسم إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: هؤلاء المصابون بالشذوذ الجنسي.

المجموعة الثانية: هؤلاء الذين يتعاطون المواد المخدرة عن طريق الحقن في الوريد حيث تستعمل مجموعة مِنْهُمْ حقنة واحدة في حقن المخدر، وتنتقل بذلك العدوى من مريض إلى آخر سليم.

إن آثار هَذَا المرض لا تقتصر عَلَى التأثير الصحي الضار عَلَى جسم المريض، بل إن للمرض آثاره النفسية المدمرة، فالناس تهرب من وجه مرض الإيدز، والأهل يرفضون إقامته معهم أو الإشراف عَلَى علاجه، وأصحاب الأعمال يفصلون كل من تظهر عليه الأعراض، حتى العاملون في المستشفى إنهم يتحاشون الاقتراب من هؤلاء المرضى خوفًا من انتقال العدوى.

فالرعب من عدوى هَذَا المرض يصيب من يزاول الشذوذ الجنسي، ومن لا يزاوله، حيث أكدت استطلاعات الرأي العام في أمريكا أن ٣٠٪ من النَّاس يؤكدون أن هَذَا المرض سيصبح وباءً عالميًّا، وأن الكل يبحث عن الاجراءات الوقائية الَّتِي يمكن أن تحميه من الخطر القادم الغامض حيث يسبب استسلام الجسم للعدوى بلا مقاومة، والخطير في هَذَا المرض أن المصاب به طول حياته يصبح حاملًا للعدوى.

وقد تأكد أن لهذا الفيروس خاصية محدودة هي الهجوم عَلَى الخلايا الليمفاوية المعروفة باسم «T ٤» وهي نوع من الكرات البيضاء المتخصصة في مقاومة جراثيم الأمراض، وكذلك بعض أنواع السرطان، وعندما يهاجم الفيروس هَذِهِ الخلايا الليمفاوية فإنه يدمر الحامض الخلوي المعروف باسم «DNA» وهو الحامل للوراثة في نواة الخليّة.

وقد اتضح أن الفيروس يفرز نوعًا من البروتين له قدرة التغلب عَلَى الخلية «T ٤» بحيث تكون الحصيلة هي خروج كميات كبيرة من الفيروسات في فترة

وجيزة جدًّا، وقد تأكد أن هَذَا البروتين يصيب الخلايا الليمفاوية بالشيخوخة المبكرة، مما ينهي حياتها في وقت مبكر.

إن المتتبع لإحصائيات عدد المرضى بالإيدز يجد أنها في البلاد الَّتِي زاد فيها الترف والفسق حيث يفسدان أخلاق الأمم، ويباعدان بينها وبين منهج الله.

تقول الإحصائيات: في فرنسا ٣٠٠ حالة، وفي ألمانيا الغربية ١٦٢ حالة، وفي بريطانيا ١٨٤ حالة، أما في آسيا فإن الحالات أقل بكثير، أما الرقم الهام الَّذِي يكشف عن مدى انتشار الإيدز في الولايات المتحدة الأمريكية فهو ١٢٠٠٠ مريض، من هؤلاء مات ٦٠٠٠ والباقون يعانون من المرض بلا شفاء.

ولكن؛ لماذا ينتشر الإيدز بين الشواذ جنسيًّا؟

يقول الأطباء العاملون فِي هَذَا المجال: إن الخلية الَّتِي يهاجمها الفيروس ويعيش بداخلها، وهي الخلية الَّتِي تتولى الدفاع عن الجسم، تتراكم بكميات كبيرة بجانب المُستَقِيم، وذلك حتى تدافع عن الجسم إذَا ما هاجمه أي ميكروب يتسرب من المُستَقِيم، وذلك فقد ظهرت حالات الإيدز المتزايدة بين الشباب وخاصة هَذَا الشباب الَّذِي يزاول الشذوذ الجنسي[1].

عباد الله...

ونتقل ذَلِكَ البحث ملخصًا من كتاب «القرآن والطب» للدكتور/ محمد وصفي، حيث تتمثل تلك الأضرار فيما يلي:

الرغبة عن المرأة:

من شأن اللواطة أن تصرف الرَّجُلَ عن المرأة، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد النسل، ولو قدِّر لمثل هَذَا الرَّجُلَ أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا فلا تظفر بالسكن ولا بالمودة ولا بالرحمة الَّتِي هي دستور الحياة الزوجية، فتقضي حياتها معذبة معلقة، لا هي متزوجة ولا مطلقة.

---

(١) «في رحاب التفسير» للشيخ عبد الحميد كشك (١٣٥٠، ١٣٥١).

التأثير في الأعصاب:

وإن هَذِهِ العادة تغزو النفس وتؤثر في الأعصاب تأثيرًا خاصًا، أحد نتائجه: الإصابة بالانعكاس النفسي في خُلق الفرد، فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خُلق ليكون رجلاً، وينقلب الشعور إلى شذوذ، به ينعكس شعور اللائط انعكاسًا غريبًا فيشعر بميل إلى بني جنسه، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية.

ولا يقتصر الأمر عَلَى إصابة اللائط بالانعكاس النفسي، بل هناك ما تسببه هَذِهِ الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك، وما تُحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة، وعلل نفسية شائنة، تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة، فتحيي فيه لوثات وراثية خاصة، وتظهر عليه عصبية كامنة تبديها هَذِهِ الفاحشة، وتدعو إلى تسلطها عليه، ومثل هَذِهِ الآفات العصبية النفسية: الأمراض السادية، والماسوشية، والفيتشزم، وغيرها.

التأثير عَلَى المخ:

واللواط بجانب ذَلِكَ يسبب اختلالًا كبيرًا في توازن عقل المرء، وارتباكًا عامًا في تفكيره، وركودًا غريبًا في تصوراته، وبلاهة واضحة في عقله، وضعفًا شديدًا في إرادته، وإن ذَلِكَ ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية الَّتِي تفرزها الغدة الدرقية، والغدد فوق الكُلى، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثرًا مباشرًا، فيضطرب عملها وتختل وظائفها، وإنك لتجد هناك علاقة وثيقة بين «النيور ستايتا» و«اللواط» وارتباطًا غريبًا بينهما، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفِكْر وضياع العقل والرشاد.

السويداء:

واللواط إما أن يكون سببًا في ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملًا قويًا عَلَى إظهاره وبعثه، ولقد وجد أن هَذِهِ الفاحشة وسيلة شديدة التأثير عَلَى هَذَا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه، ويرجع ذَلِكَ للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها عَلَى أعصاب الجسم.

عدم كفاية اللواط:

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبي، شديدة الوطأة عَلَى الجهاز العضلي، سيئة التأثير عَلَى سائر أجزاء البدن.

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية الَّتِي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة، ثُمَّ قارنا ذَلِكَ بما يحدث في اللواط وجدنا الفرق بعيدًا والبون بين الحالتين شاسِعًا، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للوضع الشاذ.

ارتخاء عضلات المُستَقِيم وتمزقه:

وإنك إذَا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سببًا في تمزق المُستَقِيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه، وفقد السيطرة عَلَى المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج مِنْهُمْ بغير إرادة أو شعور.

علاقة اللواط بالأخلاق:

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير، فتجد جميع مَن يتصفون به سيئوا الخلق فاسدي الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل، ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسي عن السطو عَلَى الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجرؤ عَلَى ارتكاب الجرائم الَّتِي نسمع عنها كثيرًا ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها، ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب.

اللواط وعلاقته بالصحة العامة:

واللواط فوق ما ذكرت، يصيب مقترفيه بضيق الصدر، ويرزؤهم بخفقان القلب، ويتركهم بحال من الضعف العام، يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأعصاب.

التأثير وعلاقته بالصحة العامة:

ويُضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم، ويعمل عَلَى القضاء عَلَى الحيوية المنوية فيه، ويؤثر عَلَى تركيب مواد المَنِي ثُمَّ ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة عَلَى إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم عَلَى اللائطين بالانقراض والزوال.

التيفود والدوسنتاريا:

ونستطيع أن نقول: إن اللواط يسبب بجانب ذَلِكَ: العدوى بالحمى التيفودية والدوسنتاريا، وغيرهما من الأمراض الخبيثة الَّتِي تنتقل بطريقة التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض.

أمراض الزنا:

ولا يخفى أن الأمراض الَّتِي تنتشر بالزنا يمكن أَنْ تَنْتَشِرَ كذلك بطريقة اللواط، وتصيب أصحابه، فتفتك بهم فتكًا ذريعًا، فتبلى أجسامهم، وتحصد أرواحهم[١].

عباد الله...

ومما تقدَّم تتبيَّن حِكمةُ التشريع الإسلامي في تحريم اللُّواط[٢]، وللحديث بقيّة، انتظروها بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «في رحاب التفسير» للشيخ عبد الحميد كشك (١٣٥٤- ١٣٥٦).
(٢) الأَوْلى أن يقال: في تحريم من فعل قوم لوط.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس والعظات والعبر المستفادة من قصّة نبي الله لوط عليه السلام:

٤- الحدّ الشرعيّ فيمن يعمل عمل قومِ لوط:

الجدير بالذكر أن القرآن بيّن العقاب الشديد الَّذِي أصاب مرتكب هَذِهِ الفاحشة وذلك لتحذر الأمم خطرها، وتتوقّى شرها.

فـ «سدوم» تلك القرية الَّتِي كانت تعمل الخبائث، وانتشرت فيها هَذِهِ الفاحشة بيّن القرآن عاقبة أمرها، وما أصابها؛ قَالَ تعالى: ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى**﴾ [النجم: ٥٣- ٥٥].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾ [الحجر: ٧٤].

ويحذِّر القرآن جميع الشعوب من اقتراف هَذِهِ الرذيلة والسكوت عنها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط، فالقُرآن عندما ذكر قوم لوط وما حلّ بهم من العذاب عقّب عَلَى ذَلِكَ بقوله: ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٣]. أي: أن العذاب ليس بعيدًا عمّن يعمل عمل قوم لوط، بل العقاب الإلهي سيحلّ بمن يعمل عملهم.

هَذَا التحذير الإلهي يسرى مداه عَلَى مرّ العصور لتحذر الأمم عاقبة الفساد، وإن فيما أصاب أخيرًا بعض أمم العالم من ويلات حربين عالمتين لا تزال أهوالها ماثلة في الأذهان، وما أصابهم من كوارث وزلازل لعبرة لمن اعتبر.

هَذَا، ومِمَّا ينبغي التنبيه له: أن لهذه الزلازل أسبابًا علمية وأسبابًا شرعيّة، فأمَّا أسبابه العلمية: فيعرفها المتخصصون في هَذِهِ العلوم، وأمَّا أسبابه الشرعيّة: فقد وردت في السُّنة الصحيحة منها قوله ﷺ: «**سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، إذَا ظهرت المعازف والقينات، واستحلت الخمر**». «صحيح الجامع».

ومما يسجل في هَذَا المقام أن الإسلام شدَّد العقوبة لمن يفعل هَذِهِ الجريمة فقد ذهب بعض العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء أكان محصنًا أم لا.

نصّ عَلَى ذَلِكَ الشافعي وأحمد وطائفة كثيرة من الأئمة، واستدلوا بما رواه أحمد وأهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**».

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل، ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط، لقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وعن إبراهيم فِي حد اللائط، قَالَ: «لو كان ينبغي لأحد أن يُرجم مرتين لرُجم اللوطي مرتين».

وعن الزهريّ قَالَ: «يُرجم أُحصن أو لم يُحصن سُنَّة ماضية»(١).

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بنصيحة غالية، وعظة بالغة للإمام أبي بكر الآجُرِّي - رحمه الله -.

قَالَ - رحمه الله -: «اعقلوا يا معشر المسلمين هَذَا الخطاب، ولأي شيء قصّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليكم شأن قوم لوط، وقبيح ما كانوا عليه من الفسق بإتيانهم الذكران دون الإناث، مما أباح لهم التزويج والإماء بملك اليمين، تدبروا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ٣٣ - ٤٠].

تدبروا هَذَا - رحمكم الله - واعقلوا عن الله عَزَّ وَجَلَّ تحذيره.

---

(١) إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

إيَّاكم أن تكونوا مثلهم، ألم تسمعوه جلّ ذِكره قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧].

تدبَّروا هَذَا يا مؤمنون، واعلموا أن مولاكم كريم إنَّما حذركم عمل قوم لوط، وأعلمكم أن الَّذِي عُوقب به قوم لوط آيةً لكم، فاحذروا - رحمكم الله- عمل قوم لوط.

ألم تسمعوه جل ذكره يخبركم عمَّن عصاه من بني إسرائيل مِمَّن أتى ما حرَّم الله عليه من الصيّد في يوم السبت، فلمَّا فعلوا ما نهاهم عنه مسخهم قردة، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ثُمَّ قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ٨- ١١].

فاتقوا الله يا معشر المسلمين يا أهل الصَّلاة، والزكاة، والصيام، ويا حجاج بيت الله الحرام، يا من أوجب الله الكريم عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

احذروا عمل قوم لوط، واقبلوا عن الله الكريم ما وعظكم به تفلحوا، واحفظوا فروجكم، أما سمعتم قول مولاكم جلّ مَن قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٧].

وقال عَزَّ وَجَلَّ في سورة «سأل سائل»، وقد وصف أخلاق أهل الصَّلاة الذين أتوا بها، عن أخلاق أهل الفسق فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا المُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٣].

ثم ذكر أوصافهم وما كانوا عليه من شرف الأخلاق فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: ٢٩- ٣١].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام حديثنا عن قصّة لوط عليه السلام، سائلًا المولى تبارك وتعالى، أن يجنّبنا منكرات الأخلاق.

۞۞۞۞۞

الخطبة الثانية والعشرون:

وفاة إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما سبق من أحداث - من بداية مولد إبراهيم عليه السلام وانتهاءً بما حدث لقوم لوط - كل ذَلِكَ حدث في حياة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وفي هَذِهِ الخطبة نتحدث عن وفاته - عليه السلام - وما فيها من عظات وعبر، والله الموفق لما يُحب ويرضى.

عباد الله...

وقبل أن نتكلّم عن وفاة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام نُنبِّه أوّلًا إلى أمرين:

الأمر الأول: أن «سارة» رضي الله عنها ماتت قبله إبراهيم عليه السلام بقرية «حَبْرون»

الَّتِي هي فِي أرض كنعان، ولها من العُمر مائةٌ وسبع وعشرون سنة، فيما ذكر أهل الكتاب، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام حزنًا شديدًا[١].

الأمر الثاني: أن إبراهيم عليه السلام اختتن قبل وفاته بسنوات لا يعلم عددها إلَّا الله تعالى.

وفي «الصحيح» أنَّه اختَتَنَ وقد أتت عليه ثمانون سنة، وفي رواية: «**وهو ابنُ ثمانين سَنَةً**». واختتن بقدوم.

روى ابن حبان عن عبد الرزّاق، أَنَّهُ قَالَ: «القدوم اسمُ القرية».

الأمر الثالث: أن الموت نهاية كلِّ حيّ، ويبقى الحيُّ الَّذِي لا يموت.

قَالَ تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

فلا مهرب من الموت، كما قَالَ الحق سبحانه: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء: ٧٨].

والأجل إذَا جاء لا يُؤخَّر.

ومن كانت منيته بأرض فلن يموت بأرضٍ سواها.

يروى شهر بن حوشب - رحمه الله - فيقول: «دخل ملك الموت عَلَى سليمان عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم إليه النظر، فلما خَرَجَ قَالَ الرجل: من هذا؟ قال: هَذَا ملك الموت عليه السلام.

قال: لقد رأيته ينظر إلي كأنه يريدني.

قال: فما تريد؟

قال: أريد أن تحملني عَلَى الريح فتلقيني بالهند.

قال: فدعا بالريح فحمله عليها فألقته بالهند، ثُمَّ أتى ملك الموت سليمان عليه السلام، فقال: إنك كنت تديم النظر إلى الرَّجُل من جلسائي، قال: كنت أعجب منه، إني

(١) «البداية» (١/ ٢٠٨).

أُمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك»[١].

وفي رواية داود بن أبي هند - رحمه الله -قال: «بلغني أنه كان لداود صديق من بني إسرائيل فكان داود ﷺ معجبًا به فكان مجلسه وحديثه للرجل حتى غبطه بنو إسرائيل».

قال: «فلما مات داود، وولي سليمان -عليهما السلام- قَالَ في نفسه: من أصطنع من بني إسرائيل في مجلسي وحديثي؟ قال: ما أعلم أحدًا أحق بذلك من هَذَا الشيخ أن يناجى الَّذِي توفي رسول الله داود صلى الله عَلَى نبينا وعليه وسلم، وهو عنه راضٍ. قال: فاتخذه لنفسه».

قال: «وكان سليمان ﷺ مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الَّذِي يسأله عنه».

قال: «فأدنى مجلس الشيخ حتى كان هو الَّذِي يلي سريره، فربما قعد سليمان ﷺ عَلَى سريره». «فيسند الشيخ ظهره إلى سرير سليمان ﷺ».

قال: «حتى غبطه جنود سليمان ﷺ، فقيل له: ادخل عليه كل يوم دخلة يسأله عن حاجته، ثُمَّ لا يبرح حتى يقضيها له».

قال: «وكان سليمان ﷺ إذَا قعد عَلَى سريره، وأذن لجنوده فدخلوا عليه، دخل عليه ملك الموت ﷺ في صورة رجلٍ، فيسأله كيف هو، ثُمَّ يقول له: يا رسول الله، ألك حاجة؟ فإن قال: نعم، لم يبرح حتى يقضيها له، وإن قال: لا، انصرف عنه إلى الغد».

قال: «فقعد سليمان ﷺ يومًا أشد ما كان بملكه. وقعد الشيخ إليه فأسند ظهره إلى سرير سليمان، وأذن لجنوده فدخلوا عليه من الإنس والجن وسواهم فجعلوا ينظرون إلى الشيخ مسندًا ظهره إلى سرير سليمان فيغبطونه، فدخل عليه ملك الموت ﷺ في صورة رجل، فقام فسلم فقال سليمان ﷺ: كيف بات في ليلته الماضية؟ ثُمَّ قال: ألك حاجة يا رسول الله؟ قال: لا».

---

(١) انظر «الحلية» (٤/ ١١٨)، و«الزهد» لأحمد (ص٥٣)، و«العظمة» (٤٥٣) لأبي الشيخ.

قال: «ولحظ إلى الشيخ لحظة، فارتعد الشيخ».

قال: «وانصرف ملك الموت عنهم».

قال: «فوثب الشيخ عَلَى رجلي سليمان فأخذهما، وجعل يقبلهما، فقال: يا رسول الله، كيف كان رضي رسول الله ﷺ داود عني؟ قال: حسن. قال: فكيف رضاك عني؟ قال: حسن. قال: فإني أسألك بحق الله أن تأمر الريح فتحملني فتقذفني بأقصى مدرة من أرض الهند. قال: وهو يرتعد في ذلك.

قال: قَالَ له سليمان: ولم؟ قال: هو ذَلِكَ أسألك بحق الله إلا ما أمرت الريح فتحملني فتلقيني بأقصى مدرة من أرض الهند.

قال: قَالَ سليمان: نعم، فأخبرني لم ذلك؟ قال: ألم تر إلى الرَّجُلُ الَّذِي دخل عليك قام فسلم، ثُمَّ سألك كيف بت في ليلتك الخالية؟ لحظ إلي لحظة فما تمالكت رعدة. فقال له سليمان عليه السلام: هل إلا رجل نظر إليك؟ قال: هو ما أقول لك.

فدعا سليمان عليه السلام الريح، فقال: احتمليه فألقيه بأقصى مدرة من أرض الهند. فاحتملته فصعدت به ثُمَّ تصوبت به فألقته بأقصى مدرة من أرض الهند».

قال: «قول الله ﷻ: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

قال: ليس باللينة ولا بالعاصفة وسط، غدوها شهر، ورواحها شهر، فإذا أراد غير ذَلِكَ كان ما أراد، فظل سليمان عليه السلام يومه ذَلِكَ بأشر يوم».

قال: «وبات ليلته بأشد ليلة حزنا عليه فلما أصبح سليمان عليه السلام غدًا قبل مجلسه الَّذِي كان يجلس فيه، وأذن لجنوده فدخل عليه ملك الموت صلى الله عليهما في صورة رجل، فسلم فسأله كيف بات في ليلته الماضية، فأخبره، قال: يا رسول الله، ألك حاجة؟ قَالَ سليمان عليه السلام: الحاجة غدت بي إلى هَذَا المكان فذهب يخبره رضى داود عن الشيخ، ورضاه عنه، واستئناسه به.

ثم قال: كان ما كان به، قال: يقول له ملك الموت: حسبك يا رسول الله، ما ينقضي عجبي منه، هبط إلي كتابه أمس أن أقبض روحه غدا مع طلوع الفجر بأقصى مدرة بأرض الهند فهبطت به وما أحسبه إلا ثم، فدخلت عليك فإذا هو قاعد معك فجعلت أتعب وأنظر إليه ما لي هم غيره فهبطت عليه اليوم، والذي

بعثك بالحق مع طلوع الفجر فوجدته بأقصى مدرة من أرض الهند ينتفض فقبضت روحه، وتركت جسده هناك»(١).

عباد الله...

وبعد هَذَا التمهيد نشرع في بيان المقصود، وهو: وفاة إبراهيم عليه السلام.

قال كعب الأحبار - رحمه الله -: كان إبراهيم عليه السلام يقري الضيف ويرحم المسكين وابن السبيل، فأبطات عليه الأضياف حتى استراب لذلك، فخرج إلى الطَّرِيق يطلب، فجلس فمر به ملك الموت في صورة رجلٍ فسلم عليه فرد عليه إبراهيم، ثُمَّ سأله: من أنت؟ قال: أنا ابن السبيل، قال: إنَّما قعدت ههنا لمثلك، فأخذ بيده فقال له: انطلق، فذهب به إلى منزله.

فلما رآه إسحاق عرفه فبكى إسحاق، فلما رأت سارة إسحاق يبكي بكت لبكائه، فلما رأى إبراهيم سارة تبكي بكى لبكائها، فلما رأى ملك الموت إبراهيم يبكي بكى لبكائه، ثُمَّ صعد ملك الموت، فلما أفاقوا غضب إبراهيم عليه السلام، فقال: بكيتم في وجه ضيفي حتى ذهب.

قال إسحاق: لا تلمني يا أبت فإني رأيت ملك الموت معك ولا أرى أجلك إلا قَدْ حضر فارث في أهلك - أي أوص - وكان لإبراهيم عليه السلام بيت يتعبد فيه فإذا خَرَجَ أغلقه لا يدخله غيره - فجاء إبراهيم ففتح بيته الَّذِي يتعبد فيه فإذا هو برجل جالس، فقال إبراهيم عليه السلام: من أدخلك؟ بإذن من دخلت؟ قال: بإذن رب البيت دخلت، قال: رب البيت أحق به، ثُمَّ تنحى في ناحية البيت فصلى ودعا كما كان يصنع، فصعد ملك الموت، فقيل له: ما رأيت؟ قال: يا رب جئتك من عند عبد لك ليس في الأرض بعده خير منه، فقيل له: ما رأيت منه؟ قال: ما ترك خلقًا من خلقك إلا وقد دعا له بخير في دينه ومعيشته.

ثم مكث إبراهيم ما شاء الله ثُمَّ جاء ففتح بابه فإذا هو فيه برجل جالس، قَالَ له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت. قَالَ إبراهيم: إن كنت صادقًا فأرني منك آية

---

(١) «العظمة» لأبي الشيخ (٤٤٢).

أعرف أنك ملك الموت، قال: أعرض بوجهك يا إبراهيم، قال: ثُمَّ أقبل فأراه الصورة الَّتِي يقبض فيها أرواح المؤمنين، فرأى من النور والبهاء شيئًا لا يعلمه إلا الله، ثُمَّ قال: أعرض بوجهك، ثُمَّ قال: انظر فأراه الصورة الَّتِي يقبض فيها الكفار والفجار، فرعب إبراهيم رعبًا شديدًا حتى التزق بطنه بالأرض وكادت نفس إبراهيم أن تخرج.

فقال: أعرف فانظر الأمر الَّذِي أمرت به فامض له، فصعد ملك الموت، فقيل له: تلطف بإبراهيم، فأتاه وهو في عنب له في صورة شيخ كبير لم يبق منه شيء، فلما رآه إبراهيم رحمه فأخذ مكتلًا ثُمَّ دخل عنبه فقطف من العنب في مكتله ثُمَّ جاء فوضعه بين يديه، فقال: كُل، فجعل يمضغ ويريه أنه يأكل ويمجه عَلَى لحيته وصدره، فعجب إبراهيم عليه السلام، فقال: ما أبقت السنون منك شيئًا كم أتى لك؟ فحسب مدة إبراهيم عليه السلام، فقال: إن لي كذا وكذا، فقال إبراهيم عليه السلام: قَدْ أتى لي مثل هذا، وإنما أنتظر أن أكون مثلك، اللهم اقبضني إليك.

قال: فطابت نفس إبراهيم، عن نفسه وقبض ملك الموت روحه عَلَى تلك الحال[1].

وعن ابن أبي مليكة قَالَ: لَـمَّا توفى إبراهيم عليه السلام لقي الله عَزَّ وَجَلَّ، فقيل له: يا إبراهيم، كيف وجدت الموت؟ قَالَ: يا رب، وجدت نفسي تنزع بالبلاء. فقيل: فقد هونَّا عليك[2].

عباد الله...

ولحق إبراهيم عليه السلام بالرّفيق الأعلى، وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ في حديث الإسراء والمعراج، أَنَّهُ لقي إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ؛ وَأَنَّهَا

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٧، ٢٨).
(٢) إسناده حسن: أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٠٠).

قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» (١). رواه الترمذي والطبرانيّ في «الصغير»، و«الأوسط»، وزاد: «**ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله**».

عباد الله...

والتأسّي بإبراهيم عليه السلام فريضة شرعيّة، وضرورة بشرية، قَالَ تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤].

فما أحوجنا إلى أن نتأسّى بإبراهيم عليه السلام:

- في صفاء عقيدته.
- وفي قوّة توكّله.
- وفي صلابته في الحقّ.
- وفي إقامته للحجّة عَلَى قومه.
- وفي حُسن أخلاقه.
- وفي جوده وكرمه.

والله الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: أين دُفن إبراهيم عليه السلام؟

الجواب: قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «قبر إبراهيم عليه السلام وقبر ولده

(١) حسن: انظر «صحيح الجامع» (٥١٥٠).

إسحاق، وقبرُ ولد ولده يعقوب في المربّعة الَّتِي بناها سليمانُ بن داود -عليه السَّلام - ببلد «حَبْرون» وهو البلد المعروف بالخليل اليوم.

وهذا مُتلَقَّى بالتواتر، أُمَة بعد أُمَّة، وجيلًا بعد جيل، مِن زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هَذَا أن قبره بالمربّعة تحقيقًا.

فأمَّا تعيينه منها فليس فيه خبرٌ صحيحٌ عن المعصوم ﷺ، فينبغي أن تُراعى تلك المحلّة، وأن تُحترم احترام مثلها، وأن تبجَّل، وأن تُجلّ أن يُداس في أرجائها؛ خشية أن يكون قبرُ الخليل أو أحدٍ من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها»[1].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى ختام قصّة إبراهيم عليه السلام سائلًا المولى سبحانه أن يحشرني وإيَّاكم في زمرته.

۞۞۞۞۞

---

(١) «البداية» (١/ ٢١٠).

الخطبة الثالثة والعشرون:

مع نَبيِّ الله شُعَيْبٍ عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله شُعيب عليه السلام.

عباد الله...

كان أهل مدين قومًا عربًا، يسكنون مدينتهم «مَدين»، الَّتِي هي قريةٌ من أرض مُعان من أطراف الشام مِمَّا يلي ناحية الحجاز، قريبًا من بُحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدَّة قريبة

ومَدينُ قبيلةٌ عُرفت بهم المدينة، وهم من بني مَدين بن مديان بن إبراهيم

الخليل عليه الصلاة والسلام[1].

وكان أهلُ مَدْيَنَ كفارًا يقطَعون السَّبيلَ ويُخيفون المارَّةَ، ويعبُدون الأيكةَ؛ وهي شجرةٌ من الأيكِ، حولَها غَيضَةٌ مُلتفَّةٌ بها، وكانوا مِن أسوءِ الناسِ معاملةً، يَبخسُون المكيالَ والميزانَ ويُطففون فيهما، يأخذون بالزائدِ ويدفعون بالناقصِ، فبعث الله فيهم رجلًا مِنْهُمْ وهو رسول الله شعيبٌ ﷺ، فدعاهم إلى عبادةِ الله وحدَهُ لا شريكَ له، ونهاهم عن تعاطي هَذِهِ الأفاعيلِ القبيحة؛ مِن بَخسِ النَّاس أشياءَهم، وإخافَتِهم لهم في سُبُلهم وطُرُقاتِهم، فآمنَ به بعضُهم وكفَر أكثرهُم، حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديدَ، وهو الوليُّ الحميدُ[2]، كما قَالَ تَعالى في سورة الأعراف بعد قصّة قوم لوط: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالـمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّـمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّـهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الـحَاكِمِينَ * قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّـهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالـحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ * وَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّـمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥- ٩٣].

وقال في سورة «هود» بعد قصّة قوم لوط أيضًا: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ

(١) «البداية» (١/ ٢٢١).

(٢) «نفس المرجع» (١/ ٢٢٢).

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا المِكْيَالَ وَالـمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالـمِيزَانَ بِالـقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الـحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُـوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّـمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤- ٩٥].

وقال في سورة «الحِجْر» بعد قصّة قوم لوطٍ أيضًا: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى في «الشعراء» بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَـهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ * أَوْفُوا الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالـقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالـجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَـمِنَ الكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَـهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦- ١٩١].

عباد الله...

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: دلالةٌ وحُجّةٌ واضحةٌ، وبرهانٌ قاطعٌ عَلَى صدقِ ما جئتكم به، وأنه أرسَلَني، وهو ما أجْرَى عَلَى يَدَيْهِ مِن المعجزاتِ الَّتِي لم تُنْقَل إلينا تفصيلًا، وإن كان هَذَا اللفظُ قَدْ دلَّ عليها إجمالاً.

﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أمَرَهم بالعدلِ، ونهاهم عن الظلم، وتوعَّدهم عَلَى خلاف ذلك، فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: طريق، ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون النَّاس، بأخذ أموالهم مِن مُكُوسٍ وغير ذلك، وتُخِيفون السَّبيل.

قال السُّدِّيُّ في «تفسيره» عن الصحابة: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أَنَّهُمْ كانوا يأخذون العُشُورَ من أموالِ المارَّةِ.

وقال إسحاقُ بن بِشرٍ عن جُويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: كانوا قومًا طُغاةً بُغاةً، يجلسون عَلَى الطَّرِيق يبخسون النَّاس، يعني: يَعْشُرُونهم، وكانوا أوَّل مَن سَنّ ذلك.

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فنهاهم عن قطع الطَّرِيقِ الحِسيَّة الدنيوية والمعنوية الدينية، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلةِ، وحذَّرهم نقمةَ الله بهم إن خالفوا ما أرشَدَهم إليه ودلَّهم عليه؛ كما قَالَ لهم في القصة الأخرى: ﴿وَلاَ تَنقُصُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]. أي: لا تَركَبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه، فيمحقَ الله بركةَ ما في أيديكم، ويُفقِرَكم ويُذهِب ما به يُغنِيكم، وهذا مُضافٌ إلى عذابِ الآخِرَةِ، ومَن جُمع له هَذَا وهذا، فقد باء بالصَّفقةِ الخاسرة، فنهاهم أولًا عن تعاطي ما لا يَليقُ من التطفيف، وحذَّرهم سَلب نعمةِ الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أُخرَاهم، وعنَّفهم أشدَّ تعنيفٍ.

ثم قَالَ لهم آمِرًا بعد ما كان عن ضدِّه زاجرًا: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

قال الحسنُ البصريُّ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: رزقُ الله خيرٌ لكم من أخذِ أموالِ النَّاس بالتطفيف، قال: وقد روي هَذَا عن ابن عباس، وهذا قاله وحكَاه حسنٌ، وهو شبيهٌ بقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، يعني: أن القليل من الحلالِ خيرٌ لكم من الكثيرِ من الحرام؛ فإن الحلال مبارَكٌ، وإن قَلَّ، والحرام ممحوقٌ وإن كَثُر، كما قَالَ تعَالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّـهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرِّبا وإن كَثُرَ، فإنَّ مَصيرَهُ إلى قُلٍّ»(١) رواه أحمد. أي: إلى قِلَّةٍ.

وقال رسول الله ﷺ: «البَيِّعان بالخِيارِ ما لم يَتَفَرَّقا، فإن صَدَقَا وبيَّنَا بُورِكَ لهما في بَيعِهما، وإن كتَمَا وكَذَبَا مُحِقَت بَرَكَةُ بَيْعِهما»(٢).

والمَقْصُودُ: أن الربحَ الحلال مبارَكٌ فيه وإن قَلَّ، والحرام لا يُجدي وإن كَثُر، ولهذا قَالَ نبيُّ الله شُعيبٌ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: افعلوا ما آمُرُكم به ابتغاء وجهِ الله ورجاءَ ثوابه، لا لأراكم أنا وغيري. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يقولون هَذَا عَلَى سبيلِ الاستهزاء والتنقُّصِ والتهكُّم، أصلواتُك هَذِهِ الَّتِي تُصلِّيها هي الآمِرةُ لك بأن تَحجُرَ علينا، فلا نَعبُد إلاهَكَ، ونَترُك مَا يَعبُدُ آباؤُنا الأقدَمون وأسلافُنا الأوَّلون؟ أو أنَّا لا نَتعامَلُ إلَّا عَلَى الوجه الَّذِي تَرتضيهِ أنت، ونَترُكُ المعاملات الَّتِي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٩٥).
(٢) رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (٣٨٣٦).

﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ ميمونُ بنُ مِهرَانَ، وزيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُ جَرِيرٍ: يقولون ذَلِكَ - أعداءُ الله - عَلَى سبيلِ الاستهزاءِ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا باللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هَذَا تلطُّفٌ معهم في العبارة، ودعوةٌ لهم إلى الحقِّ بأبيَنِ إشارة، يقولُ لهم: أرأيتم أيها المكذِّبون ﴿إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: عَلَى أمرٍ بَيِّنٍ من الله تعالى أنه أرسَلني إليكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني: النبوة والرسالة، يعني: وعَمَّى عليكم معرفتها، فأيُّ حيلةٍ لي بكم؟

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لستُ آمُرُكم بألأمر إلَّا وأنا أولُ فاعلٍ له، وإذا نهيتُكم عن الشيء فأنا أولُ مَن يَترُكُه، وهذه هي الصفةُ المحمودةُ العظيمةُ، ضِدُها هي المردودةُ الذميمةُ، كما تَلبَّس بها علماءُ بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤُهم الجاهلون، قَالَ الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وذكَرنا عندها في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ - أي: تخرج أمعاؤه من بطنه - فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ المُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنْ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[(١)]، وهذه صفةُ مخالفي الأنبياء مِن الفجَّار والأشقياء، فأمَّا السَّادةُ من النُّجَباء والألبَّاء من العلماء الذين يخشَون ربَّهم بالغيب، فحالُهم كما قَالَ نبيُّ الله شُعيبٌ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أُريدُ في جميع أمري إلَّا الإصلاح في الفَعالِ والمقالِ، بجَهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي: في جميع أحوالي، ﴿إِلَّا باللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: عليه أتوكَّل في سائرِ الأمورِ، وإليه مَرجِعي ومصيري في كلِّ أمري، وهذا مقامُ ترغيبٍ.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٧٤٠٨).

مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ أي: لا تَحملَنَّكم مخالفتي وبُغْضُكم ما جئتكم به عَلَى الاستمرارِ عَلَى ضلالِكم وجهلِكم ومخالفتِكم، فَيُحِلَّ الله بكم من العذابِ والنَّكالِ نظيرَ ما أحَلَّه بنُظَرائِكم وأشباهكم، من قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقومِ صالح، مِن المكذِّبين المخالفين.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قيل: معناه في الزمان، أي: ما بالعهد من قدَم مِمَّا قَدْ بلغَكم ما أحلَّ الله بهم عَلَى كُفرِهم وعُتُوِّهم، وقيل: معناه وما هم منكم ببعيدٍ في المَحَلَّة والمكانِ، وقيل: في الصفاتِ والأفعال المستقبحات؛ مِن قطعِ الطَّرِيقِ، وأخذِ أموالِ الناسِ جَهرةً وخُفيةً، بأنواع الحِيَلِ والشبهات، والجمعُ بين هَذِهِ الأقوال ممكنٌ، فإنهم لم يكونوا بعيدين مِنْهُمْ، لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفاتٍ، ثُمَّ مزَج الترهيب بالترغيب، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: أقلِعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربِّكم الرحيم الودودِ، فإنه مَن تاب إليه تاب عليه، فإنه ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، أرحَمُ بهم مِن الوالدة بولدِها، ﴿وَدُودٌ﴾ وهو الحبيبُ، ولو بعدَ التوبة عَلَى عبدِهِ، ولو من الموبِقات العِظامِ.

عباد الله...

فماذا كان جواب قومه؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال: أنت واحد، وقال غيرهُ: يعنون ذليلًا، لأن عشيرتك ليسوا عَلَى دينك[(١)].

وقولُهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمُه، ولا نتعقَّلُه، لأنَّا لا نحبُّه ولا نُريدُه، وليس لنا همَّةٌ إليه ولا إقبالٌ عليه، وهو كما قَالَ كفارُ قريشٍ لرسول الله ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥].

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٢٩).

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: مضطهَدًا مهجورًا ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾ أي: قبيلتُك وعَشيرتُك فينا ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون جَنبَةَ الله ولا ترعوني لأني رسول الله؛ فصار رهطي أعزَّ عليكم من الله، ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًا﴾ أي: جعلتم جانب الله وراء ظهوركم، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو عليمٌ بما تعملونه وما تصنعونه، محيطٌ بذلك كلِّه، وسيجزيكم عليه يومَ تُرجَعون إليه.

وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهذا أمرُ تهديد شديدٍ، ووعيدٍ أكيدٍ بأن يستمرُّوا عَلَى طريقتهم، ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون مَن تكونُ له عاقبةُ الدَّار، ومَن يَحِلُّ عليه الهلاكُ والبَوارُ، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في هَذِهِ الحياة الدُّنْيَا ويحل عليه عذابٌ مُقيم، أي: في الآخِرَة. ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي: مِني ومنكم فيما أخبر وبشَّر وحذَّر.

قوله: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧ - ٨٩].

طلبوا بزعمهم أن يَرُدُّوا مَن آمَن مِنهم إلى ملَّتِهم، فانتصب شعيبٌ للمُحاجَّة عن قومِه، فقال: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارًا، وإنما يعودون إليه - إن عادوا - اضطرارًا مُكرهِين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالَطَت بشَاشَتُه القلوبَ لا يَسْخَطُه أحدٌ، ولا يريدُ أحدٌ أن يزولَ عنه، ولا مَحِيدَ لأحدٍ منه، ولهذا قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾

أي: فهو كافينا وهو العاصمُ لنا، وإليه مَلجأُنا في جميع أمرِنا.

عباد الله...

ثم استفتح عَلَى قومه واستنصَر ربَّه عليه في تعجيل ما يستحقُّونه إليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي: الحاكمين، فدعا عليهم والله لا يَرُدُّ دعاءَ رُسلِهِ إِذَا استَنصَروه عَلَى الذين جَحَدوه وكَفروه، ورسولَه خالفوه، ومع هَذَا صمَّموا عَلَى ما هم عليه مشتَمِلون وبه مستمسكون.

قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ قَالَ الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، ذكَر في سورة «الأعراف» أَنَّهُمْ أخذتَهم رَجفَةٌ، أي: رَجفَت بهم أرضُهم، وزُلزلت زلزالًا شديدًا، أزهَقَت أرواحهَم من أجسادِهم، وصيَّرت حيواناتِ أرضِهم كجمادها، وأصبَحت جُثَثُهم جاثيةً لا أرواحَ فيها ولا حركات بها ولا حَواسَّ لها.

وقد جمعَ الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المَثُلات، وأشكالًا من البليَّات؛ وذلك لِمَا اتَّصفُوا به من قبيح الصِّفات، سلَّط الله عليهم رَجفةً شديدةً أسكَنتِ الحركاتِ، وصيحةً عظيمةً أَخمَدتِ الأصوات، وظُلَّةً أرسَل الله عليهم منها شَرَرَ النارِ من سائرِ أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كلِّ سورةٍ بما يناسبُ سِياقَها ويوافقُ طِباقَها في سياق قصة «الأعراف» أرجَفوا نبيَّ الله وأصحابَه، وتوعدُّوهم بالإخراج من قريتهم أو لَيَعُودُنَّ في مِلَّتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فقابل الإرجاف بالرَّجفةِ، والإخافةَ بالخِيفةِ، وهذا مناسبٌ لهذا السياقِ، ومتعلِّقٌ بما تقدَّمه مِن السباقِ، وأما في سورة «هود» فذكَر أَنَّهُمْ أَخَذَتهم الصَّيْحةُ فأصبَحوا في ديارهم جاثمينَ؛ وذلك لأَنَّهُمْ قالوا لنبي الله عَلَى سبيل التهكُّم والاستهزاء والتنقُّص: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فناسَب أن يَذكُرَ الصيحةَ الَّتِي هي كالزَّجر عن تعاطي هَذَا الكلام القبيح، الَّذِي جهَّلُوا به هَذَا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صَيحةٌ أسكتَتهم مع رجفةٍ أسكنَتهم، وأما في سورة «الشعراء» فذكَر أنه أخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وكان ذَلِكَ

إجابةً لما طلبوا، وتقريبًا لما إليه رَغِبوا، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨]، قَالَ الله تعالى وهو السميعُ العليمُ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] (١).

أيها المسلمون...

ومن زعَم من المفسرين كقَتادةَ وغيره أن أصحابَ الأيكَة أُمَةٌ أُخرى غيرُ أهلِ مَديَنَ فقولُه ضعيفٌ، وإنما عمدتُهم شيئان:

أحدُهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقُل: أخوهم، كما قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: ٣٦].

والثاني: أنه ذكَر عذابَهم بيومِ الظُّلَّة، وذكَر في أولئك الرَّجفة أو الصَّيحة.

والجواب عن الأول: أنَّه لم يَذكُر الأُخُوَّةَ بعد قَولِه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾، لأنَّه وصفَهم بعبادةِ الأيكةِ، فلا يُناسبُ ذِكرُ الأُخُوَّةَ ههنا، ولما نَسَبَهم إلى القبيلةِ ساغ ذكرُ شُعيبٍ بأنه أخوهم، وهذا الفرقُ من النفائس اللطيفةِ العزيزةِ الشريفة.

وأما احتجاجُهم بيوم الظُّلَّة، فإن كان دليلًا بمجردَّه عَلَى أن هؤلاءِ أمةٌ أُخرى، فليكُن تَعدادُ الانتقام بالرَّجفةِ والصَّيحةِ دليلًا عَلَى أنَّهما أمتان أُخريَانِ، وهذا لا يقولُه أحدٌ يَفهمُ شيئًا من هَذَا الشَّأن، فأما الحديثُ الَّذِي أورَدَه الحافظُ ابن عساكِرَ، في ترجمة النَّبيِّ شُعيبٍ عليه السلام من طريقِ محمد بن عثمانَ بن أبي شَيبةَ، عن أبيه، عن معاويةَ بن هشام، عن هشام بن سعدٍ، عن شقيق بن أبي هلال، عن رَبيعة بن سيفٍ، عن عبدالله بنِ عمرو مرفوعًا: «**إنَّ مدين وأصحاب الأيكةَ أُمَّتان بعث الله إليهما شُعيبًا النَّبيَّ عليه السَّلامُ**» (٢) فإنه حديث غريب وفي رجاله مَن تُكُلِّمَ

---

(١) «البداية» (١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) **حديث منكر:** فيه علل، منها: ربيعة بن سيف له مناكير، ولم يسمع من عبد الله بن عمرو.

فيه، والأشبَهُ أنه مِن كلامِ عبد الله بن عمرو، مما أصابَهُ يومَ اليَرمُوك من تلك الزَّامِلَتَيْن من أخبار بني إسرائيل، واللَّـهُ أعْلَمُ.

ثم قَدْ ذكر الله عن أهلِ الأيكةِ من المَذمَّةِ ما ذكَره عن أهلِ مَديَنَ من التَّطفيف في المكيال والميزانِ، فدلَّ عَلَى أنَّهُمْ أمةٌ واحدةٌ أُهلِكوا بأنواعٍ من العذابِ، وذكَر في كلِّ مَوضعٍ ما يناسبُ من الخطابَ.

وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ذكَروا أنهم أصابَهم حرٌّ شديدٌ، وأسكَن الله هُبوبَ الهواءِ عنهم سبعةَ أيامٍ، فكأن لا يَنفعُهم مع ذلك ماءٌ ولا ظِلٌّ ولا دخولُهم في الأسرابِ، فهربوا من محَلَّتِهم إلى البرِّيَّةِ، فأظَلَّتهم سحابةٌ فاجتمَعوا تحتَها ليَستظلُّوا بظلِّها، فلما تكامَلوا فيه أرسَلَها الله عَلَيهم تَرميهم بشَرَرٍ وشُهُبٍ من نارٍ، ورجَفَت بهمُ الأرضُ، وجاءتهم صَيحةٌ مِن السماء فأزهَقت الأرواح وخرَّبت الأشباح ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّـمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢][(١)].

عباد الله...

ونجَّى الله شُعيبًا ومَن معهُ من المؤمنين، كما قَالَ تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّـمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّـمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٠- ٩٢].

ثم ذكر تعالى عن نبيِّهم أنه نعَاهم إلى أنفسهم مُوبِّخًا ومؤنِّبًا ومقرِّعًا، فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣]، أي أعرَض عنهم مولِّيًا عن محَلَّتِهم بعدَ هَلاكِهم

---

(١) «البداية» (١/ ٢٢٨).

قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قَدْ أَدَّيتُ ما كان واجبًا عليَّ مِن البلاغ التَّام والنُّصح الكامل، وحرصتُ عَلَى هدايتكم بكلِّ ما أقدرُ عليه وأتوصَّلُ إليه، فلم يَنفَعكم ذلك؛ لأن الله لا يَهدي مَن يُضلُّ وما لهم من ناصرين، فلستُ أتأسَّفُ بعد هَذَا عليكم؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النَّصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أي: أحزنُ ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: لا يَقبَلون الحق ولا يَرجعون إليه ولا يلتفتون عليه، فحلَّ بهم مِنْ بأس الله الَّذي لا يُردُّ ما لا يُدافَعُ ولا يُمانَعُ، ولا مَحيدَ لأحدٍ أُريدَ به عنه، ولا مَناصَ مِنه[1].

ولا عدوان إلَّا عَلَى الظالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي القصّة فوائد، منها:

١- التحذير من الشرك.

٢- التحذير من الغش.

٣- التحذير من الكِبر.

٤- التحذير من التطفيف.

وإلى هنا نأتي إلى خِتام قصّة شُعيب - عليه السلام - مع قومه، سائلًا المولى جلّت قدرته أن يجعلنا مِن الذين جَاوَزُوا دَارَ الظالمين، واسْتَقَوْا من عَينِ الحِكْمَةِ، ورَكبُوا سفينةَ الفِطْنَة.

آمين... آمين... آمين.

---

(١) «البداية» (١/ ٢٢٨).

الخطبة الرابعة والعشرون:

مع نبيِّ الله أيوب عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ:

نلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله أيوب عليه السلام.

عباد الله...

وأيوب هو: أيوب بن مُوصٍ بن رَزَاح بن العِيص بن إسْحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

حكى ابن عساكر أن أمَّهُ بنت لوط عليه السلام.

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «وامرأته قيل: اسمها «ليا بنت يعقوب»»، وقيل: «رحمة بنت أفرائيم»، وقيل: «منشا بنت يوسف بن يعقوب»، وهذا

أشهر» ا.هـ[١].

وهو أحد الأنبياء المنصوص عَلَى الإيحاء إليهم في سورة «النساء» في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ... ﴾ الآية [النساء: ١٦٣].

قَالَ الإمام القشيري - رحمه الله -: «وسُمّي أيوب: لكثرة إيابه إلى الله في جميع أحواله في السَّراء والضَّراء، والشِّدة والرخاء» ا.هـ[٢].

وخلاصة ما ثبت في قصّته:

أنَّهُ ﷺ كان كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتّسعة بأرض «البثنية» - قرية بين دمشق وأذرعات - من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر - رحمه الله - أنها كُلّها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فَسُلب من ذَلِكَ جميعه، وابتُلي في جَسَده، ولكن بلاؤه لم يكن من النَّوع المُنَفِّر.

قَالَ الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة - رحمه الله تعالى -: «والذي يجب أن نعتقده: أنَّهُ - يعني أيوب ﷺ - ابتُلي، ولكن بلاؤه لم يصل إلى حدّ هَذِهِ الأكاذيب، من أنَّهُ أُصيب بالجذام، وأن جسمه أصبح قُرحة، وأنه أُلقى عَلَى كناسة بني إسرائيل، يَرى في جسده الدود، وتعبث به دوابُّ بني إسرائيل، أو أنَّهُ أُصيب بمرض الجدريّ.

وأيوب - عليه صلواتُ الله - أكرم عَلَى الله من أن يُلقى عَلَى مزبلة.

والحق: أن ما أصيب به أيوب من المرض إنما كان من النوع غير المنفّر والمقزز، وأنه من الأمراض الَّتِي لا يظهر أثرها عَلَى البشرة، كالروماتيزم، وأمراض المفاصل، والعظام، ونحوها». ا.هـ[٣].

(١) «البداية» (١/ ٣١٧).
(٢) «لطائف الإشارات» (٤/ ١٨٤).
(٣) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (٢٨٠، ٢٨١) باختصار.

ثم ماذا؟

ثم لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة - كما سيأتي في الحديث التالي - وهو في ذَلِكَ كله صابر محتسب، ثُمَّ دعا ربَّه - سبحانه - أن يكشف عنه البلاء.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ الله أَيُّوبَ لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمانَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمانَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ.

فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لاَ أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ إِلاَّ فِي حَقٍّ قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَغَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ البَلاَءِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللَّهُ، فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ الله هَذَا المُبْتَلَى، وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ.

وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ[١]: أَنْدَرُ القَمْحِ، وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ القَمْحِ، أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ[٢]، وَأَفْرَغَتِ الأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الوَرِقَ[٣] حَتَّى فَاضَتْ»[٤].

---

(١) أي: بيدران، البيدر: الجُرن.

(٢) فاض: امتلأ.

(٣) الوَرِق: الفضة.

(٤) صحيح: رواه أبو يعلى في «مسنده» (١/ ١٧٦، ١٧٧)، والبزار، وأبو نعيم، وابن حبان في «صحيحه» (٢٠٩١)، والضياء المقدسيّ في «المختارة»، وصححه. وقال الألباني: حديثٌ صحيح. انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٤٨٥).

عباد الله...

وقد ذكر الحقّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى قصّة شفاء أيوب الطَّيْلا في موضعين من كتابه العزيز:

الموضع الأول:

قوله تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

والموضع الثاني:

قوله تعالى في سورة «ص»: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١- ٤٤].

قال العلّامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في «تفسيره»: قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾.

الظاهر أن قوله ﴿وَأَيُّوبَ﴾ منصوب بـ ﴿اذْكُرْ﴾ مقدرًا، ويدل عَلَى ذَلِكَ قوله تعالى في «ص» ﴿واذكر عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وقد أمر جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه ﷺ: أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين﴾ وأن ربَّه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه جل وعلا به، وتذكيرًا للعابدين أي الذين يعبدون الله لأَنَّهُمْ هم المنتفعون بالذكرى.

وهذا المعنى الَّذِي ذكره هنا ذكره أيضًا في سورة «ص» في قوله: ﴿واذكر عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] إلى قوله ﴿لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]، والضر الَّذِي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء

أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه. كما أشار تعالى إلى ذَلِكَ في قوله: ﴿**اركض بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾ [ص: ٤٢].

وما ذكره في «الأنبياء»: من أنه آتاه أهله ومثلهم رحمة منه وذكرى لمن يعبده بينه في «ص» في قوله: ﴿**اركض بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾ [ص: ٤٣]، وقوله في «الأنبياء»، ﴿**وذكرى لِلْعَابِدِينَ**﴾ مع قوله في «ص»، ﴿**وذكرى لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ فيه الدلالة الواضحة عَلَى أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قَالَ من أهل العلم، إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدهم طاعة لله تعالى. لأَنَّهُمْ هم أولو الألباب. أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال.

تنبيه:

في هَذِهِ الآيات المذكورة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب المذكور في «الأنبياء» في قوله، ﴿**إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر**﴾ [الأنبياء: ٨٣] وفي «ص» في قوله، ﴿**إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾ [ص: ٤١] يدل عَلَى أنه ضجر من المرض فشكا منه. مع أن قوله تعالى عنه، ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً**﴾ [ص: ٤٤] يدل عَلَى كمال صبره؟

والجواب: أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تَفْسِيرِهذه الآية الكريمة، ولم يكن قوله ﴿**مَسَّنِيَ الضر**﴾ [الأنبياء: ٨٣] جزعًا. لأن الله تعالى، قال: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا**﴾ [ص: ٤٤] بل كان ذَلِكَ دعاء منه. والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا.

قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسًا

غاصًا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان. فسئلت عن هَذِهِ الآية الكريمة بعد اجتماعهم عَلَى أن قول أيوب كان شكاية وقد قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ [ص: ٤٤] فقلت: ليس هَذَا شكاية، وإنما كان دعاء. بيانه ﴿فاستجبنا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٤] والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء. فاستحسنوه وارتضوه. وسُئل الجنيد عن هَذِهِ الآية الكريمة فقال: عرَّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال، انتهى منه.

ودعاء أيوب المذكور ذكره الله في سورة «الأنبياء» من غير أن يسند مس الضر أيوب إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وذكره في سورة «ص» وأسند ذَلِكَ للشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] والنصب عَلَى جميع القراءات معناه: التعب والمشقة، والعذاب: الألم. وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية «ص» هَذِهِ إشكال قوي معروف. لأن الله ذكر في آيات من كتابه: أن الشيطان ليس له سلطان عَلَى مثل أيوب من الأنبياء الكرام. كقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ﴾ [سبأ: ٢١] الآية، وقوله تعالى عنه مقررًا له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين﴾ [الحجر: ٤٢].

وللعلماء عن هَذَا الإشكال أجوبة. منها ما ذكره الزمخشري قال:

فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه عَلَى أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر عَلَى ذَلِكَ لم يدع صالحًا إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذَلِكَ حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه عَلَى الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذَلِكَ بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين. فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء الصالحين. وذكر في سبب بلائه: أن رجلًا استغاثه عَلَى ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله، انتهى منه.

ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين: أن الله سلط الشيطان عَلَى ماله وأهله ابتلاء لأيوب. فأهلك الشيطان ماله وولده، ثُمَّ سلطه عَلَى بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكها بأظافره حتى دميت، ثُمَّ بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه. (وغالب ذَلِكَ من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء عَلَى جسده، وماله وأهله ممكن، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله عَلَى أن يفعل ما لا ينبغي. كمداهنة الملك المذكور، وعدم إغاثة الملهوف، إلى غير ذَلِكَ من الأشياء الَّتِي يذكرها المفسرون. وقد ذكروا هنا قصة طويلة تتضمن البلاء الَّذِي وقع فيه، وقدر مدته (وكل ذَلِكَ من الإسرائيليات) وقد ذَكَرْنَا هنا قليلاً.

وغاية ما دل عليه القرآن: أن الله ابتلى نبيه أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضر، ووهبه أهله ومثلهم معهم، وأن أيوب نسب ذَلِكَ في «ص» إلى الشيطان. ويمكن أن يكون سلطه الله عَلَى جسده وماله وأهله. ابتلاء ليظهر صبره الجميل، وتكون له العاقبة الحميدة في الدُّنْيَا والآخِرَة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند الله تعالى وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له عَلَى مثل أيوب، لأن التسليط عَلَى الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب الَّتِي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء، فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان عَلَى ذَلِكَ للابتلاء وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية عَلَى الأنبياء في سورة «طه» وقول الله لنبيه أيوب في سورة «ص»: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] الآية، قَالَ المفسرون فيه: إنه حلف في مرضه ليضربن زوجه مائة سوط،

فأمره الله أن يأخذ ضغثًا فيضربها به ليخرج من يمينه، والضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك. والمعنى: أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة، فيخرج بذلك من يمينه. وقد قدمنا في سورة «الكهف» الاستدلال بآية ﴿وَلاَ تَحْنَثْ﴾ أن الاستثناء المتأخر لا يفيد. إذ لو كان يفيد لقال الله لأيوب قل إن شاء الله. ليكون ذَلِكَ استثناء في يمينك». ا.هـ[1].

عباد الله...

وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ[2] رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ[3] فَجَعَلَ يَحْثِي[4] فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»[5].

قَالَ الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «وفي الحديث جواز الحرص عَلَى الاستكثار من الحلال في حق مَن وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الَّذِي يكون من هَذِهِ الجهة بَرَكة، وفيه فضل الغَنِيّ الشَّاكر» ا.هـ[6].

يا صاحب الهَمِّ إن الهمَّ مُنْفَرج ... أبْشِر بخَيرٍ، فإنَّ الفارِجَ اللَّهُ
اليأسُ يَقْطَع أحيانًا بصَاحِبه ... لا تيأس فإنَّ الكافِي اللَّهُ
اللَّهُ يُحدث بعد العُسْر مَيْسَرةِ ... لا تَجْزَعَنَّ فإنَّ الصَّانع اللَّهُ
إذا بُليتَ فَثق بالله وارضَ بهِ ... إنَّ الَّذي يكشف البَلوى هو اللَّهُ
والله مَا لَكَ غَير الله من أحَدٍ ... فَحَسْبُك اللَّهُ في كُلٍ، لَكَ اللَّهُ

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ١٥٩ - ١٦١).
(٢) خَرَّ عليه: سقط عليه.
(٣) رِجْلُ جَرَاد: أي جماعة جراد.
(٤) يحثي: يأخذ بيديه جميعًا.
(٥) رواه البخاري (٣٣٩١).
(٦) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: لماذا يُسلّط الله تعالى البلاء عَلَى المؤمنين؟

الجواب: لأمرين:

الأول: إما لرفع درجته:

فقد تكون للمسلم عند الله تعالى منزلة لا يصل إليها بعمله الصالح، فيبتليه الله ليبلّغه إيَّاها.

عَن إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَهْدِيٍّ السُّلَمِيُّ - عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتَلاَهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى يُبْلِغَهُ المَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى»** (١).

الأمر الثاني: أو لتكفير سيئاته:

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعود ﷺ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ: **«أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»**، قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: **«أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»** (٢).

وعن عبد الله بن عمر - رَضِي الله عَنْهُما - أن رسول الله ﷺ قَالَ: **«مَن صُدِعَ رأسُهُ في سبيل الله فاحتَسَب غُفِرَ له ما كان قبل ذَلِكَ مِنْ ذَنْبٍ»** (٣).

---

(١) صحيح: انظر «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٤٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) قَالَ المنذريّ: رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن. «الترغيب» (٥٠٠٤).

والأحاديث في هَذَا المعنى كثيرة.

هَذَا بالإضافة إلى مكافأة أخرى يمنحها اللهُ تعالى للعبده الصالح حال مرضه، وهي أَنَّهُ - تبارك وتعالى - يكتب له ثواب ما كان يعمل وهو صحيح.

عَنْ أبي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِنْ الأَجْرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»**[(١)].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَا أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ يُصَابُ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ المَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ، فَقَالَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ مَا كَانَ فِي وِثَاقِي»**[(٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ مِنْ العِبَادَةِ ثُمَّ مَرِضَ قِيلَ لِلْمَلَكِ المُوَكَّلِ بِهِ اكْتُبْ لَهُ مِثْلَ عَمَلِهِ إِذَا كَانَ طَلِيقًا حَتَّى أُطْلِقَهُ أَوْ أَكْفِتَهُ إِلَيَّ[(٣)]»**[(٤)].

وهذا الأجر العظيم والفضل الكبير، لمن صبر واحتسب وكان عَلَى طريقة حسنة، فهذا الَّذِي يُوفَّى أجره بغير حساب.

قَالَ سليمانُ بنُ القاسم: «كُلّ عمل يُعرف ثوابهُ إلَّا الصَّبر، قَالَ تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]. قال: «كالماء المنهمر»[(٥)].

ومع هَذَا الفضل الكبير، والأجر الجزيل، إلَّا أَنَّهُ لا يجوز لمسلم أن يطلب المرض ولا أن يتمنّاه، ولكن عليه أن يسأل الله تعالى المعافاة، فقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من الجنون والبَرَصِ والجُذَام وسَيِّئِ الأسقام، وكان يدعو إذَا أصبح وإذا أمسى ثلاث مرات: **«اللَّهمَّ عافني في بَدَني، اللَّهمَّ عافني في سَمْعي، اللَّهمَّ عافني**

---

(١) رواه البخاري وأبو داود.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، «المجمع» (٢/ ٣٠٣).

(٣) **أكفته إليَّ**: أضمّه إليَّ وأقبضه.

(٤) **حسن**: رواه أحمد، وقال المنذريّ: إسناده حسن. «الترغيب» برقم (٤٩٨٥).

(٥) «**لا تحزن**» للشيخ عائض القرنيّ (١٣٠).

في بصري، لا إله إلا أنت»[(١)].

وعَلَّمنا دعاء الوقاية من البلاء:

فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِي اللّـهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى صَاحِبَ بَلَاءٍ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، إِلَّا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ البَلَاءِ كَائِنًا مَا كَانَ مَا عَاشَ»[(٢)].

وهذا الدعاء تحصين مُهمّ لدرء المرض، ورفع البلاء.

عباد الله...

ومن الدروس المستفادة من هَذِهِ القصّة:

١ - الفَرَج مَع الكَرب.

ولله دَرُّ الشّافعي حين قَالَ:

وَلَرُبَّ نازلة يضيقُ لها الفتى ... ذرْعًا وعند الله منها المَخْرَجُ

ضاقت فلمّا استحكمت حلَقاتُها ... فُرِجَتْ، وكنتُ أظُنُّها لا تُفْرَجُ[(٣)]

٢ - فضل البلاء:

وقد تقدّم معناه، أن الله تعالى يسلّطه عَلَى عبده المؤمن لأمرين: إمّا لرفع درجاته، وإما لتكفير سيئاته.

عَنْ سَعْدٍ بن أبي وقاص ؓ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدرِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[(٤)].

---

(١) حسن: رواه أبو داود وغيره، وحسنه الشيخ ابن باز في «تحفة الأخيار» (٢٦).

(٢) حسن: انظر «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٢٨).

(٣) «ديوان الإمام الشافعي» (ص٤٠).

(٤) حسن صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» (١٩٥٦).

٣- فضل التأسِّي بالأنبياء:

ويظهر ذَلِكَ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

قَالَ العلَّامة السَّعدي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «﴿وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أي: وليتذكر أولوا العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن مَن صَبر عَلَى الضُّر، أن الله تعالى يُثيبه ثوابًا عاجلًا وآجلًا، ويستجيب دعاءه إذَا دعاه» ا.هـ[1].

اللَّهمَّ إنَّا نسألك لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وبَدَنًا عَلَى البلاء صابرًا

آمين... آمين... آمين

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧١٤).

الخطبة الخامسة والعشرون:
قصّة ذِي الكِفل واليسع عليهما السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].
اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله ذي الكِفل عليه السلام.

عباد الله...

قال الله تعالى بعد قصّة أيوب في سورة «الأنبياء»: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].
وقال تعالى بعد قصة أيوبَ أيضًا في سورة «ص»: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٨].

فالظاهرُ من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاءِ السادةِ الأنبياءِ أَنَّهُ نبيٌّ عليه من ربِّه الصلاةُ والسلامُ، وهذا هو المشهورُ، وقد زعم آخرون أَنَّهُ لم يكن نبيًّا وإنَّما كان رجلًا صالحًا وحَكَمًا مُقسطًا عادلًا، وتوقَّف ابنُ جرير في ذلك، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

وروى ابنُ جريرٍ وابن أبي نَجِيح عن مُجاهِدٍ: أَنَّهُ لم يكن نبيًّا، وإنَّما كان رجلًا صالحًا وكان قَدْ تكفَّل لبني قومه أن يَكفيَه أمرَهم ويقضي بينهم بالعدلِ ففَعلَ فَسُمِّي ذا الكفل.

وروى ابن جرير وابنُ أبي حاتم(1)، من طريق داودَ بن أبي هندٍ، عن مجاهدٍ، أَنَّهُ قَالَ لَـمَّا كبر اليَسعُ قال: لو أنِّي استخلَفتُ رجلًا عَلَى النَّاس يعملُ عليهم في حياتي حتَّى أنظر كيف يعملُ، فجمعَ النَّاس، فقال: مَن يتقبَّل لي بثلاثٍ استخلِفْه: يصومُ النَّهار، ويقومُ الليل، ولا يغضبُ؟ قال: فقام رجلٌ تَزْدَرِيه العينُ فقال: أنا. فقال أنت تصومُ النهار وتقومُ الليل ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردَّهم ذَلِكَ اليومَ، وقال مثلها اليوم الآخر فسكتَ النَّاس وقام ذَلِكَ الرَّجُلُ فقال: أنا، فاستَخلفَهُ.

قال: فجعل إبليسُ يقولُ للشياطين: عليكم بفلانٍ، فأعياهم ذلك، فقال: دعوني وإيَّاه، فأتاه في صورة شيخٍ كبيرٍ فقيرٍ، وأتاه حين أخذَ مَضجَعَهُ للقائِلَةِ، وكان لا ينامُ الليل والنهار إلاتلكَ النَّومة، فدق الباب فقال: من هذا؟ قال: شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقامَ ففتحَ البابَ، فجعلَ يقصُّ عليه، فقال: إنَّ بيني وبين قومي خصومةً، وإنَّهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا، وجعل يُطَوِّل عليه، حتَّى حضرَ الرَّواحُ وذهبت القائلةُ، وقال: إذَا رُحتُ فأتني آخُذ لك بحقك. فانطلق وراح، فكان في مجلسه فجعل ينظرُ هل يرى الشيخ فلم يَرَهُ، فقام يَتبعَهُ.

فلمَّا كان الغدُ جعلَ يَقضِي بين النَّاس وينتظرُه فلا يراه، فلمَّا رجع إلى القائلة فأخذ مَضجَعَهُ أتاه فدقَّ البابَ، فقال: مَن هذا؟ فقال: الشيخُ الكبيرُ المظلومُ،

---

(1) **إسناده صحيح إلى مجاهد**: رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٠٢)، وابن جرير (١٠/ ١٧/ ٧٤).

ففتحَ له فقال: ألم أَقُل لك: إذَا قَعدتُ فأتِني؟ فقال: إنهم أخبثُ قوم، إذَا عَرَفُوا أنك قاعدٌ قالوا: نحن نُعطيك حَقَّكَ، وإذا قمتَ جَحَدُونِي. قال: فانطلق فإذا رحت فأتني.

قال: ففاتَتهُ القائلةُ، فراحَ فجعلَ يَنتظِرُ فلا يَرَاهُ، وشقَّ عليه النُّعاسُ، فقال لبعضِ أهله: لا تَدَعَنَّ أحدًا يقرُبُ هَذَا البابَ حتَّى أنام، فإنِّي قَدْ شقّ عليَّ النومُ، فلمَّا كان تلك الساعة جاء، فقال له الرجلُ: وراءَكَ وراءَكَ: فقال إني قَدْ أتيتُهُ أمسِ فذكرتُ له أمري فقال: لا والله لقد أمَرنا أنْ لا نَدَعَ أحدًا يَقْرَبُهُ، فلمَّا أعياهُ نظر فرأى كُوّةً في البيت، فتسوَّرَ منها فإذا هو في البيت، وإذا هو يدقُّ الباب من داخل، قال: فاستيقظَ الرجلُ، فقال: يا فلانُ ألم آمُركَ؟ قال: أمَّا من قِبَلِي والله لم تُؤتَ، فانظُر من أين أُتيتَ؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مُغلقٌ كما أغلَقَه، وإذا الرَّجُلُ معه في البيت، فعرَفَهُ فقال: أعدوَّ الله؟ قال: نعم، أعييتَنِي في كلِّ شيءٍ، ففعلتُ ما تَرَى لأُغضِبكَ، فَسَمَّاهُ الله ذا الكِفلِ؛ لأنَّه تَكفَّل بأمرٍ فَوفَّى به[١].

قال ابن كثير - رحمه الله -: فأما الحديث الَّذي رواه الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنَا أَسْبَاطُ ابْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ سَعْدٍ مَوْلَى طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إلاَّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مِرَارٍ وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: **«كَانَ الكِفْلُ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ لاَ يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتُكِ قَالَتْ لاَ وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ الحَاجَةُ. قَالَ فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ قَالَ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ اذْهَبِى فَالدَّنَانِيرُ لَكِ ثُمَّ قَالَ وَاللهِ لاَ يَعْصِى اللهَ الكِفْلُ أَبَدًا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ قَدْ غَفَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكِفْلِ»**. ورواهُ الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حَسَنٌ[٢]. وذكر أن بعضهم رواه فَوقَفَهُ عَلَى ابن عُمَرَ، فهو حديثٌ غريبٌ جدًّا، وفي اسنادِهِ نظرٌ، فإنَّ سعدًا هَذَا قَالَ أبو حاتم: لا أعرفُهُ إلَّا

---

(١) «البداية» (١/ ٢٦٨).

(٢) وضعفه الألباني، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح.

بحديث واحدٍ، ووثَّقهُ ابنُ حبَّانَ، ولم يَروِ عنه سوى عبدالله بن عبدالله الرازي هَذَا فاللَّـهُ أعْلَمُ.

وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكِفل، وإنما لفظُ الحديث «الكِفْلُ» من غير إضافةٍ، فهو رجلٌ آخرُ غيرُ المذكورِ في القرآنِ الكريم، والله أعلم بالصواب». ا.هـ[(١)].

عباد الله...

كانت هَذِهِ قصّة ذي الكفل عليه السلام، وهو نبيّ كما تقدَّم.

أما اليسع عليه السلام: فلم يذكر القُرآن شيئًا عن حياته، وكذلك السُّنّة المطهرة، ويكفي أن الحقّ سبحانه ذكره من بين الأنبياء الأصفياء، قَالَ تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٦].

وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ**﴾ [ص: ٤٨].

قَالَ العلَّامة السَّعديّ - رحمه الله - عند تَفْسِيرِهذه الآية: «أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذِّكر، وأثنِ عليهم أحسن الثناء، فإنَّ كُلًّا مِنْهُمْ من الأخيار الذين اختارهم الله من الخَلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السّديدة». ا.هـ[(٢)].

نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرتهم، إنَّهُ وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «البداية» (١/ ٢٦٨، ٢٦٩) باختصار.

(٢) «تفسير السعدي» (٧١٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وهناك أنبياء لم يُصَرح القُرآن بأسمائهم، ولم يَذكر المعصومُ ﷺ لنا عن حياتهم شيئًا، منهم:

١- رسل أصحاب القرية:

قَالَ الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ١٣- ٢٩].

وانظروا تَفْسِيرِ هذه الآيات في تَفْسِيرِ ابن كثير.

٢- ومنهم أصحاب الرَّسِّ:

قَالَ الله تعالى في سورة «الفرقان»: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى في سورة «ق»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ

وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢- ١٤].

وهذا السياقُ والذي قبلَه يدلُّ عَلَى أنَّهُمْ أُهلكوا ودمِّروا وتُبِّرُوا، وهو الهلاكُ، وهذا يردُّ اختيار ابن جرير من أنَّهم أصحابُ الأخدودِ الذين ذُكِروا في سورة «البروج» لأنَّ أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام، وفيه نظرٌ أيضًا.

وروى ابنُ جرير قال: قَالَ ابن عباس: أصحابُ الرَّسِّ أهل قريةٍ من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول «تاريخه» عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن خُرداذبةَ وغيره: أنَّ أصحاب الرَّسّ كانوا بحَضورٍ، فبعث الله إليهم نبيًّا يقال له: حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرَمَ بن سام بن نوحٍ بولده من الرَّسّ، فنزلَ الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرَّسِّ، وانتشروا في اليمن كلِّها، وفَشَوا مع ذَلِكَ في الأرض كلها، حتى نزل جيرونُ بن سعد بن عاد بن عوصِ بن ارم بن سام بن نوح دمشق، وبني مدينتها، وسمَّاها «جَيرونَ»، وهي إرَمُ ذاتُ العِمادِ، وليس أعمدةُ الحجارة في موضع أكثر منها بدمشقَ، فبعث الله هود بن عبد الله بن رَباح بن خالد ابن الخلود بن عادٍ إلى عاد - يعني أولاد عاد - بالأحقاف، فكذَّبوه، وأهلكهم الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا يقتضي أنَّ أصحاب الرَّسِّ قبل عاد بدهورٍ متطاولةٍ، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم، عن أبيه، عن شَبيب بن بشرٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: الرَّسُّ بئرٌ بأذربيجانَ.

وقال الثوريُّ عن أبي بُكير عن عكرمة، قال: الرَّسُّ بئرٌ رَسُّوا فيها نبيَّهم، أي دفنوه فيها.

وقال ابن جريج قَالَ عكرمةُ: أصحاب الرَّس بفلَجٍ، وهم أصحاب ياسين.

وقال قتادة: فلجٌ من قرى اليمامة[1].

---

(١) «البداية» (١/ ٢٧٠).

قال ابن كثير - رحمه الله -:

«قلتُ: فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمةُ، فقد أُهلكوا بعامة، قَالَ الله تعالى في قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]. وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أُهلكوا أيضًا وتُبِّرُوا. وعلى كلِّ تقدير: فينافي ما ذكره ابن جرير.

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش: أنَّ أصحاب الرَّس كانت لهم بئرٌ ترويهم، وتكفي أرضهم جميعها، وكان لهم ملكٌ عادلٌ حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال إنِّي لم أمت ولكن تغيبتُ عنكم حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشدَّ الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموتُ أبدًا، فصدَّق به أكثرهم وافُتِتُنوا به وعبدوه، فبعث الله فيهم نبيًّا وأخبرهم أن هَذَا شيطانٌ يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال السُّهَيلِيُّ: وكان يوحى إليه في النوم، وكان اسمُه حنظلة بن صفوان، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤُها، وعطشوا بعد ريِّهم، ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن في مساكنهم الجنُّ والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجنِّ وزئيرُ الأسد وصوتُ الضبِّاع». ا.هـ[١].

وهذا جزاء الظالمين.

اللَّهمَّ إنا نعوذ بك من سوء المصير، وعذاب السّعير

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

(١) «البداية» (١/ ٢٧٠).

الخطبة السادسة والعشرون:

مع نبيّ الله يوسف عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله يوسف عليه السلام.

عباد الله...

لقد أنزل الحق - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - في شأن يوسف - عليه السلام - وما كان من أمره سورةً من القرآن العظيم، لِيُتَدبّر ما فيها من الحِكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ١- ٣].

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية، قال: نزل القُرآنُ عَلَى رسول الله ﷺ فتلا عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو حدّثتنا؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ... ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]. كل ذَلِكَ يُؤمر بالقرآن[١].

عباد الله...

وجملة القول في هَذَا المقام: أَنَّهُ تعالى يَمدَحُ كتابه العظيمَ، الَّذِي أنزلَه عَلَى عبدهِ ورسولِهِ الكريم، بلسانٍ عربيٍّ فصيح بَيِّنٍ واضح جَلِيٍّ، يفهمهُ كل عاقلٍ ذكيٍّ زكيٍّ، فهو أشرفُ كتابٍ نزَل من السماءِ، أنزَله أشرفُ الملائكة عَلَى أشرفِ الخلقِ، في أشرف زمانٍ ومكانٍ، بأفصح لغةٍ وأظهرِ بيانٍ، فإن كان السِّياقُ في الأخبار الماضية أو الآتية ذكَر أحسنَها وأبيَنَها، وأظهَرَ الحقَّ مِمَّا اختلَف الناسُ فيه، ودمَغ الباطلَ وزيَّفه وردَّه، وإن كان في الأوامرِ والنَّواهي، فأَعْدَلُ الشرائع وأوضحُ المناهجِ، وأبيَنُ حُكمًا وأعدلُ حَكَمًا، فهو كما قَالَ تَعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. يعني: صِدقًا في الأخبار عدلًا في الأوامر والنَّواهي، ولهذا قَالَ تَعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي: بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه، كما قَالَ تَعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمور ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

---

(١) إسناده حسن: «صحيح ابن حبان» (١٤٧٦ - موارد)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٥)، وصحّحه وأقرّه الذهبيّ، وحسنه الحافظ ابن حجر في «المطالب» (٣/ ٣٤٣).

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩- ١٠١]. يعني: مَن أعرَضَ عن هَذَا القرآنِ واتَّبعَ غيرَهُ من الكُتبِ، فإنه ينالُه هَذَا الوعيدُ.

قَالَ الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنَا سُرَيْجُ بْنُ النُّعمانِ قَالَ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ أَخْبَرَنَا مُجَالِدٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الكُتُبِ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ، وَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي»[١][٢].

عباد الله...

وتبدأ قصّة يوسف عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤- ٦].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره هَذِهِ الآية: «ذكرنا أن يعقوبَ كان له مِن البَنِين اثنا عشرٍ ولدًا ذكرًا[٣]، وإليهم يَنتسِبَ أسباطَ بني إسرائيل كلُّهم، وكان أشرفُهم وأَجَلَّهم وأعظمُهم يوسف عليه السلام، وقد ذَهبَ طائفةٌ مِن العلماء إلى أَنَّهُ لم يَكُن فيهم نبيٌّ غيرُهُ وباقِي إخوتِهِ لم يُوحَ إليهم، وظاهرُ ما ذُكِر مِن فِعالِهم ومَقالِهم في هَذِهِ القصة يدلُّ عَلَى هَذَا القول. ومن استدلَّ عَلَى نبوتِهم بقوله:

---

(١) إسناده صحيح.

(٢) «البداية» (١/ ٢٣٥، ٢٣٦) باختصار يسير.

(٣) منهم بنيامين، وسيأتي ذكر بعضهم أثناء القصّة - إن شاء الله تعالى.

﴿قُولُوا آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وزعَم أنَّ هؤلاءِ هم الأسباطُ، فليس استدلالُه بقويٍّ، لأنَّ المراد بالأسباط شعوبُ بني إسرائيلَ، وما كان يُوجَدُ فيهم من الأنبياء الذين ينزلُ عليهم الوحيُ من السماء، واللَّـهُ أعْلَمُ.

ومِمَّا يؤيدُ أن يوسفُ عليه السلام هو المختصُّ من بين إخوتهِ بالرسالةِ والنبوةِ؛ أنَّهُ نص عَلَى نبوته والإيحاء إليه في غير آية من كتابه العزيز، ولم ينصَّ عَلَى واحدٍ من إخوتهِ سِواه، فدلَّ عَلَى ما ذكرناه، ويُستأنسُ لهذا بما قَالَ الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الصمد، حدثنا عبدُ الرحمن بنُ عبد الله بنِ دينارٍ، عن أبيه، عن ابنُ عُمَرَ، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ السَّلَام» انفرد به البخاريُّ.

قال المفسرون وغيرهم: رأى يُوسفُ عليه السلام وهو صغيرٌ قبلَ أنْ يَحتلِمَ كأنَّ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وهم إشارة إلى بقية إخوته ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هما عبارةٌ عن أَبَويَه، قَدْ سَجَدوا له، فَهَالَهُ ذلك، فلما استيقظَ قصَّها عَلَى أبيه، فعرَف أبوه أنه سينالُ منزلةً عاليةً ورفعةً عظيمةً في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، بحيث يَخضعُ له أَبَواه وإخوتُه فيها، فأمره بكتمانِها وأن لا يَقُصَّها عَلَى إخوته؛ كيلا يَحسدُوُه ويَبغُوا له الغوائِلَ ويَكِيدُوه بأنواعِ الحِيَلِ والمكرِ، وهذا يدُلُّ عَلَى ما ذكرناه، ولهذا جاء في بعض الآثار: «استعينوا عَلَى قضاء حوائِجِكم بكتمانِها، فإنَّ كلَّ ذِي نعمةٍ محسودٌ»(١). وعند أهل الكتاب أَنَّهُ قصَّها عَلَى أبيه وإخوته معًا، وهو غلط منهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أراكَ هَذِهِ الرؤيا العظيمة فإذا كَتَمتَها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يَخُصُّك بأنواع اللُّطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: يُفَهِمُك من معاني الكلام وتعبيرِ المَنام ما لا يَفهمَهُ غيرك ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: بالوحي إليك ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: بسببك، ويَحصُلُ لهم بك خيرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: يُنعِمُ عليكَ ويُحسنُ إليك بالنبوةِ كما أعطاها أباكَ يعقوب وجِدَكَ إسحاق ووالدَ جَدِّك إبراهيم الخليل ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٩٤/ ٦/ ١٨٣)، والبيهقي في «الشّعب» (٦٦٥٥)، وغيرهما.

حَكِيمٌ﴾ كما قَالَ تَعَالى: ﴿اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] (١).

عباد الله...

وأحسّ إخوة يوسف بحب أبيه له، أو بمزيد حبٍّ ليوسف، فحسدوه عَلَى مكانته من أبيه، فكادوا له كيدًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧- ١٠].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «ينبِّهُ تعالى عَلَى ما في هَذِهِ القصةِ من الآياتِ والحِكَمِ والدِّلالات والمواعظ والبيناتِ، ثُمَّ ذكَر حسدَ إخوة يُوسفَ له عَلَى محبَّةِ أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لامِّه بنيامين - أكثرَ مِنْهُمْ وهم عُصْبَةٌ، أي جماعةٌ، يقولون: فكنَّا نحن أحقُّ بالمحبةِ من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾أي: بتقديمه حبَّهما علينا، ثُمَّ اشَتَورُوا فيما بينَهم في قتلِ يُوسفَ أو إبعادِهِ إلى أرضٍ لا يَرجعُ منها، لِيَخلوَ لهم وجهُ أبيهم، أي: لِتتمحَّضَ محبّتُه لهم وتَتوفَّرَ عليهم، وأضمَروا التوبةَ بعدَ ذلك.

فلمّا تمالؤا عَلَى ذَلِكَ وتوافَقُوا عليه ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قَالَ مجاهدٌ: هو شمعونُ، وقال السُّدِّيُّ: هو يَهُوذَا، وقال قتادةُ ومحمدُ بن إسحاق: هو أكبرُهم روبيلَ، ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارَّةُ من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالةَ فليكُن هَذَا الَّذِي أقولُه لكم، فهو أقربُ حالًا من قَتلِهِ أو نَفْيِه وتغريبه، فأجمعوا رأيهم عَلَى هذا، فعندَ ذَلِكَ قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١ - ١٤]. طلبوا من

(١) «البداية» (١/ ٢٣٦، ٢٣٧) باختصار.

أبيهم أن يُرسِلَ معهم أخاهم يُوسفِ، وأظهَروا له أنَّهُمْ يريدون أن يَرْعَى معهم، وأنْ يلعَب ويَنْبَسطَ، وقد أضمروا له ما الله به عليمٌ، فأجابهم الشيخُ - عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم -: يا بَنِيَّ يَشُقُّ عليَّ أن أفارقَه ساعةً من النهار، ومع هَذَا أخْشَى أن تَشتَغلوا في لَعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئبُ فيأكُلَه، ولا يَقدرُ عَلَى دفعهِ عنه، لصِغَرِه وغفلِتكم عنه. ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَـهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: لئن عدَا عليه الذئبُ فأكَلَهُ مِن بَينِنا أو اشتغَلنا عنه حتى وقَع هَذَا ونحن جماعةٌ ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي: عاجزون هالكون. وعند أهلِ الكتابِ أنه أرسَله وراءَهم يَتْبَعُهم فضَلَّ عن الطَّرِيقِ حتَّى أرشدَه رجلٌ إليهم، وهذا أيضًا من غَلَطِهم وخَطَئِهم في التَعريبِ؛ فإن يعقوبَ ﷺ كان أحرَصَ عليه مِن أنْ يبعثَه معهم، فكيف يبعثُه وحدَه؟!»[(١)].

ثم ماذا؟

يقول الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَـهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّـهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٥-١٨].

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابُوا عنه عينيهِ، فجعلوا يَشتُمونَهُ ويُهينونه بالفَعال والمَقَالِ، وأجمَعُوا عَلَى إلقائهِ في غَيَابَتِ الجُبِّ، أي: في قَعْرِه عَلَى راعُوفَتِه - وهي الصخرةُ الَّتِي تكونُ في وسطِهِ يقفُ عليها المائحُ، وهو الَّذِي يَنزلُ ليَملأ الدِّلاء إذَا قَلَّ الماءُ، والذي يرفعُها بالحبلِ يُسمَّى الماتِحَ - فلما ألقَوه فيه أوحى الله إليه أنَّهُ لا بُدَّ لك مِن فَرَجٍ ومَخْلَصٍ ومَخرَجٍ من هَذِهِ الشِّدَّةِ الَّتِي أنت فيها، ولَتُخبِرنَّ إخوتَك بصَنيعِهم هذا، في حالٍ أنت فيها عزيزٌ وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ قَالَ مجاهد[(٢)] وقتادة[(٣)]: وهم لا يشعرون

(١) «البداية» (١/ ٢٣٨).

(٢) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ج١٢/ ١٦١).

(٣) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ج ١٢/ ١٦١).

بإيحاء الله إليه ذلك.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم ﴿يَبْكُونَ﴾ أي: عَلَى أخيهم.

ولهذا قَالَ بعضُ السَّلف: لا يَغُرَّنَّك بكاءَ المتظلِّم فَرُبَّ ظالمٍ وهو باكٍ.

وذكَر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا ﴿أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ أي: في ظلمة اللَّيل ليكون أمشى لِغَدرِهم لا لِعُذرِهم، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي: ثيابنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي: في غَيبتِنا عنه في استباقنا، وقولُهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: وما أنت بمصدِّقٍ لنا في الَّذِي أخبرناك من أكل الذِّئب له، ولو كنا غير متَّهَمين عندك، فكيف وأنت تَتَّهِمنُا في هذا؟! فإنك خشيتَ أن يأكُلَه الذئبُ وضَمِنَّا لك أن لا يَأكُلَه لكثرتِنا حولَه، فصِرنا غيرَ مُصدَّقِين عندكَ، فمعذورٌ أنت في عدمِ تصديقِك لنا والحالةُ هذه، ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوبٍ مفتَعلٍ؛ لأنَّهُمْ عَمَدوا إلى سَخلَةٍ ذَبحوها فأخذوا من دمِها فوضعوه عَلَى قميصِه، لِيُوهِموا أنه أكله الذئبُ. قالوا: ونَسَوا أن يُخَرِّقوه، وآفةُ الكذبِ النِّسيانُ، ولما ظهَرت عليهم علائمُ الرِّيبة لم يَرُج صنيعُهم عَلَى أبيهم، فإنه كان يَفهَمُ عداوتَهم له وحَسدَهم إيَّاه عَلَى محبتِهِ لهُ مِن بينهم أكثر مِنْهُمْ، لما كان يَتوسَّمُ فيه من الجلالةِ والمهابة الَّتِي كانت عليه في صِغَرِه، لما يريدُ الله أنْ يَخُصَّه به من نبوتهِ، ولما راودُوه عن أخذهِ، فبمجرَّد ما أخذوه أعدَموه وغيَّبوه عن عينيه، جاءُوا وهم يتباكون وعلى ما تمالؤا عليه يتواطَئُون، ولهذا قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨][(١)].

عباد الله...

وهكذا ظن إخوةُ يوسف عليه السلام أنَّهم تخلَّصوا من أخيهم إلى الأبد، ولكن الله غالبٌ عَلَى أمره.

---

(١) «البداية» (١/ ٢٣٩) باختصار.

قَالَ تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٩- ٢٢].

يُخبر تعالى عن قصة يُوسفَ حينَ وُضِعَ في الجُبِّ، أنَّهُ جَلَسَ ينتظرُ فَرجَ الله ولطفَهُ به ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: مسافرون، قَالَ أهلُ الكتاب: كانت بضاعتُهم من الفُستُق والصَّنَوبَر والبُطمِ، قاصدين ديار مصرَ من الشام، فأرسلوا بعضهم لِيَستَقُوا مِن ذَلِكَ البئرِ، فلما أَدلَى أحدُهم دلوَه تعلَّق فيه يوسَفُ، فلما رآه ذَلِكَ الرَّجُلُ قال: ﴿يَا بُشْرَى﴾ أي: يا بشارتي ﴿هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: أوهموا أنَّ معهم غلامًا من جُملة مَتجَرِهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالمٌ بما تمالأ عليه إخوته، وبما يُسِرُّه واجِدُوه مِن أنه بضاعةٌ لهم، ومع هَذَا لا يُغيِّرُه تعالى لما له في ذَلِكَ من الحِكمة العظيمة والقدر السابقِ والرحمةِ بأهلِ مصرَ، بما يُجرِي الله عَلَى يَدَي هَذَا الغلام الَّذِي يَدخُلُها في صورةِ أسيرٍ رقيقٍ، ثُمَّ بعدَ هَذَا يُملِّكُه أَزِمَّةَ الأمورِ، ويَنفعُهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ.

ولما استَشعَر إخوةُ يوسفَ بأخذِ السَّيَّارةِ له لَحقوهم وقالوا: هَذَا غُلامنا أَبَقَ مِنَّا، فاشتَروه مِنْهُمْ ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: قليل نزرٍ، وقيل: هو الزَّيفُ، ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ قال: نَوفٌ البِكَالِيُّ[١]، وقتادة[٢]: باعُوه بعشرين درهمًا اقتَسَموها دِرهَمين دِرهَمين. وقال مجاهد[٣]: اثنان وعشرون درهمًا. فاللَّهُ أعْلَمُ.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: أحسني إليه ﴿عَسَى أَن

(١) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢، ١٧٣).

يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وهذا من لطفِ الله به ورحمتهِ وإحسانهِ إليه بما يريدُ أن يُؤهِّلَهُ له ويُعطيهِ من خيري الدُّنْيَا والآخِرَة، قالوا: وكان الَّذِي اشتَراه من أهلِ مصرَ عزيزَها، وهو الوزيرُ بها الَّذِي الخزائنُ مسلَّمةٌ إليه. قَالَ ابن إسحاق: واسمُهُ أطفيرُ بنُ روحيبَ، قال: وكان مَلِكُ مِصْرَ يومئذٍ «الرَّيَّانَ بنَ الوليدِ» رجلٌ من العماليقِ، قال: واسمُ امرأة العزيزِ «راعيلُ بنتُ رعائيلَ» وقال غيرُه: كان اسمُها زَلِيخا، والظاهرُ أَنَّهُ لقبُها، وقيل: فكا بنت ينوس، رواه الثَّعلبيُّ عن أبي هشام الرفاعيِّ، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

وقال ابن إسحاق[1]، عن أبي عبيدَةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: أفرَسُ الناسِ ثلاثة عزيزُ مصرَ حينَ قَالَ لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ والمرأة الَّتِي قالت لأبيها عن مُوسَى ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصدِّيق حين استخلَفَ عُمرَ بن الخطاب - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا -.

ثم قيل: اشتراه العزيزُ بعشرين دينارًا، وقيل: بوزنِهِ مسكًا ووزنِه حريرًا ووزنِهِ وَرِقًا، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾أي: وكما قَيَّضنا هَذَا العزيز وامرأتَهُ يُحسنان إليه ويَعتنيان به، مَكَّنَا له في أرضِ مصرَ، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾أي: فهمها وتعبيرُ الرؤيا من ذلك، ﴿وَاللَّـهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي: إذَا أراد شيئًا فإنه يُقيِّض له أسبابًا وأمورًا لا يَهتدي إليها العبادُ، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فدلَّ عَلَى أن هَذَا كلَّه كان وهو قبلَ بلوغِ الأشُدِّ، وهو حَدُّ الأربعين الَّذِي يُوحي الله فيه إلى عباده النبيِّين عليهم الصلاةُ والسلامُ مِن ربِّ العالمين، وقد اختلفوا في مدةِ العمرِ الَّذِي هو بلوغُ الأشُدِّ، فقال مالك[2]، وربيعةُ[3]: هو الحلم.

---

(١) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٦).

(٢) صحيح إليه: رواه ابن أبي حاتم (١١٤٤٧).

(٣) حسن إليه: رواه ابن أبي حاتم (١١٤٤٦).

وقال السُّدِّيُّ[١]: ثلاثون سنة، وقال ابن عباس ومجاهد[٢]: ثلاثٌ وثلاثون سنةً، وقال الحسن[٣]: أربعون سنة، ويَشهَدُ له قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥][٤].

عباد الله...

وكذلك مكَّن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ليوسف في الأرض، وعلَّمه من تأويل الأحاديث.

فسبحانك يا ربَّنا، تُعزُّ مَن تَشاء، وتُذلُّ مَن تشاء، بيدكَ القِسط تخفض وترفع.

وأنت غالبٌ عَلَى أمرك، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي بيت العزيز حدثت أحداث، وتعرَّض يُوسف عليه السلام لأمواج من البلاء، خَرَجَ منها - بفضل الله تعالى - مُبَرَّأ من كُلِّ عَيب، وكان عند الله وجيهًا.

فماذا حدث؟

هَذَا ما سيأتي بيانهُ في الخُطب التالية، إن شاء الله تعالى.

❁❁❁❁❁

(١) **حسن إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١١٤٤٩).
(٢) **صحيح إليه**: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢/ ١١٧).
(٣) **رجاله ثقات**: رواه ابن أبي حاتم (١١٤٤٤)، قاله محققا «البداية».
(٤) «البداية» (٢٤١) باختصار.

الخطبة السابعة والعشرون:

عِفَّةُ يوسف عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجه، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصّة يوسف عليه السلام.

ونلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ

وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣- ٢٩].

عباد الله...

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «يَذكرُ تعالى ما كان من أمرِ مُراودةِ امرأةِ العزيزِ ليُوسفَ عليه السلام عن نفسِهِ، وطَلَبِها منه ما لا يليقُ بحالِهِ ومَقامِهِ، وهي في غايةِ الجمالِ والمالِ والمَنْصِبِ والشبابِ، وكيف غَلَّقت الأبوابَ عليها وعليه، وتهيَّأت له وتصنَّعت ولَبِسَت أحسنَ ثيابِها وأفخرَ لباسِها، وهي مع هَذَا كلِّه امرأةُ الوزيرِ.

قال ابنُ إسحاق: وبنتُ أخت الملك الرَّيَّان بن الوليد صاحب مصر، وهذا كلُّه مع أنَّ يوسفَ عليه السلام شابٌّ بديعُ الجمالِ والبهاء، إلا أنَّهُ نبيٌّ مِن سُلالةِ الأنبياءِ، فعصمَه ربُّه عن الفحشاء وحماه من مَكرِ النِّساءِ، فهو سيدُ السادةِ النُّجباءِ السبعةِ الأتقياءِ المذكورين في «الصحيحين» عن خاتَم الأنبياء، في قوله عليه الصلاةُ والسلام مِن ربِّ الأرضِ والسماء: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

والمَقْصُودُ: أنها دعَته إليها وحرصَت عَلَى ذَلِكَ أشَدَّ الحرصِ، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني: زوجها صاحب المنزل سيِّدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: أحسن إليَّ وأكرم مُقامي عندَهُ ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أكثر أقوال المفسرين ههنا متلَقًّى من كتب أهل الكتاب، فالإعراضُ عنه أَوْلَى بنا، والذي يجبُ أن يُعتَقَدَ أن الله تعالى عَصَمَهُ وبَرَّأَهُ ونَزَّهَهُ عن الفاحشة، وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قَالَ تَعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

قوله: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي: هرب منها طالبًا إلى الباب ليخرُجَ منه فرارًا مِنها، فاتَّبَعته في أثَرِه ﴿وَأَلْفَيَا﴾ أي: وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي: زوجها ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ فَبَادرَتَهُ بالكلام وحرَّضَتهُ عليه، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اتهمته وهي المُتهمةُ، وبَرَّأت عِرضَها ونزَّهت ساحَتها، فلهذا قَالَ يوسف عليه السلام: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: كان صغيرًا في المهدِ؛ قاله سعيد بن جبير[1]، واختاره ابن جرير.

وقيل: كان رجلًا قريبًا إلى أطفير بعلها، وقيل: قريبًا إليها، وممَّن قَالَ إنَّهُ كان رجلًا: ابن عباس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقَتادةُ[2]، والسُّدِّيُّ، ومُحمدُ بنُ إسحاق، وزيدُ بنُ أسلَم.

فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: لأنه يكونُ قَدْ راودها فدافَعتهُ حتَّى قَدَّت مُقَدَّمَ قميصه، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: لأنه يكونُ قَدْ هرب منها فاتَّبَعَتهُ وتعلَّقت فيه فانشقَ قميصهُ لذلك، وكذلك كان، ولهذا قَالَ تَعَالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي: هَذَا الَّذِي جَرى مِن مَكرِكن، أنتِ راودتِهِ عن نفسهِ ثُمَّ اتَّهمتِهِ بالباطلِ، ثُمَّ ضَرَبَ بَعلُها عن هَذَا صفحًا، فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: لا تَذكُرهُ لأحدٍ؛ لأنَّ كِتمانَ مثلِ هَذِهِ الأمور هو الأليقُ والأحسنُ، وأمَرَها بالاستغفارِ لذنبِها الَّذِي صدَر منها والتوبة إلى ربِّها، فإنَّ العبد إذَا تاب إلى الله تاب الله عليه، وأهلُ مِصرَ وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنَّهُمْ يَعلَمون أنَّ الَّذِي يغفرُ الذنوبَ ويؤاخذُ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك[3]. ولهذا قَالَ لها بعلُها - وعذَرَها من بعضِ الوجوهِ لأنَّها رأت ما لا صَبرَ لها عَلَى مثله، إلا أنَّهُ

(١) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٣).

(٢) صحيح: إلى عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة، روى هذه الآثار ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤).

(٣) والاعتقاد الحق: أن كل ذنب دون الشرك بالله يغفره الله لمن يشاء، أمَّا الشرك فلا يُغفر إلا بالتوحيد. قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

عفيفٌ نزيهٌ بريءُ العِرضِ سليمُ الناحيةِ، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] [١].

عباد الله...

وعقب قول الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، قَالَ الشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله تعالى -: «فِي هَذِهِ الآية زلَّت أقدام، وتعثرت أقلام، وانفلت خيال بعض الكاتبين، ناسين أو متناسين أَنَّهُمْ يكتبون عن نبيٍّ كريم، منحه الله العصمة، وأحاطه بالعناية العليا، والرعاية العظمى، والعصمة هي حفظ الله تعالى خواطر الرسل وبواطنهم عن التلبس بمنهى عنه، ولقد أردنا أن نبسّط القول فِي هَذَا المقام، فوفقنا الله تعالى إِلى هَذَا الكلام الجيّد الَّذِي كتبه الأستاذ محمد مصطفى الشاطر في كتابه «القول السيد في حكم ترجمة القرآن المجيد»:

قال: قاتل الله اليهود، لقد ملأوا الدُّنْيَا افتراءات عَلَى الأنبياء عليهم السلام، ونسبوا إليهم ما لا يجوز ولا يعقل، وأشبعوا الجو بهذه المفتريات، خصوصًا بعد ظهور الإسلام كيدًا مِنْهُمْ وحسدًا، وتمكنوا من إسناد بعض هَذِهِ المفتريات إلى كبار الصحابة، مثل ابن عباس وأبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - افتراءً عليهما، وبهتانًا، ليتقبلها العامة من المسلمين بالقبول التَّام، فلم يُسلم الجو العلمي منها ولم تُسلم كُتب المفسرين منها، إما لأَنَّهُمْ أخذوها عن بعض القصاص الَّذِي يعتقدون فيهم الصلاح، وإما لأَنَّهُمْ وجدوها في بعض الكتب فظنوها صحيحة في تفاسيرهم بحسن نية، وأخذوا يتمحلون الإجابة عن بعضها بما لا يطمئن إليه قلب المؤمن.

ومن ذَلِكَ قصص سيدنا سليمان، وسيدنا داود، وسيدنا يوسف عليهم السلام، ولكنَّ الَّذِي يخلي عقله ويطهره من تلك الخزعبلات، ثُمَّ يتوجه به إلى

---

(١) «البداية» (١/ ٢٤٢، ٢٤٣) باختصار.

القرآن يتلوه بتدبر، وحُسن يقين، يتبيَّن له - إن شاء الله تعالى - وجه الصواب ناصعًا.

ثم قَالَ بشأن يوسف ﷺ: نسب بعضهم إلى سيدنا يوسف ﷺ أَنَّهُ لَـمَّا راودته امرأة العزيز عن نفسه مال إلى طلبها، وكاد يفعل أو أَنَّهُ أراد مخالطتها، وقعد منها مقعد الرَّجُل من المرأة، إلَّا أَنَّهُ انصرف عنها، إما لأنه رأى معصمًا مكتوبًا عليه النهي عن الزنا قَدْ ظهر من بين الجدران منفردًا عن الجسم، أو لأنه رأى سقف البيت قَدْ انفرج وظهر له وجه أبيه يعقوب عاضًا عَلَى إصبعه، أو لأنه رأى صورته في الجدار كذلك، أو لأنه سمع نداء ينهاه عن الزنا، فلم ينته فسمع نداءً ثانيًا فلم ينته، فسمع نداءً ثالثًا إلى آخر تلك المفتريات الَّتِي شُوِّهت بها محاسن التفاسير، وليس لهذه الأقاويل - والحمد لله - في كتب الأحاديث الصحيحة أصل، ولا أية إشارة إليها.

ثم إن بعض المفسرين رأى أن هَذِهِ المفتريات غير معقولة، ولا أصل لها، فخفف منها، واختار أن يكون لها معنى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أنه مال إليها، إلا أنه امتنع حينما رأى برهان ربِّه، وأخذ يبيِّن هَذَا البرهان بما يقرب من الخيالات، ولكن تفسيره «الهمَّ» بالميل المجرد يأباه الذوق العربي، لأنَّ الكلام يكون هكذا: «مال إليها ومالت إليه» فيكون مثلهما سواء، ويكون الحكم عليها في هَذَا واحدًا، وذلك لا يجوز. وفيه أيضًا إسناد ميله إلى الزنا، وهذا لا يجوز في حقِّ الأنبياء عليهم السلام، مهما أجابوا من أن الإنسان لا يؤاخذ عَلَى الميل، فإن ذَلِكَ ليس شأن الأنبياء الذين هم القدوة العليا في الأخلاق والأعمال والأقوال.

وأهل العلم يقولون في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّـهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أن ذَلِكَ كان كمن مضى قبلنا، وقد نسخ ذَلِكَ بالنسبة لنا فقط، بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ثم إن تَفْسِيرِ«همَّ» بمعنى «مال» يضع الحكمة الَّتِي من أجلها اختيرت كلمة «همَّ» دون ما يرادفها من مال أو قصد أو عزم، وستعرف إن شاء الله تلك الحكمة، ومن أجل ذَلِكَ فإن النفس المؤمنة لا تطمئن إلى هَذِهِ الأقاويل، وإنما تطمئن إن

شاء الله تعالى إلى ما يلي:

إذا قرأت سورة يوسف بإمعان تبيّن لك أن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى وصفه أولًا بالصفات الآتية:

١- اجتباؤه واصطفاؤه.

٢- تعليمه تأويل الأحاديث، وذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].

٣- إيواؤه إليه في الجب، حينما رماه إخوته، ولجأ إلى الله تعالى قائلًا بلسان حاله أو مقاله، كما روي عنه: «يا شاهدًا غير غائب، ويا قريبًا غير بعيد، ويا غالبًا غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجًا» فآنسه الله بالوحي، وأعلمه عاقبة أمره، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

٤- وإيتاؤه الحكم والعلم، قَالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، والحكم هنا: النبوّة، أو سيرة الأنبياء، وتعضيد الأول إيواؤه إليه في الجُب. وقوله تعالى في حق يحيى عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، قال المفسرون: الحكم هنا: النبوّة، وإلى هَذَا أميل.

٥- الإحسان، وهو أفضل درجات العبادة، وفي الحديث: «**أن تعبد الله كأنّك تراه**».

أتظن أيها [الأخ الكريم] أن شخصًا يؤتيه الله هَذِهِ الصفات يهمّ أو يميل إلى مخالطة امرأة أجنبية عنه، كلا وألف كلا، فإنّ الزنا أو مقدماته ممحقة للإحسان، مجلبة للطرد والحرمان.

إن تلك النفس الطاهرة لأبعد وأنزه مما رماها به المفترون، أو الغافلون.

ثم بعد أن ذكر الله لنا هَذِهِ الصفات لتكون قرينة قاطعة لمن يتلمس الحقائق عَلَى نزاهته، كما كان قَدُّ قميصه من خلفه قرينة قاطعة عَلَى براءته، قصَّ علينا مقدار حكمته، ومبلغ عفافه وعصمته، ومقدار ما تحمله نظير ذَلِكَ من الخروج من نعيم القصر إلى ضيق السجن، فقال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، قبل التكلم في تفسيرها أقول: إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قَالَ الغزالي وغيره: أربع درجات مرتَّبة:

الأولى: التعريف والتنبيه.

والثانية: النصح بالحسنى.

والثالثة: التخشين في القول.

والرابعة: المنع بالقوة والقهر.

ولقد سار يوسف عليه السلام في هَذِهِ الحادثة عَلَى تلك القاعدة تمامًا، طلبت منه امرأة العزيز ما تطلبه المرأة من الرجل، وغلَّقت الأبواب حتى يكونا بمأمن من اطلاع الغير، ولتحمله عَلَى إجابتها ولو كرهًا، والتعبير بالمراودة، وغلق الأبواب يشعران بتكرار الطلب وتكرار الامتناع، ﴿**وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾ أي: هلم إلى ما تريد، وتهيأت لك، تزينت لأجلك، فأجب طلبي، فقال: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾؛ تلك ثلاث جمل قَدْ جمعت كل ما يستوجب الاعتصام، والبعد عن هَذَا المنكر فعلًا وإرادة وميلًا، بل كل واحدة منها كافية في العصمة فما بالك كلها.

سيدة في بيتها وفي قومها، غنيّة بثروتها، بديعة في حُسنها، ذات قدرة وسلطان، وأمرٌ مطاع، قَدْ غلبت عَلَى شابٌ الأبواب، وتهيأت له كما تتهيأ المرأة لزوجها أو أكثر، ثُمَّ دعته إلى نفسها، وألحَّت عليه، وفي مخالفتها الانتقام والكيد العظيم، وفي طاعتها وفرة المال، والتمتع بلذات الحياة كما يشاء، كل هَذِهِ المرغبات والمحاولات لو أحاطت بغير ذَلِكَ الطاهر النقي الَّذِي اصطفاه الله لَزلزَلتهُ، ولكنها أحاطت بمن آتاه الله الحكم والعلم، ومن ولد في بيت النبوّة وترعرع فيه، ومن بلغ درجة الإحسان، فماذا قابلها؟

قابلها بتلك الجمل الحكيمة الخالدة الَّتِي ينبغي أن تتخذ أصولًا وقواعد يبنى عليه علماء الأدباء والأخلاق فروعًا لا حصر لها، ألا وهي: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ أي: ألتجئ إلى الله وأعتصم به من أن آتي هَذَا المنكر وأخون زوجك الَّذِي رباني، وأحسن إقامتي، إنني إن فعلت ذَلِكَ أكن ممن يقابلون الإحسان بالإساءة، والتربية بالخيانة، والنعمة بالكفران، وهذا ظلم، ووضع الشيء في غير موضعه، وعاقبة الظلم الخُسران وعدم الفلاح.

فالرَّب هنا الَّذِي ربَّاه وهو سيِّد البيت كما فسره في «الكشاف»، والنيسابوري، وغيرهما، والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للشأن.

ثم إن لهذه الجمل القيِّمة دلالات تبعية، لا يبعد أن تكون مرادة له في قوله: ﴿مَعَاذَ الله﴾ تنبيهًا لها إلى ذكر الله تعالى، وإلى الخوف من غضبه بسبب الإقدام عَلَى هَذَا المنكر، لعلها تتذكر وتخشع، فترجع عن غيها، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالـمُنكرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي: تذكر «الله أكبر» في النهي عنهما من الصلاة، وهذه هي الدرجة الأولى من درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأشار بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إلى أنه لا يليق بها أن تخون زوجها الَّذِي ربَّاها بنعمه وخيراته وأحسن مقامها، وغمرها بإحسانه، وهذه هي الدرجة الثانية.

وأشار بقوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إلى أنها إن أقدمت عَلَى هَذَا المنكر كانت ظالمة لنفسها ولبعلها، وإن عاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح، لعلها تتعظ خصوصًا أن واعظها هو فتاها ذَلِكَ الشاب، وهذه هي الدرجة الثالثة.

بعد هَذِهِ النصائح الغالية والتوبيخ والتأنيب من طريق التعريض، لم ترتدع عن غيها بل أعماها شيطان الحب، وأصمها، فهمَّت بِهِ ليأتيها رغمًا وكُرهًا، وهذا ما سنشرحه في الآية الثانية.

قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالـفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

أربع جمل، والوقف تام عند قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وكذلك عند قوله: ﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وإنك لتشعر بجمال هَذِهِ الجمل إِذَا قرأتها كما بيَّنت لك مع فهم المعنى الَّذِي ستسمعه.

الهمَّ هنا: هو الشروع في تنفيذ ما توطنت النفس عليه من خير أو شر، وما امتلأت به، ولابد أن يكون معه أمارة دالة عَلَى ذلك، وسواء قلنا إن الهمَّ هو العزم والقصد، أو الشروع في التنفيذ، فلابد أن يكون معه أمارة دالة عليه، وإذا تتبعت

تعبيرات القرآن الكريم وجدت أن هَذَا الشرط لازم، مثال ذلك:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣]، أي: شرعوا في إخراجه، وظهرت الأمارة الدَّالة عَلَى ذَلِكَ وهو التشاور، والتكلم فيه.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١]، أي: شرعوا وظهرت الأمارة الدَّالة عَلَى ذَلِكَ، وهو رفع السيف فعلاً، عَلَى رسول الله ﷺ عَلَى أحد الرأيين.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، أي: شرعت مع ظهور الأمارات، وهو تكلم بعضهم، وترددهم في أول الأمر.

ويقال: همَّ بالقيام، إذَا شرع فيه وبدرت فيه بوادر تدلّ عليه، ويقال: فلان مهمومٌ، إذَا ملأه الحزن فظهرت عَلَى وجهه أماراته، ومنه الهمَّ مضنٍّ؛ لأنه يؤثر عَلَى الجسم فيذبله، ويقال: أهمه الأمر؛ إذَا أقلقه أي: ظهر عليه القلق والاضطراب، واهتم فلان بالأمر؛ إذَا ظهرت منه أمارات تدل عَلَى اهتمامه. وحينئذ يكون معنى ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: شرع كل منهما في تنفيذ ما توطنت عليه نفسهما، أو ما عزما عليه، مع ظهور أمارات من كل منهما تدل عَلَى ذلك، ثُمَّ إن عزم النفس تابع لَـمَّا تنفعل به من خير أو شر، أو عقيدة أو رغبة أو رهبة إلى غير ذلك، فإذا انفعلت النفس بما لابسها وجد منها العزم الَّذِي يلائم هَذَا الانفعال، فشرعت في تنفيذه وإيجاده، هَذَا أمرٌ لا يحتاج إلى توضيح، فلننظر إذًا في نفس كل منهما لنعرف نتيجة انفعالها:

- أما نفس امرأة العزيز فملأى بحب المخالطة، شغوفة به، فهي منفعلة بذلك.
- وأما نفس يوسف فملأى بالعفاف، والطهارة النفرة من هَذَا الأمر، فهي منفعلة بذلك.

فحملها انفعالها وهياجها عَلَى شروعها في حمله عَلَى المخالطة بالقوّة بما ظهر منها من أمارات دالة عَلَى ذلك، وحمله انفعاله عَلَى شروع في منعها بالقوّة، بما ظهر منه من أمارات دالة عَلَى ذلك، وهذه هي الدرجة الرابعة للنهي عن المنكر.

لقد أجمل الله تعالى لنا ما همَّ به كل منهما، وتركه لفطنة القارئ، إلَّا أَنَّهُ أشار

إليه في نفس الآية بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ لئلا تزل قدم مؤمن في هَذَا المنزلق الخطير، أي أَنَّهُ همَّ بإساءتها، وهمَّت هي بحمله عَلَى الفحشاء بما ظهر من كل منهما من أمارات، والدليل عَلَى ظهور أمارة منه قولها بعد ذَلِكَ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، فإن الإرادة أمر نفس لا تعلمه امرأة العزيز إلا إذَا ظهر لها أمارة دالة عَلَى ذَلِكَ، كرفع يده مثلًا، أو تهديدها بالسوء.

وحينئذ يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أنها شرعت في حمله عَلَى المخالطة بالقوّة بما ظهر منها من أمارات، وشرع هو في تنفيذ منعها بما يسوءها بما بدرت منه من أمارات.

ولو كان همّه كما يقول المفسرون: الميل إلى المخالطة لما كان هناك فائدة من ذكر كلمة ﴿السُّوءَ﴾ في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ ولكان كافيًا أن يقال: «لنصرف عنه الفحشاء» فكلمة ﴿السُّوءَ﴾ تدل عَلَى همّه، وكلمة ﴿الْفَحْشَاءَ﴾ تدل عَلَى همها.

ومما يؤيد ذَلِكَ أيضًا: شهادة امرأة العزيز حيث تقول: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فإنه ليس هناك كلمة أبلغ في الدلالة عَلَى نهاية العصمة وشدتها بجميع أنواعها من هَذِهِ الكلمة البالغة، فدلّ كل ذَلِكَ عَلَى أن تَفْسِيرِ الهمَّ بما يقولونه غير مقبول.

ثم قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾: الرَّب هنا: سيِّد البيت، أي: مربيه، وهو المشار إليه سابقًا في قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وقد استعمل الرب في هَذَا المعنى كثيرًا في هَذِهِ السورة، ومن ذَلِكَ قوله: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ [يوسف: ٥٠] الآية.

والبرهان: العلامة والبيان، أي: لولا أن رأى علامة ربَّه، أي: علامة حضورة ومجيئه، وإنما قلنا: علامة حضوره، لأن الله أشار إلى ذَلِكَ بقوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، فكان ذَلِكَ قرينة قاطعة عَلَى أن المراد: العلامة الدالة عَلَى حضوره، وأننا لا نعرف هَذِهِ العلامة عَلَى وجه التحقيق، وإنما الَّذِي نعرفه أن لقدوم الأمراء إلى بيوتهم علامات تدل عليه، وقد تكون تلك العلامة رفع راية

مثلاً، أو وجود شخص يعدو أمامه كالسايس مثلاً، ويختلف ذَلِكَ باختلاف عادات الأمم، واختلاف العصور، وربما تظهر لنا الآثار تلك العلامة عَلَى التحقيق.

وجواب ﴿لَوْلا﴾ محذوف أي: لولا أن رأى العلامة الدَّالة عَلَى حضور سيدها، لنفذ فعلًا ما أراده، أي: لساءها فعلًا. ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: الأمر كان كذلك، أو قدرنا ما قدرناه كما قصصناه عليك، لنصرف عنه السوء والفحشاء، فقدرنا حضور صاحب البيت في هَذَا الوقت لنصرف عنه السوء لو نفذ ما أراده فعلاً، فإن إساءة المراة خصوصًا امرأة العزيز ليست بالأمر الهيّن، بل تقوم لها الأمة وتقعد، ويذاق بسببها ألوان العذاب، وكذلك قدرنا عصمته فعصمناه لنصرف عنه الفحشاء فإنه لا عصمة إلَّا بنا ومنا.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: فعلنا به هَذَا، ونجيناه من السوء والفحشاء؛ لأنه من عبادنا الذين أخصلناهم واصطفيناهم من الخلق، أو أخلصوا لنا في عبادتنا وأحسنوا.

ثم قَالَ تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ لما رأى يوسف عليه السلام برهان ربّه، عدل عن تنفيذ ما أراده من السوء، وأسرع نحو الباب ليتخلص من هَذَا الموقف الدقيق، والنزاع العنيد، فظنت امرأة العزيز أنه يريد الفرار منها، فأسرعت وراءه لتمنعه وجذبته من قميصه، ليعود إليها فقدته من خلفه، وهنا ألفا سيدها لدى الباب.

قد يقول قائل: إذا كان هو قد رأى علامة حضور صاحب البيت فلماذا لم ترها امرأته؟ **قلنا:** ليس بلازم، خصوصًا أنها في حالة قد غلب فيها الحب على عقلها ومشاعرها، فلم تلتفت إلا إليه.

ثم قَالَ تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما وجدت سيدنا لدى الباب، وكانت بحالة هياج وارتياب، أرادت أن تؤثّر عليه بما تنفعل له نفسه، فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أسرعت بالشكوى إليه لتكون أقرب إليه قبولًا، وأملأ له أذنًا وقلبًا، ولتصرف عن فكره ا لحالة المريبة الَّتِي رآها عليها، ولتنفعل نفسه بما تبديه من

تأثير، حتى لا يصدق ليوسف قولًا إذَا قَالَ، فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد قرنت بين الشكوى منه والحكم عليه بالسجن أو العذاب الأليم، لتظهر لسيدها شدة غضبها وتألمها مما حصل منه من إرادة السوء، حتى لا يرتاب في حالتها الَّتِي رآها عليها، وهذا من ضمن الكيد.

فانظر إلى عبارتها هل تجد فيها ما يدل عَلَى إرادة الفحشاء، أو الميل إليها، أو المخالطة كما يقولون، مع أنها لو قالت: «ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة» لكان أشرف لها، وأقرب لقبول قولها، وأنفى للريبة في حالتها الَّتِي كانت عليها وقت مجيء سيدها.

وجد سيدنا يوسف ؑ نفسه أمام صاحب البيت مشكوا منه، يراد به السجن أو العذاب الأليم، بدون ذنب جناه سوى العفّة والأمانة، فلم يجد مناصًّا من الدفاع عن نفسه لئلا يسجن أو يعذب العذاب الأليم، أو يرمى بالقسوة ولولا ذَلِكَ لستر أمرها، كما قَالَ بعض المفسرين.

وهو في دفاعه لم يتنصل من إرادة السوء، بل ذَلِكَ السبب الَّذِي كان من أجله أراد بها السوء فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وهذا إقرار ضمني في عُرف التقاضي والتخاطب، بأنه أراد بها السوء، كما يقول القاضي للمتهم: هل ضربة؟ فيقول:إنه شتمني. ومعناه: أنني ضربته لأنه شتمني، فكذا هَذَا، أي: أنني أرادت بها السوء لأنها راودتني عن نفسي، وغلقت الأبواب وأرادت المخالطة بالقوّة، فأردت إساءتها لأمنعها، فلما رأيتك انصرفت عنها.

وأما هي فأنكرت المراودة، بدليل قولها فيما بعد: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، فإنه يدل عَلَى أنها أنكرتها أولًا، وقع هَذَا القول في نفس العزيز موقعًا قلل من تأثير زوجته عليه، فأخذ يفكر ويبحث مَن الصادق منهما.

حادثة حصلت في بيته، ولا شاهد فيها، لأن الأبواب قَدْ غُلِّقت، ولم يكن معهما أحد من النَّاس، وهي تدعي أنه أراد بها سوءًا بدون سبب، فأشكلت

الحادثة عليه، والتبست، ولكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها، قَدْ جعل القرينة حكمًا وشاهدًا فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فإن قُدَّ القميص من الخلف يدلّ عَلَى انصرافه عنها، وأنها تجرهُ إليها لهذا الغرض، فيكون صادقًا، ولو كان الَّذِي وقع منه إرادة السوء فقط لما كان لجره إليها من خلفه بعد انصرافه عنها معنى، بل هو خلاف المعروف عادة؛ لأن الضعيف - كالمرأة - لا يجُر القوي الَّذِي يريد إيذاءه إليه بعد انصرافه عنه، فقُدّ مِن الخلف يدل عَلَى أنها هي الطالبة له للمخالطة، وقُدّ القميص من الأمام يدل عَلَى أَنَّهُ هو الَّذِي أقبل عليها يريد بها سوءًا، فأمسكت بتلابيبه (كما هي عادة المرأة أو الضعيف إذَا هجم عليه مَن يريد إيذاءه) فَقَدّت قميصه من الأمام، فتكون صادقة في أَنَّهُ أراد بها السوء بدون سبب.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ تبيّن له أنه صادق، وأنها كاذبة، ولذلك وبخها بقوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: ما حصل منك من ادّعاء إرادة السوء بدون سبب وإظهار الحقيقة من ضمن كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وأضاف الكيد إلى جميع النساء، لأنه من عادتهنّ؛ لأنهنَّ يظهرنَّ خلاف ما يضمرن، ويخفين ما في قلوبهنَّ ليصلنّ إلى أغراضهنّ، وربما كانت الإضافة إلى الجميع ليخفف من وقع التوبيخ عليها، وهذا أظهر.

ثم قَالَ ليوسف ﷺ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: لا تذكره لأحد، ولا تتأثر به، ونصح زوجته بالتوبة والاستغفار من ذنبها وخطئها، بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾.

وإلى هنا انتهت تلك الحادثة الَّتِي خلط فيها النَّاس خلطًا، وإنك إذَا فهمتها عَلَى هَذَا النحو، وقرأتها في كتاب الله فإنك تشعر بجلال آيات الله وانسجامها، وبديع نظامها، وبدعها عن التأويل المؤدي للتنافر في المعاني، والاعتراض عَلَى الأنبياء عليهم السلام.

عباد الله...

قد يقول قائل: ما المراد بالسوء في آيتي: ﴿**مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ**﴾ [يوسف: ٥١]، و﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣]. هل المراد به المراودة أو الميل إليها كما يقول بعض المفسرين؟

والجواب: أن المراد بالسوء هو ما تقدَّم، دون المراودة والميل إليها، وإلا كانت النسوة كاذبات حينما قلنَّ: ﴿**مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ**﴾ فإنهنَّ علمنّ أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فاستعصم، إلى آخر ما ذكر، ولا يصح أن يكنَّ كاذبات في هَذَا الموضع الَّذِي ظهرت فيه الحقائق، ولو كنَّ كذلك لَـمَّا حكى الله قولهنّ بدون أن يردَ عليهنَّ، فظهر أن السوء هو الإيذاء ونحوه، لا المراودة ونحوها.

إن امرأة العزيز لَـمَّا شاع أمرها تكلم في شأنها النساء: ﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَـهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ**﴾ أي: ليوسف ﴿**اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ من الدهشة والذهول بسبب جماله الفائق ﴿**وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ وفي هَذِهِ الشهادة ما يُشعر بالعفاف الملكي، وكرم الأخلاق، وأنه غض النظر عنهنّ.

﴿**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُـمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّـمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الـجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَـهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٣٢- ٣٤]. فلم يتهم بالسوء بعد هَذِهِ الحادثة الأخيرة. ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَـهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**﴾ لم يذكر الله لنا صراحةً السبب الَّذِي من أجله تمحلوه لإدخاله السجن، ولكن الَّذِي يُؤخذ استنتاجًا من القصّة أن امرأة العزيز أخذت تكيد له لتنفيذ وعيدها بقوله: ﴿**وَلَئِن لَّـمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾.

فادَّعت أَنَّهُ هو الَّذِي أساء إلى هؤلاء النسوة، فأدخلوه السجن من أجل ذَلِكَ، رغم ظهور اختلاقها عليه وكذبها فيما ادعته سابقًا.

ومما يدل عَلَى أَنَّهُ سُجن من أجل ذَلِكَ: أَنَّهُ لما أرسل إليه الملك رسوله

ليحضره من السجن أبى أن يخرج منه حتى يتحقق للملك أَنَّهُ حُبس ظلمًا بدون ذنب جناه، وأن ما ادَّعوه عليه بخصوص هؤلاء النسوة غير صحيح.

قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ﴾ أي: يوسف ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فأحضرهنّ الملك وسألهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: ما شأنكنّ وقت أن راودتنّ يوسف هل حصل منه إساءة لكنَّ؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: لم يحصل لنا منه سوء، بل لم نعلم عليه سوءًا.

فدَّل ذَلِكَ دلالةً استنباطية عَلَى أن الحبس كان بسبب الإدعاء عليه بأنه أساء لهنَّ بتقطيع أيديهنّ، ولذلك جاء فِي تَفْسِيرِ «النيسابوري» عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ أنها تسببت في إدخاله السجن. ا.هـ.

ولما ظهر لامرأة العزيز أن كيدها قَدْ انكشف وبان للملك، اعترفت بالحق، وهو ما أنكره أوّلاً، فقالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: هَذَا الاعتراف الَّذِي أظهره أمامك ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي: يوسف لأن الكلام ما زال في شأنه؛ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ﴾ إذ أنِّي أظهر الآن صدقه وبراءته بعد أن خنته، فادعيت عليه السوء، وتسببت في إدخاله السجن، فأعترف الآن بذنبي، وبحقيقة الأمر، وحتى يصير الخفي علانية، والخيانة غير خافية عليه.

ثم قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فقد أذنبت وأسأت، ثُمَّ اعتذرت عمَّا كان منها، فقالت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وقد أسأت بداعية منها، ولكني طامعة في غفران الله ورحمته، إذ نطقت بالحق، واعترفت بالذنب، والاعتراف يهدم الاقتراف، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، نسأله الرحمة والغفران». ا.هـ[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١)«في رحاب التفسير» (١٧٩٥ - ١٨٠٤) باختصار يسير.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام بإقرار النسوة، واعتراف امرأة العزيز، قَالَ الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فذهبوا إليه يحملون هَذِهِ البشرى بالبراءة والاستخلاص للملك، واعتراف امرأة العزيز، وشهادة النسوة، فذهبوا إليه يحملون هَذِهِ البشرى بالبراءة وأمانته وعفته للملأ جميعًا، فلما وصل إلى الملك قَالَ له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وما جزاء الإحسان إلَّا الإحسان، وما جزاء الأمانة إلا الفلاح، وحسن السمعة والعاقبة.

فظهر أن هَذِهِ القصّة ليست مسوقة لبيان خطأ الأنبياء الذين يقول الله فيهم لنبينا ﷺ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وإنما سقت لما فيها من حِكم اجتماعية، وقواعد عمرانية وأخلاقية لتكون نبراسًا لنستضيء به في حياتنا.

وإنِّي أذكر بعض ما استنتجته منها، بقدر ما وصل إليه فهمي الكليل(١)، فأقول:

أولًا: تنبيه النَّاس إلى العمل بالقرائن فيما يشكل من الأمور.

ثانيًا: مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم، ولا يُفلح الظالمون.

ثالثًا: خيانة المرأة لزوجها ظلم وكفر بالإحسان، وعاقبته الخُسران.

رابعًا: الأمين المخلص إذَا اتقى الله نجَّاه، وكافأه عَلَى أمانته وإخلاصه، ولو أساء إليه مَن أخلص له.

خامسًا: يبلغ الإنسان بالعلم والإحسان مقامًا ساميًا لدى الملوك والناس.

سادسًا: اختيار السجن عَلَى فعل الكبيرة أو الخيانة ولو كان فيه التمتع بلذات

(١) الكلام للشيخ كشك رحمه الله.

الحياة كما يشاء، من مالٍ وغيره، من صفات الأبطال(١).

سابعًا: مخالطة الرجال الأقوياء من الخدم وغيرهم لربات البيوت، والخلوة بهنّ، مدعاة للفساد والفجور، إلَّا مَن عصم الله، وفي أحاديث كثيرة النهي عن ذَلِكَ.

ثامنًا: التوقّي من كيد النساء ومكرهنَّ أقرب إلى الحزم وأبعد عن الظلم، وأحسن عاقبة، وعلى العاقل التثبت في تصديقهم عند غضبهم.

تاسعًا: مِن المقاصد الشريفة لدى العقلاء أن يعملوا عَلَى نفي التهمة الباطلة عن أنفسهم، وإظهار براءتهم، خصوصًا إذَا كان مِمَّن يُقتدى بهم، ولنا في شريعتنا عَلَى ذَلِكَ أمثلة كثيرة، وفقنا الله تعالى إلى اتباعها والعمل بها، آمين(٢).

۞۞۞۞۞

(١) هَذَا إذا عُرض على الإنسان الاختيار، إمَّا السجن وإما الفاحشة، وإلَّا فطلب العفو والعافية هو الأصل، كما علّمنا النَّبيّ ﷺ.

(٢) «في رحاب التفسير» (١٨٠٤).

الخطبة الثامنة والعشرون:
يُوسفُ عليه السلام خلف أسوار السِّجن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة يوسف عليه السلام.

ونلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣١- ٣٤].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «يذكُرُ تعالى ما كان من قِبَلِ نساءِ المدينةِ - يعني مِصْرَ - مِن نساءِ الأمراءِ وبناتِ الكُبَراء، في الطَّعنِ عَلَى امرأةِ العزيزِ وعَيْبِها والتَّشنيعِ عليها في مراودتِها فتاها، وحبِّها الشَّديد له، يَعنِيَن: وهو لا يساوي هذا؛ لأنَّهُ مولًى من الموالي، وليس مثلُه أهلًا لهذا، ولهذا قُلنَّ: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾أي: في وضعِها الشيء في غير محلِّه، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بتشنيعِهِنَّ عليها والتَّنقُّص لها، والإشارة إليها بالعيبِ والمذمَّة بحبِّ مولاها وعشقِ فتاها، فأظهرنَّ ذَمًّا، وهي معذورةٌ في نفس الأمرِ، فلهذا أحبَّت أن تَبسُط عذرَها عندهنَّ، وتُبيِّن أن هَذَا الفتى ليس كما حَسِبنَ ولا من قَبيلِ ما لديهنَّ، فأرسَلَت إليهنّ فجمعَتهنَّ في منزلها وأعتَدَت لهنَّ ضيافةَ مثلهنَّ وأحضَرت في جملة ذَلِكَ شيئًا مما يُقطَعُ بالسكاكين كالأُترُجِّ ونحوهِ، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانت قَدْ هيَّأت يوسف الْكَلِيْلاَ وألبسَته أحسنَ الثياب، وهو في غايةِ طَرَاوةِ الشبابِ وأمرتهُ بالخروج عليهنَّ بهذه الحالة، فخرجَ وهو أحسنُ من البدرِ لا محالةَ، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: أعظَمنَهُ وأجلَلنَهُ وهَبنَهُ وما ظَننَّ أن يكون مثلُ هَذَا في بني آدمَ، وبَهَرهنَّ حُسنُه، حتى اشتغَلنَ عن أنفسهنّ وجَعلنَ يَحزُزْنَ في أيديهنَّ بتلك السكاكين ولا يَشعُرنَ بالجراحِ، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقد جاء في حديث الإسراء: «...فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ... » قَالَ السُّهَيْليُّ وغيره من الأئمة: معناه أنه كان عَلَى النصف من حُسن آدم الْكَلِيْلاَ؛ لأنَ الله تعالى خلق آدم بيده ونَفَخ فيه من روحهِ، فكان في غاية نهايات الُحسن البشريِّ، ولهذا يَدخُلُ أهلُ الجَنَّة الجَنَّة عَلَى طول آدمَ وحُسنهُ، ويُوسفُ كان عَلَى النِّصف من حُسنِ آدمَ، ولم يكن بينَهما أحسنُ منهما، كما أَنَّهُ لم تكُن أنثى بعد حواء أشبه بها من سَارَّة امرأة الخليل الْكَلِيْلاَ.

وقال غيرهُ: كان في الغالبِ مُبرَقعًا لئلا يراه الناسُ، ولهذا لَـمَّا قام عُذْرُ امرأةِ

العزيزِ في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهنَّ وعليهنّ ما جرى من تقطيع أيدينهم بجراح السكاكين، وما رَكبهنّ من المهابة والدَّهش عندَ رؤيتهِ ومعاينته.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ ثُمَّ مدَحته بالعفَّة التَّامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وكان بقية النِّساءِ حَرَّضنَه عَلَى السمعِ والطاعةِ لسيدتهِ، فأبى أشدَّ الإباءِ ونأى؛ لأنَّهُ مِن سلالةِ الأنبياءِ، ودعا فقال في دعائه لربِّ العالمين: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: إنْ وكَلْتَني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجزُ والضعفُ، ولا أمَلكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، فأنا ضعيفٌ إلَّا ما قوَّيتني وعصَمتني وحفظتَني وحُطتَني بحولِك وقوتِك، ولهذا قَالَ تَعَالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

عباد الله...

ثم ماذا؟

يقول الحقّ سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٣٥- ٤١].

يذكُرُ تعالى عن العزيزِ وامرأتهِ أنَّهُمْ ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهرَ لهم من الرأي بعد

ما عَلِموا براءة يوسف، أن يسجُنوه إلى وقت ليكونَ ذَلِكَ أقل لكلام النَّاس في تلك القضية، وأَخْمَدَ لأمرها، وليُظهِروا أنه راودها عن نفسِها، فَسُجن بسببها، فسجَنوه ظُلْمًا وعُدوانًا، وكان هَذَا مما قدَّر الله له، ومن جملة ما عصَمه به؛ فإنه أَبعَدُ له عن معاشرتهم ومخالطتهم، ومن ههنا استَنْبَط بعضُ الصوفية ما حكاه عنهم الشَّافعيُّ: أن من العصمةِ أن لا تَجِد.

قال الله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل: كان أحدُهما: ساقي المَلك، واسمُهُ فيما قيل: «بنو»، والآخر: خبازه يعني الَّذِي يَلِي طعامه، وهو الَّذِي يقول لهُ التُّركُ «الجاشَنكِيرُ»، واسمه فيما قيل «مجلثُ»، كانَ الملكُ قَدْ اتَّهمهما في بعض الأمور فسجَنهما، فلما رَأَيا يُوسفَ في السجنِ أعجَبهما سَمْتُه وهَدْيُه، ودَلُّه وطريقتُهُ وقَولُهُ وفِعلُهُ وكَثرةِ عبادتهِ رَبَّه وإحسانُهُ إلى خَلْقِه، فرأى كل واحدٍ منهما رؤيا تُناسبُهُ.

قالَ أهلُ التفسير: رَأَيَا في ليلةٍ واحدةٍ، أما الساقي فرأى كأنَّ ثلاثَ قُضبانٍ مِن حَبلةٍ وقد أورقَت وأينَعت عناقيدُ العنبِ فأخذَها فاعتَصَرها في كأسِ المَلِكِ وسقاه، ورأى الخبازُ عَلَى رأسهِ ثلاثَ سلالٍ من خبزٍ، وضَواري الطيور تأكُلُ من السَّلِّ الأَعْلَى، فَقَصَّاها عليه وطلبَا منه أنْ يَعْبُرَهما لهما، وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبرهما أنه عليمٌ بتعبيرِهما خبيرٌ بأمرهما، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ قيل: معناه مهما رأيتُما من حُلمٍ فإني أَعبرُه لكم قبل وقوعهِ، فيكونُ كما أقولُ، وقيل: معناه إني أُخبرُكما بما يأتيكما من الطعام قبلَ مجيئه؛ حُلوًا أو حامضًا، كما قَالَ عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال لهما: إن هَذَا من تعليم الله إيَّاي، لأنِّي مؤمنٌ به موحدٌ له مُتَّبعٌ ملة آبائي الكِرامِ، إبراهيم الخليلِ وإسحاق ويعقوبَ، ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: بأن هدانا لهذا ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونُرشِدَهم ونَدُلَّهم عليه، وهو في فِطَرِهم مركوزٌ وفي جِبِلَّتهم مغروزٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ثُمَّ دعاهم إلى التوحيدِ، وذَمَّ عبادةَ ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ، وصَغَّر أمْرَ الأوثان

وحقَّرها وضعَّف أَمْرَها، فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّـهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّـهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: هو المتصرفُ في خَلقِهِ الفَعَّالُ لما يُريدُ، الَّذِي يَهدي من يَشاءُ ويُضلُّ مَن يشاءُ، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: وحدَه لا شريكَ له، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: المُستَقِيمُ والصِّرَاطُ القويمُ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحِهِ وظهورِهِ، وكانت دعوتهُ لهما في هَذِهِ الحالِ في غايةِ الكمالِ؛ لأنَّ نفوسَهما معظِّمةٌ له، مُنبعثةٌ عَلَى تَلَقِّي ما يقولُ بالقَبولِ، فناسَب أن يدعوهُما إلى ما هو الأنفعُ لهما مما سألا عنه وطَلَبا منه، ثُمَّ لما قام بما وجَب عليه وأرشَدَ إلى ما أرشَدَ إليه، قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ قالوا: وهو الساقي، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ قالوا: وهو الخباز، ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: وقع هَذَا لا محالةَ، ووجَبَ كونُه عَلَى كلِّ حالةٍ، ولهذا جاء في الحديث: «**الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ**»[١]، وقد ثبت عن ابنِ مسعودٍ[٢]، وعبدالرحمنِ بنِ زيدِ بن أَسلَم أَنَّهما قالا: لم نَرَ شيئًا، فقال لهما: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، يخبرُ تعالى أن يوسف ﷺ قَالَ للذي ظنَّ أنَّهُ ناجٍ منهما وهو الساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: اذكُر أمري وما أنا فيه من السِّجنِ بغيرِ جُرمٍ عندَ الملكِ، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى جواز السَّعي في الأسبابِ، ولا ينافي ذَلِكَ التوكلَ عَلَى ربِّ الأربابِ.

وقولُه: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فَأَنسَى الناجيَ منهما الشيطانُ أن يذكُر ما وصَّاه به يوسفُ ﷺ؛ قاله مُجاهدٌ، ومحمدُ بن إسحاق، وغيرُ واحدٍ، وهو الصوابُ وهو منصوصُ أهلِ الكتابِ، ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبِضعُ: ما

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠)، وأبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٨)، وغيرهم وحسّنه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٤٥٥).

(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١١٦٣١).

بينَ الثلاثِ إلى التسع، وقيل: إلى السبعِ، وقيل: إلى الخمسِ، وقيل: ما دون العشرة؛ حكاها الثَّعلبيُّ، ويقالُ: بِضعُ نسوةٍ وبِضَعةُ رجالٍ، ومنَع الفَرَّاءُ استعمالَ البِضعِ فيما دونَ العشَر، قال: وإنما يقالُ: نَيِّفٌ، وقال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]، وهذا ردٌّ لقولِهِ، قَالَ الفرَّاءُ: ويقالُ: بضعةَ عشَرَ وبِعضةٌ وعشرون إلى التسعين، ولا يقالُ: بِضعٌ ومائةٌ، وبِضعٌ وألفٌ، وخالَف الجَوهَريُّ فيما زاد عَلَى بضعةَ عشَرَ، فَمنَعَ أن يقال: بِضعةٌ وعشرون إلى تسعين، وفي «الصحيح»: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ»(١)، وفي روايةٍ: «وسبعون شعبةً، وَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ»(٢).

ومَن قال: إن الضميرَ في قولِهِ: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائدٌ عَلَى يُوسفَ، فقد ضَعُفَ ما قاله، وإن كان قَدْ رُوِي عن ابنِ عباسٍ وعِكرمةَ(٣)، والحديثُ الَّذِي رواه ابنُ جَرير في هَذَا الموضعِ ضَعيفٌ من كلِّ وجهٍ، تَفرَّدَ بإسنادِهِ إبراهيمُ بنُ يزيدَ الخُوريُّ المكيُّ، وهو متروكٌ ومُرسَلُ الحسنِ وقَتادةَ(٤)، لا يُقبَلُ، ولا سيَّما ههنا بطريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى، واللَّـهُ أعْلَمُ.

فأَمَّا قول ابن حبان في «صحيحه» ذِكْرُ السببِ الَّذِي من أجلهِ لَبِثَ يُوسفُ في السجنِ ما لَبِثَ؛ أخبرنا الفضلُ بنُ الحُبابِ الجُمحيُّ، ثنا مُسَدَّدُ بنُ مُسَرهَدٍ، ثنا خالدُ بنُ عبد الله، ثنا محمدُ بنُ عمروٍ، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرةَ، قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «رَحِم الله يوسف، لولا الكَلِمةُ الَّتِي قالها: اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ما لَبِثَ في السِّجن ما لَبِثَ، ورَحِمَ الله لوطًا إن كان لَيَأوي عَلَى رُكنٍ شديدٍ، إذْ قَالَ لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال: فَمَا بَعَثَ الله نبيًّا بعدَه إلَّا في ثروةٍ مِن قومِه». فإنه حديثٌ منكرٌ مِن هَذَا الوجه، ومحمدُ بنُ عمرو بن عَلقَمَةَ له أشياءُ يَنفَرِدُ بها وفيها نكارةٌ، وهذه اللَّفظةُ مِن أنكرِها وأشَدِّها، والذي في الصحيحين يَشهَدُ

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الأثران ضعيفان.

(٤) إسنادهما صحيحان إليهما، رواهما الطبريّ (٧/ ١٢/ ٢٢٣)، قاله محققا «البداية».

بِغَلِطِها، واللَّـهُ أعْلَمُ»[(١)].

عباد الله...

وكان سبب خروج يوسف ﷺ من السِّجن رؤيا رآها الملك، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلام وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلام بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّـهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَـمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَـهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾ [يوسف: ٤٣- ٤٩]

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لهذه الآيات ما مختصره: «هذا كلُّه من جملة أسباب خروجِ يُوسفَ ﷺ مِن السِّجنِ عَلَى وجهِ الاحترامِ والإكرامِ، وذلك أن مَلِكَ مصرَ - وهو الرَّيَّانُ بنُ الوليدِ بن ثروانَ بنِ أراشةَ بنِ فارانَ بن عمرِو بنِ عِملاقِ بنِ لاوَذِ بنِ سام بن نوحٍ - رأى هَذِهِ الرؤيا قَالَ أهلُ الكتابِ: رأى كأنَّهُ عَلَى حافَّة نهرٍ، وكأنَّهُ قَدْ خَرَجَ منه سبعُ بَقَراتٍ سِمانٍ، فَجعَلن يَرتَعْنَ في رَوضِةٍ هناك، فخرَجَت سبعٌ هِزالٌ ضِعافٌ من ذَلِكَ النهرِ فرتَعنَّ معهنَّ، ثُم مِلنَّ عليهنَّ فأكلنهنَّ فاستيقظ مذعورًا ثُمَّ نام فرأى سبع سُنْبُلاتٍ خُضرٍ في قَصَبةٍ واحدةٍ، وإذا سبعٌ أُخَرُ دِقاقٌ يابساتٌ تأكُلُهنَّ، فاستيقَظ مذعورًا، فلما قصَّها عَلَى مَلأِه وقومه لم يكن فيهم مَن يُحسنِ تَعبيرَها، بل ﴿**قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلام**﴾، أي: أخلاطُ أحلامٍ من الليل لعلَّها لا تعبير لها، ومع هَذَا فلا خِبرَةَ لنا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿**وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلام بِعَالِمِينَ**﴾ فعند ذَلِكَ تَذكَّرَ النَّاجِي منهما، الَّذِي وصَّاه يوسفُ بأن يذكُرَهُ عند ربِّه، فَنسِيَ إلى حينهِ هذا، وذلك عن تقديرِ الله عَزَّ

(١) «البداية» (١/ ٢٤٤ - ٢٤٧)، باختصار يسير.

وَجَلَّ، وله الحكمةُ في ذلك، فلما سمع رؤيا الملك ورأى عَجزَ الناس عن تعبيرها، تذكَّر أَمْرَ يُوسفَ وما كان أوصاه به من التَّذْكارِ، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكَّر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد مُدَّةٍ مِن الزمان، وهو بضعُ سنين، وقرأ بعضُهم كما حُكي عن ابن عباس[1] وعِكرمةَ[2]: «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ» أي: بعد نسيان.

فقال لقومه وللملك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فأرسلوني إلى يوسفَ، فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وعند أهلِ الكتابِ أن الملكَ لما ذكَره له الساقي استدعاه إلى حضرتهِ، وقصَّ عليه ما رآه ففسَّره له، وهذا غَلَطٌ، والصوابُ ما قصَّه الله في كتابه القرآنِ، لا ما عربَّه هؤلاءِ الجهلةُ الثيرانُ مِن قَرَائِي ورُبَّانٍ، فبذَل يوسفُ عليه السلام ما عندَه مِن العلمِ بلا تأخرٍ ولا شرطٍ، ولا طلَبَ الخروجَ سريعًا، بل أجابهم إلى ما سألوا وعَبَّرَ لهم ما كان من منامِ الملك، الدَّالِّ عَلَى وقوعِ سبعِ سنينَ من الخِصبِ، ويَعقُبُها سبعُ جُدْبٌ، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني: يأتيهم الغَيثُ والخصبُ والرُّفاهيةُ، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني: ما كانوا يَعصِرونه مِن الأقصابِ والأعنابِ والزَّيتونِ والسِّمسمِ وغيرها، فعَبَّر لهم وعلى الخيرِ دَلَّهم وأرشَدهم إلى ما يَعتمدونه في حَالَتَيِ خِصبِهم وجَدبِهم، وما يفعلونه من ادِّخار حبوب سِنيِّ الخِصبِ في السبعِ الأُوَلِ في سُنْبُلِه، الا ما يُرْصَدُ بسببِ الأكلِ، ومن تقليل البَذْرِ في سِنِيِّ الجَدْبِ في السبعِ الثانيةِ، إذ الغالبُ عَلَى الظنِّ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ البَذْرَ مِن الحقلِ، وهذا يَدُلُّ عَلَى كمالِ العلمِ وكمالِ الرأيِ والفَهمِ»ا.هـ.[3].

ولَمَّا عبَّر يوسف عليه السلام رؤيا الملك، ووصل تأويلُها إليه، أمر بإخراجه من

(١) رجاله ثقات: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ٢٨٨).

(٢) صحيح إليه: نفس المصدر، قاله محققا «البداية» ط. دار ابن رجب، وقد استفدت من تحقيقهما كثيرًا في هذه القصّة فيما مرّ، وفيما سيأتي.

(٣) «البداية» (١/ ٢٤٨، ٢٤٩) باختصار.

السِّجن، قَالَ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠- ٥٣].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «لما أحاط الملكُ علما بكمالِ علم يُوسفَ عليه الصلاةُ والسلامُ، وتمامِ عقلِه ورأيِهِ السديدِ وفَهمِهِ، أمَر بإحضارِهِ إلى حضرتِهِ، ليكونَ مِن جملةِ خاصَّتِهِ، فلما جاءه الرسولُ بذلك، أحَبَّ أن لا يَخرجَ حتَّى يَتبينَ لكلِّ أحدٍ أنَّهُ حُبِس ظلمًا وعُدوانًا وأنه بريءُ الساحة مما نَسَبوه إليه بُهتانًا، ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني: الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ قيل: معناه أن سيدي العزيزَ يَعلَمُ براءتي مما نُسب إليَّ، أي فَمُرِ الملك فليَسألهنَّ كيف كان امتناعي الشديدُ عندَ مراودتِهنَّ إيَّاي، وحَثِّهن لي عَلَى الأمر الَّذي ليس برشيدٍ ولا سديدٍ، فلما سُئلنَّ عن ذَلِكَ اعتَرَفْنَ بما وقَع من خَطأَ الأمرِ، وما كان منه من الأمرِ الحميدِ، و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ فعند ذَلِكَ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ وهي زليخا، ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتَبَيَّن ووضح والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فيما يقولُه من أنه بريءٌ وأنه لم يراودني، وأنه حُبِس ظُلْمًا وعُدوانًا وزورًا وبُهتانًا.

وقولُهُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف، أي: إنما طلبتُ تحقيقَ هَذَا ليعلم العزيز أني لم أَخُنْه بظهرِ الغيبِ، وقيل: إنه من تمام كلام زَلِيخَا، أي: إنما اعترفتُ بهذا ليَعلَمَ زوجي أنِّي لم أخنهُ في نفسِ الأمرِ، وإنما كان مُراودةً لم يَقَع معها فِعْلُ فاحشةٍ، وهذا القولُ هو الَّذِي نصَره طائفةٌ كثيرةٌ من أئمةِ المتأخرين وغيرِهم، ولم يَحك ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم سوى الأولِ. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: إنه من كلامِ يوسفَ، وقيل: من كلام زَلِيخَا وهو مفرَّعٌ عَلَى القولَيْن الأولَيْن،

وكونُهُ مِن تمامِ كلامِ زَلِيخَا أظهَرُ وأنسبُ وأقوى، واللَّـهُ أعْلَمُ» ا.هـ(١).

ولمّا ظهر للملك براءة يوسف ﷺ استخلصه لنفسه، قَالَ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٤- ٥٧].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «لما ظهرَ للملك براءةُ عِرضِهِ ونزاهةُ ساحتِهِ عَمَّا كانوا أظهَروا عنه مِمَّا نسبوه إليه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعَلهُ مِن خاصَّتي، ومِن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشِيتي، فلما كلَّمه وسَمِع مقالَهُ وتبَيَّن حالَهُ قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: ذو مكانةٍ وأمانةٍ، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ طلب أن يولِّيَه النظرَ فيما يتعلقُ بالأهراءِ، لما يَتوقَّعُ من حصولِ الخَلَلِ فيما بعدَ مُضِيِّ سبعِ سِنيِّ الخِصبِ، لينظُرَ فيها بما يُرضِي الله في خَلْقِهِ من الاحتياط لهم والرِّفقِ بهم، وأخبَرَ الملكَ أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: قوي عَلَى حفظِ ما لديه، أمينٌ عليه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بضبطِ الأشياء ومصالحِ الأهراءِ، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى جوازِ طلبِ الولايةِ لِمَنْ عَلِم مِن نَفسِهِ الأمانةَ والكفاءَة»(٢).

وحكى الثعلبيُّ أَنَّهُ عزل قطفير عن وظيفته وولَّاها يوسف. ا.هـ(٣). فسبحانك يا إلهي تعزّ مَن تشاء وتذلّ مَن تشاء، بيدك الخير، وأنت عَلَى كُلّ شيء قدير.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «البداية» (١/ ٢٤٩).

(٢) وهذا الجواز لا يعني الخروج على ولاة الأمور، وقد ورد النَّهيُ عن سؤال الإمارة في أحاديث، منها:
١- قوله ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ وَسَتَصِيرُ نَدَامَةً وَحَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَبِئْسَتْ الْمُرْضِعَةُ وَنِعْمَتْ الْفَاطِمَةُ» رواه البخاري ومسلم.
٢- وقال ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بن سمرة: لا تَسْأَلْ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ». رواه البخاري ومسلم.

(٣) «البداية» (١/ ٢٥٠) باختصار شديد.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قَالَ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: أي بعد السِّجنِ والضِّيقِ والحصرِ صار مُطلقَ الرِّكابِ بديارِ مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: أين شاءُ حَلَّ منها مُكرَمًا محسودًا مُعظَّمًا ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هَذَا كلُّه من جزاءِ الله وثوابِهِ للمؤمنِ، مع ما يَدَّخرُ له في آخرتِهِ من الخيرِ الجزيلِ والثوابِ الجميلِ، ولهذا قال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ويقال: إن أطفير زوج زَلِيخَا كان قَدْ مات، فولَّاه الملكُ مكانَهُ، وزوَّجه امرأتَهَ زَلِيخَا فكان وزير صدقٍ.

وذكر محمد بنُ إسحاق أن صاحبَ مصرَ الوليد بن الرَّيَّان أسلَمَ عَلَى يَدَي يُوسفَ عليه السلام، فاللَّـهُ أعْلَمُ. وقد قَالَ بعضُهم:

وراءَ مضيقِ الخوف يَتَّسعُ الأمنُ ... وأوَّلُ مَفْروحٍ بـه آخِرُ الحُزْنِ

فـلا تيأسـنَّ فـالله ملَّـكَ يوسُـفًا ... خزائنَهُ بعد الخلاص من السِّجن[1]

فيا من ترادف عليه البلاء، وأحاط به الكرب من كل مكان، وحلَّ الهمُّ بساحته... لا تحزن.

فإن النَّصر مع الصَّبْر. وإن الفَرَجَ مع الكَرْب. وإن مع العُسر يُسرًا.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك عَشيةً نَقِيَّة، وَمِيتَةً سَوِيَّةً، وَمَرَدًّا غَيْرَ مخذولٍ فاضحٍ.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الخطبة التاسعة والعشرون:
قدوم إخوة يوسف ﷺ إلى الديار المصرية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة يوسف ﷺ.

عباد الله...

وبعد أن وصل يوسف ﷺ إلى سُدَّة الحُكم - بالتعبير المعاصر - وتولَّى إدارة شئون البلاد الاقتصادية، كان الجدب قَدْ حلَّ بأماكن كثيرة في العالم، منها: بلاد الشام حين يسكن أبوه وإخوته.

فماذا حدث؟

قَالَ الحق سبحانه: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَـهُ مُنكِرُونَ *

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨- ٦٢]

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يخبرُ تعالى عن قُدوم إخوةِ يُوسفَ عليه السلام إلى الديارِ المصريةِ يمتارون طعامًا، وذلك بعد إتيان سِنيِّ الجدبِ وعمومِها عَلَى سائر العبادِ والبلادِ.

وكان يوسفُ عليه السلام إذ ذاكَ الحاكمَ في أمور الديارِ المصريةِ دينًا ودنيا، فلما دخَلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأَنَّهُمْ لم يَخطِر ببالِهم ما صار إليه يوسفُ عليه السلام من المكانةِ والعظمةِ، فلهذا عرفَهم وهم له مُنكِرون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي: أعطاهم من الميرةَ ما جرَت به عادتُه في إعطاءِ كلِّ إنسانٍ حِملَ بَعيرٍ، لا يَزيدُه عليه ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ وكان قَدْ سألهم عند حالِهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثنى عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبَقِي شقيقَهُ عند أبينا. فقال: إذَا قدمتم مِن العام المُقبل فأْتُوني به معكم. ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنزِلِينَ ﴾ أي: قَدْ أحسنتُ نُزُلَكم وقراكم، فرغَّبهم ليأتوه به ثُمَّ رهبَّهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ أي: فلستُ أُعطيكم مِيرةً، ولا أقربَكُم بالكليّة، عكس ما أَسْدَى إليهم أولًا. فاجتهد في إحضاره معهم، ليَبُلَّ شوقَهُ منه بالترغيب والترهيب.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي: سنجتهدُ في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن. ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي: وإنا لقادرون عَلَى تحصيله.

ثم أمر فِتيانه أن يضعوا بضاعتَهم - وهي ما جاءوا به يتعوَّضون به، عن المِيرة - في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. قيل: أراد أن يَرُدُّوها إذَا وجدوها في بلادهم، وقيل: خَشِي أن لا يكون عندَهم ما يَرجِعون به مرةً ثانيةً، وقيل: تَذَمَّمَ أن يأخذ مِنْهُمْ عِوضًا عن

الميرة. وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم عَلَى أقوال سيأتي ذكرها. وعند أهل الكتاب: أنها كانت صُررًا مِن وَرِقٍ، وهو أَشْبَهُ. واللَّـهُ أَعْلَمُ» ا.هـ[١].

أيها المسلمون...

ثم ماذا؟

يقول الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَـهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّـهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَـهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّـهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ *وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٣- ٦٨].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يَذكُرُ تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ﴾ أي: بعد عامنا هَذَا إن لم ترسل معنا أخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سَنَتِهم ومَحلِهم، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: في مقابلة ذهاب ولدِهِ الآخَرِ. وكان يعقوب عليه السلام أضنَّ شيءٍ بولدِهِ بنيامين؛ لأَنَّه كان يَشُمُّ فيه رائحة أخيه يُوسف

---

(١) «البداية» (١/ ٢٥١) باختصار.

ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه. فلهذا قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تُغلَبوا كلُّكم عن الإتيان به. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أكَّد المواثيق وقرَّر العهودَ، واحتاط لنفسهِ في ولدهِ، ولن يُغنيَ حذَرٌ من قَدَرٍ، ولولا حاجتُهُ وحاجة قومِهِ إلى المِيرة، لَمَا بعَث الولدَ العزيزَ، ولكنَّ الأقدار لها أحكامٌ، والربُّ تعالى يُقدِّرُ ما يشاءُ ويختارُ ما يريد، ويحكمُ ما يشاءُ وهو الحكيمُ العليمُ.

ثُمَّ أمرهم أن لا يَدخُلوا المدينة من بابٍ واحدٍ، ولكن لِيدخُلوا من أبواب متفرقةٍ. قيل: أراد أن لا يُصيبهم أحدٌ بالعينِ، وذلك لأنَّهُمْ كانوا أشكالًا حسنةً، وصُورًا بديعةً. قاله قتادة. ا.هـ[1]

وقيل: أراد أن يَتفرَّقوا لعلهم يجدون خبرًا ليوسفَ، أو يُحدِّثون عنه بأيسرِ شيءٍ، قاله إبراهيم النخعي. والأول أظهر. ولهذا قَالَ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾». ا.هـ[2].

عباد الله...

ويصف القُرآنُ الكريم لقاءَ يُوسف عليه السلام بأخيه، وما دار بينهما، وما دار بينه وبين إخوته فيقول:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ

---

(١) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ١٣)، قاله محققا «البداية».
(٢) «البداية» (١/ ٢٥٢) باختصار.

جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٩].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يَذكُرُ تعالى ما كان من أمرهم حين دخَلوا بأخيهم بنيامينَ عَلَى شقيقه يُوسفَ، وإيوائِهِ إليه، وإخبارِهِ له سرًا عنهم بأنه أخوه، وأَمْرِه بكتم ذَلِكَ عنهم، وسلَّاه عمَّا كان مِنْهُمْ من الإساءة إليه. ثُمَّ احتال عَلَى أخذِهِ مِنْهُمْ وتركه إيَّاه عندَه دونَهم، فأمر فِتيانَهُ بوضع سقايَتِهِ، وهي التي كان يَشربُ بها ويَكيلُ بها للناسِ الطعام مِن عِزَّتِه في متاع بنيامين، ثُمَّ أعلمَهم بأنَّهُمْ قَدْ سَرقوا صُواع الملكِ، ووعَدهم جَعَالةً عَلَى رَدِّه، حِمل بعيرٍ، وضَمِنه المُنادى لهم.

فأقبَلوا عَلَى من اتَّهمَهم بذلك فأنَّبوه وهَجَّنوه فيما قاله لهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذه كانت شريعتهم: أنَّ السارقَ يُدْفَعُ إلى المسروق منه. ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ليكون ذَلِكَ أبعد للتُّهمة وأبلغَ في الحيلةِ، ثُمَّ قَالَ الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لولا اعترافُهم بأنَّ جزاءَهُ مَن وُجِد في رَحله فهو جزاؤُهُ، لما كان يَقدِرُ يوسفُ عَلَى أخذه مِنْهُمْ في سياسة مَلِكِ مصر، ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أي: في العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأنَّ يوسف كان أعلم مِنْهُمْ، وأتمَّ رأيًا وأقوى عزمًا وحزمًا، وإنما فعَل ما فعل عن أمرِ الله له في ذَلِكَ؛ لأنَّهُ يترتبُ عَلَى هَذَا الأمر مصلحةٌ عظيمةٌ بعد ذَلِكَ. من قُدوم

أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل: كان قَدْ سرق صنمَ جَدِّه أبي أمِّه فكسره. وقيل: كانت عمَّتُه قَدْ علَّقت عليه بين ثيابِهِ وهو صغيرٌ مِنْطَقَةٌ كانت لإسحاق، ثُمَّ استخرجوها من بين ثيابِهِ وهو لا يَشعُرُ بما صنعت، وإنَّما أرادت أن يكونَ عندَها وفي حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذُ الطعام من البيت فَيُطعمُهُ الفقراء. وقيل غير ذلك.

فلهذا: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾وهي كلمتُه بعدها، وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أجابهم سرًّا لا جهرًا، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أي: إن أطلقنا المتَّهم وأخذنا البريء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمَحُ به، وإنما نأخذُ مَن وجدنا متاعَنا عنده. وعند أهل الكتاب: أن يُوسفَ تعرَّفَ إليهم حينئذٍ، وهذا مما غَلِطوا فيه ولم يفهموه جيدًا» ا.هـ[١].

عباد الله...

ثم ماذا؟

يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ

---

(١) «البداية» (١/ ٢٥٤).

يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٠- ٨٧].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يقولُ تعالى مخبرًا عنهم لَـمَّا استيأسوا من أخذه منه خَلَصوا يتناجَوْن فيما بينهم، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيلُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ وقد أخلفتُم عهدَه، وفرَّطْتُم فيه كما فَرَّطْتُم في أخيه يوسف من قبله، فلم يَبْقَ لى وجهٌ أقابلُه به ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ أي: لا أزالُ مقيمًا هاهنا ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في القُدوم عليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّـهُ لِي﴾ بأن يُقدِّرَني عَلَى ردِّ أخى إلى أبى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْـحَاكِمِينَ﴾.

قوله: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أي: أخبروه بما رأيْتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْـعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: فإن هَذَا الذى أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق، أمرٌ اشتَهر بمصر، وعِلْمُه العِيرِ التى كنا نحن وهم هناك، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: ليس الأمرُ كما ذكرتم، لم يَسرِق فإنه ليس بسَجِيَّةٍ له ولا خُلُقَه. وإنما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

ثم قال: ﴿عَسَى اللَّـهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعنى يوسف وبنيامين وروبيل، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي: بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبَّة ﴿الْـحَكِيمُ﴾ فيما يقدِّرُه ويفعلُه، وله الحكمةُ البالغة والحُجُة القاطعة. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن بنيه ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ذكَّره حُزُنه الجديدُ بالحزن القديمِ، وحرَّك ما كان كامنًا، كما قَالَ بعضهُم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... مـــا الحـــب إلا للحبـــيب الأول

وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: من كثرةِ البكاء. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مُكْمَدٌ من كثرةِ حزنهِ وأسفِهِ وشوقِهِ إلى يُوسفَ.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوحدةِ وألم الفراق ﴿قَالُوا﴾ له عَلَى وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: لا تزال تتذكره حتى يَنحلَ جسدُك وتَضعُفَ قُوَّتُك، فلو رَفَقْتَ بنفسك كان أَوْلى بك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يقولُ لبنيه: لستُ أشكو إليكم ولا إلى أحدٍ من الناسِ ما أنا فيه، إنما أشكوه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأعلم أن اللهَ سيجعلُ لى مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا، وأعلمُ أن رؤيا يوسفَ لابدَّ أن تقعَ، ولابدَّ أن أسجدَ له أنا وأنتم حَسَبَ ما رأى. ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قَالَ لهم محرِّضًا عَلَى تطلُّب يوسفَ وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا تيأسوا من الفرجِ بعد الشِّدةِ، فإنه لا ييأسُ من رَوْح الله وفرجِهِ، وما يقَدِّرُه من المخرجِ في المضايقِ، إلَّا القومُ الكافرون» ا.هـ[1].

عباد الله...

وعاد إخوة يوسف إلى أرض مصر، ودخلوا عَلَى يُوسف عليه السلام، وحدث في هَذَا اللقاء شيء لم يخطر لهم عَلَى بال، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٨٨- ٩٣].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله-: «يخبرُ تعالى عن رجوعِ إخوةِ يُوسفَ إليه وقُدومهم

(١) «البداية» (١/ ٢٥٤، ٢٥٥) باختصار.

عليه، ورغبتهم فيها لديه من المِيرةِ، والصَّدقةِ عليهم بردِّ أخيهم بنيامينَ إليهم، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: من الجَدبِ وضيقِ الحالِ وكثرةِ العيالِ، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: ضعيفة لا يُقبلُ مثلها مِنَّا إلا أن يُتَجاوزَ عنَّا. قيل: كانت دراهم رديئةً، وقيل: قليلةً، وقيل: حبَّ الصَّنوبَرِ وحَبَّ البُطْمِ ونحوَ ذلك. وعن ابن عباس: كانت خَلَقَ الغَرائرِ والحِبال ونحوَ ذلك[1]. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

فلما رأى ما هم فيه من الحالِ وما جاءوا به مما لم يَبْقَ عندهم سواه من ضعيفِ المالِ، تعرَّف إليهم وعطَف عليهم، قائلًا لهم عن أمر ربِّه وربهم، وقد حسَر لهم عن جبينه الشريفِ، وما يَحويه مِن الحال الذى يعرفون فيه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا﴾ وتعجَّبوا كلَّ العجبِ، وقد تردَّدوا إليه مرارًا عديدةً وهم لا يعرفون أنه هو: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ يعنى أنا يوسف الذى صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيه ما فرَّطتم.

وقولُهُ: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ تأكيدُ لما قال، وتنبيهٌ عَلَى ما كانوا أضمَروا لهما من الحسدِ، وأعملوا في أمرِهما من الاحتيال. ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بإحسانهِ إلينا وصدقتهِ علينا، وإيوائه لنا وشَدِّه معاقِدَ عِزِّنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا، وصبرنا عَلَى ماكان منكم إلينا، وطاعتنا وبِرِّنا لابينا، ومحبَّتُهُ الشديدة لنا وشفقته علينا. ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضَّلك وأعطاك ما لم يُعطنا، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: فيما أسدَيْنا إليك، وها نحن بَينَ يديك.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لست أُعاتبكم عَلَى ماكان منكم بعد يومكم هذا. ثُمَّ زادهم عَلَى ذَلِكَ فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ومن زعم أن الوقف عَلَى قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ وابتدأ بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقولُهُ ضعيفٌ والصحيح الأولُ.

---

(١) صحيح: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٠، ٥١).

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصهِ، وهو الذى يلى جسدَه، فيضعوه عَلَى عَينىَّ أبيه، فإنه يرجعُ إليه بصرُهُ بعد ماكان ذهَب، بإذنِ الله. وهذا من خوارقِ العاداتِ ودلائلِ النُّبُوَّات وأكبرِ المعجزات.

ثم أمرهم أن يتحمَّلوا بأهلِهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدَّعَةِ وجمعِ الشملِ بعد الفرقةِ، عَلَى أكملِ الوجوهِ وأعلى الأمورِ». ا.هـ[١].

وسنواصل الحديث عمَّا حدث بعد ذَلِكَ بعد قليل إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول الحقّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٤- ٩٨].

قال عبد الرزاق[٢]: أنبأنا إسرائيلُ، عن أبى سِنانٍ، عن عبد الله بن أبى الهُذَيْلِ، سمعتُ ابن عباسٍ يقولُ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ﴾ قال: لَـمَّا خَرَجَت العِيرُ هاجت ريحٌ، فجاءت يعقوبَ بريحِ قميصِ يوسفَ فقال: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيامٍ. وكذا رواه الثَّوريُّ وشعبةُ وغيرهما، عن أبى سنانٍ به.

وقال الحسنُ البصريُّ: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخًا، وكان له منذ فارقه

(١) «البداية» (١/ ٢٥٦).

(٢) سنده صحيح: رواه عبد الرزاق (١٣٤٣)، وابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨، ٥٩).

ثمانون سنة.

وقولُهُ: ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تقولون إنما قلت هَذَا من الفَنَد، وهو الخَرَفُ وكِبَرُ السِّنِّ. قَالَ ابنُ عباس وعطاءٌ ومُجاهدٌ وسعيدُ بنُ جُبَير وقتادةُ: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تُسفِّهونِ. وقال مجاهدٌ أيضًا والحسنُ: تُهَرِّمُونِ.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾ قَالَ قتادةُ: قالوا له كلمةً غليظةً.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي: بمجرَّدِ ما جاء ألقَى القميصَ عَلَى وجهِ يعقوبَ فرجَع مِن فَوْرِه بصيرًا بعد ماكان ضريرًا. وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلمُ أن الله سَيجمعُ شملي بيوسفَ، وستَقَرُّ عيني به، وسَيُرِيني فيه ومنه ما يَسُرُّني.

فعند ذَلِكَ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عَزَّ وَجَلَّ عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنِهِ، وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيَّتِهم التوبةُ قبل الفعلِ، وفَّقهم الله للاستغفار عند وقوعِ ذَلِكَ منهم.

فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا، وما عليه عوَّلوا قائلًا: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ عمرُو بنُ قيس وغيره: أرجأهم إلى وقتِ السَّحرِ.

قال ابن جرير[١]: حدثني أبو السائبِ، حدثنا ابنُ إدريسَ، قَالَ: سمعتُ عبدَ الرحمن بن إسحاق يَذكُرُ عن مُحارب بن دِثَارٍ قال: كان عمٌّ لي يأتي المسجدَ فسمع إنسانًا يقول: «اللَّهمَّ دعَوتَني فأجبتُ، وأمرتَني فأَطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي»، قال: فاستمع إلى الصوتَ فإذا هو من دارِ عبدِ الله بن مسعودٍ، فسأل عبد الله عن ذَلِكَ فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السَّحَر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، وقد قَالَ الله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**».

---

(١) فيه مبهم، وهو عمٌّ محارب، كذا قَالَ محقق «البداية» ط. دار ابن رجب.

وقد ورد في حديثٍ: أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلةِ الجُمُعةِ. قَالَ ابن جرير: حدثني المثنى؛ قال: حدثنا سُليمانُ بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقيُّ، حدثنا الوليدُ، أنبأنا ابنُ جُرَيْجٍ، عن عطاءٍ وعكرمةً عن ابنِ عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: «حتَّى ليلةُ الجمعة، وهو قولُ أخي يعقوب لبنيه». وهذا غريبٌ من هَذَا الوجهِ، وفي رفعِهِ نظرٌ. والأشبهُ أن يكونَ موقوفًا عَلَى ابن عباسٍ رضي الله عنهما[١][٢].

عباد الله...

وفي القصّة بقيّة، نلتقي معها في الخُطبة التالية إن شاء الله تعالى.

اللَّهمَّ اغفر وارْحم، واعْفُ وتكرَّم، وتجاوز عَمَّا تعلم، إنَّكَ أنت الأعزُّ الأكرم.

آمين... آمين... آمين.

❖❖❖❖❖

(١) ثبت موقوفًا عليه، - رَضِيَ الله عَنْهُ -.

(٢) «البداية» (١/ ٢٥٧، ٢٥٨) باختصار.

الخطبة الثلاثون:

وفاة يوسف عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة يوسف عليه السلام.

عباد الله...

تحرَّك يعقوب عليه السلام بأولاده من الشام متجهًا إلى مِصْرَ حيث يوسف عليه السلام.

ويعجز اللِّسان والبنانُ عن وصف ما حدث في هَذَا اللِّقاء.

ونترك المجال لكلام الله المُعجز، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي

مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩٩- ١٠١]

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «هَذَا إخبارٌ عن حالِ اجتماعِ المتحابِّين بعدَ الفُرقةِ الطويلةِ الَّتِي قيل: إنها ثمانون سنةً، وقيل: ثلاثٌ وثمانون سنةً، وهما روايتان عن الحسنِ(١)، وقيل: خمسٌ وثلاثون سنةً. قاله قتادةُ(٢).

وظاهرُ سياقِ القصَّة يرشدُ إلى تحديدِ المدةِ تقريبًا، فإنَّ المرأة راوَدته وهو شابٌّ ابنَ سبعَ عشرةَ سنةً فيما قاله غيرُ واحدٍ، فامتنَع فكان في السِّجنِ بضعَ سنين، وهي سبعٌ عند عِكرمةَ وغيرِه، ثُمَّ أُخرج فكانت سنواتُ الخِصبِ السبع، ثُمَّ لَـمَّا أمحلَ الناسُ في السبعِ البواقى، جاء إخوتُهُ يَمتارون في السنةِ الأولى وحدَهم، وفى الثانيةِ ومعهم أخوه بنيامينُ، وفى الثالثة تَعَرَّف إليهم وأمَرَهم بإحضار أهلِهم أجمعين، فجاءوا كلُّهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ واجتمع بهما خصوصًا وحدَهما دونَ إخوتِهِ، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قيل: هَذَا من المقدَّم والمؤخَّرِ؛ تقديرُهُ: قال: ادخلوا مِصْرَ وآوى إليه أبويه. وضعَّفه ابنُ جريرٍ وهو معذورٌ. وقيل: بل تلقَّاهما وآواهما في منزلِ الخيام، ثُمَّ لَـمَّا اقتربوا من بابِ مصرَ قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قاله السُّدِّيُّ، ولو قيل إن الأمر لا يحتاجُ إلى هَذَا أيضًا، وإنه ضُمِّنَ قولُهُ: ﴿ادْخُلُوا﴾ بمعنى اسكنوا مصر، أو أقيموا بها، ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ لكان صحيحًا مليحًا أيضًا.

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: كانت أمُّه قَدْ ماتت كما هو عندَ علماءِ التوراةِ.

وقال بعضُ المفسرين: فأحياها الله تعالى.

---

(١) صحيح إليه: وراهما ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٠).
(٢) حسن إليه: رواه ابن أبي حاتم (١١٩٩٩)، قاله محققا «البداية».

وقال آخرون: بل كانت خَالَته «ليا» والخالةُ بمنزلةِ الأمِّ.

وقال ابنُ جرير وآخرون: بل ظاهرُ القرآن يقتضي بقاءَ حياةِ أمِّه إلى يومئذٍ، فلا يُعوَّلُ عَلَى نقلِ أهلِ الكتابِ فيما خالفه. وهذا قويٌّ واللَّـهُ أعْلَمُ.

ورفَعهما عَلَى العرشِ، أي: أجلَسهما معه عَلَى سريره، ﴿وَخَرُّوا لَـهُ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر، تعظيمًا وتكريمًا. وكان هَذَا مشروعًا لهم، ولم يزل ذَلِكَ معمولًا به في سائر الشرائع حتى حُرِّم في مِلَّتنا.

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هَذَا تعبيرُ ما كنتُ قَصَصتُهُ عليك من رؤيتي الأحدَ عشر كوكبًا والشمسَ والقمرَ، حينَ رأَيْتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانِها، ووعَدتني ما وعَدتني عند ذلك. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾أي: بعد الهمِّ والضِّيقِ، جعلني حاكمًا نافذَ الكلمة في الدِّيار المصريةِ حيث شئتُ. ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية، وكانوا يسكنون أرض العَرَبَات من بلادِ الخليلِ ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: فيما كان مِنْهُمْ إليه من الأمر الذى تقدَّم وسبق ذكره.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: إذَا أراد شيئًا هيَّأ أسبابه، ويسَّرها وسهَّلها من وجوهٍ لا يَهتدى إليها العباد، بل يُقدِّرُها ويُيسِّرُها بلطيفِ صُنعهِ وعظيمِ قدرتِهِ. ﴿إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ﴾ أي: بجميعِ الأمورِ ﴿الـحَكِيمُ﴾ في خلقهِ وشرعهِ وقَدَرِهِ.

ثم لَـمَّا رأى يوسف عليه السلام نِعمتَه قَدْ تمَّت، وشمله قَدْ اجتَمَع، عرف أنَّ هَذِهِ الدار لا يقر بها قَرارٍ، وأن كلَّ شيءٍ فيها ومَن عليها فانٍ، وما بعدِ التمامِ إلا النقصانُ، فعند ذَلِكَ أثنى عَلَى ربِّه بما هو أهلُهُ، واعترَفَ له بعظيمِ إحسانهِ وفضلِهِ، وسأل منه - وهو خَيرُ المسئولين - أن يَتوفَّاه، أي: حينَ يَتوفَّاه عَلَى الإسلام، وأن يلحقه بعبادهِ الصَّالحين، وهكذا كما يقالُ في الدُّعاء: اللَّهُمَّ أحيِنا مسلمين وتَوفَّنا مسلمين[1]، أي: حينَ تَتوفَّانا.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني.

ويحتملُ أَنَّهُ سأل ذَلِكَ عندَ احتضارِهِ ﷺ، كما سأل النبيُّ ﷺ عند احتضارِهِ أن يَرفَعَ رُوحَهُ إلى الملأ الأعلى والرُّفقَاء الصالحين من النبيين والمرسلين، كما قال: «اللَّهُمَّ في الرَّفيق الأعلى» ثلاثًا[١]. ثُمَّ قَضَى.

ويَحتملُ أن يُوسفَ ﷺ سأل الوفاةَ عَلَى الإسلام مُنجزًا في صحةِ بدنه وسلامتِهِ، وأن ذَلِكَ كان سائغًا في مِلَّتهم وشِرعَتهم، كما رُوِى عن ابنِ عباسٍ[٢] أنه قال: ما تَمَنَّى نَبيٌّ قطُّ الموت قبلَ يوسفَ.

فأمَّا في شريعتنا فقد نُهِيَ عن الدُّعاء بالموتِ إلا عند الفتنِ؛ كما في حديث مُعَاذٍ في الدعاء الذى رواه أحمدُ[٣]: «وإذا أردت فِتنةً، فتوفَّنا إليكَ غيرَ مَفْتونين».

وفى الحديث الآخر: «ابن آدمَ، الموتُ خيرٌ لك من الفتنة»[٤].

وقالت مريم عليها السلام: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

وتَمَنَّى الموتُ عليُّ بن أبى طالب، لما تَفاقَمت الأمورُ وعظُمَت الفتنُ واشتدَّ القتالُ، وكَثُر القِيلُ والقالُ.

وتمنى ذَلِكَ البخاريُّ أبو عبد الله صاحبُ «الصحيح»، لَـمَّا اشتدَّ عليه الحالُ ولَقِيَ مِن مُخالِفيه الأهوالَ.

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيَ الْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

والمراد بالضر هاهنا، ما يَخصُّ العبد في بدنه؛ مِن مرض ونحوه، لا في دينه.

والظاهر أن نبيَّ الله يوسف ﷺ سأل ذلك، إما عند احتضارِهِ، أو إذَا كان

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) منقطع: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٣).
(٣) حسن: رواه أحمد وغيره.
(٤) حسن: رواه أحمد وغيره، قاله محققا «البداية» ط. دار ابن رجب.

ذَلِكَ أن يكونَ كذلك.

وقد ذكر ابنُ إسحاق عنِ أهلِ الكتاب: أن يعقوبَ أقام بديارِ مصرَ عند يوسفَ سبعَ عشرةَ سنةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ ﷺ. وكان قَدْ أوصى إلى يوسفَ ﷺ أن يُدفَنَ عند أبويه إبراهيمَ وإسحاق.

قال السُّدِّيُّ: فصَبَره وسيَّره إلى بلاد الشامِ فدفَنه بالمغارةِ عند أبيه إسحاقَ وجَدِّه الخليلِ عليهم السلام.

وعند أهل الكتابِ: أن عُمُرَ يعقوبَ يَومَ دخَل مصرَ مائةٌ وثلاثون سنةً.

وعندَهم أَنَّهُ أقام بأرضِ مِصْرَ سبعَ عشرة سنةً، ومع هَذَا قالوا: فكان جميعُ عمره مائةً وأربعين سنةً.

هذا نصُّ كتابهم وهو غَلطٌ: إما في النُّسخة، أو مِنْهُمْ، أو قَدْ أسقَطوا الكَسْرَ وليس بعادتِهم فيما هو أكثرُ من هذا، فكيف يستعملون هَذِهِ الطَّريقة هاهنا؟ وقد قَالَ تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. فوصى بنيه بالإخلاص، وهو دينُ الإسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب: أَنَّهُ أوصى بنيه واحدًا واحدًا، وأخبرهم بما يكونُ من أمرِهم، وبشَّر يهوذا بخروج نبيٍّ عظيم من نَسْلهِ تُطيعُهُ الشُّعوب، وهو عيسى ابنُ مريم. واللَّـهُ أعْلَمُ.

وذكروا: أَنَّهُ لَـمَّا مات يعقوب بكَى عليه أهل مِصْرَ سبعين يومًا، وأمر يُوسفُ الأطباءَ فطيَّبوه بطِيب ومكَث فيه أربعين يومًا.

ثم استأذنَ يوسفُ مَلِكَ مِصْرَ في الخروج مع أبيه لِيدفنَهُ عند أهلِهِ، فأَذن لَهُ، وخرج معه أكابرُ مصرَ وشيوخُها. فلما وصلوا حبرونَ دفنوه في المغارة التى كان اشتراها إبراهيمُ الخليلُ من عفرون بن صخر الحيثيِّ، وعملوا له عَزَاءً سبعة أيام.

قالوا: ثُمَّ رجعوا إلى بلادهم، وعزَّى إخوةُ يوسفَ يوسفَ في أبيهم، وترقَّقوا له فأكرمهم وأحسنَ مُنقلَبَهم، فأقاموا ببلاد مصر، ثُمَّ حضرتَ يوسف ﷺ

الوفاة، فأوصَى أن يُحملَ معهم إذَا خرجوا مِن مصرَ فيُدفن عندَ آبائه. فحنَّطوه ووضعوه في تابوتٍ، فكان بمصر حتى أخرجه معه مُوسَى عليه السلام، فدفنه عند آبائه كما سيأتي.

قالوا: فمات وهو ابنُ مائة سنةٍ وعشرِ سنين. هَذَا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابنُ جرير أيضًا.

وقال مبارك بنُ فَضَالةَ[١] عن الحسن: أُلقيَ يُوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً، وغاب عن أبيه ثمانين سنةً، وعاش بعد ذَلِكَ ثلاثًا وعشرين سنةً، ومات وهو ابنُ مائةِ سنةٍ وعشرين سنةً. وقال غيرُهُ: أوصى إلى أخيه يهوذا» ا.هـ[٢].

عباد الله...

انتهى كلام ابن كثير ملخَّصًا، وتعمدت الإكثار من النقل عنه، لأنه كما قَالَ الشيخ محمد أبو شهبة: فارس الحلبة في هَذَا الشأن.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فعن أبي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه قال: أَتَى النَّبِيُّ، أَعْرَابِيًا فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: «**ائْتِنَا**»، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَلْ حَاجَتَكَ**»، قَالَ: نَاقَةٌ نَرْكَبُهَا، وَأَعْنُزٌ يَحْلِبُهَا أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه: «**أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَما عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

فقال ﷺ: «**إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، ضَلُّوا الطَّرِيقَ،**

---

(١) **صحيح**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧١) قاله محققا «البداية».
(٢) «البداية» (١/ ٢٥٨/ ٢٦١) باختصار.

فَقَالَ: مَا هٰذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ، لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ أَنْ لا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ، حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ؟ قَالَ: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ، قالَتْ: حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذٰلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ موضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: انْضِبُوا[(١)] هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوهُ، فَقَالَتْ: احْتَفِرُوا، فَاحْتَفَروا فَاسْتَخْرَجُوا عِظَامَ يُوسُفَ[(٢)]، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا إِلَى الأَرْضِ وَإِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ»[(٣)].

قَالَ الألبانيّ - رحمه الله تعالى -: «كنت استشكلت قديمًا قوله في الحديث: «عِظَامَ يُوسُفَ» لأنه يتعارض بظاهره مع الحديث الصحيح: «إِنَّ الله حرَّم عَلَى الأرضِ أن تأكل أجساد الأنبياء»»، حتى وقفت عَلَى حديث ابن عمر - رَضِي الله عَنْهُما - أنَّ النّبيَّ لَـمَّا بدنَ قَالَ له تميم الداريّ: ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله يجمع أو يحمل عظامك؟ قَالَ: «بلى» فاتخذوا له منبرًا[(٤)].

فعلمت منه أَنَّهُمْ كانوا يطلقون «العظام» ويريدون البدن كله، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ أي: صلاة الفجر، فزال الإشكال والحمد لله» ا.هـ.

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام قصّة يُوسفُ عليه السلام، سائلًا المولى جلّت قدرته لي ولكم التوفيق لطاعته.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(١) أي: جفّفوا.
(٢) أي: البدن كاملًا، وهذا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.
(٣) **صحيح**: أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٤، ٤٠٥) وغيره، وصححه الألباني، والأخ/ مجدي فتحي السيد.
(٤) أخرجه أبو داود (١٠٨١) بإسنادٍ جيد على شرط مسلم.

الخطبة الحادية والثلاثون:

مع نبيٍّ الله يونس عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيِّ الله يونس بن مَتَى عليه السلام.

عباد الله...

قَالَ الله تعالى في سورة «يونس»: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وقال تعالى في سورة «الصافات»: **﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ * فَالتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾** [الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].

وقال تعالى في سورة «القلم»: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾** [القلم: ٤٨ - ٥٠]

قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى، من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزوجل، فكذبوه وتمردوا عَلَى كفرهم وعنادهم، فلما طال ذَلِكَ عليه من أمرهم خَرَجَ من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهدٌ وسعيد بن جبير وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلمّا خَرَجَ من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا عَلَى ما كان مِنْهُمْ إلى نبيِّهم، فلبسوا المُسُوحَ وفرَّقوا بين كل بهيمة وولدها، ثُمَّ عجوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، ورغت الإبل وفُصلانُها، وخارت البقر وأولادها، وثَغَتِ الغنم وحُملانُها وكانت ساعة عظيمة هائلة.

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته، عنهم العذاب الذى كان قَدْ اتصل بهم سببه، ودار عَلَى رءوسهم كقطع الليل المظلم. ولهذا قَالَ تعالى: **﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾** أي: هلّا وُجدَت فيما سلف من القرون قريةٌ آمنت بكمالها؟! فدَلَّ عَلَى أنه لم يقع ذلك، بل كما قَالَ تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾** [سبأ: ٣٤].

وقوله: **﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**

وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي: آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هَذَا الإيمان في الدار الآخِرَة، فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ عَلَى قولين: الأظهر من السياق: نعم. واللَّـهُ أعْلَمُ، كما قَالَ تعالى: ﴿لَـمَّا آمَنُوا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ وهذا المتاع إلى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخرويّ، واللَّـهُ أعْلَمُ.

والمَقْصُودُ: أَنَّهُ عليه السلام لَـمَّا ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينةً في البحر فلجَّت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون، عَلَى ما ذكره المفسِّرون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم عَلَى أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة القوة من السفينة ليتخففوا منه. فلما اقترعوا وقعت القرعة عَلَى نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانيةً فوقعت عليه أيضًا، فشمَّر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك. ثُمَّ أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَـمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْـتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٢].

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر، وبعث الله عَزَّ وَجَلَّ حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذَلِكَ الحوت حوت آخر أكبر منه.

قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قَدْ مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حيٌّ فخرَّ لله ساجدًا وقال: يا ربِّ اتخذتُ لك مسجدًا في موضع لم يعبدك أحد في مثله.

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه.

فقال مجالد عن الشعبيِّ(١): التقمه ضحى ولفظه عشيَّةً.

---

(١) أثر ضعيف.

وقال قتادة[١]: مكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق سبعة أيام. ويشهد له شعر أمية بن أبى الصَّلت:

وأنت بفضلٍ منك نجيتَ يونسا وقد باتَ في أضعاف حوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبى الحسن[٢] وأبو مالك[٣]: مكث في جوفه أربعين يومًا.

واللَّـهُ أعْلَمُ كم مقدار ما لبث فيه.

والمَقْصُودُ: أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجيَّة، ويقتحم به لجج الموج الأجاجيِّ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضينَ السبع وما بينها، وما تحت الثرى. فعند ذَلِكَ وهنالك، قَالَ ما قَالَ بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزَّة والجلال، الذى يعلمُ السّرَّ والنَّجوى، ويكشفُ الضُرَّ والبلوى، سامعُ الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيَّاتِ وإن دقَّت، ومجيبُ الدعوات وإن عظمت، حيث قَالَ في كتابه المبين، المنزَّل عَلَى رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين وربُّ العالمين وإله المرسلين: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَـهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ**﴾.

وقوله: ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ أي: أي نضيِّق عليه.

وقيل معناه: نقدِّر، من التقدير وهى لغة مشهورة، قدر وقدَّر، كما قَالَ الشاعر:

فلا عائدٌ ذاك الزمان الذى مضى تباركت؛ ما تقدر يكن، فلك الأمرُ

﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ قَالَ ابن مسعود، وسعيد بن جبير، والحسن وقتادةُ: ظلمةُ الحوت وظلمةُ البحر وظلمةُ اللَّيل.

(١) أثر ضعيف.

(٢) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٧٩).

(٣) انظر السابق.

وقال سالم بن أبى الجعد: ابتلع الحوت حوتٌ آخرُ فصارت ظلمةُ الحوتين مع ظلمةِ البحر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: معناه: فلولا أنه سبَّح الله هنالِك، وقال ما قَالَ من التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه، والرجوع إليه، للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذَلِكَ الحوت. هَذَا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه.

وقيل معناه: فلولا أنه كان من قبل أخذ الحوت له من المسبِّحين أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرًا. قاله الضحاكُ بن قيسٍ، وابنُ عباس، ووهبُ بن منبِّهٍ، وسعيد بن جبيرٍ، والضحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، وعطاءُ بن السائب، والحسنُ البصريُّ، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ويشهد لهذا ما رواه الإمامُ أحمد وبعض أهل السُّنَنِ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قَالَ له: «يَا غُلاَمُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟» فَقُلْتُ: بَلَى فَقَالَ: «احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللَّهِ...» (١) الحديث.

وروى ابن جرير في تفسيره، والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قَالَ سمعت أبا هريرة يقول: قَالَ رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحمًا ولا تكسر له عظمًا.

فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هَذَا تسبيح دواب البحر.

قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفًا بأرض غريبة! قال: ذَلِكَ عبدى يونس، عصاني فحبسته في بطن

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي بنحوه.

الحوت في البحر.

قالوا: العبد الصالح؛ الذى كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم.

قال فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قَالَ الله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» هَذَا لفظ ابن جرير إسنادًا ومتنًا.

ثم قَالَ البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هَذَا الوجه بهذا الإسناد. كذا قال.

وقد قَالَ ابن أبى حاتم في تفسيره: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى وهب، حدثنا عمى، حدثنى أبو صخر، أن يزيد الرقاشى قال: سمعت أنس ابن مالك، ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول: «**إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فأقبلت هَذِهِ الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة.**

فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا: يا ربنا ! أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء». ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به.

زاد ابن أبى حاتم: قَالَ أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هَذَا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قَالَ شجرةُ الدَّباء، قَالَ أبو هريرة: وهيَّأ الله له أرويَّةً وحشيةً تأكل من خشاشِ الأرض، أو قال: هشاش الارض، قال: فتفسخ عليه فترويه من لبنها كلَّ عشيَّةٍ وبكرةٍ حتى نبت.

وقال أميَّةُ بن أبى الصَّلت في ذَلِكَ بيتًا من شعره:

فأنـبت يقطيـنا علـيه بـرحمة ... مـن الله لـولا الله ألفـي ضـاحيًا

وهذا غريب أيضًا من هَذَا الوجه.

ويزيد الرقاشيُّ ضعيفٌ، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدِّم؛ كما يتقوى ذاك بهذا، واللَّـهُ أعْلَمُ.

وقد قَالَ الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار، بل هو عار منها، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن.

قال ابن مسعود[١]: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السُّدِّيُّ[٢]، وابن زيد[٣]: كهيئة الصَّبيِّ حين يولد، وهو المنفوس ليس عليه شيء.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قَالَ ابن مسعودٍ[٤] وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حِكَمٌ جَمَّةٌ؛ منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثيرٌ وظليلٌ، ولا يقربه ذبابٌ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيًّا ومطبوخًا، وبقشره وببزره أيضًا. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

وتقدَّم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأرويَّة التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البريّة، وتأتيه بكرةً وعشيةً.

وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه.

ولهذا قَالَ تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ أي: الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وهذا صنيعنا بكلِّ مؤمنٍ دعانا واستجار بنا» ا.هـ[٥].

عباد الله...

وقال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى -: «قوله تعالى في آيات «الصافات» المذكورة ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: حين أبق، وهو من قول العرب: عبد آبق، لأن

---

(١) صحيح إليه.
(٢) أثر صحيح.
(٣) أثر صحيح.
(٤) أثر صحيح.
(٥) «البداية» (١/ ٢٧٤ - ٢٧٩) باختصار.

يونس خَرَجَ قبل أن يأذن له ربه، ولذلك أطلق عليه اسم الإباق. واستحقاق الملامة في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ لأن المليم اسم فاعل ألام إذَا فعل ما يستوجب الملام. وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة. لأنه خَرَجَ له السهم الَّذِي يلقى صاحبه في البحر. ومن ذَلِكَ قول الشاعر:

قتلنا المدحضين بكل فج ... فقد قرت بقتلهم العيون

وقوله ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي طرحناه، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل. والعراء: الصحراء. وقول من قال: العراء الفضاء أو المتسع من الأرض، أو المكان الخالي أو وجه الأرض راجع إلى ذلك، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها ... ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وشجرة اليقطين: هي الدباء. وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي مريض لما أصابه من التقام الحوت إياه، وقال تعالى في «القلم». ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ فاجتباه رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين﴾ [القلم: ٤٨-٥٠] فقوله في آية «القلم» هذه: ﴿إِذْ نادى﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غماً، كما قَالَ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم﴾ وهو قول ابن عباس ومجاهد. وعن عطاء وأبي مالك ﴿مَكْظُومٌ﴾: مملوء كرباً. قَالَ الماوردي: والفرق بين الغم والكرب: أن الغم في القلب. والكرب في الأنفاس. وقيل ﴿مَكْظُومٌ﴾ محبوس. والكظم: الحبس. ومنه قولهم: كظم غيظه، أي حبس غضبه، قاله ابن بحر. وقيل: المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد انتهى من القرطبي.

وآية «القلم» المذكورة تدل عَلَى أن نبي الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عِجل بالذهاب ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطبًا نبينا ﷺ فيها: ﴿فاصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت﴾ [القلم: ٤٨] الآية. فإن أمره لنبينا صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل عَلَى أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي. وقصة يونس، وسبب

ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب التفسير. وقد بين تعالى في سورة «يونس»: أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى الَّتِي بعثت إليهم الرسل، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقوله تعالى في هَذِهِ الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل عَلَى أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعيًا بإخلاص، إلا نجاه الله من ذَلِكَ الغم، ولا سيما إذَا دعا بدعاء يونس هذا. وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص ﷺ: أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: في دعاء يونس المذكور: «**لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له**» رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم.

والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى، لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاءه المؤمنين.

وقوله ﴿نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى. وقرأ عامة القراء السبعة غير ابن عامر وشعبة عن عاصم ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ بنون واحدة مضمومة بعدها جيم مكسورة مشددة فياء ساكنة. وهو عَلَى هَذِهِ القراءة بصيغة فعل ماض مبني للمفعول من نجى المضعفة عَلَى وزن فعل بالتضعيف. وفي كلتا القراءتين إشكال معروف. أما قراءة الجمهور فهي من جهة ا لقواعد العربية واضحة لا إشكال فيها، ولكن فيها إشكال من جهة أخرى، وهي: أن هَذَا الحرف إنما كتبه الصحابة في المصاحف العثمانية بنون واحدة، فيقال: كيف تقرأ بنونين وهي في المصاحف بنون واحدة؟ وأما عَلَى قراءة ابن عامر وشعبة فالإشكال من جهة القواعد العربية، لأن نجى عَلَى قراءتها بصيغة ماض مبني للمفعول، فالقياس رفع ﴿المؤمنين﴾ بعده عَلَى أنه نائب الفاعل، وكذلك القياس فتح نون «نجى» لا إسكانها.

وأجاب العلماء عن هَذَا بأجوبة: منها ما ذكره بعض الأئمة، وأشار إليه ابن هشام في باب الإدغام من توضيحه: أن الأصل في قراءة ابن عامر وشعبة «ننجي»

بفتح النون الثانية مضارع نجى مضعفاً، فحذفت النون الثانية تخفيفاً. أو ننجي بسكونها مضارع أنجى وأدغمت النون في الجيم لاشتراكهما في الجهر والانفتاح والتوسط بين القوة والضعف، كما أدغمت في «إجاصة وإجانة» بتشديد الجيم فيهما، والأصل «إنجاصة وإنجانة» فأدغمت النون فيهما. والإجاصة: واحدة الإجاص.

قال في القاموس: الإجاص بالكسر مشدداً: ثمر معروف دخيل، لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة، الواحدة بهاء. ولا تقل انجاص، أو لغية.ا.هـ. والإجانة. واحدة الأجاجين. قَالَ في التصريح: وهي بفتح الهمزة وكسرها.

قال صاحب الفصيح: قصرية يعجن فيه ويغسل فيها. ويقال: إنجانة كما يقال إنجاصة، وهي لغة يمانية فيهما أنكرها الأكثرون ا هـ. فهذا وجهان في توجيه قراءة ابن عامر وشعبة، وعليهما فلفظة «المؤمنين» مفعول به لـ«ننجي».

ومن أجوبة العلماء عن قراءة ابن عامر وشعبة: أن «نجى» عَلَى قراءتها فعل ماض مبني للمفعول، والنائب عن الفاعل ضمير المصدر، أي نجى هو أي الإنجاء، وعلى هَذَا الوجه فالآية كقراءة من قرأ ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً﴾ [الجاثية: ١٤] الآية، ببناء «يجزي» للمفعول والنائب ضمير المصدر، أي ليجزي هو أي الجزاء ونيابة المصدر عن الفاعل في حال كون الفعل متعديًا للمفعول ترد بقلة، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وقابل من ظرف أو من مصدر ... أو حرف جر بنيابة حرى

ولا ينوب بعض هَذا إن وجد ... في اللفظ مفعول به وقد يرد

ومحل الشاهد منه قوله: «وقد يرد» وممن قَالَ بجواز ذَلِكَ الأخفش والكوفيون وأبو عبيد. ومن أمثلة ذَلِكَ في كلام العرب قول جرير يهجو أم الفرزدق:

ولو ولدت قفيرة جرو كلب ... لسب بذلك الجرو الكلابا

يعني: لسب هو أي السب.

وقول الراجز:

لم يعن بالعلياء إلا سيدا ... ولا شفى ذا الغي إلا ذو هدى

وأما إسكان ياء «نجي» عَلَى هَذَا القول فهو عَلَى لغة من يقول من العرب: رضي، وبقي بإسكان الياء تخفيفاً. ومنه قراءة الحسن ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا ﴾ [البقرة: ٢٧٨] بإسكان ياء «بقي» ومن شواهد تلك اللغة قول الشاعر:

خمر الشيب لمتي تخميرا وحدا بي إلى القبور البعيرا

ليت شعري إذ القيامة قامت ودعي بالحساب أين المصيرا

وأما الجواب عن قراءة الجمهور فالظاهر فيه أن الصحابة حذفوا النون في المصاحف لتمكن موافقة قراءة ابن عامر وشعبة للمصاحف لخفائها، أما قراءة الجمهور فوجهها ظاهر ولا إشكال فيها، فغاية الأمر أنَّهُمْ حذفوا حرفًا من الكلمة لمصلحة مع تواتر الرواية لفظًا بذكر الحرف المحذوف والعلم عند الله تعالى» ا.هـ[١].

عباد الله...

وهذا الدُّعاء الَّذِي دعا بِهِ يُونس ﷺ ليس خَاصًّا به، بل هو عامٌّ للمؤمنين بفضل ربِّ العالمين.

يدُّل عَلَى ذَلِكَ ما يلي:

عن سعيد بن المسيِّب، قَالَ: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول[٢]: «**اسم الله الَّذِي إذَا دُعيَ به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: دعوةُ يُونس بن متَّى**» قَالَ: فقلتُ: يا رسول الله هي ليونس خاصَّة أم لجماعة المسلمين؟ قَالَ: «**هي ليونس خاصَّةً، وللمؤمنين عامَّةً إذَا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** الأنبياء: ٨٧، ٨٨] **فهو شرطٌ من الله لمن دعاه به**» وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ أَبِى إِسْحَاقَ الهَمْدَانِيُّ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ حَدَّثَنِى وَالِدِى مُحَمَّدٌ عَنْ أَبِيهِ

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ١٦٣ - ١٦٥).

(٢) صحيح بمجموع طرقه: رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٢).

سَعْدٍ قَالَ: مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فِى الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلأَ عَيْنَيْهِ مِنِّى ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَىَّ السَّلاَمَ فَأَتَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ حَدَثَ فِى الإِسْلاَمِ شَىْءٌ؟ (مَرَّتَيْنِ) قَالَ: لاَ، وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ إِلاَّ أَنِّى مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ آنِفًا فِى الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلأَ عَيْنَيْهِ مِنِّى ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَىَّ السَّلاَمَ.

قَالَ: فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى عُثْمَانَ فَدَعَاهُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ رَدَدْتَ عَلَى أَخِيكَ السَّلاَمَ؟ قَالَ عُثْمَانُ: مَا فَعَلْتُ. قَالَ سَعْدٌ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: حَتَّى حَلَفَ وَحَلَفْتُ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ ذَكَرَ فَقَالَ: بَلَى، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ إِنَّكَ مَرَرْتَ بِى آنِفًا وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِى بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لاَ وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إِلاَّ تَغَشَّى بَصَرِى وَقَلْبِى غِشَاوَةٌ.

قَالَ: قَالَ سَعْدٌ: فَأَنَا أُنَبِّئُكَ بِهَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِىٌّ فَشَغَلَهُ حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاتَّبَعْتُهُ فَلَمَّا أَشْفَقْتُ أَنْ يَسْبِقَنِى إِلَى مَنْزِلِهِ ضَرَبْتُ بِقَدَمِى الأَرْضَ فَالتَفَتَ إِلَىَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ؟». قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «فَمَهْ». قَالَ: قُلْتُ لاَ وَاللهِ إِلاَّ أَنَّكَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ ثُمَّ جَاءَ هَذَا الأَعْرَابِىُّ فَشَغَلَكَ. قَالَ «نَعَمْ دَعْوَةُ ذِى النُّونِ إِذْ هُوَ فِى بَطْنِ الْحُوتِ ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِى شَىْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ لَهُ»(١). رواه الترمذيُّ، والنِّسائيّ، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعيد به.

فيا مَن نزل به كربٌ أو غَمٌّ أو هَمٌّ، ارفع يديك لمولاك وقل: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

يُستجاب لك، بفضل الله ورحمته.

فالحمد لله عَلَى فضله، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) صحيح بمجموع طرقه: رواه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥) وغيرهما.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقبل أن نختم خطبة اليوم، نذكر بعض فضائل يونس عليه السلام.

قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[١].

وعن أبي هريرةَ في قصّة المسلم الَّذِي لطم وجه اليهوديّ حين قَالَ: لا والذي اصطفى مُوسَى عَلَى العالمين، أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «.... وَلاَ أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٢]. أي: ليس لأحد أن يُفضّل نفسه عَلَى يونس.

وفي رواية: «لا ينبغي لأحد أن يُفَضِّلَني عَلَى يُونَس بن مَتَّى».

«وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين»[٣].

عباد الله ...

وبهذا نأتي إلى ختام هَذِهِ القصّة، سائلًا المولى تبارك وتعالى لي ولكم التوفيق لطاعته.

❖❖❖❖❖

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩٠)، والبخاري (٣٦٠٣) بلفظ: «ما ينبغي لأحد...».
(٢) رواه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٦١٠٢).
(٣) «البداية» (١/ ٢٨٠).

الخطبة الثانية والثلاثون:

مع نبيِّ الله مُوسَى بن عمران ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله مع نبيّ الله **مُوسَى** ﷺ.

وهو مُوسَى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم - عليهم السلام.

عباد الله...

كان بنو إسرائيل قَدْ سكنوا أرض مِصْرَ منذ ذَلِكَ الوقت الَّذِي دخل فيه نبيُّ الله يعقوب وأولاده مصر، حين استدعاهم يُوسف ﷺ من أرض الشام.

وعاش بنو إسرائيل مع المصريين جنبًا إلى جنب، فلما جاء فِرعَون تسلَّط عَلَى

بني إسرائيل بالقهر وتفنن في إذلالهم، وعاملهم معاملة العبيد، واستخدمهم في الأعمال الشاقة، حتى أَلِفُوا الذُّل والمسكنة. وظهر فيهم هَذَا واضحًا بعد ذَلِكَ.

ثم ماذا؟

ذكر السُّدِّيُّ عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أَنَّ فِرعَون رأى في منامه كأن نارًا قَدْ أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مِصْرَ وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل.

فلما استيقظ هاله ذَلِكَ فجمع الكهنة والحزأة والسحرة وسألهم عن ذَلِكَ فقالوا: هَذَا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مِصْرَ عَلَى يديه.

فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوَّان - أي من بني إسرائيل - حذرًا من وجود هَذَا الغلام، ولن يُغني حذرٌ من قدرٌ.

والمَقْصُودُ: أَنَّ فِرعَون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد مُوسَى، حتى جعل رجالًا وقوابل يدورون عَلَى الحبالى ويعلمون ميقات وضعهنّ، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب: أَنَّهُ إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذَا غالبوهم أو قاتلوهم، وهذا فيه نظر بل هو باطلٌ، وإنما هَذَا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة مُوسَى، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ**﴾ [غافر: ٢٥].

ولهذا قالت بنو إسرائيل لُموسَى: ﴿**أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فالصحيح: أن فِرعَون إنما أمر بقتل الغلمان أولًا حذرًا من وجود مُوسَى. هَذَا والقدر يقول: «يا أيها الملك الجبَّار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قَدْ حكم العظيم الَّذِي لا يُغالب ولا يُمانع ولا يُخالف أقداره، إنَّ هَذَا المولود الَّذِي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النُّفوس ما لا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلَّا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الَّذِي تتبناه وتربيّه وتتعهده، ولا تطلع عَلَى سرّ معناه، ثُمَّ يكون هلاكك في

دنياك وأخراك عَلَى يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن ربّ السموات والأرض هو الفعَّال لما يريد، وأنه هو القويُّ الشديد ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشيئة الَّتِي لا مردّ لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فِرعَون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشي أن تتفاني الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فوعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن مُوسَى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أُمّه به ذرعًا واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخاييل الحبل، فلما وضعت أُلهمت أن اتخذت له تابوتا فربطته في حبل وكانت دارهما متاخمة للنيل، فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذَلِكَ التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قَالَ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

قال القُرطبيُّ - رحمه الله -: «اختُلف في هَذَا الوحي إلى أمّ مُوسَى، فقال قتادة: كان إلهامًا. وقال مقاتل: أتاها جبريل بذلك، فعلى هَذَا هو وحي إعلام لا إلهام.

وأجمع الكلّ عَلَى أنها لم تكن نبيّة[١]، وإنما إرسال المَلَك إليها عَلَى نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور[٢]، وغير ذَلِكَ مما روي من تكلم الملائكة للناس من غير نبوّة، وقد سلَّمت عَلَى عمران بن حُصين فلم يكن نبيًّا.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَخَافِي﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لا تخافي عليه الغرق، قاله ابن زيد.

---

(١) الأنبياء كلهم كانوا رجالًا، قَالَ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٧].

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم.

الثاني: لا تخافي عليه الضَّيعة، قاله يحيى بن سلَّام.

﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ فيه أيضًا وجهان:

أحدهما: ولا تحزني لفراقه؛ قاله ابن زيد.

الثاني: لا تحزني أن يُقتل؛ قاله يحيى بن سلَّام» ا.هـ[١].

وقال ابن العربي - رحمه الله - : «هذه الآية من أعظم آي القرآن فصاحةً، إذ فيها أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان» ا.هـ[٢].

قال ابن كثير - رحمه الله - : فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر عَلَى دار فِرعَون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرون عَلَى فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فِرعَون «آسية بنت مزاحم»، فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوَّيَّة والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًّا شديدًا.

فلما جاء فِرعَون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال لها فِرعَون: «أما لك فنعم، وأما لي فلا أي لا حاجة لي به». والبلاء موكل بالمنطق.

وهكذا شاءت إرادة الله أن يُرَبَّى «مُوسَى» في بيت فِرعَون، يغذّى بطعامه وشرابه، وينام عَلَى فراشه، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، إنها الإرادة الإلهية، والمعجزة الربانيّة.

عباد الله...

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ مُوسَى ﴿أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ وهو احتكام الخلْق والخُلُق وهو سنٍّ الأربعين في قول الأكثرين، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: آتاه الله حُكمًا وعلمًا، ﴿وَدَخَلَ

(١) «تفسير القرطبيُّ» (١٣/ ٢٣١، ٢٣٢).
(٢) «أحكام القرآن» (٣/ ٤٩١).

الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل: نصف النَّهار، وقيل: بين العشاءين. وكان عليه السلام له صولةٌ بسبب نسبته إلى تبني فِرعَون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قَدْ عزّوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رءوسهم بسبب أَنَّهُمْ أرضعوه.

ولما دخل مُوسَى عليه السلام المدينة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ أي: يتضاربان؛ أحدهما من قومه، والثاني من قوم فِرعَون، ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فأقبل مُوسَى عَلَى المصري ﴿فَوَكَزَهُ﴾ أي: ضربه بجمع كفه، فسقط المصريُّ عَلَى الأرض ميتًا(١)، ولم يرد مُوسَى قلته بالكليّة وإنما أراد زجره وردعه ومع هَذَا ندم مُوسَى وقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، ثُمَّ طلب من ربّه العفو والمغفرة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وأصبح مُوسَى عليه السلام ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ من فِرعَون وملائه أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليهم أمره أَنَّهُ هو الذي قتله ، فبينما هو كذلك إذَا ذَلِكَ الرَّجُلُ الإسرائيلي ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي: يصرخ به ويستغيثه عَلَى آخر قَدْ قاتله فعنَّفهُ مُوسَى ولامهُ عَلَى كثرة شرِّه ومخاصمته، قَالَ له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾أي: عندما أراد أن يبطش بذلك القبطي الَّذِي هو عدوٌّ لمُوسَى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم عَلَى ذَلِكَ وأقبل عَلَى القبطي، ظن الإسرائيلي أَنَّهُ يريده هو، فقال: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

فاشتهر بذلك أمره، وعُرف خبره، وعلم فِرعَون أن مُوسَى هو قاتل ذَلِكَ المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه، وسبقهم رجلٌ ناصح من طريق أقرب، وقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

فخرج مُوسَى إلى مدين، ومكث هناك، والتقى بشعيب الرَّجُلُ الصالح،

(١) قَالَ ابن كثير: كان القبطيّ المصري كافرًا مشركًا بالله العظيم.

وتزوّج بإحدى ابنتيه، ثُمَّ عاد، ولما مرّ عَلَى جبل الطور، أوحى الله إليه بالرسالة، وأمره أن يذهب إلى فِرعَون يدعوه إلى الله، ويرسل معه بني إسرائيل، ليخرج مُوسَى بهم من مِصْرَ إلى فلسطين، وطلب مُوسَى من ربّه أن يجعل له وزيرًا من أهله «هارون عليه السلام». فاستجاب الله له؛ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَـهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

وعن تفصيل ما حدث لُموسَى عليه السلام مِن ساعة خروجه من مِصْرَ إلى مدين ورجوعه إلى مِصرَ، يقول الحق سبحانه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَـهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢١- ٢٤].

قال ابن كثير - رحمه الله - : «لَـمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بها تمالأ عليه فِرعَون ودَولتُهُ في أمرِهِ، خَرَجَ من مِصْرَ وحدَهُ، ولم يَألَف ذَلِكَ قَلبَهُ، بَل كانَ في رَفَاهيةٍ ونِعمةٍ ورئاسَةٍ، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفَّتُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: مِن فِرعَون ومَلَئِهِ. فَذَكرُوا أنَّ الله - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - بَعَثَ إليهِ ملكًا عَلَى فرسٍ، فَأرشدَهُ إلى الطَّرِيق، فاللَّـهُ أعْلَمُ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أخَذَ طَرِيقًا سَالكًا مَهْيَعًا، فَرِحَ بِذَلكَ، ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: إلى الطَّرِيق الأقوَمَ. فَفَعلَ الله بهِ ذَلِكَ، وهداهُ إلى الصِّرَاط المُستَقِيم في الدّنْيَا والآخِرَة، فجعل هاديًا مهديًّا.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: ولَمَّا وصل إلى مَديَنَ وَوَردَ ماءَهَا، وكان لها بئرٌ تَرِدُهُ رعاءُ الشَّاءِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي: جماعة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تُكفكفَانِ غَنمهما أنْ تَرِدَ مَعَ غَنَم أُولئِكَ الرِّعاءِ لئلَّا يُؤذَيا. فلما رآهُمَا مُوسَى - عليه السلام - رقَّ لهما ورحِمهُمَا، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما خَبَرَكُما لا تَرِدانِ مع هَؤُلاءِ؟ ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: لا يَحصُلُ لنا سَقي إلَّا بعد فراغِ هَؤُلاءِ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فَهذَا الحالُ المُلجِئُ لنا إلى ما تَرَى. قَالَ

الله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾.

عن عمر بن الخطاب، ﷺ، أن مُوسَى - ﷺ - لما وَرَدَ ماءَ مَديَنَ، وجَدَ عليهِ أُمَّة مِنَ النَّاس يَسقُون، قال: فَلَمَّا فَرَغُوا أعادُوا الصَّخرة عَلَى البئر، وَلَا يُطِيقُ رَفعُهَا إلَّا عشرةُ رجالٍ، فإذَا هُوَ بِامرأتَينِ تَذُودَانِ، قَالَ: مَا خَطبُكُمَا؟ فَحَدَّثتاه، فَأَتى الحَجَرَ فَرفعَهُ، ثُمَّ لم يَستَقِ إلَّا ذَنُوبًا واحدًا حَتَّى رَوِيتِ الغَنَمَ. إسنادٌ صَحِيحٌ.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ابن عباس: سَارَ مُوسى من مِصْرَ إلى مَديَنَ، لَيسَ لَهُ طعامٌ إلَّا البَقلُ وورَقُ الشَّجَرِ، وكانَ حَافيًا فَمَا وَصَلَ مَدْيَن حَتَّى سَقطَت نَعلُ قَدَمِيهِ. وجَلسَ فِي الظِّلِّ وهُوَ صَفوَةُ الله مِن خَلقِهِ، وإنَّ بطنَهُ للاصِقٌ بظهرِهِ مِنَ الجُوعِ، وإنَّ خُضرَةَ البَقلِ لتُرى مِن دَاخِلِ جَوفِهِ، وإنَّهُ لُمحتاجٌ إلى شِقِّ تَمرةٍ.

وقَولُهُ: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قيل: جَلسَ تَحتَ شَجَرةٍ». ا.هـ.

عباد الله...

يواصل القرآن الكريم الحديث عمَّا حدث فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥ - ٢٨].

قال ابن كثير - رحمه الله - : «لَـمَّا رَجعتِ المرأتانِ سَريعًا بالغَنَم إلى أبيهمَا، أنكَرَ حَالَهُمَا ومجِيئهمَا سَريعًا، فَسألهُمَا عَن خَبرهمَا، فَقصَّتَا عَليهِ مَا فَعَلَ مُوسَى - ﷺ - فَبعثَ إحداهُمَا إليهِ لِتَدعُوهُ إلى أبيها، قَالَ الله تَعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مشي الحَرائِرِ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: جَاءَت تَمشِي عَلَى استحياءٍ، قَائلةً بِثوبِهَا عَلَى وَجهِهَا، ليسَت بِسلفَع وَلَاجَة خَرَّاجة. هَذَا إسنادٌ صَحيحٌ.

قال الجُوهَريُّ: السَّلفَعُ مِنَ الرَّجُلِ: الجَسُورُ، ومِنَ النِّساءِ: الجَريئَةُ السَّليطَةُ،

ومِن النُّوق: الشَّديدَةُ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهَذَا تَأَدُّبٌ في العِبَارةِ، لم تَطلبْهُ طَلبًا مُطلقًا لِئَلَّا يُوهِمَ رِيبَةً، بَل قَالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني: لِيُثيبَكَ ويُكافِئكَ عَلَى سَقيكَ لِغَنمِنَا، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: ذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِن أمرِهِ، وَمَا جَرى لَهُ مِنَ السَّبَب الَّذي خَرَجَ مِن أجلِهِ مِن بَلدِهِ، ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. يقول: طِبْ نَفسًا وَقرّ عَينًا، فَقدْ خَرجتَ مِن مَملكتِهم فَلَا حُكْم لهم في بِلادِنَا. ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقَدْ اختلَفَ المفسِّرُون في هَذَا الرَّجُل: مَنْ هُوَ؟ عَلَى أقوالٍ: أحدُهَا: أَنَّهُ شُعيبٌ النَّبيُّ عليه السلام الَّذِي أُرسِلَ إلى أَهلِ مَديَنَ. وهَذَا هُوَ المشهُورُ عِند كَثير مِن العُلماء، وقَدْ قالهُ الحَسَنُ البَصريُّ وغَيرُ واحِدٍ.

وقال آخرونَ: بَلْ كان ابنُ أَخِي شُعيبٍ. وقيلَ: رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَوم شُعيب. وقال آخرون: كان شُعيبٌ قَبلَ زَمانِ مُوسَى - عليه السلام - بِمُدَّةٍ طَويلَةٍ؛ لأَنَّهُ قَالَ لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٩٥]. وقَدْ كَانَ هَلاكُ قَومِ لُوطٍ في زَمَنِ الخليلِ - عليه السلام - بنَصِّ القُرآنِ، وقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ كانَ بَيْنَ مُوسَى والخَليلِ - عَلَيهمَا السَّلامُ - مُدَّةٌ طَويلَةٌ تَزيدُ عَلَى أَربَعمائَةِ سَنةٍ، كَما ذَكَرَهُ غَيرُ وَاحِدٍ. وَمَا قِيلَ: إنَّ شُعيبًا عَاشَ مُدَّةً طَويلةً، إنَّما هُوَ -واللَّـهُ أعْلَمُ- احترازٌ مِن هَذَا الإشْكَالِ، ثُمَّ مِنَ الْمُقَوِّي لِكونِهِ لَيسَ بِشُعيبٍ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ إيَّاه لأَوْشَكَ أن يَنُصَّ عَلَى اسمِهِ في القُرآنِ هَاهُنَا. ومَا جَاء في بَعضِ الأَحَاديثِ مِنَ التَّصريحِ بِذِكرِهِ في قِصَّةِ مُوسَى لم يَصِحَّ إسنادُهُ، كَمَا سَنذكُرُهُ قَريبًا إنْ شاءَ الله. ثُمَّ مِن الموجودِ في كُتُبِ بَنِي إسرائيلَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ اسمه: «ثِيرونَ»، واللَّـهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ أي: قالت إحدَى ابنتَي هَذَا الرَّجُلِ. قِيلَ: هي الَّتِي ذَهَبت وراءَ مُوسَى - عليه السلام - قَالت لأَبِيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: لرعْيةِ هِذهِ الغَنَم.

قَالَ عَددٌ مِن العُلماءِ: لَـمَّا قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ قَالَ لها

أبوها: وما عِلمكِ بذلكَ؟ قَالت لَهُ: إنَّهُ رَفعَ الصَّخرةَ الَّتِي لا يُطِيقُ حَمَلها إلَّا عشرةُ رِجالٍ، وإنِّي لَـمَّا جِئتُ مَعهُ تَقَدمتُ أمامهُ، فقال لي: كُوني مِن وَرَائي، فَإِذَا اختَلَفَ الطَّرِيق فاحذفِي لي بِحصَاةٍ أعلَمُ بِهَا كَيفَ الطَّرِيقُ لأهتَدِي إليهِ.

وقَولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي: طَلبَ إليه هَذَا الرَّجُلُ الشَّيخ الكَبير أنْ يَرعَى غَنَمهُ ويُزَوِّجُهُ إحدى ابنَتَيهِ هَاتَيْنِ. ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: عَلَى أنْ تَرعَى غَنَمي ثَمانِي سِنِينَ، فَإِنْ تَبَرَّعتَ بِزِيادَةِ سَنَتينِ فَهُو إلَيكَ، وإلَّا ففي الثَّمانِ كِفايةٌ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لا أُشاقُّكَ، وَلاَ أُؤَاذِيكَ، وَلَا أُمَارِيكَ.

وقولُهُ تَعَالى إخبارًا عَن مُوسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، يقول: إنَّ مُوسَى قَالَ لِصِهرهِ: الأمرُ عَلَى ما قُلتَ مِن أنَّك استأجَرتَني عَلَى ثَمانِ سِنينَ، فإنْ أَتممتُ عَشرًا فَمِن عِندي، فأنا مَتَى فَعلتُ أقلَّهُمَا فَقَد بَرِئتُ مِن العَهدِ، وخَرجتُ مِنَ الشَّرطِ؛ ولِهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: فَلا حَرجَ عَليَّ مَعَ أنَّ الكَامِلَ -وإن كان مباحًا - لكنَّهُ فَاضِلٌ من جهةٍ أخرى، بدَليلٍ مِن خَارج. كما قَالَ تَعَالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقَالَ رَسولُ الله ﷺ لِحَمزةَ بنِ عَمرٍو الأسلميِّ رضي الله عنه وكَانَ كَثيرُ الصِّيام، وسَأَلَهُ عن الصَّوم فِي السَّفَرِ -فقال: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ»[1]، مَعَ أَنَّ فِعَلَ الصِّيام رَاجِحٌ مِن دليلٍ آخرِ. هذا؛ وقَدْ دَلَّ الدَّليلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى عليه السلام - إنَّما فَعَلَ أكمَلَ الأجلَيْنِ وأتَمَّهُمَا.

قال البُخاريُّ[2]: عَنْ سَعيدِ بنِ جُبيرٍ قال: سَألَنِي يَهُوديٌّ مِن أهلِ الحِيرَةِ: أيُّ الأجَلينِ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلتُ: لا أدرِي حَتَّى أقدُمَ عَلَى حَبْرِ العَرَبِ فأسأَلَهُ. فَقَدمتُ عَلَى ابنِ عَبَّاس - رَضِي اللّـهُ عَنْهُمَا - فسألتُهُ ، فقال: قَضَى أكثَرُهُمَا وأطيبُهُمَا، إنَّ رَسولُ الله إذَا قَالَ فَعَلَ.

---

(١) رواه البخاري (١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١).

(٢) رواه البخاري (٢٦٨٤).

وعَن أنسٍ بن مَالكٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا دَعَا نبيُّ الله مُوسى -عليه السلام- صَاحِبهُ إلى الأجَلِ الَّذِي كَانَ بَينهُما قَالَ لَهُ صَاحِبهُ: كُلُّ شاةٍ وَلَدت عَلَى غَيرِ لَونِهَا ذَلِكَ وَلَدُها لك فَعَمد مُوسى فَرَفعَ حِبالًا عَلَى الماءِ، فلمَّا رأتِ الخَيَالَ فَزِعت فَجَالت جَولةً، فَوَلدنَّ كُلُّهنَّ بُلقًا إلَّا شاةً واحدةً، فَذَهبَ بأوْلَادِهنَّ ذَلِكَ العَامَ». ا.هـ.

أيها المسلمون...

وقضى مُوسَى عليه السلام الأجل، وعاد إلى أرض مصر، وبينما هو عائدٌ وبالتحديد عند جبل الطور، حدث ما قصَّهُ القُرآن.

قَالَ تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرعَون وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [القصص: ٢٩- ٣٢].

قال ابن كثير – رحمه الله –:

قَدْ تَقَدَّم فِي تَفْسِيرِالآية قَبلهَا: أنَّ مُوسَى عليه السلام، قَضَى أتمَّ الأجَلينِ وأوفاهُمَا وأبَرَّهمَا وأكمَلهُمَا وأنقَاهُمَا، وقَدْ يُستفادُ هَذَا أيضًا مِن الآيةِ الكَريمةِ حَيثُ قَالَ تَعَالى ﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ**﴾ أي: الأكمَلَ مِنهُمَا والله أعلَمُ.

وقوله: ﴿**وَسَارَ بِأَهْلِهِ**﴾ قالوا: كَانَ مُوسَى قَدْ اشتاق إلى بِلادِهِ وأهلِهِ، فَعَزَمَ عَلَى زِيَارتِهم فِي خُفيَةٍ مِن فِرعَون وقَومِهِ، فَتَحمَّلَ بِأهلِهِ ومَا كَانَ مَعهُ مِن الغَنَم الَّتِي وَهبَهَا لَهُ صِهرُهُ، فَسلَكَ بِهِم فِي لَيلةٍ مَطيرةٍ مُظلمَةٍ باردةٍ، فَنزلَ مَنزلًا فَجعلَ كُلَّما أورَى زَنْدَهُ لا يُضيءُ شيئًا، فَتَعجَّبَ مِن ذَلكَ، فَبينَمَا هُو كَذلكَ إذْ ﴿**آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا**﴾ أي: رأى نارًا تُضِيء لَهُ عَلَى بُعد، فـ﴿**قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾ أي: حتى أذهب إليها، ﴿**لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ**﴾. وذلك لأنَّهُ قَدْ أضلّ الطَّرِيق، ﴿**أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ**﴾ أي: قطعة منها، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ أي: تَتَدفَّئُون بها من

البَردِ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ﴾ أي: من جَانب الوَادي مِمَّا يَلِي الجبَلَ عَن يَمينِهِ مِن نَاحيةِ الغَرْب، كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾، فَهذا مِمَّا يُرشِدُ إلى أنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّار إلى جهة القبلَةِ، والجبلُ الغَربيُّ عن يمينِهِ، والنَّار وَجدهَا تَضطَرمُ في شَجرةٍ خَضرَاءَ في لحُف الجبَلِ مِمَّا يَلِي الوادي، فَوقفَ بَاهتًا في أمرِهَا، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: ﴿مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ أي: الَّذِي يُخَاطِبُكَ ويُكلِّمُكَ هُوَ ربُّ العَالمينَ، الفَعَّالُ لما يَشاءُ، لا إلهَ غَيرُهُ، وَلا رَبَّ سِواهُ، تَعَالى وتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ عَنْ مُمَاثلةِ المخلُوقاتِ في ذَاتِهِ وصِفاتِهِ، وأقْوَالِهِ وأفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي: الَّتِي في يَدِكَ. كَمَا قَرَّرهُ عَلَى ذَلِكَ في قولِهِ تَعَالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٧، ١٨]. والمعنى: أمَا هَذهِ عَصاكَ الَّتِي تَعرفهَا؟ ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ١٩، ٢٠]. فَعرفَ وتَحقق أنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ ويُخاطبُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ للشَّيءِ: كُنْ فَيكُونُ. كما تَقَدَّم بَيَان ذَلِكَ في سُورة «طه».

وقال هَاهُنَا: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أي: تَضطَربُ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: في حَركَتهَا السَّريعةِ مَع عِظَم خِلقَةِ قَوائِمهَا واتِّساع فَمهَا، واصطِكاكِ أنيَابهَا وأضْرَاسِهَا، بحيثُ لا تَمُرُّ بصخرةٍ إلَّا ابتلعَتهَا، تَنحدِرُ في فِيهَا تَتَقعقع، كأَنَّهَا حَادرةٌ في وَادٍ. فَعندَ ذَلِكَ ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يَكُن يَلتَفِتُ؛ لأنَّ طَبعَ البَشَريَّة يَنفِرُ مِن ذَلكَ. فَلَمَّا قَالَ الله لَهُ: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾، رَجعَ فَوقَفَ في مَقَامِهِ الأوَّلِ.

ثُمَّ قَالَ الله لَهُ: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: إذَا أدخلتَ يَدكَ في جَيبِ دِرعِكَ ثُمَّ أخرَجتها فإنَّها تَخرجُ تتلألأ كَأنَّهَا قِطعةُ قَمرٍ في لمعانِ البَرقِ؛ وَلهذَا قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: مِن غير بَرَصٍ.

وقولُهُ تَعَالَى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾: قيل: مِن الفَزَع. وقيل: مِن الرُّعب. والظَّاهِرُ: أنَّ المرادَ أعَمُّ مِن هَذَا، وهُوَ أنَّهُ أُمِرَ - عليه السلام - إذَا خَافَ مِن شيء أن يَضُمَّ إليه جَناحَهُ مِنَ الرَّهبِ، وهُو يَدُهُ، فإذا فَعَل ذَلِكَ ذَهبَ عَنهُ ما يَجِدُهُ مِن الخوفِ. وربَّما إذَا استعمَل أحدٌ ذَلِكَ عَلَى سبيلِ الاقتداءِ فَوَضعَ يَدهُ عَلَى فُؤادِهِ، فإنَّهُ يَزولُ عَنهُ مَا يَجِدُ أو يَخِفُ، إن شَاء الله تَعَالى، وبِهِ الثِّقَةُ.

وقولُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: إلقاءُ العَصَا وجَعلُها حَيَّةً تَسْعَى، وإدخالُهُ يَدَهُ في جَيبِهِ فَتَخرجُ بَيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ، دَليلانِ قَاطِعان واضِحَانِ عَلَى قُدرةِ الفَاعِلِ المُختَارِ، وصِحَّة نُبُوَّة مَنْ جَرى هَذَا الخَارقُ عَلَى يَديهِ؛ ولِهَذا قَالَ: ﴿إِلَى فِرعَون وَمَلَئِهِ﴾ أي: وقَومهِ مِن الرُّؤسَاءِ والكُبراءِ والأتبَاعِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ الله، مُخالفينَ لِدِين الله» ا.هـ..

عباد الله...

ولَمَّا وصل موسى عليه السَّلامِ مِن رحلته إلى أرض الوطن، قام بأداءِ الرسالة، فأخذ هارون وذهبا إلى فرعون، ولَمَّا بلغا القصر[1] دار هذا الحِوار:

قال موسى عليه السلام لِفرعونَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

فقال فِرعونَ لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩].

فقال موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ المُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٠- ٢٢][2].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

---

(١) كان الله تعالى قد أيده بمعجزتي اليد والعصا.

(٢) قوله: ﴿وأنا مِن الضَّالين﴾ أي: قبل أن يُوحى إليّ وينزل عليّ. وقوله: ﴿وتلكَ نِعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أنْ عَبَّدت بني إسرائيل﴾ أي: وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، تقابل ما استخدمت هَذَا الشعب بكامله في خدمتك.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠].

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١]

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣]

﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥].

فقالت حاشيتهُ: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧].

قال ابن كثير - رحمه الله - : «وهذان هما البرهانان اللَّذان أيَّده الله بهما وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الَّذِي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي: عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل إن فِرعَون لما شاهد ذَلِكَ وعاينه أخذه رهب شديدٌ وخوفٌ عظيم، بحيث أَنَّهُ حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم، وكان قبل ذَلِكَ لا يتبرز في كل أربعين يومًا إلا مرة واحدة، فانعكس عليه الحال، وهكذا لما أدخل مُوسَى -عليه السلام- يده في جيبه واستخرجها أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نورًا بهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هَذَا كله لم ينتفع فِرعَون لعنه الله بشيء من ذَلِكَ بل استمر عَلَى ما هو عليه وأظهر أن هَذَا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة فأرسل

يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من اظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة عَلَى فِرعَون وملائه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنة»[١].

عباد الله...

وهكذا اهتزّ الصنم عندما شاهد الحقّ، والحمد لله ربِّ العالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلعلّ هناك مَن يسأل: ما سبب إصرار فِرعَون عَلَى كفره، بعد كلّ ما تقدَّم؟

والجواب: السبب المانع من إيمانه: الكِبْرُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤].

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بكلام نفيس للإمام الغزاليّ - رحمه الله -:

قال رحمه الله: «اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

والثاني: دفع العارض منه بالأسباب الَّتِي بها يتكبر الإنسان عَلَى غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

---

(١) «البداية» (١/ ٣٥٣).

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذَلِكَ في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله.

أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول. وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول ولكن نذكر من ذَلِكَ ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله... وقد قَالَ تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢].

فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، ثُمَّ خلقه الله من أرذل الأشياء، ثُمَّ من أقذرها إذ قَدْ خلقه من تراب، ثُمَّ من نطفة، ثُمَّ من علقة، ثُمَّ من مضغة، ثُمَّ جعله عظماً، ثُمَّ كسا العظم لحماً، فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو عَلَى أخس الأوصاف والنعوت!

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مُدَّة حياته إلى الموت. وكذلك قَالَ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ومعناه: أَنَّهُ أحياه بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولًا ونطفة ثانيًا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعدما كان فاقدًا للبصر وقوَّاه بعد الضعف، وعلَّمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال.

فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

أما آخر مورده فهو الموت ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢١، ٢٢]. ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة. ثُمَّ يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان

في الأول نطفة مذرة، ثُمَّ تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه، فيصير مفقودًا بعدما كان موجودًا. وصار كأن لم يغن بالأمس، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابًا. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره، إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة، وأرض مبدلة وجبال مسَّيرة، ونجوم منكدرة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنَّة ينظر إليها المجرم فيتحسَّر، ويرى صحائف منشورة، ويقال: هلمّ إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قَلبُهُ فزعًا من هول هَذَا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قَالَ: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، فهذا آخر أمره. وهو معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ فما لمن هَذَا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلًا عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبًا أو خنزيرًا ليصير مع البهائم ترابًا ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا أو يلقى عذابًا.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة عَلَى أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى إنه «كان يأكل عَلَى الأرض ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**»، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل» ا.هـ(١).

عباد الله...

وللحديث بقيّة، نلتقي معها في الخطبة التالية إن شاء الله تعالى.

اللَّهُمَّ أَرِنَا الحقَّ حَقًّا وارزقنا اتباعه، وأرِنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتِنَابه، ولا تجعلهُ مُلتَبِسًا علينا فَنَضِلّ.

آمين... آمين... آمين.

❖❖❖❖❖

---

(١) «الإحياء» (٣/ ٣٥٨ - ٣٦٠) باختصار.

الخطبة الثالثة والثلاثون:
إيمانُ سَحَرةِ فِرعَون واستشهادهم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصَّة مُوسَى عليه السَّلام.

عباد الله...

تقدَّم معنا أنَّ فِرعَون كذَّب بآيات ربِّه، وعصى مُوسَى عليه السلام.

ولم يقف عند هَذَا الحدِّ، بل تعدّى إلى ما هو أكبر، وهو إعلانه في الملأ أَنَّهُ ربّهم الأعلى!!

وقبل ذَلِكَ تحدَّى مُوسَى عليه السلام بالسَّحرة، فكان من قصتهم ما يلي:

قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٦- ٥٩].

يخبر تعالى عن شقاء فِرعَون وكثرة جهله وقلة عقله، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لُموسَى إن هَذَا الَّذِي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من مُوسَى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم. .

وكان هَذَا من أكبر مقاصد مُوسَى ﷺ: أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس.

ولهذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي: من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذَلِكَ ليلا في ظلام، كيما يروج عليهم محالًا وباطلًا، بل طلب أن يكون نهارًا جهرة، لأنه عَلَى بصيرة من ربّه، ويقين بأنَّ الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ [طه: ٦٠- ٦٤].

يخبر تعالى عن فِرعَون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مِصْرَ في ذَلِكَ الزمان مملوءة سحرة فضلاء، في فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع مِنْهُمْ خلق كثير وجم غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفًا. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا - كانوا سبعين ألفًا.

قلت: وهذا الذي قاله ابن عباس أقرب للصواب، والله أعلم.

وحضر فِرعَون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ ﴾.

وتقدم مُوسَى ﷺ إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطى السحر

الباطل، الَّذِي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾.

فاختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هَذَا كلام نبي وليس بساحر، وقائل مِنْهُمْ يقول: بل هو ساحر، وأسرّوا التناجي بهذا وغيره.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ يقولون: إن هَذَا وأخاه هرون، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهم أن يجتمع النَّاس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبّروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان. وهيهات! كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أنَّى يعارض البهتان، والسحر والهذيان خوارق العادات الَّتِي أجراها الدَّيان، عَلَى يدي عبده الكليم، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الَّذِي يبهر الابصار وتحار فيه العقول والاذهان! ثم حضّوا بعضهم بعضًا على التقدّم في هذا المقام، لأنَّ فرعون كان قد وعدهم ومنَّاهم وما يعدهم الشيطان إلَّا غرورًا.

ولما اصطفّ السَّحرة ووقف مُوسَى وهارون عليهما السلام تجاههم - قالوا له إما أن تلقى قبلنا، وإما أن نلقى قبلك. قَالَ: بل ألقوا أنتم، وكانوا قَدْ عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق[1] وغيره، من الآلات الَّتِي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابًا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك.

فعند ذلك سحروا أعين النَّاس[2] واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيِّهم

(١) وفي «أضواء البيان» (٣/ ٢٧): وقد قَالَ غير واحد: إنهم جعلوا الزئبق على الحبال والعصى، فلما أصابها حرّ الشمس تحرّك الزئبق فحرك الحبال والعصى، فخيّل للناظرين أنها تسعى.

(٢) قَالَ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - : «والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين: أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخييل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما =

وهم يقولون: بعزة فرعون إنَّا لنحن الغالبون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ [طه: ٦٦، ٦٧]. أي: خاف على النَّاس أن يُفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى ما في يده، فإنَّهُ لا يضع شيئًا قبل أن يُؤمر، فأوحى الله إليه: ﴿لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

فلما ألقى موسى عليه السلام عصاهُ، صارت حيَّة عظيمة ذات قوائم - فيما ذكره غير واحدٍ من السَّلف - وعنقٌ عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث أنَّ النَّاس انحازوا منها، وهربوا سراعًا وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحِبال والعصى فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا في أسرع ما يكون من الحركة، والنَّاس ينظرون إليها ويتعجّبون منها.

وأما السّحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا عَلَى أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم.

فعند ذَلِكَ وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هَذَا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الَّذِي ابتعث هَذَا المؤيد به بالحق.

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأراح

= له حقيقة، قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذه الآية تدل على أَنَّهُ شيء موجود له حقيقة تكون سببًا للتفريق بين الرجل وامرأته، وقد عبَّر الله عنه بـ ﴿ما﴾ الموصولة وهي تدل على أَنَّهُ شيء له وجود حقيقي.
ومما يدل على ذلك أيضًا: قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهنّ وينفثنّ في عقدهنّ، فلولا أن السِّحر حقيقةٌ لم يأمر الله بالاستعاذة منه، وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدَّالة على أن له حقيقة، والآيات الدالة على أَنَّهُ خيال». «أضواء البيان» (٣/ ٢٦).

عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشو عقوبة ولا بلوى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

قال سعيد بن جبير - رحمه الله - وغيره: لَـمَّا سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فِرعَون وتهديده ووعيده.

وذلك لأنَّ فِرعَون لما رأى هؤلاء السحرة قَدْ أسلموا وأشهروا ذكر مُوسَى وهارون في الناس عَلَى هَذِهِ الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمرا بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس: ﴿آمَنتُمْ لَـهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، أي: هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي؟ ! ثُمَّ تهدد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد قائلا: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذا الَّذِي قاله من البهتان الَّذِي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله عَلَى الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن مُوسَى لم يره هؤلاء يوما من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الَّذِي علمهم السحر؟

ثُمَّ هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فِرعَون هو الَّذِي استدعاهم، واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مِصْرَ والأطراف.

ثم هدد - لعنه الله - السَّحرة قائلًا: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. يعني: يقطع اليد اليمنى والرَّجُل اليسرى وعكسه، ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ليجعلنهم مثلة ونَكالا لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملته.

فقال السّحرة بلسان اليقين ومنطق الحقّ المبين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الـحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّـهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

وفي سورة الشعراء قالوا: ﴿لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا

رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١].

وبدأ فرعون - لعنه الله - في تنفيذ جريمته، فأعدّ لهم ما وعدهم به من تقطيع لأيديهم وأرجلهم، وصلبهم، فلما عاينوا الموت قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، أي: ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هَذَا الجبَّار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد.

وقالوا أيضًا يعظونه ويخوّفونه بأس ربه العظيم: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]. يقولون له: فإيَّاك أن تكون مِنْهُمْ، فكان منهم.

قوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥] ، أي: المنازل العالية، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٦] ، فاحرص أن تكون مِنْهُمْ فحالت بينه وبين ذَلِكَ الأقدار الَّتِي لا تغالب ولا تمانع، وحكم العلى العظيم بأن فِرعَون - لعنه الله - من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحميم.

ويقال له عَلَى وجه التقريع والتوبيخ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

قال الإمام ابن كثير: والظاهر من هَذِهِ السياقات أن فِرعَون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن عباس - رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا -: كانوا من أوَّل النَّهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة.

عباد الله...

وهكذا انتصر الإيمان عَلَى قوى الجبروت والطغيان.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

لما أسلم السَّحرة الذين استنصروا بهم، لم يزدهم ذَلِكَ إلا كفرًا وعنادًا، بل وحرّض الملأ فِرعون على موسى وشعب بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ - ١٢٩].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فِرعَون، وهم الأمراء والكبراء، أنَّهُمْ حرَّضوا ملكهم فِرعَون عَلَى أذيّة نبيّ الله مُوسَى ﷺ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به، بالكفر والرد والأذى. قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يعنون - قبحهم الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنَّهى عن عبادة ما سواه، فسادٌ بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم الله.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: لئلا يكثر مقاتلتهم، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي: غالبون.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم هدد فرعون بقتل موسى ﷺ؛ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

قَالَ القشيري: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: ليستعن بربه، وإنِّي أخاف أن يبدل دينكم، وأخاف أن يُفسِدَ في الأرض، وكان المفسدُ هو فرعون، وهو كما قيل في المثل:

«رَمتني بدائها وانسَلَّت»، ولكن كاد له الكيد، والكائد لا يتخلّص من كيده[١].

فاستعاذ موسى بربّه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

فأعاذهُ الله منه، ونجَّاه من بطشه وكَيده.

وللحديث بقيّة إن شاء الله تعالى.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك إيمانًا يباشر قلوبنا، ويقينًا صادقًا حتى نعلم أنَّهُ لن يصيبنا إلَّا ما كتبته لنا يا ذا الجلالِ والإكرام.

آمين... آمين... آمين.

✡✡✡✡✡

(١) «لطائف الإشارات» (٣/ ٣٠٥).

الخطبة الرابعة والثلاثون:

قصّة مؤمن آل فِرعون

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قصّة مؤمن آل فِرعَون، وهي ضمن قصَّة مُوسَى عليه السلام.

عباد الله...

يخبر سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عن عناد فِرعَون وهامان وقارون لِمُوسَى عليه السلام، وإجماع أمرهم عَلَى قتل أبناء الذين آمنوا بمُوسَى، واستحياء نسائهم، وعزم فِرعَون عَلَى قتل مُوسَى.

وفي هَذَا الجوّ العصيب، يصدع رجلٌ مؤمنٌ من آل فِرعَون بالحقّ، لا يخاف إلَّا الله.

قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرعَون وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ * وَقَالَ فِرعَون ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرعَون يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرعَون مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرعَون يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرعَون سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرعَون إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ * لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ

فِرعَون سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرعَون أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر: ٢٣- ٤٦].

قَالَ الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآيات:

« يَقُولُ تَعَالى مُسَليًا لنبيِّه مُحمَّد ﷺ في تكذيبِ مَنْ كَذَّبهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَمُبَشِّرًا لَهُ بأنَّ العَاقِبَةَ والنُّصرةَ لَهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ، كَمَا جَرَى لِمُوسى بنِ عِمرَانَ عليه السلام، فإنَّ الله تَعَالى أرسَلَهُ بالآيَاتِ البيِّنَات والدَّلائل الوَاضِحاتِ، ولهَذا قَالَ تَعَالى: ﴿**بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ**﴾ والسُّلطَانُ: هُوَ الحُجَّة والبُرهَانُ، ﴿**إِلَى فِرْعَوْنَ**﴾ وَهُوَ مَلكُ القِبطِ بالدِّيار المصريَّة ﴿**وَهَامَانَ**﴾ وَهُوَ: وزيرُه في مملكتِهِ ﴿**وَقَارُونَ**﴾ وكان أكثرُ النَّاس في زَمانِهِ مَالًا وتجارةً ﴿**فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ أي: كذَّبوهُ وجعلوهُ سَاحرًا مجنونًا مموهًا كذابًا في أنَّ الله أرسله. وهذهِ كَقَولِهِ تَعَالى ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ [الذاريات ٥٢، ٥٣].

﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا**﴾ أي: بالبُرهان القَاطع الدَّال على أنَّ الله عز وجل أرسَلهُ إليهم، ﴿**قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ**﴾ وهذا أمرٌ ثانٍ من فِرعونَ بِقَتل ذُكُورِ بني إسرائيل، **أمَّا الأوَّل**: فَكان لأجل الاحترازِ مِن وُجُود مُوسى، أو لإذلالِ هذا الشَّعبِ وتقليلِ عَدَدِهم، أو لِمجمُوعِ الأمرَين، **وأمَّا الأمرُ الثَّاني**: فَلِلعِلَّةِ الثَّانية ولإهانة هذا الشَّعب، ولِكي يَتَشَاءَمُوا بِمُوسى عليه السلام، ولهَذا قالوا: ﴿**أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٢٩]. قَال قَتَادة: هَذَا أمرٌ بَعْدَ أمرٍ.

قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ**﴾ أي: ومَا مَكرُهُم وقَصدُهُم الذي هُو تَقليلُ عَدَدِ بني إسرائيل، لئلَّا يُنصَرُوا عَلَيهم إلَّا ذَاهِبٌ وهَالِكُ في ضَلَالٍ.

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ**﴾ وهَذَا عَزمٌ مِن فِرعونَ - لَعنهُ الله تَعَالى - عَلَى قَتلِ مُوسى عليه السلام أي: قَالَ لِقَومِهِ: دَعُوني حَتَّى أقتُل لكُم هَذَا،

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: لا أُبالي مِنهُ، وهَذَا في غَايةِ الجَحدِ والتَّجهرُم والعِنادِ.

وقوله - قَبحهُ الله - : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ﴾ يعني: مُوسَى، يَخشَى فِرعونُ أن يُضِلَّ مُوسَى النَّاس ويُغَيِّر رُسُومَهُم وعَاداتِهم، وهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي المَثَ: «صَارَ فِرعَونُ مُذَكِّرًا» - يعني: وَاعِظًا - يُشفِقُ على النَّاسِ مِن موسَى عليه السلام، وقَرأ الأكثَرونَ: «أنْ يُبَدِّل دِينكُم وأنْ يُظهِرَ في الأَرْضِ الفَسادَ» وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ﴾، وقرأ بعضهم: «يَظْهَر في الأرض الفسادُ» بالضم.

وقَال مُوسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾ أي: لَمَّا بَلَغهُ قَولُ فِرعَونَ ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قَالَ مُوسَى عليه السلام: استَجَرتُ بالله وعُذتُ به مِن شَرِّهِ وشَرِّ أمثَالِه، ولهذا قَال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أيُّها المخَاطَبُون ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عَنِ الحَقِّ مُجرِمٌ ﴿لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ المَشهورُ أنَّ هَذَا الرَّجُل المُؤمنَ كَانَ قِبطيًّا مِن آلِ فِرعَونَ، وقَدْ كَانَ هذا الرَّجُلُ يَكتُمُ إيمانَهُ عَن قَومِهِ القِبطِ، فَلَم يَظهَر إلَّا هذا اليَومَ حِينَ قال فِرعَونُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فأخَذَت الرَّجُلَ غَضْبَةٌ لله عز وجل- «أفضَلُ الجِهادِ كَلمَةُ عَدْلٍ عِندَ سُلطَانٍ جائرٍ»[١] - ولا أعظَم مِن هذهِ الكَلمةِ عِندَ فِرعَون، وَهِي قَولُهُ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ اللَّهُمَّ إلَّا مَا رَواهُ البُخاريُّ في «صحيحه»: «عَن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾»[٢].

وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كَيفَ تَقتُلونَ رجُلًا لِكَونِهِ

(١) حسن.

(٢) رواه البخاري (٤٨١٥).

يَقُولُ: رَبِّيَ الله، وقَدْ أَقَامَ لكُمُ البُرهَانَ عَلَى صِدقِ مَا جَاءكُم بِهِ مِنَ الحَقِّ؟ ثُمَّ تَنزَّل مَعَهُم فِي المُخَاطَبَةِ فَقَال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يَعني: إذَا لَمْ يَظهَر لكُم صِحَّة مَا جَاءَكُم بِهِ فَمِنَ العَقْلِ والرَّأي التَّامِّ والحزم أن تَترُكُوهُ ونَفسَهُ فَلَا تُؤذُوهُ، فإن يَكُ كَاذِبًا فإنَّ الله سُبحانه وتَعَالى سيُجازِيه عَلَى كَذِبهِ بالعُقُوبةِ فِي الدُّنيا والآخرةِ، وإن يَكُ صَادِقًا وقَدْ آذَيتُمُوهُ يُصِبكُم بَعضُ الذي يَعِدُكُم، فإنَّه يَتَوَعَّدكُم إنْ خَالفْتُموهُ بِعَذابٍ فِي الدُّنيا والآخرةِ، فَمِنَ الجَائزِ عِندَكُم أن يَكُونَ صَادقًا، فَينبغِي على هذَا أن لا تَتعَرَّضوا لَهُ، بَلِ أُتركُوهُ وقَومَهُ يَدعُوهُم ويَتَّبِعُونَهُ.

وهَكَذَا أخبَرَ الله عز وجل عَن مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ طَلَبَ مِن فِرعَونَ وقَومِهِ المُوَادَعَةَ فِي قَولِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧ - ٢١]، وهَكَذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِقُريشٍ أن يَتركُوهُ يَدعُو إلى الله تَعَالى عِبَادَ الله ولا يَمَسُّوهُ بِسُوءٍ ويَصِلُوا مَا بَينهُ وبَينهُم مِنَ القَرابةِ فِي تَرْكِ أذيَّتهِ، قَال الله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أي: أن لا تُؤذُوني فِيما بَيني وبَينكُم مِن القَرَابَةِ، فَلَا تُؤذُونِي وتَترُكُوا بَيني وبَين النَّاسِ، وعَلَى هَذَا وقَعَتِ الهُدنَةُ يَوم الحُديبيةِ وكَانَ فَتحًا مُبِينًا.

وقُولُهُ جَلَّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لَو كَانَ هَذَا الذي يَزعُمُ أنَّ الله تَعَالى أرسَلهُ إليكُم كَاذِبًا - كَما تَزعُمُونَ - لَكَانَ أمرُهُ بَيِّنًا يَظهَرُ لكُلِّ أحدٍ فِي أقوَالِهِ وأفعَالِهِ، فَكَانت تَكُونُ فِي غَايةِ الاختِلَافِ والاضطِرَابِ، وهذَا نَرَى أمرَهُ سَديدًا ومَنهَجَهُ مُستقيمًا، ولَو كَانَ مِنَ المُسرِفينَ الكَذَّابينَ لما هَدَاهُ الله وأرشَدَهُ إلى مَا تَرونَ مِن انتِظَام أمرِهِ وفِعلِهِ.

ثُمَّ قَال المُؤمِنُ مُحَذِّرًا قَومَهُ زَوَالَ نِعمَةِ الله عَنهُم وحُلُول نِقمَةِ الله بِهِم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: قَد أنعَمَ الله عَليكُم بِهَذَا المُلكِ والظُّهورِ فِي الأرضِ، بالكَلمةِ النَّافِذَةِ والجَاهِ العَرِيضِ، فَرَاعُوا هَذِهِ النِّعمةَ بِشُكرِ الله تَعَالى وتَصديقِ رَسُولِهِ ﷺ، واحذَرُوا نِقمَةَ الله إن كَذَّبتُم رَسُولهُ، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ

اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أي: لَا تُغنِي عَنكُم هَذِهِ الجُنُودُ وهَذِهِ العَسَاكِرُ، ولَا تَرُدُّ عَنَّا شَيئًا مِن بَأسِ الله إن أرادَنَا بِسُوءٍ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِقومِهِ رَادًّا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ البَارُّ الرَّاشِدُ، الذي كَانَ أحقَّ بالمُلكِ مِن فِرعَونَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾ أي: ما أَقُولُ لَكُم وأُشيرُ عَلَيكُم إلَّا مَا أرَاُ لِنَفْسِي، وقَدْ كَذَبَ فِرعَونُ فإنَّهُ كَانَ يَتحقَّقُ صِدقَ مُوسَى عليه السلام فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. فَقَولُهُ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾ كَذَبَ فِيهِ وافتَرَى، وخَانَ الله تَبَارك وتَعَالَى ورَسُولهُ ﷺ، ورَعِيَّتَهُ، فَغَشَّهُم ومَا نَصَحَهُم، وكَذَا قَولُهُ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: ومَا أدعُوكُم إلَّا إلى طَرِيقِ الحَقِّ والصِّدقِ والرَّشَدِ، وقَدْ كَذَبَ أيضًا في ذَلِكَ، وإن كَانَ قَومُهُ قَدْ أطَاعُوهُ واتَّبَعُوهُ.

قَال الله تَبَارك وتَعَالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تَعَالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، وفي الحَديث: «مَا مِن إمامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وهُوَ غَاشٌّ لِرعِيَّتِهِ، إلَّا لم يَرح رَائِحةَ الجَنَّة»(١)

عباد الله ...

ويواصل القُرآن الكريم الحديث عن هَذَا العبد الصَّالح، فيقول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٠- ٣٥].

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢) بنحوه.

قَالَ ابن كثير - رحمه الله - : « هذا إخبَارٌ مِن الله عز ول عَنِ هذا الرَّجُلِ الصَّالح - مُؤمِن آلِ فِرعونَ - أَنَّهُ حَذَّرَ قَومَهُ بَأسَ الله تَعَالى فِي الدُّنيا والآخِرة، فَقَال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأحْزَابِ﴾ أي: الذين كَذَّبُوا رُسُلَ الله في قَدِيمِ الدَّهر، كَقَومِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ والذين مِن بَعدهِم مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ، كَيفَ حَلَّ بِهِم بَأسُ الله؟ ومَا رَدَّهُ عَنهُم رَادٌّ ولا صَدَّهُ عَنهُم صَادٌّ. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: إنَّما أهلَكهُمُ الله تعالى بِذُنُوبِهِم وتَكذِيبِهم رُسُلَهُ ومُخَالَفَتِهم أمرَهُ، فَأنفَذَ فِيهم قَدَرَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يَعني: يَومَ القِيامَةِ، وسَمِّيَ بِذَلك، قَال بَعضُهُم: لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ: إنَّ الأرْضَ إذَا زُلزِلَت وانْشَقَّت مِن قُطرٍ إلى قُطرٍ ومَاجَت وارتَجَّت فَنَظَر النَّاسُ إلى ذَلكَ، ذَهَبُوا هَارِبِينَ يُنَادِي بَعضُهُم بَعضًا، وقَالَ آخَرُونَ مِنهُمُ الضَّحَّاكُ: بَل ذلك إذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ ذَهَبَ النَّاسُ هِرَابًا مِنْهَا، فَتَتَلقَّاهُم الملائِكَة فَترُدُّهُم إلى مَقَام المحشَرِ، وهُوَ قَولُهُ تَعَالى: ﴿وَالمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧] وقَولُهُ: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:٣٣].

وقَالَ قَتَادةُ: يُنادي كُلّ قَوم بأعمالهم، يُنَادِي أهلُ الجَنَّة أهلَ الجَنَّة، وأهلُ النَّارِ أهلَ النَّارِ، وقِيل: سُمِّيَ بِذَلك لِمُنادَاةِ أهلِ الجَنَّة أهلَ النَّار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] ومُنادَاةُ أهلِ النَّار أهلَ الجَنَّة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] ولِمُنادَاةِ أصحَابِ الأعرَافِ أهلَ الجَنَّة وأهلَ النَّارِ، كَمَا هو مَذْكُورٌ فِي سورة الأعراف. واختار البَغَوي وغَيرهُ: أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلك لِمجمُوع ذَلِك وهُو قَولٌ حسنٌ جَيدٌ، والله أعلم.

وقَولهُ تَعَالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ذَاهِبِين هَارِبين ﴿كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢] ولِهَذَا قَالَ عَز وجل: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا مَانِعَ يَمنَعُكُم مِنْ بَأسِ الله وعَذَابِهِ، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن أضَلَّهُ الله فَلَا هَادِيَ لَهُ غَيرُهُ.

وقَولُهُ تَبَارك وتَعَالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعني: أهلَ مِصرَ، قَدْ بَعَثَ الله فِيهم رَسُولًا مِن قَبلِ مُوسَى عليه السلام وهُوَ يُوسُفُ عليه السلام، كَانَ عَزيزُ أهلِ مِصرَ، وكَانَ رَسُولًا يَدعُو إلى الله تَعَالى أُمَّتَهُ بالقِسط، فَمَا أطَاعُوهُ تِلك الطَّاعةَ إلَّا بِمُجَرَّد الوَزَارَةِ والجَاهِ الدُّنيَوِيِّ، ولِهَذا قَال تَعَالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾ أي: يَئِستُم فَقُلتُم طَامِعِينَ، ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾ وذَلِك لِكُفرِهِم وتَكذِيبِهِم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: كَحَالِكُم هَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ يُضِلُّهُ الله، لإسرَافِهِ في أفعَالِهِ وارتِيَابِ قَلْبِهِ.

ثُمَّ قَالَ عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: الذينَ يَدفَعُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ، ويُجَادِلُونَ الحُجَجَ بِغَير دَليلٍ وحُجَّةٍ مَعهُم مِنَ الله تعالى، فإنَّ الله عز وجل يَمقُتُ على ذَلك أشدَّ المَقتِ، ولِهَذا قَال تَعَالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: والمؤمِنُون أيضًا يُبغِضُونَ مَن تكُونُ هَذِهِ صِفتُهُ، فإنَّ مَن كَانت هذه صِفتُهُ يَطبَعُ الله على قَلبِهِ فلا يَعرِفُ بَعد ذَلِك مَعرُوفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، ولِهَذَا قَال تَبَارك وتعَالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عَلَى اتِّبَاع الحَقِّ ﴿جَبَّارٍ﴾.

أيها المسلمون...

فهل تأثّر فرعون بهذه المواعظ التي وعظه بها مؤمنُ آل فِرعون؟

الجواب: لا. اسمعوا إلى الحقّ سبحانه وهو يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. -

قَالَ ابن كثير - رحمه الله - : «يَقُولُ تَعَالى مُخبرًا عن فِرعون وعُتوِّه وتمرُّدِهِ وافترائِهِ في تَكذِيبِهِ مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ أمرَ وَزِيرهَ هَامَان أن يَبني لَهُ ﴿صَرْحًا﴾ وهُوَ القَصرُ العَالي المُنيفُ الشَّاهِقُ، وكَانَ اتِّخاذهُ مِنَ الآجُرِّ المضرُوبِ مِنَ الطِّينِ المَشوِيِّ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولِهَذَا قَالَ

إبرَاهيمُ النَّخَعِيُّ: كَانوا يَكرَهُونَ البِنَاءَ بالآجُرِّ وأن يَجعَلُوهُ في قُبُورِهِم.

وقَولُهُ: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قَالَ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ وأَبو صَالح: أبوَابُ السَّماوَاتِ، وقيل: طُرُقُ السَّماوات، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ وهَذَا مِن كُفرِهِ وتَمَرُّدِهِ أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى عليه السلام في أنَّ الله عز وجل أرسَلَهُ إليه.

قال الله تَعَالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: بِصنعهِ هذا الذي أَرَادَ أن يُوهِمَ بِهِ الرَّعيَّةَ أنَّهُ يَعمَلُ شَيئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إلى تكذِيب مُوسى عليه السلام، ولِهَذَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ﴾ يعني: إلَّا في خَسَارٍ» ا.هـ.

ويواصل مؤمن آل فِرعون النَّصيحة، والتذكير، فيقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨ - ٤٠].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يقُولُ المؤمِنُ لِقومِهِ ممَّن تَمَرَّد وطَغَى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا، ونَسِيَ الجَبَّارَ الأعلَى، فَقَال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما كذَّبَ فِرعَونُ في قَولِهِ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ثُمَّ زَهَّدهُم في الدُّنيا التي قَدْ آثَرُوها عَلَى الأخرَى وصَدَّتهُم عن التَّصديقِ بِرَسُولِ الله مُوسى عليه السلام، فَقَال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي: قَليلةٌ زَائِلةٌ فانِيةٌ عَن قَريبٍ تَذْهَب وتَضمحِلُّ، ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ﴾ أي: الدَّارُ التي لا زَوَالَ لها ولا انتِقَالَ منها، ولا ظَعن عنها إلى غيرها، بل إمَّا نعيمٌ وإمَّا جَحيمٌ، ولِهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا﴾ أي: واحدةً مِثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقَدَّرُ بجَزَاءٍ، بل يُثيبهُ الله عز وجل ثَوابًا كثيرًا لا انقِضاءَ لَهُ ولا نَفَادَ» ا.هـ.

ويواصل وعظه، قائلًا:

وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٦].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى - : « يَقُولُ لَهُم المؤمِنُ: مَا بَالي أدعُوكُم إلى النَّجاةِ وهي عِبَادةُ الله وحدهُ لا شَريكَ لَهُ وتصديقُ رَسُولِهِ ﷺ الذي بعثَهُ، ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي: على جَهلٍ بلا دَليلٍ ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ ﴾ أي: هُو فِي عِزَّتِهِ وكبريَائِهِ يَغفِرُ ذَنبَ مَنْ تَابَ إليه، ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ يَقُولُ: حَقًّا، وقيل معنى قوله: ﴿لا جَرَمَ﴾ حَقًّا، وقيل: بلى، وقال الضحَّاك: ﴿لا جَرَمَ﴾ لا كَذبَ، وقيل: ﴿لا جَرَمَ﴾ يعني: بلى. وقال مجاهد: الوثَنُ لَيسَ لَهُ شيءٌ، وقال قَتادةُ: يَعني الوَثَنَ لا يَنفعُ ولا يَضُرُّ، وقال السُّدِّيُّ: لا يُجيبُ داعيهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخِرة، وهذا كقولهِ تَبارك وتَعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤].

وقَولُهُ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: في الدَّار الأخِرة فَيُجازِي كُلًّا بعَمَلِهِ، ولِهَذا قَال: ﴿وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي: خَالِدينَ فِيها بإسْرَافِهِم، وهُوَ شِركُهُم بالله عز وجل، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي: سَوفَ تَعلمُونَ صِدقَ مَا أمرتُكُم بِهِ ونَهيتُكُم عَنْهُ، ونَصَحتُكُم ووضَّحتُ لَكُم، وتتذَكَّرُونَهُ وتندَمُونَ حَيثُ لا يَنفَعُكُمُ النَّدمُ، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: وأتوَكَّلُ عَلَى الله وأستَعِينُهُ وأُقَاطِعُكُم وأُبَاعِدُكُم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ ﴾ أي: هو بَصيرٌ بِهم- تَعَالى وتَقَدَّس - فَيهدي مَن يَستَحِقُّ الهِدَايةَ، ويُضِلُّ مَن يَستَحِقُّ الإضلَالَ، ولَهُ الحُجَّةُ البَالِغة، والحِكمَةُ التَّامةُ، والقَدَرُ النَّافِذُ.

وقَولُهُ تَبارك وتَعَالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي: في الدُّنيا والآخِرة، أمَّا في الدُّنيا فَنَجَّاهُ الله تَعَالى مَعَ مُوسى عليه السلام، وأمَّا في الآخِرةِ فَبالجَنَّةِ،

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ﴾ وهُو: الغَرَقُ في اليَمِّ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنهُ إلى الجَحيم، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فإنَّ أرواحَهُم تُعرَضُ على النَّارِ صَبَاحًا ومَسَاءً إلى قِيام السَّاعةِ، وفإذا كَانَ يَومُ القِيَامةِ اجتَمَعَت أرواحُهُم وأجسَادُهُم في النَّار، ولِهَذَا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ أي: أشَدَّهُ ألمًا وأعظَمَهُ نَكَالًا» ا.هـ.

عباد الله ...

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

« هذه الآيَةُ أصْلٌ في استدلَالِ أهلِ السُّنَّة عَلَى عَذَابِ البَرزَخِ في القُبُورِ، وهي قَولُهُ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ .

ولَكِن هَهُنا سُؤَالٌ وهُو: أنَّهُ لا شَكَّ أنَّ هذِهِ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وقَدْ استدَلُّوا بِهَا عَلَى عَذَابِ القَبرِ في البَرزَخِ، وقَدْ رَوَى الإمامُ أحمدُ ومُسلمٌ عَنْ عائِشَةَ – رَضِي الله عنها – سَألَتها امرأةٌ يَهُوديَّةٌ فأعطَتها فقَالت لَهَا: أعاذَكِ الله مِن عَذَابِ القَبرِ، فأنكَرَت عائِشَةُ – رَضِي الله عَنهَا – ذَلِكَ، فلَمَّا رأتِ النَّبيَّ ﷺ قَالت لَهُ: فَقَال ﷺ: «لا»، قَالت عائشَةُ – رَضِي الله عَنهَا – : ثُمَّ قَالَ لَنَا رَسُولُ الله بَعدَ ذَلِكَ: «وَإنَّهُ أُوحِيَ إليَّ أنَّكُم تُفتَنُونَ في قُبورِكُم»[1]، فَيُقَالُ: فَمَا الجَمعُ بين هَذَا وبين كَونِ الآيَةِ مكيةٌ، وفيها

(١) أخرجه مسلم (٥٨٤) بنحوه، وانظر «مسند أحمد» (٦/ ٢٣٨).

الدَّلالة على عَذَابِ البَرزَخِ؟ .

والجوابُ: أنَّ الآيَةَ دَلَّت عَلَى عَرضِ الأرْوَاحِ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وعَشِيًّا في البَرزَخِ، ولَيسَ فيهَا دَلالَةٌ على اتِّصَالِ تألُّمِها بأجسَادِها في القُبورِ، إذْ قَدْ يَكُونُ ذلك مُختصًّا بالرُّوح، فأمَّا حُصُولُ ذَلِكَ للجَسد في البَرزَخِ وتألُّمه بسَببِهِ فَلَم يدلُّ عَلَيه إلَّا السُّنَّةُ في الأحاديثِ المرضِيَّةِ الآتي ذِكرُهَا.

وقَدْ يُقَالُ: إنَّ هَذِهِ الآيَةَ إنَّما دلَّت عَلَى عَذَابِ الكُفَّارِ في البَرزَخ ولا يَلزَمُ مِنْ ذَلِكَ أن يُعَذَّب المُؤمنُ في قَبرِه بِذَنْبٍ، ومِمَّا يَدُلُّ على ذَلِكَ مَا رَواهُ الإمَامُ أحمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رضِي الله عَنهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ مِنْ اليَهُودِ وَهِيَ تَقُولُ: أُشْعِرْتُ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ؟ فَارْتَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُشْعِرْتُ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ»، وَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[1].

وعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ القَبْرِ فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَذَابِ القَبْرِ فَقَالَ: «نَعَم عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ» قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي صَلَاةً بَعْدُ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[2].

وَأَحَاديثُ عَذَابِ القَبرِ كَثيرَةٌ جِدًّا.

وقَالَ قَتادَةُ في قَولِهِ تَعَالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا ومساءً مَا بَقِيتِ الدُّنيا، يُقَالُ لهم: يا آلَ فِرعونَ هَذِه مَنازِلُكُم، تَوبِيخًا ونِقمَةً وصَغَارًا لَهُم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ

(١) أخرجه مسلم (٥٨٤)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٣٨).

(٢) رواه البخاري (٣٧٢)، ومسلم (٥٨٦).

مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١] ا.هـ.

اللَّهمَّ إنَّا نسألُك فِعَل الخَيرات، وتَركَ المُنكرات، وَحُبَّ المساكين، وأن تَغفِر لنا وترحَمنا، وإذا أردتَ بِعبادِك فِتنةً، فتوفَّنا إليك منها غير مَفْتُونين.

آمين... آمين... آمين.

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

الخطبة الخامسة والثلاثون:

الموت المهين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى ﷺ.

عباد الله...

أيُّ شَعبٍ يُصاب بسذاجة في العقل، وبلادةً في الذِّهن، وضمورٍ في التفكير: تنمو في أرضه الخرافات، وتشيع فيه الخزعبلات، وتنتشر فيه الضلالات.

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وفي سورة «غافر»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كلمة فاجرة كافرة، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم، ويعتمد فيها فِرعونَ على الأساطير التي كانت سائدة في مصر مِن نسب الملوك للآلهة، ثم على القهر الذي لا يدع لرأس أن يُفكر، ولا للسان أن يُعبّر، وهم يرونه بشرًا مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هَذِهِ الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب.

ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وبلهجة التهكّم ذاتها يتظاهر بأنه شاكٌّ في صدق موسى، ولكنَّهُ مع هَذَا الشَّك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

قَالَ قَتادةُ: هو - أي فرعون - أوَّل مَن صنع الآجر وبنى به، ولمَّا أمر فِرعون وزيره هامان ببناء الصَّرح، جمع هامان العمال، وأمر بطبخ الآجر والجص ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوه وبحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه.

فحكى السُّديّ: أنَّ فِرعون صعد السطح ورمى بنُشَّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال: قد قتلتُ إله موسى.

فَرُوي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصَّرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع: قطعة على عسكر فِرعون، وقطعة في البحر، وقطعة في الغرب، وهلك كل مَن عمل فيه شيئًا[١].

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في خُسران وضلال.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٦٥).

عباد الله...

وتوالت المحن، وترادف البلاء على فِرعون وقومه عساهم أن يعودوا إلى الصواب، وتنجلي عنهم الغشاوة والغباوة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

يخبر سُبحانه وتعالى أَنَّهُ ابتلى آل فِرعون وهم قومه من القبط ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي أعوام الجدب التي لا يستغلّ فيها زرع ولا ينتفع فيها بضرع.

وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: فلم ينتفعوا ولم يرعووا بل تمرّدوا واستمرّوا على كُفرهم وعنادهم. ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]. فعند ذَلِكَ وهنالك، اشتدّ عليهم البلاء.

قَالَ الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

أما الطوفان: فعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار.

وأما الجراد: فمعروف. وقد روى أبو داود عن سلمان الفارسيّ، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «**أكثر جنود الله، لا آكله ولا أُحَرِّمه**»(١).

والمَقْصُودُ: أَنَّهُ استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعًا، ولا ثمارًا، ولا سبدًا ولا لبدًا.

وأما القُمَّل: فعن ابن عباس: هو «السوس» الذي يخرج من الحنطة، ومنه أَنَّهُ الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وبه قال مجاهد وعكرمة وقَتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي البراغيث.

وفسَّره عطاء بن السَّائب بهذا القَمل المعروف، وقرأها الحسن البصري كذلك

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨١٣)، وإسناده ضعيف.

بالتخفيف.

فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقرّ لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

وأما الضفادع: فمعروفة، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى أنَّ أحدهم إذا فتح فمه لطعامٍ أو شرابٍ سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع.

وأما الدَّم: فكان قد مزج ماؤهم كلّه به، فلا يُسقون من النيل إلَّا وجدوه دمًا عبيطًا، ولا من نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيء إلا كان دمًّا في الساعة الراهنة.

هذا كلّه لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكليّة، وهذا من تمام المُعجزة الباهرة والحجّة الدامغة القاطعة، أنَّ هذا كله يحصل لهم مِن فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحدٍ من بني إسرائيل، وفي هذا أدلّ دليل.

ومع هذا فلم يزدهم إلا طغيانًا كبيرًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

رفع موسى يديه إلى ربّه وآمَن هارون خلفه، ودعا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

عباد الله...

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢].

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فِرعَون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وإنما كان في نفس الوقت مكيدة بفِرعَون وجنوده، ليتخلصوا مِنْهُمْ ويخرجوا عنهم.

وأمرهم الله تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعيروا حليًا مِنْهُمْ، فأعاروهم شيئًا كثيرًا، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام.

فلما علم بذهابهم فِرعَون حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قَالَ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢- ٦٨].

قال علماء التفسير: لَـمَّا ركب فِرعَون في جنوده طالبًا بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثُمَّ ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة.

فعندها قَالَ أصحاب مُوسَى وهم خائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك لأَنَّهُمْ اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة، وفِرعَون قَدْ غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدده وعُدده، وهم منه في غاية الخوف والذعر، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر. فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قَدْ شاهدوه وعاينوه. فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وكان عليه السلام في الساقة، فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم

بأمواجه، ويتزايد زبد أجاجه، وهو يقول: «ها هنا أمرت». ومعه أخوه «هارون»، و«يوشع بن نون»، فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فِرعَون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذَلِكَ أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى مُوسَى الكليم: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ .

﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ .

ويقال: إنه انفلق اثنى عشر طريقًا، لكل سبط طريق يسيرون فيه، وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال، مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الَّذِي يقول للشيء كن فيكون، وأمر الله تعالى ريح الدبور[١] فلفحت حال البحر[٢] فأذهبته، حتى صار يابسًا لا يعلق في سنابك الخيول والدواب.

قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٧- ٧٩].

والمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَـمَّا آل أمر البحر إلى هَذِهِ الحال، بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر مُوسَى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدى قلوب المؤمنين.

فلما جازوه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذَلِكَ عند قدوم أول جيش فِرعَون إليه، ووفودهم عليه.

فأراد مُوسَى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفِرعَون وجنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر عَلَى هَذِهِ الحال: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: ٢٤]. أي: ساكنًا عَلَى هيئته،

(١) الدّبور: الريح الغربية وهي تفرّق السّحاب.

(٢) حال البحر أي: طين البحر.

لا تغيره عن هَذِهِ الصفة.

فلما تركه عَلَى هيئته وحالته وانتهى فِرعَون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين، هاله هَذَا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذَلِكَ من أن هَذَا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه عَلَى خروجه في طلبهم والحالة هَذِهِ حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدًا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة عَلَى أن قَالَ لمن استخفهم فأطاعوه: «انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي، الخارجين عَلَى طاعتي وبلدي»؟!

وجعل يورى في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات!

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدَّى[1] في صورة فارس راكب عَلَى رمكة[2] فمرّ بين يدي فحل فِرعَون - لعنه الله - فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر، واستبق الجواد وقد أجاد، فبادر مسرعًا، هَذَا وفِرعَون لا يملك من نفسه ضرًّا ولا نفعًا، فلما رأته الجنود قَدْ سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين، حتى همّ أولهم بالخروج منه، فعند ذَلِكَ أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر. فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج مِنْهُمْ إنسان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٥ - ٦٨].

وها هو فِرعون في وسط الأمواج تخفضه تارةً وترفعه أخرى، ولما عاين الهلكة وأحيط به، وباشر سكرات الموت، أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفسًا إيمانها.

قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا باللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ

(١) تبدّى: ظهر.
(٢) رمكة: فرس أو برذون تتخذ للنسل.

يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا دعا مُوسَى عَلَى فِرعَون وملئه، أن يطمس عَلَى أموالهم، ويشدد عَلَى قلوبهم ﴿فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم.

وقد قَالَ تعالى لهما - أي لُموسَى وهارون - حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس: ٨٩]، فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾: قَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ حَالًا مِنْ حَالِ البَحْرِ فَدَسَّيْتُهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ»[١].

وفي بعض الروايات: إن جبريل عليه السلام قال: ما بغضتُ أحدًا بُغضي لِفرعونَ حين قال: أنا ربُكم الأعلى، ولقد جعلتُ أدس في فيهِ الطِّين حين قال ما قال.

وقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١].

استفهام إنكار، ونصّ عَلَى عدم قبوله تعالى منه ذلك، لأنه - واللَّهُ أعْلَمُ - لو رد إلى الدُّنْيَا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذًا عاينوا النار وشاهدوها أنَّهُمْ يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧].

قَالَ الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وشك بعض بني إسرائيل في موت فِرعَون، حتى قَالَ بعضهم إنه لا يموت،

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب «تفسير القرآن» رقم (٤٨) بلفظ: «لَمَّا أغرق الله فِرعون قَالَ: آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر وأدسُّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة». انظر «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٣).

فأمر الله البحر فرفعه عَلَى مرتفع، قيل عَلَى وجه الماء، وقيل عَلَى نجوة من الأرض، وعليه درعه الَّتِي يعرفونها من ملابسه، ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه.

ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: مصاحبًا درعك المعروفة بك، ﴿لِتَكُونَ﴾ أي: أنت ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي: من بني إسرائيل، ودليلاً عَلَى قدرة الله الَّذِي أهلكك، ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خَلَقَكَ آيةً».

ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بجسدك مصاحبًا درعك، لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل عَلَى معرفتك، وأنك هلكت، واللَّـهُ أَعْلَمُ.

عباد الله...

وهكذا كانت نهاية مَن ادَّعى الربوبيّة، الَّذِي قَالَ: ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. فأجراها الله من فوقه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

كان هلاك فِرعون - لعنه الله - وجنوده في يوم «عاشوراء» كما روى الإمام البخاريُّ في «صحيحه» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِي الله عَنْهُما - قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا». وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما، والله أعلم.

وبهذا انتهت أسطورة الخرافة والدّجل.

قَالَ الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

اللَّهمَّ اجعلنا مِن أحَبِّ خَلْقِك إليك، ومِن المقرَّبين لديك.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

الخطبة السادسة والثلاثون:

دروس وعظات من قصّة فِرعَون

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى عليه السلام.

عباد الله...

وفي هلاك فِرعَون عدَّة دروس وعظّات، منها:

١- الغرور طريق الهلاك:

قال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له

طبقاً من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه.

وقال **الفضيل**: من أحب الرياسة لم يفلح أبدًا(١).

وقال **الفضل بن المهلّب** - رحمه الله تعالى - بعث إليَّ سليمان بن عبد الملك - أمير المؤمنين - في يوم جمعة، فقال: هل لك في الجمعة؟ قلت: ذاك يا أمير المؤمنين. قَالَ: فدعا بثياب صفُر، فلبسها ثم دعا بالمرآة فنظر، ثم نزعها، ثم دعا بثياب خُضر فلبسها، ثم دعا بالمرآة فنظر، ثم قَالَ: «أنا الملك الشاب، أنا الملك الشاب».

ثم انطلق وانطلقتُ معه، فصعد المنبر، فبينما هو يخطب، إذ عرضت له سلعةٌ(٢)، فنزل على المنبر وهو محمومٌ، فما جاءت الجمعة الأخرى حتى دُفن(٣).

لذا خاف الصالحون على أنفسهم من الغرور لعاقبة أمره، كان عطاء السّلميّ إذا سمع صوت الرَّعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض(٤)، وقال: هَذَا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح النَّاس.

٢- الكبر بريد الكفر:

الكِبر نواة الكفر، لذا جاءت الآيات والأحاديث والآثار تحذِّر منه:

- قَالَ تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر: ٣٥].

- وقال ﷺ: «**لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِن العذاب**»(٥).

- وقال ﷺ: «**يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ إِنِّى وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَبِالمُصَوِّرِينَ**»(٦).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٢).

(٢) السلعة: هي غدة تحدث فجأة، وتظهر بين الجلد واللحم، إذا غمزت باليد تحركت.

(٣) أخرجه الخرائطي (٥٨٧) في «مساوئ الأخلاق» وانظر: «أبغض الأعمال إلى الله» (٢٧، ٢٨) للأستاذ مجدي فتحي السيد.

(٤) ماخض: أتاها ألم الطَلق.

(٥) أخرجه الترمذي وحسنه دون قوله: «من العذاب».

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

- وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: التَقَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِي عَلَى المَرْوَةِ فَتَحَدَّثَا ثُمَّ مَضَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرو وَبَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: هَذَا - يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو - زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ»**.

- وسُئل سُليمان عن السَّيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: «الكبر».

- وقال النعمان بن بشير (على المنبر): «إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه: البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله».

٣- عاقبة الظلم والكفر:

يتساءل الإنسان عن الكوارث الطبيعية وغيرها التي تصيبه، فمن زلازل لا تبقي ولا تذر، ومن فيضانات تقضي على الثروة القوميّة وتشتت وتهلك الألوف، ومِن رياح هوجاء تدمّر ما أفنى الإنسان عمره في تشييده، ومِن حروب تثيرها أطماع القادة يجيء من ورائها الخراب الشامل.

يتساءل الإنسان عن أسباب ذَلِكَ كله في قرارة نفسه، ولا يجد الجواب المقنع، ويؤدي به هَذَا التساؤل إلى التشاؤم والنظر إلى الحياة بمنظار أسود يفقده هناء العيش وصفاء الاستقرار النفسي.

هَذَا التساؤل في أسباب هَذَا العذاب الذي يصيب الإنسان يجيب عليه القُرآن في عدّة مواضع منه، وفي قصّة موسى مع فرعون بالذّات ويبيّن أنَّ مِن أسبابه: الكفر والظلم واقتراف الذنوب.

ويعدّد الله أنواع الهلاك بقوله: **﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** [العنكبوت: ٤٠].

يذكر الله تعالى في هَذِهِ الآية أنواع العذاب التي أرسلها للأمم العاصية.

وفي قصّة موسى عليه السلام يقصّ علينا سبحانه وتعالى ما أصاب قوم فرعون

بسبب ظلمهم وإعراضهم عن الإيمان بقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْـحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

ويصف القرآن مآل حالهم عندما غرقوا في البحر معدِّدًا ما خلَّفوا وراءهم من بساتين وقصور وبحبوحة العيش للعبرة والعظة: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٩].

انظر إلى هَذِهِ الصورة البلاغية التي ذكرها القرآن عن مآل حالهم: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ إنها تجسّم النهاية التعيسة المفجعة للظالمين الذين لم يتأثروا، ولم يحزن عليهم أي مخلوق حتَّى الجماد لو كان ينطق.

٤- صمود العقيدة:

العقيدة السليمة إذا رسخت في النفوس وحلّت في القلوب لا تزحزحها جميعُ القوى المادية، هَذَا درس تتلقاه من سحرة فرعون عندما آمنوا برسالة موسى عن اقتناع، وعندما تلقوا تهديد فرعون الذي قَالَ لهم: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

ماذا كان جوابهم لفرعون؟

هل أرهبهم تهديده، هل أخافهم وعيده؟

كلا؛ بل أجابوه بهذا القول العظيم الذي يثير الرعشة في النفوس: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَـمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

٥- انتصار الحقّ على الباطل:

وتفيد القصّة: أنَّ الباطل مهما استعلى ووجد له أنصارًا وأعوانًا فلابُدَّ من هزيمته أخيرًا أمام الحقّ.

فهؤلاء السَّحرة الذين جاءوا بالباطل وسحروا أعين النَّاس لم يدروا أن الله

سيؤيد رسوله موسى عليه السلام بمعجزة هي أقوى من سحرهم، وهذا ما يقصّه علينا القُرآن: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧، ١١٨].

إنها وقفة قصيرة يُبيّن لنا فيه القُرآن جولة الحقّ مع الباطل الذي لم يلبث أن خرّ صريعًا.

فالسَّحرة كانوا أعلم النَّاس بباطلهم وأعرف النَّاس بالذي جاء به موسى؛ لهذا كانوا أول مَن آمن برب موسى، فتوعدهم فرعون بالتنكيل والعذاب الأليم، فما أعاروا ذَلِكَ أهمية بل أجابوه بنفوس مؤمنة أبيّة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

قَالَ الأخفش[١]: «قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين».

٦- أهمية صلاح الشعوب:

قَالَ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

فهذا النَّص القُرآني يُعلن بأنَّ لا موجب لأن تستضعف أمة غيرها وتخضعها لوقتها وسيطرتها وتستغل مواردها، فإذا فعلت ذَلِكَ كان الله في عون المستضعف فينصُرهُ، ويحرّرهُ من ربقة الاستعباد والطغيان[٢].

عباد الله ...

هذه بعض الدروس والعظات المهمّة في قصّة فرعون.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) من مشاهير النُّحاة في اللّغة العربيّة.

(٢) «مع الأنبياء في القرآن الكريم» للأستاذ عفيف طبارة، باختصار.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا سبق يتبيّن لنا: أن العاقبة للمتقين، والهلاك وسوء المصير للكافرين والمجرمين.

﴿وَاللَّـهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الخطبة السابعة والثلاثون:

قصّة بقرة بني إسرائيل

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قصَّة بقرة بني إسرائيل، وما فيها من دروس وعظّات.

عباد الله...

قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا

رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّـهُ لَـمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الـحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالـحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّـهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّـهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالـحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَـمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَـمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَـمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧- ٧٤].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «يَقُولُ تَعَالى: واذكُرُوا يا بَنِي إسرائيلَ نِعمتِي عَليكُم فِي خَرقِ العَادةِ لَكُم فِي شَأنِ البَقَرةِ، وبَيَان القَاتلِ مَنْ هُوَ بِسببِهَا وإحيَاءِ الله المَقتُولَ، ونَصُّهُ عَلَى مَنْ قَتلَهُ مِنهُم.

وَعَنْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقِيمٌ لاَ يُولَدُ لَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ ابْنُ أَخِيهِ وَارِثَهُ، فَقَتَلَهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ لَيْلاً حَتَّى أَتَى بِهِ حَيًّا آخَرِينَ فَوَضَعَهُ عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَدَّعِيهِ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَسَلَّحُوا وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ ذُو الرَّأْيِ وَالنُّهَى: عَلَى مَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ فِيكُمْ؟ فَأَتَوْهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ قَالَ: فَلَوْ لَمْ يَعْتَرِضُوا البَقَرَ لأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ أَدْنَى بَقَرَةٍ وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى البَقَرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا فَوَجَدُوهَا عِنْدَ رَجُلٍ لَيْسَ لَهُ بَقَرَةٌ غَيْرُهَا.

فَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْقُصُهَا مِنْ مِلْءِ جِلْدِهَا آَخَذُوهَا بِمِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا فَذَبَحُوهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا فَقَامَ فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: هَذَا لاِبْنِ أَخِيهِ ثُمَّ مَالَ مَيِّتًا فَلَمْ يُعطَ ابْنُ أَخِيهِ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا وَلَمْ يُوَرَّثْ قَاتِلٌ بَعْدَهُ.

وثَمَّ سِياقاتٌ أُخَر عَن أبِي العَاليَةَ والسُّدِّيِّ وغيرهم فِيها اختِلافٌ، والظَّاهِرُ أنَّ هَذهِ السِّياقاتِ مَأخُوذةٌ مِن كُتُبِ بني إسرائيلَ وَهِي مِمَّا يَجُوزُ نَقلُها، ولكِن لا تُصدَّقُ ولا تُكَذَّبُ، فَلِهَذا لا يُعتمَدُ عَلَيها إلَّا مَا وَافَقَ الحَقِّ عِندنَا، واللَّـهُ أعلمُ».

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ

بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨- ٧١].

«أخبرَ تَعَالى عَنْ تَعنُّت بني إسرائِيلَ وكَثرةِ سُؤالِهم لِرَسُولهم. وَلِهَذا لَـمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أنفُسِهِم ضَيَّقَ اللَّـهُ عَلَيهم، وَلَو أَنَّهُم ذَبحُوا أيَّ بَقرةٍ كَانت، لَوَقعتَ المَوقِعَ عَنهُم، كما قَالَ ابنُ عَبَّاس وعَبِيدَة وغَيرُ واحِدٍ، ولكِنَّهُم شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيهِم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: مَا هذِهِ البَقَرة؟ وأيُّ شَيءٍ صِفَتُهَا؟

عَنْ ابن عباس قَالَ: لَوْ أَخَذُوا أَدنَى بَقَرةٍ لاكتَفَوا بِها، ولكِنَّهُم شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيهِم.

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾ أي: لا كَبيرةٌ هَرِمَةٌ وَلَا صَغيرةٌ لم يَلحَقهَا الفَحلُ، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ يَقُولُ: نِصفٌ بَينَ الكَبيرةِ والصَّغيرةِ، وهِي أقْوَى مَا يَكُونُ مِن الدَّوابِّ والبَقَرِ وأحسَنِ مَا تَكُونُ.

عَن ابنِ عَبَّاس: مَن لَبسَ نَعْلًا صَفرَاءَ لم يَزَل في سُرُور مَا دَامَ لَابِسُهَا، وذَلكَ قَولُهُ تَعَالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. وكَذا قَالَ مجاهد، ووهب بن منبّه أنّها كانت صَفراءُ. ولهذا أكد صفرتها بأنَّهُ ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾.

وقال سَعيدُ بنُ جُبيرٍ: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قَالَ: صَافِيةُ اللَّونِ. وقيل: صَافٍ. وقيل: شَدِيدةُ الصُّفرَةِ، تَكَادُ مِنْ صُفرتِهَا تَبيضُ.

وقوله: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: لِكَثرتِهَا، فَمَيِّز لَنَا هَذِهِ البَقَرَة وَصِفهَا وحِلِّها لَنَا ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إذَا بينّتَها لَنَا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليهَا.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ﴾ أي: إنّهَا لَيْسَت مُذَلَّلةً بِالحراثَةِ وَلَا مُعدَّة لِلسَّقي في السَّاقِيَة، بَلْ هِي مُكرَّمةٌ حَسنَةٌ صَبيحَةٌ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صَحِيحَةٌ لا عَيبَ فِيها ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾ لَا بَياضَ وَلَا سَوادَ، وقيل: لَونُهَا وَاحدٌ بَهِيمٌ.

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ﴾ الآن بَيَّنْتَ لَنَا، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ كَادُوا أَلَّا يَفعلُوا، وَلم يَكُن ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، لأَنَّهُم أَرَادُوا أَلَّا يَذبَحُوها. يعني أَنَّهم مَعَ هَذَا البَيان وَهَذهِ الأسْئِلَةِ، والأُجوبَةِ، والإيضَاحِ مَا ذَبحُوهَا إِلَّا بَعْد الجَهدِ، وَفي هَذَا ذَمٌّ لَهُمَ، وَذَلكَ أَنَّهُ لم يَكُن غَرَضُهُم إِلَّا التَّعَنُّتَ، فَلِهَذا مَا كَادُوا يَذبَحُونهَا.

ثم تتابع آيات الله، فيقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ اختَلفتُم. وقيل: اختَصَمتُم فِيها. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ قَالَ بَعضُهُم: أَنْتُم قَتَلتُموهُ، وقالَ آخرونَ: بل أَنْتُم قَتَلتُموهُ. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما تُغَيِّبُون ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هَذَا البَعضُ أيّ شَيءٌ كَانَ مِن أعضَاءِ هَذهِ البَقَرَة، فَالُمعجِزَةُ حَاصِلَةٌ بِهِ وَخرقُ العَادَةِ بِهِ كَائنٌ.

وقوله تَعَالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي: فَضربُوهُ فَحَيَ. ونَبَّه تَعَالى عَلَى قُدرتِهِ وإحيائِهِ المَوتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِن أمر القَتِيل، جَعَل تَباركَ وتَعَالى ذَلِكَ الصَّنيعَ حُجَّةً لَهُم عَلَى المَعَاد، وفَاصِلًا مَا كَانَ بَينهم مِن الخُصومَةِ والعِنَادِ، والله تَعَالى قَدْ ذَكَرَ في هَذهِ السُّورَةِ مِمَّا خَلقَهُ في إحيَاءِ الموتَى، في خَمسةِ مَواضعَ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهَذِه القِصَّة، وقِصَّة الَّذين خَرجُوا مِن دِيَارِهم وَهُم أُلوفٌ حَذَرَ المَوتِ، وقِصَّة الَّذِي مرَّ عَلَى قَريَةٍ وهِي خَاويةٌ عَلَى عُرُوشها، وقِصَّة إبرَاهِيمَ عليه السلام والطُّيورِ الأرْبَعَة. ونَبَّهَ تَعَالى بِإحياءِ الأَرْضِ بَعد مَوتِها عَلَى إعادة الأجسَامِ بَعد صَيرُورَتهَا رَميمًا» ا.هـ[1].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١ - ١٠٣).

«يَقُولُ تَعَالى تَوبيخًا لِبَني إسْرَائِيل، وتَقرِيعًا لَهُم عَلَى ما شَاهَدُوهُ مِن آياتِ الله تَعَالى، وإحْيَائِهِ المَوتَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كُلِّه فَهِيَ كَالحِجَارَةِ الَّتِي لا تَلينُ أبدًا.

﴿فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فَصَارَت قُلُوب بَنِي إسرَائِيل مَعَ طُولِ الأَمَدِ قَاسيةً بَعيدةً عَن المَوعظَةِ بَعْد مَا شَاهدُوهُ مِنَ الآيَاتِ والمُعجزَاتِ، فَهِي في قَسوَتِها كَالحِجَارةِ الَّتِي لَا عِلاجَ لِلِينِهَا أَوْ أَشَدّ قَسوَةً مِن الحِجَارَةِ، فَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ مَا تَتَفَجَّرُ مِنها العُيُونُ الجَارِيَةِ بالأنْهَارِ، ومِنهَا مَا يَشَّقَّقُ فَيخرُجُ مِنهُ الماء، وإنْ لم يَكُن جَارِيًا، وَمِنَها مَا يَهبطُ مِن رَأسِ الجَبَلِ مِن خَشيةِ الله، وفِيهِ إدراكٌ لِذلكَ بِحسبِهِ، كما قَالَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقَدْ زَعَمَ بَعضُهُم أنَّ هَذَا مِن بَابِ المَجازِ؛ وهُوَ إسنادُ الخُشُوعِ إلى الحِجَارةِ كَمَا أُسنِدتِ الإِرادةُ إلى الجِدار في قَولِهِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾

قال الرَّازيُّ والقُرطبيُّ وغيرهما من الأئمَّةِ: وَلَا حَاجَةَ إلى هَذَا فإنَّ الله تَعَالى يَخلُقُ فِيهَا هَذهِ الصِّفةِ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] وقَالَ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١] الآية.

وفي الصَّحيح: «هَذَا جَبلٌ يُحِبُّنَا وَنُحبُّهُ» [(١)]، وكَحَنينِ الجِذعِ المُتواتِرِ خَبرُهُ.

وفي صَحيحِ مُسلمٍ: «إِنِّي لَأَعرَفُ حَجرًا بَمكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبعَث إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآن» [(٢)].

وفي صِفَةِ الحَجر الأسودِ أَنَّهُ يَشهَدُ لِمن استلَمَهُ بِحَقٍّ يَومَ القِيامَةِ[(٣)]، وغَير ذَلِكَ

---

(١) البخاري رقم (٥٤٢٥)، ومسلم رقم (١٣٦٥).

(٢) مسلم حديث رقم (٢٢٧٧).

(٣) عن ابن عباس - رَضِيَ الله عَنْهُما - قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ في الحَجَر الأسود: «والله ليبعثنّه الله يَومَ =

مِمَّا في مَعناهُ.

وحَكَى القُرطبيُّ قَولًا إنَّها لِلتَّخيِيرِ؛ أي: مَثَلًا لِهَذا وهَذَا، وهَذَا مِثلُ جَالِسِ الحَسَنِ أو ابنَ سِيرِينَ.

وكَذَا حَكَاهُ الرَّازيُّ في تَفسِيرِهِ وزَادَ قَولًا آخرَ: إنَّها لِلإبهَامِ بِالنِّسبَةِ إلى المُخَاطَبِ كَقَولِ القَائِلِ: أَكَلْتُ خُبزًا أَوْ تَمرًا، وهُوَ يَعْلَم أَيُّهُما أَكَلَ». ا.هـ(١).

عباد الله...

وهكذا بان لنا أن هناك أنواعًا من القلوب أشدَّ تحجّرًا من الحجارة، لا تقبل خيرًا، ولا تنتفع بموعظة، أصحابها يجادلون ولا ينتفعون!

نعوذ بالله من قلبٍ لا يخشع، ومن عينٍ لا تَدمُع، ومِن دُعاءٍ لا يُستجاب له.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي القصّة عظات وفوائد، منها:

١- التعامل مع الأوامر والنواهي الإلهيّة بالتسليم الكامل، دون تردّد ودون انتظار حتى تُعْلَم العِلّة من الأمر والنَّهي.

٢- إنَّ كثرة السؤال أمرٌ منهيٌّ عنه، فبنوا إسرائيل كما قَالَ ابن كثير: «لو أنَّهُمْ ذبحوا أي بقرة كانت، لوقعت الموقع عنهم، ولكنّهم شدّدوا فشُدِّد عليهم».

٣- أن الماكر يُعامل بنقيض قصده، وهذا واضح في قصّة ابن الأخ الذي قتل

= القيامة له عينان يُبصِرُ بهما، ولسانٌ ينطق به، يشهد على مَن استلمه بحَقٍّ». رواه الترمذي (٩٦١) وإسناده حسن.

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٤، ١٠٥).

عمِّه ليرثه.

٤- أنَّ القلوب تقسو، وبكثرة المعاصي تزداد قسوتها حتَّى تصير كالحجارة بل أشدُّ قسوة.

٥- أنَّ البَّار بأبويه مرزوق. كما تقدّم.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك نَفْسًا مطمئنةً بلقائك، وتقنعُ بعَطائِك، وتَرضى بقضائك.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

الخطبة الثامنة والثلاثون:
قصة مُوسَى مع الخضر - عليهما السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصَّة مُوسَى عليه السلام.

نلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قصّة موسى مع الخِضر عليهما السلام.

عباد الله ...

الرحلة في طلب العلم من أفضل الأعمال.

فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ العِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانِ فِي المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى**

العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وإِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» [١].

ونحن اليوم مع موسى عليه السلام في رحلة تجشَّم فيها الصِّعاب، ليزداد علمًا، وهو مَن هو في المكانة والفضل.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ نَوْفًا البَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ[٢] حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ[٣]، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا[٤] فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ[٥]، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهْوَ ثَمَّ.**

فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا ، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ ، فَخَرَجَ مِنْهُ ، فَسَقَطَ فِي البَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا[٦]، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ[٧]، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ ، نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا[٨] .

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٩١)، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٢) قوله: «عدو الله» و«كذب» محمولان على إرادة المبالغة في الزجر والتنفير عن تصديق تلك المقالة.

(٣) قيل: عند طنجة في أقصى بلاد المغرب، وقال قَتادةُ: هما بحر فارس مِمَّا يلي المشرق وبحر الروم مِمَّا يلي المغرب، قَالَ الشنقيطي: تعيين البحرين لا دليل عليه من كتاب ولا سُنة، وليس في معرفته فائدة. «أضواء البيان» (٤/ ٦٧١).

(٤) **الحوت**: السَّمكة المالحة.

(٥) **المكتل**: الزِّنبيل، والقُفّة.

(٦) **سربًا**: مسلكًا ومذهبًا يسرب فيه.

(٧) **الطاق**: ما عُطِفَ وجُعِل كالقوس من الأبنية. «المعجم الوجيز» (٣٩٨).

(٨) **النَّصب**: التعب.

قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِى أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى البَحْرِ عَجَبًا.

قَالَ: يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجًّى[١] عَلَيْهِ بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى. فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ[٢].

قَالَ: أَنَا مُوسَى.

قَالَ: مُوسَى بَنِى إِسْرَائِيلَ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ.

قَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟

قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟

قَالَ: ﴿سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

قَالَ لَهُ الخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلاَ تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

قَالَ: نَعَمْ.

فَانْطَلَقَ الخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ[٣]، فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا[٤].

---

(١) مُسجّى: مُغطّى.

(٢) أي: مِن أين السّلام في هذه الأرض التي لا يُعرف فيها السّلام. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥٢٢).

(٣) النوال: الأجر.

(٤) إمرًا: عظيمًا.

قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

قَالَ: ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾.

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ. فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَى.

قَالَ: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾. يَقُولُ مَائِلٌ. قَالَ الخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ. قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

قَالَ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ * سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى البَحْرِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. فَإِذَا جَاءَ الَّذِى يُسَخِّرُهَا وَجَدَهَا مُنْخَرِقَةً فَتَجَاوَزَهَا فَأَصْلَحُوهَا بِخَشَبَةٍ وَأَمَّا الغُلاَمُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا[١] وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ[٢] أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا[٣] ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً[٤] وَأَقْرَبَ رُحْمًا[٥] * وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾ ». إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

---

(١) هَذَا فيه حُجّة بيّنة لأهل السُّنة لصحة أصل مذهبهم في الطَّبع والرّين والحجب، وأشباه هذه الألفاظ الواردة في الشرع في أفعال الله تعالى بقلوب أهل الكفر والضلال، ومعنى ذَلِكَ عندهم: خلق الله تعالى فيها ضد الإيمان، وضد الهدى، وهذا على أصل أهل السُّنة: أن العبد لا قدرة له إلا ما أراده الله تعالى.

(٢) أدرك: بلغ.

(٣) أي: حملهما عليهما وألحقهما بهما، والطغيان هنا: الزيادة في الضلال.

(٤) زكاةً: طهارة من السُّوء أو دينًا وصلاحًا.

(٥) أقرب رُحمًا: رحمةً عليهما، وبرًّا بهما.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا».

قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا».

قَالَ « وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ثُمَّ نَقَرَ فِى البَحْرِ. فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ مَا نَقَصَ عِلْمِى وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنَ البَحْرِ» [(١)].

عباد الله...

هَذِهِ قصّة حقيقية تحكي أعجب رحلةٍ في تاريخ البشرية، بدايتها:

«أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ».

قَالَ الإمام النووي: أي: كان حقه أن يقول: الله أعلم. فإن مخلوقات الله تعالى لا يعلمها إلا هو[(٢)].

«فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِى عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْن ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِى بِهِ» وفي رواية: «اجعل لي علمًا».

«قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا» والحوت: السّمكة، وكانت سمكة مالحة[(٣)]. «فَتَجْعَلُهُ فِى مِكْتَلٍ» ، «فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ» وفي رواية: «حيث ينفخ فيه الروح». « فَهُوَ ثَمَّ» أي: هناك.

«فَأَخَذَ» موسى «حُوتًا فَجَعَلَهُ فِى مِكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ» [(٤)].

«حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا» استيقظ يوشع قبل موسى ﵇، وبينما هو جالس إذا به يرى المكتل يتحرّك حركة عنيفة، ثم يخرج الحوتُ منه ويتخذ سبيله في البحر سَربًا (مسلكًا)، يدل على ذَلِكَ: رواية البخاري: «وموسى

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥٢٠).

(٣) وهذا يعني أنها كانت ميّتة كما في الرواية التي تليها. وفي مسلم: «تزوّد حوتًا مالحًا».

(٤) أصبح بعد ذَلِكَ نبيًّا، وهو النبيُّ الذي حبس الله تعالى له الشمس.

نائم، فقال فتاه: **لا أوقظه، حتى إذا استيقظ فنسى أن يخبره»** يعني بما حدث ورأى.

وأما قوله تعالى: ﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ فقيل: نسب النسيان إليهما تغليبًا، والناسي هو الفتى[١].

«**وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ**» وهو ما عقد أعلاه من البناء وبقي ما تحته خاليًا، والمعنى: بقي الشق الذي أحدثه الحوت في الماء كما هو.

«**فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ ، نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ**» بقصة «**الحُوتِ**»، «**فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**» أي: تعبًا.

وهنا تذكَّر «يوشع» قصّة الحوت، فقال لموسى: ﴿**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ**﴾ أي: قصته وما حدث له، ﴿**وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَبًا**﴾[٢].

قَالَ الإمام النووي: قيل: إن لفظة ﴿**عَجَبًا**﴾ يجوز أن تكون من تمام كلام يوشع، وقيل: من كلام موسى، أي: قال موسى: عجبت من هذا عجبًا، وقيل: من كلام الله تعالى. ومعناه: اتخذ موسى سبيل حوت مملّح في مكتل.

عند ذلك قال موسى لفتاه: ﴿**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**﴾ أي: نطلب، وفي رواية النسائيّ: «**هذه حاجتنا**». ﴿**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾ أي: يَقُصَّا آثارهما، أي: آثار سيرهما.

حتى انتهيا إلى الصّخرة التي فعل فيها الحوت ما فعل، وأراه يوشعُ طريقَ الحوت في البحر.

إذًا هنا يوجد العبدُ الصالح الذي خرج موسى لملاقاته.

فذهب موسى عليه السلام يلتمس، «**فَرَأَى رَجُلاً مُغطى عليه بثوب**[٣] **فَسَلَّمَ عَلَيْهِ**

(١) «فتح الباري» (٨/ ٢٦٨).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥٢١).

(٣) وفي «صحيح مسلم»: «فإذا هو بالخضر مُسجّى ثوبًا، مستلقيًا على القفا».

مُوسَى. فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ[١]: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ؟» أي: من أين السلام في هَذِهِ الأرض التي لا يُعرف فيها السلام.

«قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ».

«قَالَ: فما شأنك؟ قَالَ: جئت لتعلّمني مما عُلمت رشدًا» أي: صوابًا أو إصابة خير.

«قَالَ: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأنَّ الوحي يأتيك»[٢].

«إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ» أي جميعه «وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ» أي: جميعه.

«قَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ؟» قَالَ الإمام القرطبيّ: هَذَا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ في حُسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخفّ عليك؟[٣].

«قَالَ» الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: على ما تراه من علمي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: علمًا ومعرفةً.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: سأصبر بمشيئة الله ﴿وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: قد ألزمتُ نفسي طاعتك.

«قَالَ لَهُ الخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾» أي: حتى أكون أنا الذي أفسّره لك، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصّحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب[٤].

«قَالَ» موسى «نَعَمْ».

---

(١) في الحديث: «إنما سُمِّي الخضر لأنّه جلس على فروة» أي: قطعة من الحشيش اليابس «فإذا هي تهتز تحته خضراء». رواه البخاري. والصّحيح: أنّهُ كان نبيًّا يوحى إليه، لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

(٢) هذه رواية البخاري.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٩١).

(٤) نفس المرجع (١٠/ ٣٩٢).

«فَانْطَلَقَ الخَضِرُ وَمُوسَى[١] يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ» أجر «فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ» وفي رواية: «فلما ركبوا في السفينة لم يفجأ إلَّا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم». «فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا» أي: عجبًا. وقيل: عظيمًا.

«قَالَ» الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

«قَالَ» موسى ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ أي: صعوبة.

«ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ» وفي رواية: «فأضجعه ثم ذبحه بالسِّكين».

قَالَ الحافظ ابن حجر: ويجمع بينهما - يعني بين الروايتين - : بأنه ذبحه، ثم اقتلع رأسه بيده[٢].

﴿فَقَالَ مُوسَى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً﴾ يعني: طاهرة من الذّنوب «بِغَيْرِ نَفْسٍ» أي: بغير قِصاص لك عليها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: منكرًا.

«قَالَ» الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟.

«قَالَ» موسى ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْرًا﴾ أي: قد بلغت إلى الغاية التي تُعذَر بسببها في فراقي.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ .

قَالَ ابن عباس: هي إنطاكية، وقال ابن سيرين: هي أيلة، وهي أبعد الأرض من السماء[٣].

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ والاستطعام: سؤال الطعام ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قَالَ قَتَادَةُ

---

(١) لم يأت ذكر ليوشع مع مصاحبته لهما، لأنه اكتفى بالصَّمت والسَّماع طوال الرحلة تأدبًا، والله أعلم.

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٢٧٢).

(٣) قَالَ الحافظ ابن حجر: وشدّة المباينة في ذَلِكَ تقتضي أن لا يوثق بشيء من ذَلِكَ. ا.هـ.

في هَذِهِ الآية: شرّ القُرى التي لا تضيف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقّه.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي: قَرُب يَسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ «يَقُولُ مَائِلٌ. قَالَ الخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ» قَالَ أحدُ رواة الحديث: «مسحَهُ بيده فاستقام»[(١)].

«قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لأخذت عليه أُجرةً نأكل بها..

«قَالَ» الخضرُ ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ * سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا. ﴿وَأَمَّا الغُلَامُ﴾ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا» تقدم شرح ذلك. «وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ» بَلَغ «أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا» أي: يحملهما حُبّه على أن يتابعاه على دينه.

قَالَ الإمام النووي: «وهذا الحديث من دلائل مذهب أهل الحق في أن الله تعالى أعلم بما كان، وبما يكون، وبما لا يكون لو كان كيف يكون» ا.هـ[(٢)].

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

قَالَ الإمام النووي: «قيل المراد بالزكاة: الإسلام، وقيل: الصّلاح، وأمَّا الرُّحم: فقيل: معناه الرحمة لوالديه وبرّهما. وقيل: المراد يرحمانه. قيل: أبدلهما الله بنتًا صالحة، وقيل: ابنًا» ا.هـ[(٣)].

﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّـهُمَا﴾.

قَالَ قتادة: كان مالًا جسيمًا. قَالَ القرطبيُّ: وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو في اللّغة: المال المجموع ا.هـ[(٤)].

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٢٧٣).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥٢٧).
(٣) نفس المرجع.
(٤) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٤١١).

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قَالَ ابن عباس: حُفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاحًا.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ قَالَ الإمام القرطبيُّ: «هَذَا يدل على نبوّة الخضر وأنه يوحى إليه»ا.هـ.[1].

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا».

قَالَ « وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ. فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: وَاللهِ مَا عِلْمِي وَمَا عِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ».

وبهذا التفسير والبيان، وبهذه الموعظة الأخيرة، انتهى اللِّقاءُ العجيب بين النبيِّين الكريمين، لكن بقيت دروسه ما بقيت الحياة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقد يسأل سائل: هل الخضر لا يزال حيًّا؟

الجواب: ذهب البعض إلى القول بحياة الخضر إلى الآن، وأنه لم يمت لأَنَّهُ شرب من عين الحياة.

وهذا القول مردودٌ بالكتاب والسُّنة.

قَالَ تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِقَلِيلٍ أَوْ بِشَهْرٍ: «مَا مِنْ نَفْسٍ

(١) نفس المرجع (١٠/ ٤٠١).

مَنْفُوسَةٍ أَوْ مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ عامٍ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ حَيَّةٌ» (١).

وقال ﷺ: **«ما على الأرض من نَفْسٍ مَنفُوسة يأتي عليها مائة سنة»** (٢).

قَالَ الإمام ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - «فهذه الأحاديث الصِّحاح تَقطَع دَابر دَعوى حياة الخضر» ا.هـ.

عباد الله ...

وفي القصّة فوائد كثيرة - يضيق المقام عنْ حصرها - منها:

الفائدة الأولى: استحباب الحرص على الازدياد من العلم، والرحلة فيه:

يدلّ على ذَلِكَ قول موسى لفتاه: ﴿**لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [الكهف: ٦٠] أي: دهرًا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيقًا يَلتمِسُ فِيهِ عِلْمًا إِلاَّ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقَ الْجَنَّةِ»** (٣).

قصَّة:

قَالَ أبو صالح المؤذِّن: «مرض الشيخُ أبو محمد الجويني (إمام الحرمين) سبعة عشر يومًا، وأوصاني أن أتولّى غسله وتجهيزه، فلمّا تُوفِّي غسّلتهُ، فلما لففتُه في الكفن رأيت يده اليمنى إلى الإبط زهراء منيرة من غير سوء، وهي تتلألأ تلألأ القمر، فتحيّرتُ وقلتُ في نفسي: هَذِهِ بركات فتاويه» (٤).

الفائدة الثانية: الحثّ على التواضع وحُسن الأدب مع العلماء:

يدل على ذَلِكَ: قول موسى ؑ للخضر: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦].

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري وغيره.

(٤) «وسائل الرحمات فيما يُطلب لمن مات» للشيخ أحمد الحلواني (١٨٤).

الفائدة الثالثة: أن قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره؛ خيرٌ له:

يدلّ على ذَلِكَ: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله - : «ويستفاد من هَذِهِ الآية: تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.

قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما.

فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب» ا.هـ.

الفائدة الرابعة: الحرص على مصلحة اليتيم، وصيانة ماله:

يدل على ذلك: إقامة الخضر للجدار بدون أجر، والآيات والأحاديث الواردة في فضل الإنفاق على اليتيم، والتحذير من أكل ماله كثيرة ومستفيضة.

الفائدة الخامسة: وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع، وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول، ولا يفهمه أكثر النَّاس، وقد لا يفهمونه كلُّهم كالقَدَر:

موضع الدلالة: قتل الغلام، وخرق السفينة، فإن صورتهما صورة المنكر، وكان صحيحًا في نفس الأمر له حِكَمٌ بيِّنة، لكنها لا تظهر للخلق، فإذا أعلمهم الله تعالى بها علموها، ولهذا قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني: بل بأمر الله تعالى(١).

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وعملًا متقبَّلًا.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥٢٨).

الخطبة التاسعة والثلاثون:

قصَّة مُوسَى ﷺ مع بلعام الإسرائيلي

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى ﷺ.

ونلتقي اليوم مع عالمٍ ضالّ من علماء بني إسرائيل، وهو: «**بلعام بن باعوراء**».

عباد الله...

قَالَ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّـهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ

كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٧].

أخرج النسائيّ في «تفسيره» (١/ ٥٠٨) بإسناد صحيح وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رَضِي الله عَنْهما - في قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ قال: نزلت في أُميّة بن أبي الصّلت[١].

وأخرج النسائيّ في تفسيره أيضًا، والحاكم وابن مردويه بإسناد صحيح عن ابن مسعود ﷺ: أنها نزلت في بلعام الإسرائيلي[٢].

قَالَ الحافظ ابن حجر: وهو المشهور[٣].

وكذا قَالَ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»[٤].

عباد الله...

فمن هو بلعام؟

هو أحد علماء بني إسرائيل[٥] المُضلِّين، الذين اشتروا الحياة الدُّنْيَا بالآخِرَة، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

ذكر القرطبيّ في «تفسيره» أَنَّهُ كان مجاب الدعوة، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلِّمين الذين يكتبون عنه، وكان بحيث إذَا نظر رأى العرش.

ثم انسلخ من آيات الله، فأصبح وليًّا للشيطان، فأبعده الله وأخزاه وجعل النار مثواه، وكذلك يجزى الله كل كفور، فنعوذ بالله من سوء المصير وعذاب السعير.

ما هي قصَته؟

أوردت كتب السِّير والتفاسير لبلعام قصّتين:

---

(١) انظر «المقبول من أسباب النزول» د. عمر نادي الأزهري (ص٣٣٠).
(٢) انظر «المقبول من أسباب النزول» (ص٣٣٠).
(٣) انظر «فتح الباري» (٧/ ١٨٩).
(٤) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٠٨).
(٥) وما يُروى أَنَّهُ كان من أنبياء بني إسرائيل لا يصحّ.

القصَّة الأولى:

قَالَ محمد بن إسحاق بن يسار: عن سالم أبي النضر أَنَّهُ حدَّث أن موسى عليه السلام لَـمَّا نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هَذَا «موسى بن عمران» في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل، وإنَّا قومك وليس لنا منزلٍ وأنت رجلٌ مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم.

قَالَ: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم مِن الله ما أعلم؟

قالوا له: ما لنا من منزل.

فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجَّةً عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هَذَا؟ تذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟!

فلم ينزع عنها فضربها فخلّى الله سبيلها حين فعل بها ذَلِكَ، فانطلقت به حتى إذا أشرفت على رأس حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلَّا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلَّا صرف لسانه إلى بني إسرائيل.

فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا.

قَالَ: فهذا ما لا أملك، هَذَا شيء قد غلب الله عليه.

قَالَ: واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلَّا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهنّ السلع ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومُروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، إن زنى رجل مِنْهُمْ واحد كفيتموهم.

ففعلوا، فلما دخلت النساء العسكر مَرّت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبتي»

ابنة صور رأس أمته، برجل من عظماء بني إسرائيل وهو «زمري بن شلوم» رأس سبط «شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى، وقال: إني أظنك ستقول هَذَا حرام عليك لا تقربها؟ قَالَ: أجل هي حرام عليك. قَالَ: فوالله لا أُطيعك في هَذَا.

فدخل بها قُبّته فوقع عليها، وأرسل الله عَزَّ وَجَلَّ الطاعون في بني إسرائيل، وكان «فنحاص بن العيزار بن هارون» صاحب أمر موسى وكان غائبًا حين صنع «زمري بن شلوم» ما صنع، فجاءوا والطاعون يجوس فيهم، فأُخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد كلِّها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار، وجعل يقول: «اللَّهمَّ هكذا نفعل بمن يعصيك».

ورُفع الطاعون، فحسب مَن هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب «زمري» المرأة إلى أن قتله «فنحاص» فوجوده قد هلك مِنْهُمْ سبعون ألفًا والمقلل مِنْهُمْ يقول: عشرون ألفًا في ساعةً من نهار[1]. فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللّحى، والبكر من أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار.

ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

القصّة الثانية:

أَنَّهُ كان من علماء بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، فأرسله إلى مَدْيَنَ

---

(١) دلّ ذَلِكَ على فضل إقامة الحدود، وفي الحديث: «إقامة حد من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة في بلاد الله» . حسن «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٥٨). وفي حديث آخر: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة» رواه الطبراني بإسنادٍ حسن.

يدعوهم إلى الله تعالى وحده، ونبذ عبادة ما سواه، فلما ذهب إليهم أغراه ملك مديَنَ بالمال والنساء، فقبل بلعام الرِّشوة، وضل واتبع هواه، فأنزل الله تعالى فيه ما أنزل.

قَالَ مالك بن دينار: «بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدينَ ليدعوه إلى الإيمان، فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى، ففيه نزلت هَذِهِ الآيات».

مع الآيات التي نزلت فيه:

﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**﴾ ولم يقل: «آية».

قَالَ القرطبيّ: واختلف في تعيين الذي أوتي الآيات، فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بلعامُ بن باعوراء، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلت في أميّة بن أبي الصّلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولًا في ذَلِكَ الوقت، وتمنَّى أن يكون هو ذَلِكَ الرسول، فلَّما أرسل الله محمدًا ﷺ حسده وكفر به.

قَالَ القرطبيّ: والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر.

قوله تعالى: ﴿**فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ أي: من معرفة الله تعالى، أي نزع منه العلم الذي كان يعلمه.

والانسلاخ: الخروج، يقال: انسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه.

وقيل: هذا من المقلوب، أي انسلخت الآيات منه.

﴿**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**﴾ أي: لحق به.

قال ابن كثير: أي: استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿**فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ**﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

وقد ورد في معنى هَذِهِ الآية حديث رواه أبو يعلى الموصليّ في «مسنده» عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِمَّا أتخوّف عليكم رجلٌ قرأ القرآن حتَّى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسَّيف ورماه بالشرك**». قَالَ: قلت: يا نبي الله

أيهما أولى بالشرك المرميّ أو الرامي؟ قَالَ: «بل الرامي»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إيَّاها.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذتها ونعيمها وغرَّتهُ كما غرّت غيره من غير أولي البصائر والنُّهي.

وقال ابن راهويه: تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير، وغير واحدٍ.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: ما زيّن له الشيطان، وقيل: كان هواه مع الكفار.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أنَّ بلعامًا اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر.

وقيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلا الإيمان، وعدم الدعاء كالكلب في لهيثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قَالَ تَعَالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقال القتيبيّ: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلَّا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلًا لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعظته ضلّ، وإن تركته ضل، فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوَهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

قَالَ القرطبيّ: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كل مَن أوتي القرآن فلم يعمل به».

---

(١) قَالَ الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٢٠): هَذَا إسنادٌ جيّد.

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إيَّاه وإبعاده من رحمته، بسبب أَنَّهُ استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربّه بل دعا به على حزب الرَّحمن وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذَلِكَ الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإنَّ الله قد أعطاهم علمًا وميّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحقّ النَّاس وأولادهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا مَن خالف مِنْهُمْ ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحلّ الله به ذلًّا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلام التي لا همّة لها إلَّا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه؛ صار شبيهًا بالكلب وبئس المثل مثله، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الَّذِى يَعُودُ فِى هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِى قَيْئِهِ»[1].

وقوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

عباد الله ...

وبهذه الخاتمة السوء، وبهذا الحصاد المرّ انتهت حياة «بلعام بن باعوراء» لتبقى قصّته عظة لقوم يتفكرون.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٥)، ومسلم (٥/ ٦٥) وغيرهما.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد قَالَ الإمام ابن القيّم – رحمه الله – كلامًا رصينًا ومتينًا عقب قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

قال رحمه الله: «فشبَّه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الَّذِي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله عَلَى رضاه، ودنياه عَلَى آخرته، والمخلوق عَلَى الخالق، بالكلب الَّذِي هو من أخبث الحيوانات. وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا.

ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذَا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدُّنْيَا وعاجلها عَلَى الله والدار الآخِرَة– مع وفور علمه –

بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن هَذَا الَّذِي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه عَلَى الدُّنْيَا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخِرَة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الَّذِي يترك الهدى، لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله عَلَى الصبر وترك اللهث، وهكذا الَّذِي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله عَلَى الصبر عن الدُّنْيَا وترك اللهف عليها، فهذا يلهف عَلَى الدُّنْيَا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر عَلَى الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث.

فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثل الَّذِي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت عَلَى الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك.

وتأمل ما في هَذَا المثل من الحكم والمعنى:

فمنها قوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الَّذِي أتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الَّذِي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثُمَّ قال: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خَرَجَ منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها، لأنه هو الَّذِي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لحقه وأدركه. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هَذَا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هَذَا كله من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الَّذِي يرفع عبده إذَا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه.

والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات الَّتِي آتيناه.

قَالَ ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها.

وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد عَلَى الكفر.

والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا.

قَالَ مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه.

وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية. وهذا من لوازم المراد.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ قَالَ سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض.

وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ.

وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود وهو الدوام والبقاء، ويقال: أخلد فلان بالمكان، إذَا أقام به.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قَالَ الكلبي: اتبع مسافل الأمور وترك معاليها.

وقال أبو روق: اختار الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة.

وقال ابن زيد: كان هواه مع القوم يعني الذين حاربوا مُوسَى وقومه[١].

---

(١) «التفسير القيم» للإمام ابن القيّم (٢٨٠ - ٢٨٥) بتصرف يسير.

قَالَ الإمام القرطبيّ - رحمه الله تعالى - عن بلعام وما حدث له:

«ضربه الله مثلا للذي قبل الرشوة في الدين حتى انسلخ من آيات ربه. فدلت الآية لمن تدبرها عَلَى ألا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه، إذ لا يدري بما يختم له. ودلت عَلَى منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره.

ودلت أيضًا عَلَى منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها، لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هَذَا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هَذَا عَلَى غيره وألا يقبل منه إلا بحجة» ا.هـ[1].

اللَّهمَّ إنَّا نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وعملًا متقبلًا.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٨٩).

الخطبة الأربعون:

قصَّة مُوسَى عليه السلام مع السَّامريَ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى عليه السلام.

ونلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قصّة مُوسَى عليه السلام مع السَّامريّ.

عباد الله...

قَالَ تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّـهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا

أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٨٣- ٩٧].

فمن هو السامريّ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامري من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مِصْرَ فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر(١).

وقيل: كان رجلا من القبط، وكان جارا لُموسَى آمن به وخرج معه.

وقيل: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام.

قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان(٢).

ما هي قصته؟

لَـمَّا خرج موسى عليه السلام ومعه سبعون رجلًا للميقات على جبل الطور(٣)، استخلف موسى عليه السلام هارون على بني إسرائيل، وقال له: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي**

(١) كنت قد نقلت عن القرطبيّ في كتابي (٦٣ قصة عن نهاية الظالمين) قوله: أن جبريل عليه السلام كان يختلف إلى موسى السامري وهو رضيع يظنه موسى بن عمران!! وهذا الكلام لا يصح.

(٢) «تفسير القرطبي» (١١/ ١٤٨).

(٣) وذلك لتلقي الألواح، وكان هَذَا بعد نجاتهم من فرعون وجوازهم البحر.

وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فلما ذهب عليه السلام إلى الميقات، مكث على الطور يناجيه ربَّه، ويسأله موسى عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيب عنها، وتأخَّر موسى على قومه، وفي هَذِهِ الأثناء عمد السامري إلى حيلة خبيثة فحواها: أنَّ نساء بني إسرائيل لَـمَّا خرجنَّ مع موسى عليه السلام من أرض مصر أخذنّ من نساء آل فِرعونَ بعضًا من حُلِيّهم – على سبيل الاستعارة – وأوهموهنّ أنهنَّ سيخرجن لعيدٍ لهنّ، فانتهز السامريّ هَذَا، وقال لبني إسرائيل حين استبطأوا موسى عليه السلام: «إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحليّ» فجمعوه ودفعوه إلى السامريّ فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلًا، ثم ألقى عليه قبضةً من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام.

وكان الخبيث قد رأى جبريل على فرسٍ له يسمى «الحياة» وذلك عند عبوره البحر، فأخذ قبضة من أثر الفرس، فكان لا يلقيها على شيءٍ إلَّا دبَّت فيه الحياة.

وكان يعلم مدى استعداد شعب بني إسرائيل لعبادة البقر.

قَالَ قَتادةُ: «كان السامريّ عظيمًا في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها «سامرة» ولكنَّ عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى، فلما مرَّت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَـهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فاغتنمها السّامري وعلم أَنَّهُمْ يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل.

والمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَـمَّا صنع العجل وألقى عليه القبضة التي أخذها من أثرِ فرس الرسول، جعل العجل يخور، وجعل بنو إسرائيل يرقصون حوله، ويصيحون، وكان إذا خار سجدوا[(١)].

وقالوا: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَـهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ [طه: ٨٨]، أي: فضلّ موسى وذهب يطلبه فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربّه، وقيل: معناه: فتركه موسى هنا وخرج يطلبه، أي: ترك موسى إلهه هنا.

---

(١) قَالَ ابن عباس: خار كما يخور الحيّ من العجول.

عباد الله ...

ولما رأى هارون ما أحدثه بنو إسرائيل من عبادة العجل من دون الله، قام بدوره في الأمر والنهي: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَـهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]. أي: قَالَ لهم من قبل أن يأتي موسى من ميقات ربه: إنما ابتليتم وأضللتم به - أي العجل - وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني في عبادته سبحانه وأطيعوا أمري لا أمر السَّامري.

فقام إليه بنو إسرائيل فضربوه حتى كادوا يقتلوه، وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١]، فاعتزلهم هارون في اثنى عشر ألفًا من الذين لم يعبدوا العجل[١].

كان موسى عليه السلام قد علم بعبادة قومه للعجل، وهو على جبل الطور، أعلمه بذلك ربه سبحانه وتعالى، وإليك الحوار الذي دار بين موسى وربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أي: أَنَّهُمْ بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فكنّى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا.

وكانت عائشة رضى الله عنها إذَا آوت إلى فراشها تقول: هاتوا المجيد، فتؤتى بالمصحف فتأخذه في صدرها وتنام معه تتسلى بذلك، رواه سفيان عن مسعر عن عائشة رضى الله عنها.

وكان ﷺ إذَا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرّد حتى يصيبه المطر ويقول: «**إنه حديث عهد بربي**»[٢]، فهذا من الرسول ﷺ وممَّن بعده من قبيل الشوق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي اختبرناهم وامتحناهم بأن يستدلوا عَلَى الله عز وجل. ﴿وَأَضَلَّـهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/ ١٥١).

(٢) عن أنس قَالَ: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، قَالَ: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لِمَ صنعت هَذَا؟ قَالَ: «**لأنه حديث عهد بربه تعالى**» أي: بتكوين ربه إيَّاه. ومعناه أن المطر رحمة. والحديث رواه مسلم.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: حزينًا على ما صنع قومه من بعده.

فلما رجع مُوسَى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قَالَ للسبعين معه: هَذَا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا و﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

والمعنى: ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم. وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ قَدْ علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم عَلَى كفرهم.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وفي سورة «طه» قال: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

فتركه موسى ثم أقبل على السَّامري فقال له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي: ما أمرك وشأنك، وما الذي حملك على ما صنعت؟

قال السامريّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ يعني: رأيت ما لم يروا؛ رأيت جبريل على فرس الحياة، فألُقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة، فلما ألقيتُه على شيء إلَّا صار له روح ولحم ودم، فلمَّا سألوك أن تجعل لهم إلهًا زيَّنَت لي نفسي ذَلِكَ، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتها في العجل، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: زينته.

فعند ذلك دعا موسى عليه السلام على السامريّ: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ﴾ أي قَالَ له مُوسَى: فاذهب أي من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾ أي: لا أمسّ ولا أُمس طول الحياة.

فنفاه مُوسَى عن قومه وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له.

قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة، وكأنَّ الله ﷻ شدد عليه المحنة، بأن جعله لا يماس أحدا ولا يمكن من أن يمسه أحد، وجعل ذَلِكَ عقوبة له في الدُّنْيَا.

قَالَ الإمام القرطبيّ: هَذِهِ الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا، وقد فعل النبي ﷺ ذَلِكَ بكعب بن مالك والثلاثة الذين خلفوا.

ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتل لا يُقْتل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى، وهو إرهاق إلى الخروج، ومن هَذَا القبيل التغريب في حد الزنى[(١)].

﴿**وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ**﴾ يعني: يوم القيامة، أي: إن لك وعدًا لعذابك لابد لك من أن تصير إليه.

﴿**وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا**﴾ [طه: ٩٧]؛ ﴿**ظَلْتَ عَلَيْهِ**﴾ أي: دمت وأقمت عليه، ﴿**عَاكِفًا**﴾ أي: ملازمًا، ﴿**لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ قَالَ ابن عباس: سحله بالمبارد وألقاه على النَّار.

وروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب ﷺ قَالَ: «إن مُوسَى لما تعجل إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثُمَّ صوره عجلا قال: فعمد مُوسَى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرّده بها، وهو عَلَى شط نهر، فلم يشرب أحد من ذَلِكَ الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لمُوسَى: ما توبتنا ؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا»[(٢)].

قال الإمام القُشيريُّ: قوله جلّ ذكره: ﴿**وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ قال: «كُلُّ ما تعلق به القلب من دون الله ينسفه الحق سبحانه بمُحِبِّه[(٣)]، وبهذا يُلقى الأصنام غدًا في النار مع الكفار، وليس لها

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/ ١٥٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦٢).

(٣) الباء هنا معناها «مع».

جُرمٌ، ولا عليها تكليف، ولا لها عِلمٌ ولا خبر، وإنما هي جماداتٌ»[١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قَالَ مالك بن أنسٍ - رحمه الله - : «ما مِن مُبتدع إلَّا وتجد فوق رأسه ذِلَّة، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ﴾ أي: المبتدعين».

وبعد أن لقي السّامري الجزاء العادل في الدُّنيا والآخرة، سُقط في أيدي عبدة العجل، وجأروا إلى الله تعالى بالتوبة، لكن لم يقبل الله توبتهم إلا بالقتل، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

قال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله -: «بيّن الله في هَذِهِ الآية الكريمة أنَّ عبدة العجل اعترفوا بذنبهم، وندموا على ما فعلوا، وصرَّح في سورة البقرة بتوبتهم ورضاهم بالقتل وتوبة الله جل وعلا عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

فانظروا - **عباد الله** - كيف يفعل المكر السيئ بأهله؟!

هل جَنى منه السامريّ إلَّا خزي الدُّنْيَا وعذاب الآخِرَة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

❊❊❊

(١) «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٧٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي قصّة السّامريّ دروس وعظّات، منها:

١- دلّت القصّة على أن الوثنية متأصلة آثارها في قلوب بني إسرائيل.

٢- أن التعبد المصحوب بالرّقص والطبل والزمر والتواجد ليس من دين الله في شيء.

وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأعلم - حرس الله مدته - أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثُمَّ إنهم يوقعون بالقضيب عَلَى شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيًّا عليه، ويحضرون شيئًا يأكلونه.

هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين، يرحمكم الله، وهذا القول الَّذِي يذكرونه:

يا شيخ كف عن الذنوب ... قبل التفرُّق والزلَّل

واعمل لنفسكَ صالحًا ... ما دام ينفعك العمل

أما الشبابُ فقد مَضَى ... ومشيبُ رأسكَ قَدْ نزل

وفي مثل هَذَا ونحوه.

الجواب: - يرحمك الله - مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل، وأما القضيب[1] فأول من اتخذه

---

(١) القضيب: آلة من آلات العزف كالعود ونحوه.

الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما عَلَى رءوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم عَلَى باطلهم، هَذَا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ابن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق» ا.هـ[1].

٣- دلَّت القصّة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك في قول موسى عليه السلام لأخيه: ﴿**يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

٤- دلَّت القصَّة على أنَّ المكر السيئ لا يحيق إلَّا بأهله، ومَن سلّ سيف البغي قُتل به.

٥- تعظيم عبادة الله وحده، وخطر عبادة غيره.

اللَّهمَّ أعِنَّا على ذِكْرِكِ وشُكْرِك وحُسْنِ عِبَادتِك

آمين... آمين... آمين.

✪✪✪✪✪

(١) «تفسير القرطبي» (١١/ ١٥٢).

الخطبة الخطبة الحادية والأربعون:
قصّة مُوسَى عليه السلام مع قارون

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى عليه السلام.

ونلتقي اليوم إن شاء الله مع رجلٍ من قوم مُوسَى وهو «قارون».

قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا

وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦- ٨٣].

عباد الله...

فمن هو قارون؟

هو قارون بن يصهر بن قاهث، قاله ابن جريج. وكان ابن عم موسى ﷺ.

قَالَ ابن جريج: وهذا قول أكثر أهل العلم، أَنَّهُ كان ابن عم موسى[١].

وقال قتادة وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله[٢].

والمال إمّا أن يكون نعمة وإمَّا أن يكون نقمة، إمَّا أن يكون من أسباب سعادة الإنسان، وإما أن يكون من أسباب تعاسته.

روى البيهقي عن ابن عمر – رَضِي الله عَنْهُما – قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**الدنيا خضرة حُلوةٌ مَن اكتسب فيها مالًا من حلِّه، وأنفقَه في حَقِّه أثابه الله عليه، وأورده جنته، ومَن اكتسب فيها مالًا من غير حلِّه وأنفقه في غير حَقِّه، أحَلّه الله دار الهوان، ورُبَّ متخوّض في مال الله ورسوله له النَّارُ يوم القيامة، يقول الله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾** [الإسراء: ٩٧]».

وقارون – لعنه الله – أحد عُبَّاد المادة، الذين قادتهم شهواتهم إلى الجحيم، فما

(١) كذا في الطبريّ (١/ ٤٢٣)، وفي تفسير القرطبي: هو قارون بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. (١٣/ ٢٨٤).

(٢) «البداية» (١/ ٤٢١).

أغنى عنه ماله وما جمع، وكم من مَالٍ مَالَ بصاحبه عن الصراط، فَضَلّ سعيه، وخسر نفسه، وشقي به.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَشْرِبَ قَلْبُهُ حُبَّ الدُّنْيَا التَاطَ مِنْهَا بِثَلاثٍ: شَقَاءٍ لا يَنْفَدُ عَنَاهُ، وَحِرْصٍ لا يَبْلُغُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ، فَالدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الآخِرَةُ حَتَّى يَأْتِيَهُ المَوْتُ فَيَأْخُذَهُ، وَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ»[١].

والقُرآن العظيم يحكي لنا قصَّة قارون وما حدث له، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾ كان ابن عمَّه كما تقدَّم، ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبرًا، قاله شهر بن حَوشب.

وفي الحديث: «لا ينظر الله إلى الذي يجرّ إزاره بطرًا»[٢].

وقيل: بغيهُ: كفره بالله عَزَّ وَجَلَّ، قاله الضحاك.

وقيل: بغيه: استخفافه بهم بكثرة ماله وولده؛ قاله قَتادة.

قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ﴾ قال خيثمة: «وجدتُ في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلًا غراء محجّلة، وأنها لتنوء بها مِن ثقلها، ما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال، لو قسّم ذَلِكَ الكنز على أهل البصرة لكفاهم». وقيل غير ذَلِكَ، فالله أعلم.

والعصبة: الفئام من النَّاس.

﴿إِذْ قَالَ لَـهُ قَوْمُهُ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل: ﴿لاَ تَفْرَحْ﴾ أي: لا تأشر ولا تبطر، والمعنى: لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾.

قلت: والفرح نوعان:

الأول: فرحٌ محمود، وهو الفرح بالهدى ودين الحقّ، قَالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ

---

(١) حسن: قَالَ المنذري: رواه الطبراني بإسنادٍ حسن. «الترغيب» برقم (٤٧٢٦).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٩٠١٤)

بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي: بهذا الَّذِي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به.

قالَ أبو سعيد الخدريّ وابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – : فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام، وعنهما أيضًا: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدُّنْيَا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

وروى ابن أبي حاتم عن «بقية بن الوليد» عن صفوان بن عمرو، سمعت أينع ابن عبد الكلاعي يقول: لما قُدم خراجُ العراق إلى عمر ﷺ خَرَجَ عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هَذَا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الَّذِي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وهذا مما يجمعون[1].

الثاني: فرح مذموم، وهو فرح الأشر والبطر، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] ، قَالَ مجاهد: يعني: الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

ثم توالت مواعظ القوم لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّـهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة، وهي الجَنَّة، فإنَّ من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبّر والبغي.

﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ .

قَالَ الإمام القشيريّ: ليس النصيبُ من الدُّنْيَا جَمْعَها ولا مَنْعَها، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً، ولا يُوجِبُ في الآخِرَةِ عقوبةً.

ويقال: النصيبُ من الدُّنْيَا ما يَحْمِلُ عَلَى طاعته بالنَّفْس، وعلى معرفته بالقلب،

(١) رواه الطبراني وابن أبي حاتم. «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٥٢).

وعلى ذِكْرِه باللسان، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ» ا.هـ.

وعن الحسن في هَذِهِ الآية، قَالَ: «قدّم الفضل، وأمسك ما يبلغ».

وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف.

وقال ابن العربي: «وأبدع ما فيه عندي: قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا وما أحسن هذا».

﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فهذا وعظٌ من القوم لقارون متصل.

قَالَ القشيري: والإحسان الذي أُمر به إنفاق النِّعمة في وجوه الطاعة والخدمة، ومقابلتهُ بالشكران لا بالكفران.

وقال ابن العربي: فيه أقوالٌ كثيرة - أي: في الإحسان - جماعُها: استعمال نِعم الله في طاعة الله.

﴿وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: لا تعمل بالمعاصي. ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾.

فردّ قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى﴾.

قَالَ ابن زيد: أي: إنما أوتيتُهُ لعلمه بفضلي ورضاه عني.

قَالَ القشيري - رحمه الله - : «ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه».

قلت: وهذا قول يكتب بماء الذَّهب.

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: بالعذاب ﴿مِنَ القُرُونِ﴾ أي: الأمم الخالية الكافرة، ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: للمال، ولو كان المال يدلّ على فضل لما أهلكهم.

والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون، أي: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ﴾.

﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يسألون سؤال استعتاب، كما قَالَ: ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]. وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

لم تؤثِّر مواعظُ قومه فيه، فوعظ من حُرم القبول كمثل البذر في الأرض السَّبخة، لذا لم ينفعه نُصحُهم إيَّاه، ولم يكن للقبول فيه مساغ.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ ذكر كثير من المفسّرين أنه خرج في تجمّل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلمّا رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنّوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزّهاد الألباء قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: ثواب الله في الدَّار الآخرة خيرٌ وأبقى وأجلّ وأعلى ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي: وما يلقّى هَذِهِ النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمّة السَّامية إلى الدار الآخرة العليّة عند النظر إلى زهرة هَذِهِ الدنيا الدنيّة، إلَّا مَن هدى الله قلبهُ وثبّت فؤاده، وأيّد لُبَّهُ وحقق مُراده، وما أحسن ما قَالَ بعض السّلف: «إنَّ الله يُحبّ البصر الناقد عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عن حلول الشهوات».

عباد الله ...

فماذا كانت العاقبة؟

قَالَ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ لما ذكر الله تعالى خروجه في زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها قَالَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾.

كما روى البخاريّ عن النبيّ ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يجرّ إزاره إذ خُسِف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»(١).

وقد ذكر ابن عباس وغيره: «أن قارون أعطى امرأة بغيًّا مالاً عَلَى أنْ تقول لموسَى عليه السلام وهو في ملأ من الناس إنّك فعلت بي كذا وكذا. فيقال: إنها قالت له

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٥).

ذَلِكَ فأرعد من الفَرَق[١] وصلَّى ركعتين ثُمَّ أقبل عليها فاستحلفها من ذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الَّذِي حملها عَلَى ذَلِكَ واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذَلِكَ خرّ مُوسَى لله ساجدا ودعا الله عَلَى قارون فأوحى الله إليه إني قَدْ أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر مُوسَى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذَلِكَ فاللَّـهُ أعْلَمُ[٢].

﴿فَمَا كَانَ لَـهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾.

وبعد أن كان ما كان، قَالَ الذين يريدون الحياة الدُّنيا بعد أن رأوا ما حلّ بقالون: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّـهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾.

مَنَّ الله علينا فلم ننجرف في نهجه، ولم ننخرط في سِلكه، وإذًا لوقع بنا الهلاك.

أمَّا المُتمنُّون مكانه فقد ندموا، وأمَّا الرَّاضون بقسمته - سبحانه - فقد سلموا، سلموا في العاجل إلى أن تظهر سعادتُهم في الآجل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن دمدم الله الأرض على قارون فسوَّاها، أخبر الحق سبحانه أنَّ الدار الآخرة وهي دار القرار وهي الدَّار التي يَغبط من أُعطيها ويُعزّي مَن حُرمها، إنَّما هي معدّة للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فالعلو هو التكبّر والفخر والأشر والبطر، والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعديّة من أخذ أموال النَّاس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم. قَالَ تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ

---

(١) **الفرق**: الخوف.

(٢) **رجاله ثقات**: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٦٥).

الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

عباد الله...

وفي قصّة قارون فوائد وعظّات، منها:

١- أن للمال ضراوة كضراوة الخمر، إذا أسكر الإنسان أعانه على الإثم والعدوان، كما قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: ٦، ٧].

قَالَ عبد الله بن مسعود ﷺ: «منهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدُّنيا ولا يستويان، فأمَّا صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، وأمَّا صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ ﷺ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ وقال للآخر: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

٢- أنَّ المعاصي تزيل النِّعم، وقد رُوي أن الله أوحى إلى نبيّ من الأنبياء: «قل لقومك لو كانت المعصية في زاوية من زوايا الجَنَّة لأوصلت لها الخراب».

٣- أنَّ العلم النافع هو العاصم للإنسان من التردِّي والسقوط، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

٤- أنَّ الله تعالى ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته.

٥- مَن شكر الله على نعمهِ فقد قيّدها بعقالها، ومَن كفر نعمه فقد عرّضها لزوالها، قَالَ تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

نسأل الله النَّجاة من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

آمين... آمين... آمين.

والحمد لله ربِّ العالمين

الخطبة الثانية والأربعون:
قصّة مُوسَى عليه السلام والحجر المتحرّك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ: فما زال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى عليه السلام. ونلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قصّة مُوسَى عليه السلام والحجر المتحرِّك.

عباد الله...

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَىْءٌ، اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلاَّ مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ [١] وَإِمَّا أُدْرَةٌ [٢] وَإِمَّا آفَةٌ.

---

(١) البرص: بياض يقع في الجَسد لعلّةٍ. «المعجم الوجيز» (٤٥).

(٢) الأدرة: انتفاخ الخَصية لتسرّب مائع من طبقتي غلافها. «المعجم الوجيز» (٩).

وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلاَ يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ[١]، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ [٢]، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ.

وَقَامَ الحَجَرُ[٣] فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا[٤] بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا[٥] مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاَثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]». رواه البخاري في «صحيحه» [٦].

ورواه مسلم في «صحيحه» [٧] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلاَّ أَنَّهُ آدَرُ[٨]، فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَخَرَجَ مُوسَى فِي إِثْرِهِ يَقُولُ ثَوْبِي يَا حَجَرُ. حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى مُوسَى، فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ. وَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا».

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَنَدَبٌ بِالحَجَرِ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ ضَرْبًا بِالحَجَرِ.

الثاني: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ أَنْبَأَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ رَجُلًا حَيِيًّا، قَالَ: فَكَانَ لاَ يُرَى مُتَجَرِّدًا. قَالَ: فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّهُ آدَرُ. قَالَ: فَاغْتَسَلَ عِنْدَ مُوَيْهٍ[٩] فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ فَانْطَلَقَ الحَجَرُ يَسْعَى وَاتَّبَعَهُ

---

(١) عدا بثوبه: مضى مُسرعًا.

(٢) ثوبي حجر: أي: دع ثوبي يا حَجَرُ.

(٣) قام الحجر: وقف.

(٤) وطفق بالحجر ضربًا: جعل يضربه.

(٥) النَّدب: أصله أثر الجُرح إذا لم يرتفع عن الجلد.

(٦) برقم (٣٤٠٤).

(٧) برقم (٢٣٧١).

(٨) أدر، آدرًا: انتفخت خصيتاه لتسرُّب مائع بين طبقتي الغلاف الذي يحيط بهما. «المعجم الوجيز» (٩).

(٩) مكان به ماء.

بِعَصَاهُ يَضْرِبُهُ ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ. حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَزَلَتْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

عباد الله...

والحديث عن هَذِهِ القصَّة يدور حول سبعة أمور:

الأمر الأوّل: تحذير المؤمنين من التَّعرض لنَبيِّهم بالأذى:

يدلّ على ذَلِكَ: قوله تعالى ناهيًا المؤمنين عن التشبّه ببني إسرائيل في أذيتهم نبيهم موسى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا**﴾.

واختلف النَّاس فيما أُوذيَ به النَّبيِّ ﷺ، فحكى النَّقاش: أن أذِيتهم مُحَمَّدًا ﷺ قولهم: «زيد بن محمد»[(١)].

وقال أبو وائل: أذِيته أَنَّهُ ﷺ قَسَم قَسمًا فقال رجلٌ من الأنصار: إن هَذِهِ القسمة ما أُريد بها وجه الله !! فذكر ذَلِكَ للنبي ﷺ فغضب، وقال: «**رَحِمَ اللهُ موسَى لقد أُوذِي بأكثر مِنَ هَذَا فَصَبر**»[(٢)].

ومع هَذَا التحذير البيِّن؛ فلا تزال ألسنة بعض المنتسبين للإسلام تَطَال مكانة النبي ﷺ بالطّعن في تعدده للزوجات تارة، وبالتشكيك في سُنته تارة أخرى، وجميع الطاعنين يتسترون تحت عباءة «وقاية السُّنة» من الدَّسِّ والتحريف تارة، أو تحت مُسَمَّى «حماية نبيّ الأمة ﷺ» من تشويه صورته، والنيل من شخصيته ومكانته تارة أخرى.

ولقد رأينا من هؤلاء مَن يطعن في أحاديث البخاريّ، كحديث «الذبابة»، وحديث «سِحر النبي ﷺ»، وأحاديث «الشفاعة»، وأحاديث «عذاب القبر ونعيمه» وغيرها!!

---

(١) زيد هو زيد بن حارثة، وكان يدعى «زيد بن محمد» فلمّا أبطل الإسلام التبنّي رُدّ إلى نسبه.
(٢) رواه البخاري (٦٠٥٩).

بل رأينا مِنْهُمْ مَن يطعن في السُّنة كلِّها!!

وكـم مِن عائبٍ قولًا صحيحًا وآفـته مِـن الفَهْـم الـسَّقيم

ولا تزال أقلامهم تسوّد صفحات أعمالهم، والله من ورائهم محيط.

الأمر الثاني: بيان حال بني إسرائيل مع أنبيائهم:

وسجلّهم الأسود حافل بالأذى لله ولأنبيائه، ونذكر هنا طرفًا منه، ونعتذر للقارئ عمَّا سننقله من توراة اليهود في حقّ أنبياء الله ورسله، وما كان لنا أن نتلفّظ بها قالوه في حقّ الأنبياء والرسل لولا أن القرآن الكريم قد حكى عنهم ما افتروه على الله تعالى، مثل قولهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقولهم: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ [المائدة: ٦٤].

وقولهم: ﴿ **عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

وإذا كان القوم قد افتروا على الله كذبًا، ونطقوا بمثل هَذِهِ العبارات في حقّ الله تعالى، فلا غرابة أن يقولوا في حقّ أنبيائه ورسله ما سننقل بعضه من توراتهم المحرّفة المكذوبة.

قال الله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة: ٧٩].

أولًا: افتراءهم على نوحٍ عليه السلام:

جاء في «سفر التكوين» الإصحاح التاسع (٢٦):

«... وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا، وشرب منه الخَمر فَسَكِر، وتعرّى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه!!».

هل هَذَا يعقل أيُها النَّاس؟! رسولٍ كريم من أولي العزم، يشرب الخمر ويكشف عورته؟! ﴿**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٦].

ثانيًا: افتراءهم على لوطٍ عليه السلام:

جاء في «سفر التكوين» (١٩/ ٣٧، ٣٨): «... وصعد لوط من صوعر،

وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوعر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجلٌ ليدخل علينا كعادة أهل الأرض، هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلًا!!

فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها!! وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إنِّي قد اضطجعتُ البارحةَ مع أبي، تعالي نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي عليه واضطجعي معه فنحيى من أبينا نسلًا، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها!!

فحبلت ابنتا لوطٍ من أبيهما!! فولدت البكر ابنًا دعت اسمه «موآب»، وهو أبو الموآبين إلى اليوم، والصغيرة ولدت أيضًا ابنًا دعت اسمه «بني عمى» وهو أبو بني عمون إلى اليوم!!» ا.هـ.

فانظر أخي المسلم إلى عِظَم إفك اليهود على لوط ﷺ وابنتيه، وانظر أيضًا إلى فرط جهل ناسخ هَذِهِ القصّة، إذ مِن المحال أن يكون شيخ كبير قد قارب المائة من عمره أو تخطّاها، تسقيه ابنتاه خمرًا وتضاجعه الكبرى في ليلة فتحمل منه، وتضاجعه الصغرى في الليلة الثانية فتحمل منه أيضًا، فهذا كذب له قرون؛ لأنه من المحال أن تعلق المرأة من شيخ طاعن في السِّن قد غاب حسه لفرط سكره، ومما يؤكد استحالة ذَلِكَ أنَّهُمْ زعموا أن ابنته الصغرى فعلت كذلك به في الليلة الثانية، فعلقت به أيضًا، وهذا ممتنع من المشايخ الكبار أن يعلق من أحدهم في ليلة، ويعلق منه أيضًا في الليلة الثانية[1]. ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثانيًا: افتراءهم على موسى وهارون عليهما السلام:

نال موسى ﷺ النَّصِيب الأوفى من افتراءات اليهود، ومسّ هارون بعضُها، ومن هَذِهِ الافتراءات:

---

(١) «جرائم اليهود مع الأنبياء» للشيخ محمد بيومي (١٨).

قولهم في توراتهم المحرّفة: «إنَّ موسى لَـمَّا رأى العذاب والهلاك واقعٌ لا محالة باليهود، قَالَ موسى للرّب: لماذا يا ربّ يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوّة عظيمة وبيدٍ شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال وينفيهم عن وجه الأرض؟

ارجع عن حمو غضبك واندم على الشّر بشعبك، اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذي حلفت لهم بنفسك قلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطى نسلكم كل هَذِهِ الأرض التي تكلّمت عنها فيملكونها إلِى الأبد، فندم الرّب على الشّر الذي قَالَ إنه يفعله بشعبه»[١].

إنه سوء الأدب في أحط صُورِه وألوانِهِ.

ومنها قولهم عن موسى عليه السلام: إنه منتفخ الخُصيتين، أي: آدَر.

لماذا؟ لأنه لم يكن يغتسل معهم عُريانًا، منعه حياؤه، فافتروا عليه، ورموه بالعيب دون بينةٍ.

فلم يراعوا حُرمته، ولم يحفظوا مكانته؟

فهل هناك سفاهة أعظم من هَذِهِ السفاهة؟!

نبيٌّ أمين، يُتهّم بهذا العيب المشين؟!

جاء في سفر الخروج: «... ولما رأى الشّعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل[٢] اجتمع الشّعب على هارون، وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأنَّ هَذَا موسى الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه؟!

فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذّهب التي في آذان نساءكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذَّهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذَلِكَ من أيديهم، وصوّره بالأزميل، وصنعه عجلًا مسبوكًا.

فقالوا له: هَذِهِ آلهتك يا إسرائيل التي صعدتك من أرض مصر، فلما نظر

---

(١) «سفر الخروج» الإصحاح الثاني والثلاثون (١١ - ١٤).

(٢) يعني: جبل الطور، لَـمَّا ذهب لميقات ربّه.

هارون بنى مذبحًا أمامه، ونادى هارون وقال: غدًا عيد الرّب - يعني العجل الصّنم - فبكَّروا في الغد، وأصعدوا محرقات، وقدَّموا ذبائح سلامة»(١).

وهكذا وضع محرّفُ التَّوراة هارون ﷺ مكان السَّامِريّ. فـ ﴿لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

عباد الله ...

هذه بعض افتراءات اليهود على الأنبياء والمرسلين، وهي غيضٌ من فيضٍ، وقطرةٍ من بحر.

نسأل الله تعالى السَّلامةً من كل إثم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والأمر الثالث: بيان أنَّ الحياء من الإيمان:

يدلُّ على ذَلِكَ: ثناءُ النبيّ ﷺ على موسى ﷺ بقوله: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**».

والحياء هو: انقباضُ النَّفْس وتحفُّظُها عمَّا يَعيبُها من فِعلٍ أو قول.

وهو وثيق الصّلة بالعفّة والإيثار والصَّبر والحلم والعفو وطيب العِشرة.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ**». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ. قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى**(٢) **وَتَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى،**

---

(١) «سفر الخروج» الإصحاح الثاني والثلاثون.

(٢) كالسمع والبصر واللِّسان.

وَتَتَذَكَّرَ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»(١).

الأمر الرابع: إثبات المعجزات للأنبياء:

وفي القصّة معجزتان لموسى عليه السلام:

إحداهما: مَشْي الحجر بثوبه إلى ملأ بني إسرائيل.

والثانية: حصول النّدب في الحَجَر.

الأمر الخامس: جواز الغسل عُريانًا:

يدلّ على ذَلِكَ: قولُ النبيّ ﷺ عن موسى عليه السلام: «**فَاغْتَسَلَ عِنْدَ مُوَيْهٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ**».

الأمر السادس: جواز إظهار العورة للضرورة:

يدلّ على ذَلِكَ قوله ﷺ عن موسى عليه السلام: «**وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ قَالَ فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ فَفَرَّ الحَجَرُ بِثَوْبِ مُوسَى قَالَ فَجَمَحَ مُوسَى يَأْمُرُهُ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْأَةِ مُوسَى...**».

قَالَ الحافظ ابن حجر – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث: «وفيه جواز النّظر إلى العورة عند الضرورة الدّاعية لذلك من مُداواة أو براءة من عَيب، كما لو ادّعى أَحَدُ الزَّوجَين على الآخر البَرَص ليفسخ النكاح فأنكر» ا.هـ(٢).

الأمر السابع: بيان أن الأنبياء في خَلقهم وخُلقِهم على غاية الكمال:

يدلُّ على ذَلِكَ: قوله تعالى: ﴿**فَبَرَّأَهُ اللَّـهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا**﴾.

وقوله ﷺ: «**فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا**».

هذا وما بعث اللّـهُ تعالى نبيًّا إلا تامّ الخَلَق والخُلُق.

---

(١) حسن: حسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٥٠٥).

وها هو جابر بن سَمُرة ﷺ يصف النّبيّ ﷺ فيقول: «رأيت رسولَ الله ﷺ في ليلة إضحِيان[١]، وعليه حُلّة حمراء، فجعلتُ أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسنُ مِن القمر»[٢].

ولا يخفى أنَّ نفوس النَّاس قد جُبَلت على حُبّ الجمال، لذلك ثبت في مسند البّزار وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا بَعَثْتُمْ رَسُولا فَابْعَثُوهُ حَسَنَ الوَجْهِ، حَسَنَ الاسْمِ**»[٣].

فإذا ضُمَّ إلى جمال الوجه نقاءُ السّريرة، وطهارةُ السّيرة، وفوق كل ذَلِكَ التأييد الإلهيّ، فقد تمّ الأمر، لأنَّ هَذِهِ وسائل يَفتح اللَّـهُ بها القلوب، ﴿**اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

اللَّهمَّ اجعلنا مِن أحبِّ خَلْقِك إليك، ومِن المقرَّبين لَدَيْك

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

---

(١) أي: مضيئة مُقمرة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وصحّحه الألباني في «مختصر الشمائل» (٢٧).

(٣) صحيح: رواه البزّار، والطبراني في «الأوسط»، وانظر «صحيح الجامع» (٤١٣).

الخطبة الثالثة والأربعون:

وفاة مُوسَى عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة مُوسَى عليه السلام.

ونلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع وفاة مُوسَى عليه السلام.

عباد الله...

ذكرت كُتب السِّير والتاريخ أن هارون عليه السلام تُوفِّي قبل أخيه مُوسَى عليه السلام بعامٍ.

وبعد حياة حافلة بالعطاء، لقي مُوسَى بن عمران عليه السلام من قومه ما مرّ بعضه،

يُجمل هَذِهِ الحياة الإمام ابن كثير - رحمه الله - فيقول:

«وبالجملة فشريعة مُوسَى عليه السلام كانت عظيمة وأمَّته كانت أمَّة كثيرةً، ووُجد فيها أنبياءُ وعلماء، وعُبَّادٌ وزُهّاد وألبّاءُ، ومُلوكٌ وأمُراءُ، وسَادات وكُبراءُ، ولكنهم كانوا فبادُوا وتبدَّلوا كما بُدّلت شريعتهُم، ومُسخوا قردة وخنازير، ثُمَّ نُسخت بعد كُلّ حساب ملّتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها»[1].

وقبل وفاته حَجّ عليه السلام إلى البيت الحرام، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ فَقَالَ: «أَيُّ وَادٍ هَذَا». قَالُوا: هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ. فَقَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَهُوَ هَابِطٌ مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّلْبِيَةِ...**» الحديث[2].

أيها المسلمون...

لوفاة مُوسَى عليه السلام قصّة:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قَالَ: «**أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ - فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ**[3]**، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لاَ يُرِيدُ الْمَوْتَ. قَالَ: ارْجِعْ إليه، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ**[4]**، فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ.**

قَالَ: أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ. قَالَ: فَالآنَ.

فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِيَهُ[5] **مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ**[6]».

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ**

---

(١) «البداية» (١/ ٣٧٣).
(٢) رواه أحمد (١/ ٢١٥، ٢١٦)، ومسلم (٤١٩).
(٣) صكَّهُ: لطمه.
(٤) مَتن ثَور: ظَهر ثور.
(٥) يدنيه: يقرّبه.
(٦) رمية بحَجَر: قَدر ما يبلغه.

الكَثِيبِ[١] الأَحْمَرِ»[٢].

وفي رواية عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «جَاءَ مَلَكُ المَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ[٣]. قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَيْنَ مَلَكِ المَوْتِ فَفَقَأَهَا. قَالَ: فَرَجَعَ المَلَكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِى إِلَى عَبْدٍ لَكَ لاَ يُرِيدُ المَوْتَ وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِى.

قَالَ: فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِى فَقُلِ: الحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً.

قَالَ: ثُمَّ مَه[٤]، قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ رَبِّ أَمِتْنِى مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْ أَنِّى عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ»[٥].

أنكر بعض المبتدعة - قديمًا وحديثًا - هَذِهِ القصّة، وردّوها بتصوّرات واهية.

وإن تعجب فعجب رَدّ الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - لها أيضًا، فقد قَالَ في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»:

«وقد وقع لي وأنا بالجزائر: أن طالبًا سألني أصحيح أن موسى عليه السلام فقأ عَينَ ملك الموت عندما جاء لقبض روحه بعدما استوفى أجله؟ فقلت للطالب وأنا ضائق الصَّدر: ماذا يفيدك هَذَا الحديث؟ إنه لا يتصل بعقيدة ولا يرتبط به عمل» ثم قَالَ له: «اشتغل بما هو أجدى لك».

يقول: «وعدتُ لنفسي أفكّر، إن الحديث صحيح السّند لكن مَتْنه يثير ا الرّيبة،

(١) الكثيب: الرَّمل المجتمع.

(٢) رواه البخاري (١٣٣٩)، (٣٤٠٧)، وأحمد في «المسند» برقم (٧٦٣٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٢٩٦).

(٣) أجب ربك: أي: للموت، ومعناه: جئت لقبض روحك.

(٤) ثم مه: استفهام، أي: ثمَّ ماذا يكون أحياة أم موت؟ والهاء: هاء السكت.

(٥) رواه مسلم (١٥٨)، (٢٣٧٢).

يفيد أن موسى يكره الموت ولا يُحب لقاء الله بعد ما انتهى أجله، وهذا المعنى مرفوض بالنسبة للصّالحين من عباد الله، فكيف بأنبياء الله، إن كراهيته للموت أمرٌ مُستغرب[(١)]، ثم هل الملائكة تُعرض لهم العاهات التي تعرض للبشر من عمى أو عور، وذلك بعيد».

إلى أن قَالَ: «قَالَ المازري: قد أنكر بعضُ الملاحدة هَذَا الحديث وأنكر تصوّره».

ثم ذكر أجوبة نقلها الشيخ الغزالي عنه[(٢)].

وبعد ذَلِكَ قَالَ الغزالي: «هَذَا دفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يساغ، ومَن وصم منكر الحديث بالإلحاد فهو يستطيل في أعراض المسلمين، والعلّة في المتن يُبصرها المحققون، وتخفى على أصحاب الفكر السّطحي» ا.هـ[(٣)].

وتوالت الردود على الشيخ الغزالي من كُلّ مكان، وقرأتُ بعضها، ومن الرّدود التي أعجبتني ردّ الشيخ سلمان بن فهد العُودة، فقد قَالَ كلامًا يستحق التسجيل:

قَالَ - حفظه الله - :

١- حديث أبي هريرة ﷺ في قصّة مجيء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، رواه البخاريّ ومسلم وأحمد في «مسنده»، وابن خزيمة وغيرهم، وقول المؤلف في أول حديثه: «ماذا يفيدك هَذَا الحديث» لهذا الطالب السّائل. أقول: فوائد الحديث كثيرة:

منها: ابتلاء الإنسان بالإيمان بالغيب، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جعل مِن أخصّ

---

(١) هناك فرقٌ بين كراهية الموت، وكراهية لقاء الله تعالى، فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ الله فَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ». رواه البخاريَ (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤).

(٢) ستأتي هذه الأجوبة بعد قليل إن شاء الله تعالى.

(٣) «السُّنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» (٢٦).

خصائص المؤمنين أنَّهُمْ يؤمنون بالغيب، فهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي ثبتت هي من الغيب الذي يُبْتلى المؤمنون بالإيمان به فضلًا عن ربط المؤمن بالأجيال السابقة من خلال التفصيلات النبويّة، فإنَّ الرسول ﷺ كثيرًا ما كان يذكر لبعض أصحابه بعض القضايا والقصص والتفاصيل والأحداث التي حدثت في الأجيال والقرون السابقة حتى يربطهم بتلك الأجيال ويشعرهم بأن السابق واللاحق من أمّة الإسلام أمّة واحدة، يدعو لاحقُها لسابقها، ويدعو سابقُها للاحقها، وإلّا فأنت تجد كثيرًا من القصص التي ذكرها النبيُّ ﷺ عن بني إسرائيل في «الصحيحين» وغيرهما، وقد يرد السؤال نفسه: ما الفائدة منها؟ فنقول: هَذِهِ الفائدة.

كذلك الكشف عن طبيعة الإنسان، خاصّة في بعض المواقف حتى حين يكون نبيًّا مصطفى مختارًا، فإنه لا يخرج عن إنسانيّته وبشريّته.

هَذَا إضافة إلى بعض الفوائد الفقهية وهي كثير، ذكرها أهلُ العلم منها: فضلُ الموت في الأرض المقدّسة، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «**مَن استطاع منكم أن يموت بالمدينة فَليَمُت**»(١). وذلك لأنَّ مُوسَى عليه السلام في آخر الحديث قَالَ: «**ربّ أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر**».

وقد يُستفاد منها: حماية الأنبياء لجانب التوحيد لما يدلّ عليه هَذَا الدعاء من حرص موسى على عدم اشتهار قبره ومعرفة بني إسرائيل به لما يخشى من عبادتهم له، إلى غير ذَلِكَ من الفوائد الفقهية والعلمية.

٢- قول المؤلّف: «إنه يستغرب أن موسى يكره الموت بعدما جاءه مَلَك الموت».

أقول: كَون موسى عليه السلام وغيره يكره الموت، ليس أمرًا مستغربًا، فكراهية الموت جبلة في كل إنسان، ولذلك لَـمَّا ذكر الرسول ﷺ في حديث عائشة وأبي هريرة وهما في «الصّحيح»: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ**

(١) حسن: رواه الطبراني، وانظر «الترغيب والترهيب» (١٨٣٠).

اللَّهُ لِقَاءَهُ»، قَالَ له الصحابة: يَا رَسول الله أَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ؟ فَكُلُّنَا يَكْرَهُ المَوْتَ، فَقَالَ: **«لَيْسَ كَذَلِكِ وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»**.

والتابعون لَـمَّا روى لهم أبو هريرة الكلام نفسه قالوا الإيراد نفسه، فكلّنا يكره الموت؟ إن كان كذلك فقد هلكنا، فمن طبيعة الإنسان أن يكره الموت مهما كان، ولا غرابة أن يكرهه موسى عليه الصَّلاة والسلام.

٣- أمَّا العاهة التي ذكرها واستغرب أن تُوجَد بالمَلك، فإنَّ العاهة هاهنا عاهة عارضة للصّورة التي تصوّر بها المَلَك وليس للصّورة الأصليّة التي خُلق عليها، وقد ثبت أن المَلَك يتصوّر للنّبي بصور شتّى فلا مانع أن يعرض لهذه الصّورة عارضٌ؛ لأنها صورة بشريّة وليست صورة المَلَك التي خلقه الله تعالى عليها، والمَلَك على كلّ حالٍ عبدٌ مخلوق من عدم، وصائرٌ إلى الموت، ويبقى وجه ربّك ذو الجلالِ والإكرام.

٤- قوله: «وهو دفاع تافه لا يُساغ!!» هَذَا غير جيّد، لأنَّ هَذِهِ أقوال علماء كبار يجب احترامهم، ومعرفة فضلهم، حتى لو لم يقبل الإنسانُ آراءهم، فالتأدّب معهم واجب.

وكذلك قوله: «يبصرها المحققون، وتخفى على أصحاب الفكر السّطحي» يعني العلّة الموجودة بالحديث. هل يصح وصف أئمة الحديث كالبخاري ومسلم، وأحمد، والنسائيّ، وابن خزيمة، وغيرهم، بأَنَّهُمْ من أصحاب الفكر السّطحي؟ وكذلك رجال الإسناد الذين رووه؟ والذين تكلّموا على متنه مُقرّين له، هل يجوز وصفهم بأَنَّهُمْ من أصحاب الفكر السطحي؟

ثم مَن يعني بالمحققين؟ هلا ذكر لنا واحدًا منهم؟ واحدًا فقط مِمَّن يصح أن يُسمّى مُحققًا؟

الأَوْلَى أن نقول لمن لا يقبل هذا الحديث: إن هذا الحديث ثابت الإسناد وقد قَبلَهُ أهلُ العلم وأوّلُوه على تأويلات كثيرة.

وليس ردّك لهذا الحديث مُوجبًا لوصفك بالكفر والضلال والإلحاد والزندقة، وما قاله العلماء السابقون، كما قال المازري وابن خزيمة: «إنَّ الملاحدة لا يؤمنون بهذا الحديث» ليس مقصودهم أن من لم يؤمن بهذا الحديث فهو مُلحد، لا إنما مقصودهم حكاية الواقع الذي يعيشونه في عصرهم أنَّ الملاحدة يتمسكون بهذا الحديث وأمثاله للطّعن بالسُّنة كلّها، وهذا موجود، ولا يعني أن من لم يقل بهذا الحديث فهو مُلحد، إذ أن هذا الحديث يحتاج إلى أن نقول: إنه متواتر، أو إنه يفيد العلم اليقيني القطعي حتى نصف مَن أنكره بالإلحاد، إنما الأمر الذي كان يحسن ألّا يقع هو وصف الدفاع بأنه دفاع تافه لا يُساغ، ووصف مَن يؤمنون بهذا الحديث أنَّهُمْ من أصحاب الفكر السّطحي» ا.هـ[1].

عباد الله ...

وإتمامًا للفائدة نذكر بعض أقوال الأئمة في هَذَا الحديث:

قَالَ الإمام ابن حِبَّان - رحمه الله تعالى - : «هَذَا الخبر من الأخبار التي يُدرك معناه مَن لم يُحرَم التَّوفيق لإصابة الحق، وذلك أنَّ الله جلّ وعلا أرسل ملك الموت إلى موسى، رسالة ابتلاءٍ واختيارٍ، وأمره أن يقول له: أجب ربَّك أمر اختبار وابتلاء، لا أمرًا يريد الله جل وعلا إمضاءه، كما أمر خليله - صلى الله على نبيِّنا وعليه - بذبح ابنه، أمر اختبار وابتلاء، دون الأمر الذي أراد الله جل وعلا إمضاءه، فلمّا عزم على ذبح ابنه وتلّه للجبين، فداه بالذّبح العظيم، وقد بعث الله جل وعلا الملائكة إلى رسله، في صور لا يعرفونها، كدخول الملائكة على إبراهيم ولم يعرفهم، حتى أوجس مِنْهُمْ خيفة، وكمجيء جبريل إلى رسول الله ﷺ وسؤاله إيَّاه عن الإيمان والإسلام، فلم يعرفه المصطفى ﷺ حتى وَلَّى.

فكان مجيء ملك الموت إلى موسى على غير الصّورة التي كان يعرفه موسى عليه السلام عليها، وكان موسى غيّورًا، فرأى في داره رجلًا لم يعرفه، فشال يده فلطمه، فأتت لطمته على فَقءِ عَينه التي في الصّورة التي يتصوّر بها، لا الصّورة التي

---

(١) «حوار هادئ مع الشيخ محمد الغزالي» (٩٤ - ٩٦) باختصار يسير.

خلقه الله عليها.

ولما كان من شريعتنا أنَّ من فقأ عين الداخل داره بغير إذنه، أو الناظر في بيته بغير أمره، من غير جناح على فاعله، ولا حرج على مرتكبه، للأخبار الجمّة الواردة فيه، التي أمليناها في غير موضع من كتبنا: كان جائزًا اتفاق هَذِهِ الشريعة - شريعة موسى - بإسقاط الحرج عمَّن فقأ عين الداخل داره بغير إذنه فكان استعمال موسى ﷺ هَذَا الفعل مباحًا له، ولا حرج عليه في فعله، فلمَّا رجع ملكُ الموت إلى ربِّه، وأخبره بما كان من موسى فيه، أمره ثانيًا بأمرٍ آخر، أمر اختبار وابتلاء - كما ذَكَرْنَا - من قبل إذ قَالَ الله له: قل له: إن شئت فضع يدك على مَتن ثور فلك بكل ما غَطّت يَدُك بكلُ شَعرةٍ سَنَة.

فلمَّا علم موسى - كليم الله صلى الله على نبيّنا وعليه - أَنَّهُ مَلَك الموت وأنه جاءه بالرّسالة من عند الله، طابت نفسه بالموت، ولم يستمهل، وقال: فالآن فلو كانت المرّة الأولى عرفه موسى ﷺ أَنَّهُ ملك الموت، لاستعمل ما استعمل في المرّة الأخرى، عند تيقّنه وعلمه به، ضد قول من زعم أن أصحاب الحديث حَمَّالةُ الحَطَب، ورعاةُ اللَّيل، يجمعون ما لا ينتفعون به، ويروون ما لا يؤجرون عليه، ويقولون بما يبطله الإسلام، جهلًا منه بمعاني الأخبار، وترك التفقّه في الآثار، مُعتمدًا في ذَلِكَ على رأيه المنكوس، وقياسه المعكوس» ا.هـ[1].

وقال الإمام النووي - رحمه الله -: قَالَ المَازِرِيّ: وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْض المَلَاحِدَة هَذَا الحَدِيث، وَأَنْكَرَ تَصَوُّره، قَالُوا كَيْف يَجُوزُ عَلَى مُوسَى فَقْء عَيْن مَلَك المَوْت؟ قَالَ: وَأَجَابَ العُلَمَاء عَنْ هَذَا بِأَجْوِبَةٍ:

أَحَدهَا: أَنَّهُ لَا يَمْتَنِع أَنْ يَكُونَ مُوسَى صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَذِنَ اللَّه تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ اللَّطْمَة، وَيَكُون ذَلِكَ اِمْتِحَانًا لِلْمَلْطُومِ، وَاللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى يَفْعَلُ فِي خَلْقه مَا شَاءَ، وَيَمْتَحِنُهُمْ بِمَا أَرَادَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ هَذَا عَلَى المَجَاز، وَالمُرَاد أَنَّ مُوسَى نَاظَرَهُ وَحَاجَّهُ فَغَلَبَهُ بِالحُجَّةِ،

وَيُقَالُ: فَقَأَ فُلَان عَيْن فُلَان إِذَا غَالَبَهُ بِالحُجَّةِ، وَيُقَالُ: عَوَرْت الشَّيْء إِذَا أَدْخَلْت فِيهِ نَقْصًا قَالَ: وَفِي هَذَا ضَعْفٌ لِقَوْلِهِ ﷺ: «فَرَدَّ اللَّه عَيْنه» فَإِنْ قِيلَ: أَرَادَ رَدّ حُجَّته كَانَ بَعِيدًا.

وَالثَّالِث: أَنَّ مُوسَى عليه السَّلام لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مَلَك مِنْ عِنْد الله، وَظَنَّ أَنَّهُ رَجُلٌ قَصَدَهُ يُرِيدُ نَفْسَهُ، فَدَافَعَهُ عَنْهَا، فَأَدَّتْ المُدَافَعَةُ إِلَى فَقْءِ عَيْنِهِ، لَا أَنَّهُ قَصَدَهَا بِالفَقْءِ، وَتُؤَيِّدُهُ رِوَايَة (صَكَّهُ)، وَهَذَا جَوَاب الإِمَام أَبِي بَكْر بْن خُزَيْمَةَ وَغَيْره مِنْ المُتَقَدِّمِينَ، وَاخْتَارَهُ المَازِرِيّ وَالقَاضِي عِيَاض، قَالُوا: وَلَيْسَ فِي الحَدِيث تَصْرِيح بِأَنَّهُ تَعَمَّدَ فَقْء عَيْنه.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ اِعْتَرَفَ مُوسَى حِين جَاءَهُ ثَانِيًا بِأَنَّهُ مَلَك المَوْت.

فَالجَوَاب: أَنَّهُ أَتَاهُ فِي المَرَّة الثَّانِيَة بِعَلَامَةٍ عَلِمَ بِهَا أَنَّهُ مَلَك المَوْت، فَاسْتَسْلَمَ بِخِلَافِ المَرَّة الأُولَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ» ا.هـ[١].

وقال الإمام ابن قتيبة - رحمه الله - : «إنما فقأ موسى عليه السلام العين التي هي تخييل وتمثيل وليست عينًا حقيقية، ومعنى «ردّ الله عينه» أي: أعاده إلى خِلقته الحقيقية، وقيل: على ظاهره، وردّ الله إلى مَلك الموت عينه البشرية ليرجع إلى موسى على كمال الصورة فيكون ذَلِكَ أقوى في اعتباره، وهذا هو المعتمد». ا.هـ[٢].

أيها المسلمون...

وقال الإمام النووي - رحمه الله -: «وَأَمَّا سُؤَاله الإِدْنَاء مِنْ الأَرْض المُقَدَّسَة فَلِشَرَفِهَا وَفَضِيلَة مَنْ فِيهَا مِنْ المَدْفُونِينَ مِنْ الأَنْبِيَاء وَغَيْرهمْ.

قَالَ بَعْض العُلَمَاء: وَإِنَّمَا سَأَلَ الإِدْنَاء، وَلَمْ يَسْأَلْ نَفْس بَيْت المَقْدِس، لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَكُون قَبْره مَشْهُورًا عِنْدهمْ فَيَفْتَتِن بِهِ النَّاس.

وَفِي هَذَا اِسْتِحْبَاب الدَّفْن فِي المَوَاضِع الفَاضِلَة وَالمَوَاطِن المُبَارَكَة، وَالقُرْب مِنْ

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥١٤).
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٥١٠).

مَدَافِنِ الصَّالِحِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ» ا.هـ. [(١)].

عباد الله...

وفيما ذكرناه الكفاية، لمن أراد الهداية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وخلاصة الكلام: يجب على المسلم الإيمان بما جاء في القرآن وصحيح السُّنة، ولا يقحم عقله في شيء فوق قدرته، ولا يرفع صوته فوق صوت الوحيين، فتزل قدمُه بعد ثبوتها، فقد جاء النَّهي عن ذَلِكَ، قَالَ الله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

آمين... آمين... آمين.

✪✪✪✪✪

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥١٣).

الخطبة الرابعة والأربعون:

قصة يوشع بن نون عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله مع قصّة «**يوشع بن نون**» عليه السلام.

عباد الله...

ويوشع بن نون عليه السلام هو فتى مُوسَى عليه السلام، والذي مرَّ ذكره في قصة مُوسَى والخِضر عليهما السلام.

ونكتفي هنا بذكر قصتين من حياته عليه السلام.

القصّة الأولى: تحريضه لبني إسرائيل عَلَى قتال الجبارين:

قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَـمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ العَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّـهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢١- ٢٦].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يَقُولُ تَعَالى مُخبرًا عَن عَبدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَليمَهُ مُوسَى بن عِمرَان ﷺ، فيما ذَكَّرَ بِهِ قَومَهُ نعَم الله عَليهم وآلائِهِ لَديهم، في جَمعِهِ لَهُم خيرَ الدُّنْيَا والآخِرَة لَو استقَامُوا عَلَى طَريقتهم المُستَقِيمة، فَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ أي: كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ قَام فِيكُم نَبِيٌّ مِن لَدُن أَبيكُم إبراهِيمَ وإلى من بَعدَهُ. وكَذلِكَ كَانُوا، لايَزالُ فِيهمُ الأنبيَاءُ يَدعُونَ إلى الله وَيُحذِّرونَ نِقمتَهُ، حَتَّى خُتِمُوا بِعِيسَى ابن مَريمَ ﷺ، ثُمَّ أَوحَى الله إلى خَاتِمِ الأنبياءِ والرُّسُلِ عَلَى الإطلَاقِ مُحمَّد بنِ عَبدِ الله، المَنسُوبِ إلى إسماعيل بن إبراهِيمَ - ﷺ - وهُوَ أَشْرَفُ مِن كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنهُم ﷺ.

وقَولُهُ: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ قيل: الخَادِمُ والمرأةُ والبَيتُ. عَن عَبدِ الله بن عَمرو ابن العَاصِ، وَسَألهُ رَجُلٌ فَقالَ: ألسْنَا مِن فُقَراء المُهَاجِرينَ؟ فَقالَ عَبدُ الله: أَلَك امرَأةٌ تَأوي إليهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قال: أَلَكَ مَسكَنٌ تَسكُنُهُ؟ قَالَ: نَعم. قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الأغْنِياءِ. فَقالَ: إنَّ لي خَادِمًا. فَقَالَ : فأنت مَنَ المُلُوكِ(١).

وقوله: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ ﴾ يَعني عَالَمِي زَمانِكُم، فَإِنَّهُم كَانُوا أشرَفَ النَّاسِ في زَمانِهم، مِن اليُونانِ والقِبطِ وسَائِرِ أصنَافِ بَنِي آدَمَ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

(١) رواه مسلم (٢٩٧٩).

عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [الجاثية: ١٦] وقال تعالى إخبارًا عَن مُوسَى لَـمَّا قَالُوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

عباد الله...

والمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أفْضَلَ أَهْلِ زَمانِهم، وإلَّا فَهذِهِ الأمَّةُ أشرَفُ مِنْهُمْ، وأفْضَلُ عِند الله، وَأكمَلُ شَريعَةً، وأقْوَمُ مِنْهَاجًا، وأكرَمُ نبيًّا، وأعظَمُ مُلكًا، وأغْزَرُ أرزَاقًا، وأكثَرُ أمْوَالًا وَأولادًا، وأوسَعُ مَملكَةً، وأدوَمُ عِزًّا، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقَدْ ذَكَرْنَا الأحَاديثَ المُتَواتِرَة في فضل هَذِهِ الأُمَّة وشَرفِهَا وكَرمِهَا عِندَ الله، عِند قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران.

وقالَ بَعضُ العُلماءِ في قَولِهِ: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ﴾ يعني: أُمَّة مُحَمَّد ﷺ، وكأنَّهُمْ أرادوا أنَّ هَذَا الخِطابَ في قَولِهِ: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ﴾ مَع هَذِهِ الأُمَّةِ. والجُمهُورُ عَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ مِن مُوسَى لِقومِهِ وهُوَ مَحمولٌ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهم كَمَا قَدَّمنَا.

وقيل: المرادُ: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ﴾ يَعنِي بِذلكَ: مَا كَانَ تَعَالى نَزَّلَهُ عَليهم مِن المَنِّ والسَّلوىَ، وتَظلَّلهم مِن الغَمَام وغَير ذَلكَ مِمَّا كَانَ تعَالى يَخُصُّهم بِهِ مِن خَوارق العَادات، فالله أعلم.

ثُمَّ قَالَ تعالى مُخبرًا عَن تَحريضِ مُوسَى - عليه السلام - لِبَنِي إسرائيلَ عَلَى الجِهادِ والدُخُول إلى بَيتِ المَقدِس، الَّذِي كَانَ بِأيديهم في زَمَانِ أبِيهِم يَعقُوب، لَـمَّا ارْتَحل هُوَ وبَنُوهُ وأهلُهُ إلى بِلادِ مِصرَ أيَّامَ يُوسُفَ عَليه السَّلام، ثُمَّ لم يَزالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى فَوجَدُوا فِيها قَومًا مِن العَمَالقةِ الجَبَّارِين، قَدْ اسِتَحوذُوا عَليهَا وتَمَلَّكُوها، فَأمَرَهُم رَسُولُ الله مُوسَى - عليه السلام - بِالدُّخُولِ إليهَا، وبِقتَالِ أعْدَائِهم، وَبَشَّرهُم بِالنُّصرةِ والظَّفَرِ عَليهم، فنكَلُوا وعَصوْا وخَالَفُوا أمرَهُ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهابِ فِي التِّيهِ والتَّمادِي فِي سَيرهِم حَائِرينَ، لا يَدرُون كَيفَ يَتوجَّهونَ فيه إلى

مَقصِدٍ، مُدّة أربَعين سَنةً، عُقُوبةً لَهُم عَلَى تَفرِيطهم في أمرِ الله تَعَالى، فَقالَ تَعَالى مُخبرًا عَن مُوسَى أَنَّهُ قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ﴾ أي: المُطهَّرَةَ.

قَالَ غَير واحدٍ مِن العُلماء هِي: الطُّورُ ومَا حولَهُ. وقيلَ هي: أريحَاءُ، وفي هَذَا نظَرٌ؛ لأنَّ أريحَاءَ لَيست هي المقصُودةُ بِالفَتح، ولا كَانت في طَرِيقهم إلى بَيتِ المقدِسِ، وقَد قَدِمُوا مِن بِلاد مِصْرَ حِينَ أهلَكَ الله عَدوَّهُم فِرعَون، اللَّهُمَّ إلَّا أن يَكُون المُرادُ بأريحاءَ أرضِ بَيتِ المقدِسِ، كَمَا قالهُ السُّدِّيُّ فيما رَواه ابنُ جَريرٍ عنهُ، لا أنَّ المُراد بِها هَذِهِ البَلدةِ المعرُوفَةِ في طَرَفِ الغَورِ، شَرقيِّ بَيتِ المقدسِ.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: الَّتِي وعَدَكُمُوها الله عَلَى لِسانِ أبِيكُم إسْرائِيلَ أَنَّهُ وِرَاثَةُ مَنْ آمَنَ مِنْكُم. ﴿وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ أي: ولا تَنكُلُوا عِنِ الجِهَاد ﴿فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ أي: اعتَذَرُوا بأنَّ في هَذِهِ البَلدةِ - الَّتِي أمَرتَنَا بِدُخُولِهَا وقِتَالِ أهْلهَا- قَومًا جَبَّارين، أي: ذَوِي خَلْقٍ هَائلةٍ، وقُوًى شَديدةٍ، وإنَّنا لا نَقدِرُ عَلَى مُقَاومتِهم وَلَا مُصَاولَتِهِم، وَلَا يُمكنُنَا الدُّخُولُ إليهَا مَا دَامُوا فَيهَا، فإنْ يَخرُجُوا مِنْها دَخلنَاهَا وإلَّا فَلَا طَاقةَ لنَا بِهِمْ.

وقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِن المُفسِّرينَ هَاهُنَا أخْبَارًا مْنَ وَضْع بَنِي إسرَائِيلَ في عَظَمَةِ خَلقِ هَؤلاءِ الجَبَّارينَ، وأنَّهُ كَانَ فِيهِمُ عُوجَ بَن عنقَ بنِ آدَمَ ﷺ، وأنَّهُ كَانَ طُولُهُ ثَلاثةُ آلافِ ذِراعٍ وثَلاثمائةٍ وثَلاثةٌ وثَلاثُونَ ذِراعًا وثُلُث ذِرَاع، تَحْرِيرُ الحِسابِ! وهَذَا شَيءٌ يَستَحي مِن ذِكرِه. ثُمَّ هُو مُخَالِفٌ لما ثَبتَ في الصَّحيحين أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله تَعَالى خَلَقَ آدَمَ وطُولُهُ سِتُّونَ ذِراعًا، ثُمَّ لم يَزَلِ الخَلقُ يَنقُصُ حَتَّى الآن»[1].

وقَولُهُ تَعالى: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إسرَائِيل عَنْ طَاعَةِ الله وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ الله مُوسَى - ﷺ - حَرَّضَهُم رَجُلانِ، لله عَليهِمَا نِعمَةٌ عَظيمَةٌ، وَهُما مِمَّن يَخَافُ أمرَ الله وَيَخشَى عِقابَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

وقَرَأ بَعضُهُم: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ﴾ أي: مِمَّن لَهُم مَهَابةٌ ومَوضِعٌ مِنَ النَّاسِ. وَيُقَالُ: إنَّهُما «يُوشَعُ بْنُ نُونٍ» و«كَالِبُ بنُ يوفْنَا»، قَالَهُ غَيرُ واحدٍ مَنَ السَّلفِ والخَلَفِ - رَحِمهُمُ الله - فَقَالا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنْ تَوكَّلتُم عَلَى الله واتَّبعتُمْ أمْرَهُ، ووافَقتُم رَسُولَهُ، نَصَرَكُمُ الله عَلَى أعدائِكُم وأيَّدكُم وَظَفَّرَكُم بهِم، ودَخلتُمُ البَلدةَ الَّتِي كَتَبَها الله لَكُم. فَلَم يَنفَع ذَاكَ فِيهم شيئًا. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون﴾ وهَذَا نُكُولٌ مِنْهُمْ عَنِ الجِهَادِ، ومُخالفَةٌ لِرَسُولِهِم وتَخَلُّفٌ عَن مُقاتَلةِ الأعْدَاءِ.

وَمَا أحسَنْ مَا أجَابَ بِهِ الصَّحابَةُ رَضِي الله عَنهُم - يَوْمَ بَدرٍ رَسُولَ الله ﷺ حِينَ اسْتَشَارهُم في قِتالِ النَّفِير الَّذينَ جَاءُوا لِمَنعِ العِير الَّذِي كَانَ مَعَ أَبِي سُفيَانَ، فَلَمَّا فَاتَ اقْتِناصُ العِيرِ، وَاقتَرَبَ مِنْهُمْ النَّفِير، وَهُم في جَمعٍ مَا بَيْنَ التِّسعمائَةِ إلى الألفِ، فِي العُدَّةِ والبَيْض واليَلبِ[1]، فتكلَّم أَبُو بَكرٍ ﷺ فَأَحسَنَ، ثُمَّ تَكَلَّم مَنْ تكلَّمَ مِنَ الصَّحابةِ مِنَ المُهَاجِرينَ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «أَشِيرُوا عليَّ أيُّها المُسْلِمُونَ». وَمَا يَقُولُ ذَلِكَ إلَّا لِيَستعلَمَ مَا عِندَ الأنْصَارِ؛ لأنَّهُمْ كَانُوا جُمهُورَ النَّاس يَومئذٍ. فَقَالَ سَعْدُ بنُ مُعاذٍ[2] ﷺ كَأنَّك تُعرِّض بنَا يَا رَسُول الله، فَوالَّذِي بَعثَكَ بِالحَقِّ لَوِ اسْتَعرضْتَ بنَا هَذَا البَحرَ فَخُضْتَه لَخُضنَاهُ مَعَكَ، وَمَا تَخَلَّف مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكرَه أنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غدًا، إنَّا لَصُبرٌ في الحَربِ، صِدقٌ فِي اللِّقاءِ، لَعَلَّ الله يُريَكَ مِنَّا مَا تَقرُّ بِهِ عَينُك، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ لِقَولِ سَعدٍ، ونَشَّطَهُ ذَلِكَ.

وَقَالَ عَبْدُ الله بن مَسعُودٍ ﷺ : لَقَدْ شَهِدتُ مَنَ المِقدَادِ مَشْهدًا لِئَنْ أكُونَ أَنَا صَاحِبُهُ أحبُّ إليَّ مِمَّا عُدِلَ بهِ: أتى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ يَدعُو عَلَى المُشركِينَ، فَقَالَ: وَالله يَا رَسُولَ الله لا نَقُولُ كَمَا قَالَت بَنُو إسرَائِيل لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمينكَ وَعَنْ يَسَارِكَ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ

---

(١) اليلب: الدروع من الجلود.

(٢) في «صحيح مسلم» (١٧٧٩): سعد بن عبادة رَضِي الله عَنْهُ.

وَمِنْ خَلفِكَ. فَرَأيتُ وَجهَ رَسُولِ الله ﷺ يُشرقُ لِذَلكَ، وَسُرَّ بِذَلك[(١)].

وقَولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: لَـمَّا نَكَلَ بَنُو إسرَائِيلَ عَنِ القِتَالِ غَضِبَ عليهم مُوسَى - عليه السلام - وقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِم: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: لَيسَ أَحَدٌ يُطيعُنِي مِنْهُمْ فَيمتَثِلَ أَمْرَ الله، وَيُجيبَ إلى مَا دَعَوتُ إلَيهِ إلَّا أَنَا وأخِي هَارُونَ، ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ بَعضُ العُلَماءِ: يَعْنِي اقْضِ بَيْنِي وبَينَهُم. وكَذا قَالَ الضَّحَّاكُ: اقْضِ بَينَنَا وبَينَهُم، وافْتَح بَيْنَنَا وبَيْنَهم، وقَالَ آخرُونَ: أُفرُق: افْصِل بَينَنَا وَبَينَهُمْ.

وقَولُهُ تَعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ لَـمَّا دَعَا عَلَيهم مُوسَى عليه السلام حِين نَكَلُوا عَنِ الجِهَادِ حَكَمَ الله عَليهم بِتَحريم دُخُولِهَا قَدْرَ مُدَّةِ أَربَعين سَنَةً، فَوَقَعُوا فِي التِّيهِ يَسِيرُونَ دَائمًا لَا يَهتدُونَ لِلخُرُوجِ مِنُه، وَفِيهِ كَانت أُمُورٌ عَجِيبَةٌ، وَخَوَارِقُ كَثِيرةٌ، مِنْ تَظْلِيلِهم بِالغَمامِ وإِنْزَالِ المَنِّ والسَّلوَى عَلَيهم، وَمِنْ إِخْرَاجِ المَاءِ الجَارِي مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ تُحمَلُ مَعَهُم عَلَى دَابَّةٍ، فَإِذَا ضَرَبَهَا مُوسَى بِعَصَاهُ انْفَجَرَت مِنْ ذَلِكَ الحَجَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَينًا تَجْرِي لِكُلِّ شِعبٍ عَينٌ، وغَير ذَلِكَ مِن المُعْجِزَاتِ الَّتِي أَيَّدَ الله بِهَا مُوسَى بن عِمرَانَ. وَهُنَاكَ نَزَلَتِ التَّورَاةُ، وشُرِعَت لَهُم الأحكَامُ، وعُمِلَت قُبَّةُ العَهدِ، ويُقال لَهَا: قُبَّةُ الزَّمَانِ.

عَنْ سَعيدِ بْنِ جُبيرٍ: سَألتُ ابنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ الآيَةُ. قَالَ: فَتَاهُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، يُصبحُونَ كُلَّ يَوْم يَسِيرُونَ لَيسَ لَهُم قَرَارٌ، ثُمَّ ظَلَّلَ عَليهمُ الغَمامَ فِي التِّيهِ، وأَنْزَلَ عَلَيهمُ المَنَّ والسَّلوَى وهَذَا قِطعَةٌ مِن حَديثِ «الفُتُونِ»، ثُمَّ كَانَتْ وَفَاةُ هَارُونَ عليه السلام ثُمَّ بَعدَهُ بِمُدَّةِ ثَلَاثِ سِنِينَ وَفَاةُ مُوسَى الكَلِيم عليه السلام وأَقَامَ الله فِيهم يُوشَعُ بن نُونٍ عليه السلام نَبيًّا خَلِيفَةً عَنْ مُوسَى بن عِمرَانَ، وَمَاتَ أَكثَرُ بَنِي إسرَائِيلَ هُنَاكَ فِي تِلكَ المُدَّةِ، ويُقَالُ: إِنَّهُ لَم يَبقَ مِنْهُمْ أَحدٌ سِوَى يُوشَعَ وكَالِبَ، ومِنْ هَاهُنَا قَالَ بَعضُ المُفَسِّرينَ فِي قَولِهِ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هَذَا وقْفٌ تَامٌ.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

وقَولِهِ: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ مَنصُوبٌ بِقَولِهِ: ﴿يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ فَلَمَّا انْقَضَتِ المُدَّةُ خَرَجَ بِهِم يُوشَعُ بن نُونٍ عليه السلام أَوْ بِمَن بَقِيَ مِنْهُمْ وبِسَائِرِ بَنِي إِسرَائِيل مِن الجِيلِ الثَّانِي، فَقَصدَ بِهِم بَيْتَ المَقدِسِ فَحَاصَرهَا، فَكانَ فَتحُهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ بَعْدِ العَصْرِ، فَلَمَّا تَضَيَّفَتِ الشَّمسُ للغُرُوبِ، وخَشِيَ دُخُولَ السَّبتِ عَلَيهِم قَالَ: «إِنَّكِ مَأمورَةٌ وأَنَا مَأمُورٌ، اللَّهُمَّ احبِسهَا عَلَيَّ»، فَحَبَسَها الله تَعَالَى حَتَّى فتحها، وأمر الله يُوشَع بن نُونٍ أَنْ يَأمُرَ بَنِي إِسرَائِيلَ، حِين يَدخُلُون بيتَ المَقدِسِ، أَنْ يَدخُلُوا بَابَها سُجَّدًا، وهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أي: حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا، فَبَدَّلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، فَدَخَلُوا يَزحَفُون عَلَى استَاهِهِم، وهُمْ يَقُولُونَ: حَبَّةٌ فِي شَعْرةٍ، وقَدْ تَقَدَّم هَذَا كُلُّهُ فِي سُورةِ البَقَرةِ[(١)].

وقَدِ اخْتَارَ ابنُ جَرِيرٍ أَنَّ قَولَهُ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هُوَ العَامِلُ فِي أَربَعِينَ سَنَةً، وأَنَّهُمْ مَكَثُوا لَا يَدخُلُونَهَا أربَعِينَ سَنَةً، وهُم تَائِهُونَ فِي البَرِّيَةِ لا يَهتدُونَ لِمَقصِدٍ. قَالَ: ثُمَّ خَرجُوا مَعَ مُوسَى عليه السلام فَفَتحَ بِهِم بَيْتَ المَقْدِس. ثُمَّ احتَجَّ عَلَى ذَلِكَ مَن قَالَ بِإِجمَاعِ عُلَمَاءِ أَخْبَارِ الأَوَّلِينَ أَنَّ عُوجَ بنَ عنقَ قَتلَهُ مُوسَى عليه السلام قَالَ: فَلَوْ كَانَ قَتْلُهُ إِيَّاهُ قَبْلَ التِّيهِ لَـمَّا رَهِبَتْ بَنُو إِسرَائِيلَ مِنَ العَمَالِيقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بَعدَ التِّيهِ. قَالَ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ بِلعَامَ بنَ بَاعُورَا أَعَانَ الجَبَّارِينَ بِالدُّعَاءِ عَلَى مُوسَى، قَالَ: ومَا ذَاكَ إِلَّا بَعْدَ التِّيهِ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ التِّيهِ لَا يَخَافُون مِن مُوسَى وقَومَهُ هَذَا اسْتِدلَالُهُ.

وقَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ تَسليَةٌ لُموسَى عليه السلام عَنهُم، أي: لَا تَأسَفْ وَلَا تَحزَنْ عَلَيهِم فِيمَا حَكَمتَ عَلَيهِم بِهِ، فإِنَّهُم مُستَحِقُّونَ ذَلِكَ.

وهَذِهِ القِصَّةُ تَضَمَّنَت تَقرِيعُ اليَهُودِ وبَيَانُ فَضَائِحِهِم، ومُخَالَفَتِهِم لله وَلِرسُولِهِ، ونُكُولِهِم عَنْ طَاعَتِهِمَا، فِيمَا أَمَرَهُم بِهِ مِن الجِهَادِ، فَضَعُفَت أَنفُسُهُم عَنْ مُصَابَرةِ الأَعْدَاءِ ومُجَالَدَتِهِم، ومُقَاتَلَتِهِم، مَعَ أَنَّ بَيْن أَظْهُرِهِم رَسُولَ الله عليه السلام وَكلِيمه

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

وَصَفِيّه مِنْ خَلْقِهِ في ذَلِكَ الزَّمَانِ، وهُوَ يَعِدهُمُ بِالنَّصرِ والظَّفَرِ بأعدَائِهم، هَذَا وقَدْ شَاهَدُوا مِن فِعلِ الله بِعَدُوِّهم فِرعَون مِن العَذابِ والنَّكَالِ والغَرَقِ لَهُ ولِجُنُودِهِ في اليَمِّ، وَهُم يَنظُرُونَ لتَقَرَّ بِهِ أعيُنُهم ومَا بِالعَهد مِن قِدَم، ثُمَّ يَنكُلُون عَنْ مُقَاتَلَةِ أهلِ بَلَدٍ هِيَ بِالنِّسبَةِ إلى دِيَارِ مِصْرَ لا تُوَازِي عُشرَ المِعشَارِ في عُدَّةِ أهلِهَا وَعَدَدِهِم، فَظَهَرت قَبَائِحُ صَنيعِهِم لِلخَاصِّ والعَامِّ، وافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا يُغَطِّيها اللَّيلُ، وَلَا يَستُرُهَا الذَّيلُ، هَذَا وَهُم في جَهلِهِم يَعمَهُون، وفي غَيِّهِم يَتَرَدَّدُون، وهُمُ البُغَضَاءُ إلى الله وأعدَاؤُهُ، ويَقُولُون مَعَ ذَلِكَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] فَقَبَّحَ الله وُجُوهَهُمُ الَّتِي مُسِخَ مِنهَا الخَنَازيرُ والقُرُودُ، وألزَمَهُم لَعْنَةً تَصْحَبُهُم إلى النَّار ذَاتِ الوَقُودِ، ويَقْضِي لَهُم فِيهَا بِتَأبِيدِ الخُلُودِ، وقَدْ فَعَلَ ولَهُ الحَمدُ مِنْ جَمِيعِ الوُجُود»(١).

عباد الله...

والقصّة الثانية: قِصَّةُ حَبْس الشَّمْس له:

وهذه معجزة كبرى، وآية عظمى تدلّ عَلَى مكانة يوشع بن نون عليه السلام، كما أنها تدلّ عَلَى فضل الجهاد في سبيل الله تعالى.

وإليكم القصّة بتمامها:

عَن أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: إنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: «**إنَّ الشَّمس لم تُحبس عَلَى بَشَرٍ إلَّا لِيُوشَع لَيَالِي سَار إلى بَيْتِ المقدس، فَقَالَ لِقَوْمِهِ لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأةٍ**(٢)**، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا**(٣)**، وَلَمَّا يَبْنِ، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ**(٤)**، وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا. قَالَ: فَغَزَا فَأَدْنَى**(٥) **لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلَاةِ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ.**

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٦١٦ - ٦٢٢).

(٢) البُضع: الفرج والجماع والتزويج، والمعاني الثلاثة لائقة هنا.

(٣) البناء هنا: الدخول بالزوجة.

(٤) الخلفة: الناقة الحامل، وقد يُطلق على غير النّوق.

(٥) دنا: قَرُب.

وفي رواية: «فَلَقَى العَدوَّ عند غَيبوبة الشَّمس».

فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

قَالَ: فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا، فَأَقْبَلَتْ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ - وكانوا إذَا غَنِمُوا الغَنيمَةَ بَعَثَ الله تعالى عَليها النَّار فأكلتهَا- فَقَالَ: فِيكُمْ غُلُولٌ، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الغُلُولُ[1] فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ فَبَايَعَتْهُ، قَالَ: فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، فَقَالَ: فِيكُمْ الغُلُولُ أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ.

قالوا: أجَل[2] قَدْ غَلَلْنَا صُورة وَجه بَقرة مِن ذَهَب.

قَالَ: فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَوَضَعُوهُ فِي المَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ فَأَقْبَلَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ، فَلَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَطَيَّبَهَا لَنَا، رَحمَةً وتخفيفًا، لِمَا عَلِم مِن ضَعْفِنا»[3].

عباد الله...

إنها قدرة الله، فأقبلوا بقلوبكم عَلَى ربّكم تَرونَ العجائب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي القصّة فوائد:

الفائدة الأولى:

بيان قدرة الله تعالى المطلقة: فها هي الشمس التي قَالَ الله تعالى عنها: ﴿وَالشَّمْسُ

(١) الغلول: السرقة من غنائم الحرب

(٢) نعم.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٠)، والبخاري (٤/ ١٠٤)، ومسلم (١٧٤٧)، وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٢٠٢).

تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

تقف ليُوشَع بن نون - فتى موسى عليه السلام - ليالي سار إلى بيت المقدس فاتحًا، حتى فتح الله عليه. ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

ولا غرابة في ذَلِكَ؛ فإنَّ الذي حرّكها، ورسم لها مسارها، وحدّد لها مدارها، هو الذي أوقفها. ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس: ٨٢، ٨٣].

لا عجب - أيها المسلمون - في وقوفها.

أليست مُسَيَّرة؟!

أليست خاضعةً طائعةً؟!

ألم يخبر نبيِّنا ﷺ أنها ستطلع في آخر الزمان من مغربها؟!

فأيُّ عجب في ذَلِكَ؟!

وإن كانت تلك «آيةٌ» فهذة آية أخرى حدثت للقائد الصَّالح «عقبة بن نافع»، اقرأ: «قَالَ عقبةُ لرجاله: «إنَّ إفريقية إذا دخلها إمامٌ أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينةً تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدّهر».

فركب إلى موضع القيروان - اليوم - وكان غَيْضَة، كثير الأشجار، مأوى الوحوش والحيَّات، فقال له رجالُهُ: إنّك أمرتنا بالبناء في شعارٍ وغياضٍ لا تُرام، ونحن نخاف من السّباع والحيَّات، وغير ذَلِكَ من دوابّ الأرض.

وكان في عسكره خمسة عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائر ذَلِكَ تابعون، فدعا الله عَزَّ وَجَلَّ وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائه، ومضى إلى «السّنجة» وواديها ونادى: «أيتها الحيَّات والسّباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا فإنَّا نازلون، ومَن وجدناه بعد ذَلِكَ قتلناه».

ونظر الناسُ بعد ذَلِكَ إلى أمر مُعجب، من أنَّ السّباع تخرج من الشعاب تحمل

أشبالها، والذِّئب يحمل جَروه، والحيَّات تحمل أولادها[١]، ونادى في النَّاس: كُفّوا عنهم حتَّى يَرحَلوا عنَّا.

فلمَّا خرج ما فيها من الوحوش والهوامّ - وهم ينظرون إليها - نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشّجر»[٢].

الفائدة الثانية:

بيان أن معيّة الله تعالى مع المجاهدين في سبيله: وهذا واضحٌ في استجابة الله تعالى لدعاء يوشع عليه السلام[٣].

الفائدة الثالثة:

فيها دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا[٤].

الفائدة الرابعة:

قَالَ المهلّب: وفيها أن فتن الدنيا تدعو النفس إلى الهَلع ومحبَّة البقاء، لأنَّ مَن ملك بُضع امرأة ولم يدخل بها أو دخل بها، وكان على قُرب من ذَلِكَ، فإنَّ قَلبهُ مُتعلّق بالرجوع إليها، ويَجد الشيطان السبيل إلى شغل قلبه عمَّا هو عليه، وكذلك غير المرأة من أحوال الدنيا»[٥].

الفائدة الخامسة:

قَالَ ابن المنير: «ويُستفاد منها: الرّد على العامّة في تقديمهم الحج على الزواج؛

---

(١) قَالَ يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب - وكان معهم -: «فما رأينا جُحْرًا ولا شجرًا إلَّا يخرج من تحتهُ دابّة، حتى هبطنّ بطن الوادي، ثم قَالَ للناس: «انزلوا بسم الله». انظر «صلاح الأمة» د. سيد العفاني (٤/ ٣٦).

(٢) «صلاح الأمة» د. سيد العفاني (٤/ ٣٦)، نقلًا عن «رياض النفوس» (١/ ٦، ٧).

(٣) نُبّئ يوشع عليه السلام بعد وفاة موسى عليه السلام.

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٤١٠).

(٥) انظر السابق.

ظنًّا منهم أنَّ التعفُّف إنَّما يتأكَّد بعد الحج، بل الأوْلى أن يتعفَّف ثم يحج»(١).

الفائدة السادسة:

أن الشمس لم تُحبس لأحدٍ إلَّا ليوشع ﷺ: أمَّا ما يُروى أنَّها حُبِسَت لِدَاود ﷺ، ولموسى ﷺ لَـمَّا حَمَل تابوت يوسف ﷺ، ولسليمان ﷺ في قصَّة عَرضه للخيل، وللنبي ﷺ يوم الخندق، ولعليّ بن أبي طالب، فلا يَصِحّ بحالٍ، كما قَالَ ابن تيمية، والألبانيّ، والذهبيّ، وابن الجوزيّ، وغيرهم.

وقال القاضي عياض - رحمه الله - : «اختلف في حبس الشمس ليوشع، فقيل: رُدّت على أدراجها، وقيل: وَقَفَت. وقيل: بطئت حركتها، وكل ذَلِكَ مُحتمل، والثالث أرجح عند ابن بطّال وغيره».

قَالَ الشيخ الألباني - رحمه الله - :

«قلت: وأيُّها كان الأرجح، فالمتبارد من الحبس أنَّ الغَرض منه أنْ يتمكّن النبيُّ يوشع وقومه من صلاة العصر قبل غروب الشمس، وليس هَذَا هو المراد، بل الغَرض أن يتمكّن مِن الفتح قبل اللَّيل، لأنَّ الفتح كان يوم الجمعة، فإذا دخل اللَّيل؛ دخل يوم السبت الذي حرَّم الله عليهم العمل، وهذا إذا صحّ ما ذكره ابنُ كثير عن أهل الكتاب.

وذكروا أنَّهُ انتهى من محاصرته لها يوم الجمعة بعد العصر، فلمَّا غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم يوم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذَلِكَ الزمان، والله أعلم».

ثم رأيتُ شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السُّنة» (٤/ ١٨٧) قد جزم بمعنى ما نقلتُه» ا.هـ(٢).

الفائدة السابعة:

جعل الله تعالى في شرعهم علامة الغلول إلزَاق يد الغال، وفي ذَلِكَ تنبيه على

---

(١) المرجع السابق.
(٢) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٩٨).

أن هذه اليد ينبغي أن يضرب عليها، ويؤدّب صاحبها، وينتزع الحق منه.

الفائدة الثامنة:

كان من علامة قبول الغنائم عندهم: أن تنزل نار من السماء فتأكلها.

فالحمد لله الذي أحلّ لنا الغنائم.

✿✿✿✿✿

الخطبة الخامسة والأربعون:

قِصَّتا: دانيال وحزقيل - عليهما السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نَبِيَّيْن كريمين:

الأول: دانيال عليه السلام.

والثاني: حزقيل عليه السلام.

أَمَّا دانيال عليه السلام:

فقد جاء ذكره في كتب أهل السِّير والتاريخ بأسانيد واهية، ضربنا عنها صفحًا.

ويكفي أن نشير هنا إلى رواية حسنة، رواها ابن أبي الدُّنْيَا:

قال ابن كثير - رحمه الله - في «البداية» (٢/ ٤٧): «وقال ابن أبي الدُّنْيَا حدثني إبراهيمُ بن عبد الله، حدَّثَنَا أحمدُ بن عمرٍو بن السَّرح، حدَّثنا ابن وَهبٍ عَن عبد الرَّحمن بن أبي الزِّنادِ، عن أبيهِ قَالَ: رأيتُ في يد أبي بُردَةَ بن أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ خَاتِمًا نَقشُ فَصِّه أسَدَانِ بَينهُما رَجُلٌ يَلحَسانِ ذَلِكَ الرَّجُلَ. قَالَ أبو بُردَةَ: هَذَا خاتمُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الميِّت الَّذِي زعم أهلُ هَذِهِ البلدة أنه دانيال أخذه أبو مُوسَى يَوم دفنه.

قَالَ أبو بردة: فسأل أبو مُوسَى علماء تلك القريةِ عن نقشِ ذَلِكَ الخاتم، فقالوا: إنَّ الملِك الَّذِي كان دانيالُ في سُلطانهِ جَاءَهُ المُنجِّمُون وأصحابُ العِلَم فقالوا له: إنَّهُ يُولَدُ ليلةَ كذا وكذا غلامٌ يَعُورُ مُلكَكَ ويُفسِدُه. فقال الملك: والله لاَ يَبقَى تلكَ الليلة غلامٌ إلَّا قَتَلتُه إلَّا أنَّهُمْ أخَذُوا دانيال فَألقَوه في أجَمَةِ الأسَدِ فبات الأسَدُ ولَبوتَهُ يَلحسانِهِ، ولم يَضُرَّاه فجاءت أُمُّه فَوَجَدتهُما يَلحَسَانِهِ فَنَجَّاه الله بذلك، حتى بَلَغَ ما بَلغَ.

قَالَ أبو بُردَةَ: قَالَ أبو مُوسَى: قَالَ علماءُ تلك القريةِ فَنَقَشَ دَانيالُ صُورتَه وصورةَ الأسَديْنِ يَلحَسَانِهِ في فَصِّ خَاتمِهِ لِئَلَّا يَنْسَى نِعمَةَ الله عَليه في ذَلِكَ» ا.هـ. إسنادٌ حسن.

وأما حزقيل ﷺ:

فهو نبيّ الله حزقيل بن بوذى، أُرسل إلى بني إسرائيل، وهو الذي دعا القوم الذين ذكرهم الله في كتابه، كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وكانوا في قريةٍ يقال لها: داوردان وقع بها طاعون، فهرب عامّة أهلها فنزلوا ناحية منها، فهلك مَن بقي في القرية، وسلم الآخرين فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجنَّ معهم.

فوقع الطاعون ثانيةً فهربوا وهم بضعة آلاف حتى نزلوا ذَلِكَ المكان وهو وادٍ أفيح، فناداهم مَلَكٌ من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه: أن موتوا، فماتوا حتى إذا

هلكوا، وبقيت أجسادهم مرَّ بهم نبي يقال له حزقيل عليه السلام، فلما رآهم وقف عليهم متفكرًا، فأوحى الله إليه: تريد أن أريك كيف أحييهم؟

قَالَ: نعم، وإنما كان تفكّره أَنَّهُ تعجب من قدرة الله عليهم.

فقيل له: ناد، فنادى يا أيتها العظام، إنَّ الله يأمركم أن تجتمعي، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعضٍ، حتى كانت أجسادًا من عظام.

ثم أوحى الله إليه: أن نادِ: يا أيتها العظام، إنَّ الله يأمرك أن تكتسي لحمًا، فاكتست لحمًا ودمًا، وثيابها التي ماتت فيها.

ثم قيل: ناد، فنادى: يا أيتها الأجساد إنَّ الله يأمرك أن تقومي، فقاموا.

وقيل: إنهم قالوا حين أحيوا: سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، لا إله إلَّا أنت.

فرجعوا إلى قومهم أحياء، يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوبًا إلَّا عاد رسمًا، حتَّى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم[1].

عباد الله...

وعن مدّة لبثه في بني إسرائيل: يقول العلامة ابن كثير – رحمه الله –:

ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل ثُمَّ إن الله قبضه إليه فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له «بعل» فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين نبيًّا.

وبعد حياة حافلة بالدعوة إلى الله تعالى وإلى توحيده، أدركت الوفاةُ «حزقيل» عليه السلام.

قَالَ ابن إسحاق: ثم لما مات حزقيل ملك بني إسرائيل مرج[2] أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٥٨، ٤٥٩)، وفي «تفسيره» (١/ ٣٦٦)، وفي سنده أسباط بن نصر، وهو صدوق كثير الخطأ.

(٢) مرج: أي اضطرب أمرهم واختلطت أفعاهم.

وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه.

فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمرّ بشجرة فانفلقت له فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها، فلما رأوا ذَلِكَ جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها، فإنَّ لله وإنَّا إليه راجعون(١).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فهذه بعض أفاعيل بني إسرائيل مع أنبياءهم.

فهم كما قَالَ خالقهم - سبحانه - وهو أصدق القائلين: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والمتتبع لأحوالهم مع أنبياءهم يرى عجبًا، وقد مرَّ بنا ما يدلّ على ذلك، وسيأتي المزيد في سياق الحديث عن الأنبياء - إن شاء الله تعالى.

نعوذ بالله من قلبٍ لا يَخشع، ومن أُذُنٍ لا تسمع.

آمين... آمين... آمين.

❁❁❁❁❁

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ١٨، ١٩) في «تفسيره»، وفي «تاريخه» (١/ ٥٣٢ - ٥٣٤) بسنده عن ابن إسحاق، وسنده فيه ابن حميد، وهو من الضعفاء.
وأورده ابن كثير كما في «قصص الأنبياء» (٦٩٨) من هَذَا الطريق، ولكن أخرجه الطبري من طريق آخر عن وهب بن منبّه، وسنده صحيح.
قاله الأستاذ الأخ/ مجدي فتحي السيد في «أنبياء الله على فراش الموت» (٨٥).

الخطبة السادسة والأربعون:

قصة داود عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبي الله **داود** عليه السلام.

عباد الله...

هو داود بن إيشا بن عُوَيْد، ينتهي نسبه إلى يَهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

كان عليه السلام طاهر القلب، شجاعًا غيّورًا، صوَّامًا، قوَّامًا، جميل الصوت والصورة، يأكل من عمل يده.

زكَّاه القرآن في مواضع كثيرة، منها:

(١) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّـهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

قال الحافظ ابن كثير: «أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليُحصِّن المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها، فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي: لا تدقّ المِسمار فيفلق، ولا تُغلّظه فيفصِم.

قال الحسن: «كان الله تعالى قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مِطرقة» ا.هـ[١].

(٣) وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ - ٢٠].

قال ابن عباس: «الأيد» القوّة في الطاعة، يعني: ذا قوّة في العبادة والعمل الصَّالح.

وقال عبد الله بن عامر: أُعطي داودُ من حُسْن الصَّوت ما لم يُعط أحدٌ قطّ، حتَّى أنَّ كان الطيرُ والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا وحتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا وحتى أن آن لأنها لتقف[٢].

وزكَّاهُ النبيُّ ﷺ في أحاديث كثيرة، منها:

(١) قوله ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَأَحَبُّ الصِّيَام إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى»[٣].

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٤٧١).
(٢) رواه ابن عساكر.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ صَوْتَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَقْرَأُ فَقَالَ: «لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[١].

(٣) وروى مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ قَالَ: «كَانَ داود أَعْبَدَ الْبَشَرِ».

هذه بعضُ فضائل داود عليه السلام وهي تبيّن بوضوح اكتمال شخصية الأنبياء صلواتُ ربِّي وسلامُه عليهم، لقد جمعوا بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، فلم يعيشوا عالةً على النَّاس، كما جمعوا بين الشجاعة والضراعة، فلم يحنوا أصلابهم لغير الله، فأين حال أتباعهم اليوم من حالهم؟!

إلى الله المشتكى.

عباد الله ...

وكان داود عليه السلام مجاهدًا في سبيل الله تعالى، وهو الذي قَتَلَ جالوت، كما أخبر ربُّ العزّة سُبحانه، في سورة البَقَرة، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «أي: لَـمَّا طَلَبُوا مِن نَبِيِّهم أنْ يُعَيِّنَ لَهُم مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُم طَالُوتَ، وكَانَ رَجُلًا مِنْ أجنَادِهِم وَلَم يَكُن مِن بَيتِ المُلكِ فِيهِم؛ فَلِهَذَا قَالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كَيفَ يَكونُ مِلِكًا علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي: ثُمَّ هُوَ مع هَذَا فَقيرٌ لا مَالَ لَهُ يَقُوم بِالمُلك، وهَذَا اعتراضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهم وتَعنُّتٌ، وكَانَ الأَوْلَى بِهِم طَاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ، ثُمَّ قَدْ

(١) صحيح: رواه أحمد.

أجَابَهُم النَّبيُّ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اخْتَارهُ لَكُم مِن بَينكُم واللَّـهُ أعْلَمُ بِهِ مِنْكُم. يَقُولُ: لَسْت أنَا الَّذِي عَينتُهُ مِن تِلقاءِ نَفْسِي، بَل الله أمَرَنِي بِهِ لَـمَّا طَلَبتُم مِنِّي ذَلِكَ، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: وهُوَ مَعَ هَذَا أعلَمُ مِنكُم، وأنْبَلُ وأشكَلُ مِنكُم وأشَدُّ قُوَّةً وصَبرًا في الحَربِ ومَعرِفَةً فِيهَا أي: أتَمَّ عِلمًا وقَامَةً مِنكُم. ومِن هَاهُنا يَنْبَغِي أنْ يَكُون المَلك ذَا علمٍ وشَكلٍ حَسنٍ وقُوَّةٍ شَدِيدةٍ في بَدَنهِ ونَفسِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هُوَ الحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعلَ ولا يُسألُ عَمَّا يَفعَلُ وهُم يَسألُونَ، لِعلمِهِ وَحِكمتِهِ ورَأفَتِهِ بِخَلقِهِ؛ ولِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هُوَ واسِعُ الفَضل يَختَصُّ بِرحمتِهِ مَن يَشَاءُ، عَليمٌ بِمَن يَستَحِقُّ المُلكَ مِمَّن لا يَستحِقُّهُ». ا.هـ.

ثم تتابع الآيات، فيقول جل وعلا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قال ابن كثير: «يَقولُ نَبيِّهِم لَهُم: إنَّ عَلامةَ بَرَكةِ مُلكِ طَالُوتَ عَليكُم أن يَرُدَّ الله عَليكُم التَّابوتَ الَّذِي كَانَ أُخذَ مِنكُم.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل: معناه فِيهِ وقَارٌ، وجَلَالَةٌ.

وقَولُهُ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ عَصَاهُ ورُضَاضُ الألوَاحِ، وقيل: يَعني عَصَا مُوسَى، وعَصَا هَارُون، ولَوحَينِ مِنَ التَّوراةِ والمَنِّ،﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ جَاءتِ المَلَائِكةُ تَحمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ حَتَّى وَضَعتهُ بَينَ يَدَي طَالُوتَ، والنَّاسُ يَنظُرُونَ.

وقَولُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾ أي: عَلَى صِدقِي فيما جِئتُكُم بِهِ من النُّبُوةِ، وفِيمَا أمَرتُكُم بِهِ مِن طَاعةِ طَالُوتَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالله واليَوم الآخِرِ.

ويتابع القُرآن ما حدث، فيقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا

الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «يَقولُ تَعَالى مُخبرًا عَن طَالوتَ مَلِك بَنِي إسرَائِيلَ حِين خَرَجَ في جُنُودِهِ ومَن أطَاعَهُ مِن مَلإِ بَنِي إسرَائِيلَ، أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ أي: مُختبرُكُم بِنَهَرٍ ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي: فَلَا يَصحَبُني اليَومَ في هَذَا الوَجهِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي: فلا بَأسَ عَليهِ، قَالَ الله تعالى ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ ﴾.

وأخرَجَ البُخَارِيُّ عَنِ البَرَاءِ قَالَ: «كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّد ﷺ نَتَحدَّثُ أن عِدَّةَ أصحَابِ بَدرٍ عَلَى عِدَّةِ أصحَابِ طَالُوت، الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهرَ، وَلَم يُجَاوز مَعَهُ إِلَّا مُؤمِنٌ بِضعَةَ عَشَرَ وثَلَاثَمِائَةٍ»[1].

ولهذا قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي: استَقَلُّوا أَنْفُسَهُم عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهُم لِكَثرتِهم فَشَجَّعَهُم عُلَمَاؤُهُمُ العَالِمُون بأنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ، فإنَّ النَّصرَ مِن عِندِ الله لَيسَ عَن كَثرَةِ عَدَدٍ ولَا عُدَدٍ. وَلِهَذا قَالُوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾».

وعن نتائج المعركة يقول سبحانه:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّـهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠- ٢٥٢].

قَالَ ابن كثير رحمه الله: «أي: لَمَّا وَاجهَ حِزْبُ الإيمانِ - وَهُم قَليلٌ- مِن أصْحَابِ طَالُوت لِعَدُوِّهم أصحَابِ جَالُوت -وَهُم عَدَدٌ كَثيرٌ- ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي: أَنْزِل عَليْنَا صَبرًا مِن عِندِكَ ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أي: في لِقَاءِ الأعدَاءِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٨).

وَأَنَابَ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢١- ٢٥].

والجواب: ذكر بعض المفسّرين حكايات أغرب من الخيال، وروايات تقشعر منها الأبدان، منها:

▪ أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم، فقيل له إنك ستبتلى وستعلم اليوم الَّذِي تبتلى فيه، فخذ حذرك فقيل له: هَذَا اليوم الَّذِي تبتلى فيه، فأخذ الزبور، ودخل المحراب، وأغلق باب المحراب، وأدخل الزبور في حجره، وأقعد منصفًا عَلَى الباب، وقال - أي الحاجب - : لا تأذن لأحد عليّ اليوم.

فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون للطير، فيه من كل لون، فجعل يدرج بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه، فطار فوقه عَلَى كوّة المحراب، فدنا منه ليأخذه، فطار فأشرف عليه لينظر أين وقع، فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض، فلما رأت ظله حركت رأسها، فغطت جسدها أجمع بشعرها، وكان زوجها غازيًا في سبيل الله، فكتب داود عليه السلام إلى رأس الغزاة. انظر فاجعله في حملة التابوت، أما أن يفتح عليهم، وإما أن يقتلوا. فقدمه في حملة التابوت فقتل.

فلما انقضت عدتها خطبها داود عليه السلام، فاشترطت عليه أن ولدت غلامًا أن يكون الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسًا من بني إسرائيل، وكتبت عليه بذلك كتاباً، فأشعر بنفسه أنه كتب حتى ولدت سليمان عليه الصلاة والسلام وشب، فتسوّر عليه الملكان المحراب، فكان شأنّهما ما قص الله تعالى في كتابه، وخر داود عليه السلام ساجداً، فغفر الله له، وتاب عليه»[1].

▪ وأخرج ابن جرير والحاكم عن السّدّي قال: إن داود عليه السلام قَدْ قسم الدهر ثلاثة أيام: يومًا يقضي فيه بين الناس، ويومًا يخلو فيه لعبادة ربه، ويومًا يخلو فيه بنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقرأ من الكتب قال: يا رب أرى

---

(١) «الدر المنثور» (٧/ ١٥٥، ١٥٦).

الخير قَدْ ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي. فاعطني مثل ما أعطيتهم، وافعل بي مثل ما فعلت بهم، فأوحى الله إليه «إن آباءك قَدْ ابتلوا ببلايا لم تبتل بها. ابتلى إبراهيم بذبح ولده، وابتلى إسحاق بذهاب بصره، وابتلى يعقوب بحزنه عَلَى يوسف، وإنك لم تبتل بشيء من ذلك. قال: رب ابتلني بما ابتليتهم به، واعطني مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله إليه: إنك مبتلي فاحترس.

فمكث بعد ذَلِكَ ما شاء الله تعالى أن يمكث، إذ جاءه الشيطان قَدْ تمثل في صورة حمامة حتى وقع عند رجليه، وهو قائم يصلي، فمدَّ يده ليأخذه فتنحى، فتبعه فتباعد حتى وقع في كوّة، فذهب ليأخذه، فطار من الكوّة، فنظر أين يقع، فبعث في أثره، فابصر امرأة تغتسل عَلَى سطح لها، فرأى امرأة من أجمل الناس خلقاً، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فالتَفَّتْ بشعرها فاستترت به، فزاده ذَلِكَ فيها رغبة، فسأل عنها، فأخبر أن لها زوجًا غائبًا بمسلحة كذا وكذا.

فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره. أن يبعث إلى عدوّ كذا وكذا... فبعثه ففتح له أيضاً، فكتب إلى داود عليه السلام بذلك، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا... فبعثه فقتل في المرة الثالثة، وتزوّج امرأته.

فلما دخلت عليه لم يلبث إلا يسيرًا حتىَ بعث الله له ملكين في صورة إنسيين، فطلبا أن يدخلا عليه، فتسبورا عليه الحراب، فما شعر وهو يصلي إذ هما بين يديه جالسين، ففزع منهما فقالا: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ إنما نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢] يقول: لا تخف ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ إلى عدل القضاء فقال: قصا عليَّ قصتكما فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣]، قَالَ الآخر: وأنا أريد أن آخذها فاكمل بها نعاجي مائة قَالَ وهو كاره قَالَ إذًا لا ندعك وذاك قال: يا أخي أنت عَلَى ذَلِكَ بقادر قال: فإن ذهبت تروم ذَلِكَ ضربنا منك هَذَا وهذا. يعني طرف الأنف والجبهة.

قال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هَذَا وهذا. حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لاوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتلته.

وتزوجت امرأته، فنظر فلم ير شيئاً، فعرف ما قَدْ وقع فيه، وما قَدْ ابتلى به «فخر ساجداً» فبكى، فمكث يبكي أربعين يوماً، لا يرفع رأسه إلا لحاجة، ثُمَّ يقع ساجدًا يبكي، ثُمَّ يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه، فأوحى الله إليه بعد أربعين يومًا «يا داود ارفع رأسك قَدْ غفر لك قال: يا رب كيف أعلم أنك قَدْ غفرت لي، وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء؟ إذَا جاء يوم القيامة أخذ رأسه بيمينه أو بشماله، تشخب أوداجه دمًا فيّ يقول: يا رب سل هَذَا فيم قتلني، فأوحى الله إليه: إذَا كان ذَلِكَ دعوت أوريا، فأستوهبك منه، فيهبك لي، فأثيبه بذلك الجنة» قال: رب الآن علمت أنك غفرت لي، فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياءً من ربه حتى قبض» ا.هـ[١].

▪ وروى الديلميّ بسنده عن مجالد بن سعيد عن الشعبيّ عن الحسن عن سمرة، قَالَ: قدم على النبي ﷺ وفد عبد القيس، وفيهم غلامٌ ظاهر الوضاءة، فأجلسه النبي ﷺ خلف ظهره وقال: «**كان خطيئة داود عليه السلام النظر**»[٢].

هذه بعض المرويات التي لا تصحّ في تفسير الآيات المتقدّم ذكرها، وهي للأسف مبثوثة في كتب التفاسير.

وقد كرَّ العلماء المحققون عليها فبينوا عوارها، وكشفوا زيفها، وحذَّروا الأُمَّة منها.

ومن هؤلاء العلماء الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى - فقد قَالَ: «وقصة افتتان داود عليه السلام بنظره إلى امرأة الجندي «أوريا» مشهورة مبثوثة في كتب «قصص الأنبياء» وبعض كتب التفاسير، ولا يشك مسلم عاقل في بطلانها، لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مثل محاولة تعريض زوجها للقتل، ليتزّوجها مَن بعده.

وقد رُويت هذه القصة مختصرة عن النبي ﷺ فوجب ذكرها، والتحذير منها، وبيان بطلانها، وهي: «إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمَّ بها، قطع

---

(١) «الدر المنثور» (٧/ ١٥٩، ١٦١)

(٢) موضوع: انظر «السلسلة الضعيفة والموضوعة» للألباني (٣١٣).

على بني إسرائيل بَعثًا، وأوحى إلى صاحب البعث فقال: إذا حضر العدوّ فقرِّب فلانًا، وسمّاه، قَالَ: فقرَّبه بين يدي التابوت، قَالَ: وكان ذَلِكَ التابوت في ذَلِكَ الزمان يُستنصر به، فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يُقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتلُه، فَقُتل زوجُ المرأة، ونزل الملكان على داود، فقصَّا عليه القصة».

باطلٌ: رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعًا، كما في «تفسير القرطبي» (١٥/ ١٦٧)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣١): رواه ابن أبي حاتم، ولا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة.

قلت[١]: والظاهر أَنَّهُ من الإسرائيليات التي نقلها أهل الكتاب الذين لا يعتقدون العصمة في الأنبياء، أخطأ يزيد الرقاشي، فرفعه إلى النبي ﷺ، وقد نقل القرطبي (١٥/ ١٧٦) عن ابن العربي المالكي أَنَّهُ قَالَ: «وأما قولهم إنها لَـمَّا أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله، فهذا باطلٌ قطعًا، فإن داود عليه السلام لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه»[٢].

وقال القاضي كنعان في كتابه «قرة العينين على تفسير الجلالين»: «إن ما ذكر المحلي[٣] هنا وغيره في كتب التفسير، وقصص الأنبياء من أن داود عليه السلام أحب امرأة، وطلب من زوجها أن ينزل له عنها، إلى غير ذَلِكَ مما فيه ذكر للمرأة في هذه القصة. باطلٌ لا أساس له».

عباد الله ...

فما هو التفسر الصحيح للآيات؟

الجواب: قَالَ الشيخ عبد الله بن الصدّيق الغماري: «قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ خبرهم ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ محراب داود عليه السلام، وهو مسجده الذي أعدّه للصلاة في بيته، وكان قد رتّب أيام الأسبوع فجعل يومًا للقضاء بين النّاس،

(١) الكلام للشيخ الألباني.
(٢) «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (١/ ٤٨٤، ٤٨٥).
(٣) هو جلال الدين المحليّ.

ويومًا لأهله، ويومًا ينظر في شئون معايشه؛ لأنه كان يأكل من عمل يده كما في الحديث الصحيح[١]، وجاء الخصوم في العبادة، فمنعهم الحرس من الدخول، وهم مستعجلون يريدون الفصل في قضيتهم، فتسوروا المحراب ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ حيث نزلوا من جهة السقف، وظنّ أنهم يريدون به شرًّا، إذ الملك لا يخلو في العادة ممن يقصده بشر من رعاياه، ﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ﴾ لا نقصدك بشرّ، نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ فريقان أو شخصان، كانت بيننا مشاركة في نعاج، واختلفنا فيها بحيث ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾ لا تُجر، وهذا تعبير فيه جفاء لا يليق بمقام النبوّة، وهو يدل على ما كان يتمتع به الشعب الإسرائيلي في حكم داود من حرية التعبير، ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أرشدنا إلى وسط الطريق الصواب.

فاطمأن وسألهم عن قضيتهم، فقال أحدهم: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ أي: إسرائيلي مثلي ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ حقيقة لا كناية عن النساء كما قيل[٢]، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ اجعلني كافلها بأن أضمّها إلى نعاجي ﴿وَعَزَّنِي﴾ غلبني ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ أي: الجدال، بقوة منطقه.

﴿قَالَ﴾ داود مصدرًا الحكم بعد موافقة الخصم واعترافه، أو ثبوت الحجة عليه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ليضمّها ﴿إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلا يبغون، والبغي الظلم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فالتأكيد القلّة ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن ﴿دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه بالفزع الذي جعل منه حين تسور الخصوم عليه المحراب، وما كان ينبغي

---

(١) قَالَ ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» رواه البخاري.

(٢) قَالَ القاضي كنعان في «قرة العينين على تفسير الجلالين»: «إن الخلاف بين الخصمين كان على نعجة حقيقية لأنهما من رعاء الشاء، وليس المراد هنا بالنعجة المرأة إطلاقًا، لأنَّ الأصل في الإطلاق الحقيقة، ولم يرد ما يصرفه عنها». ووافقه الشيخ محمد بن جميل زينو في «تنبيهات مهمة على قرة العينين» (٤٠) وعلى ما تقدّم فلا يصح ما قاله الشيخ السّعدي في «تفسيره» (٧١١): ﴿وله تسع وتسعون نعجة﴾ أي: زوجة، مع أن تفسيره من أجلّ كتب التفسير.

له الفزع من المخلوق وهو في حضرة الخالق وعبادته ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ من فزعه الذي لا يليق به ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجدًا ﴿وَأَنَابَ﴾ رجع إلى الله تعالى.

فتبيّن من سياق القصّة أَنَّهُ كانت خصومة بين شركاء في نعاج حقيقة، وأنه لم يحصل من داود - قبلها - ما يستوجب لومه أو عتابه، وكل ما حصل منه خوفه من الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب، والخوف غريزة بشرية فقد قال موسى وهارون من قبله، وهما أفضل. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]، وما من رسولٌ إلَّا وقد خاف إذاية قومه، غير أَنَّهُ اعتبر فزعه من المخلوق وهو بين يدي الخالق، لا يليق بمنصبه الكريم، وعدّه ابتلاء وامتحانًا، فاستغفر الله منه[١].

قلت: قَالَ القاضي ابن العربي: «أما قول مَن قَالَ: إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء»[٢].

عباد الله ...

هَذَا هو التفسير الصحيح للآيات، وعلى الله قصد السبيل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد رحلة حافلة بالعطاء والعبادة والعمل والذِّكر، والحُكم بالحقّ، حضر أجلُ داود عليه السلام، وكان لموتهِ قصّة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ دَاوُدُ النَّبِيُّ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ.**

---

(١) «بدع التفاسير» (١١٩، ١٢٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٥/ ١٦٣).

قَالَ: فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَغُلِّقَتِ الدَّارُ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ تَطَّلِعُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ فَقَالَتْ لِمَنْ فِي الْبَيْتِ: مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ؟ وَاللَّهِ لَتُفْتَضَحُنَّ بِدَاوُدَ.

فَجَاءَ دَاوُدُ فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي لاَ أَهَابُ الْمُلُوكَ وَلاَ يَمْتَنِعُ مِنِّي شَيْءٌ، فَقَالَ دَاوُدُ: أَنْتَ وَاللهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَمَرْحَبًا بِأَمْرِ اللهِ. فَرَمَلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَيْثُ قُبِضَتْ رُوحُهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلطَّيْرِ: أَظِلِّي عَلَى دَاوُدَ. فَأَظَلَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ، فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَطَفِقَ[1] يُرِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَيْفَ فَعَلَتِ الطَّيْرُ وَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْمَضْرَحِيَّةُ[2]»[3].

عباد الله...

وحفلت قصّة وفاة داود عليه السلام بدروس كثيرة، منها:

الدرس الأول: استعداد الأنبياء الدائم لملاقاة ربِّهم:

فها هو داود عليه السلام يقول لـمّا رأى ملك الموت: «أَنْتَ وَاللَّهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَمَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ». وينبغي لكل مؤمن أن يكون كذلك.

قَالَ الحسن - رحمه الله - :

«لا راحة للمؤمن إلَّا في لقاء الله، ومَن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمْنِهِ وعزِّه وشَرَفِهِ».

الدرس الثاني: قدرة الملائكة على التشكُّل بصور البشر:

وهذا واضح في القصّة، والأدلّة على ذَلِكَ كثيرة.

---

(١) طَفِق: جعل.

(٢) غَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْمَضْرَحِيَّةُ: أي: غلبت على التظليل عليه الصُّقور الطوال الأجنحة.

(٣) إسناده جيد قويّ: رواه أحمد، وقال الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ٤٨٠): إسناده جيد قويّ، رجاله ثقات.

الدرس الثالث: غيرة داود عليه السلام على أهله:

وما أحوج النَّاس في هَذَا العصر إلى هَذَا الخُلُق الكريم.

قَالَ الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد - حفظه الله - : «الغيرة هي السياج المعنوي لحماية الحجاب، ودفع التبرّج والسفور والاختلاط.

والغيرة هي ما ركَّبه اللَّهُ في العبد من قوّة روحيّة تحمي المحارم والشرف والعفاف من كُلّ مجرم وغادر.

والغيرة في الإسلام خُلق محمود، وجهاد مشروع؛ لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**» [1].

ولقول النبي ﷺ: «**مَن قُتل دون أهلهِ فهو شهيد**» [2].

وفي لفظ: «**مَن مات دون عِرضه فهو شهيد**» [3].

فالحجاب باعث عظيم على تنمية الغيرة على المحارم أن تُنتهك، أو يُنال منها، وباعث على توارث هَذَا الخُلُق الرفيع في الأُسر والذّراري» ا.هـ [4].

فتمسكوا عباد الله بأهداب هَذَا الخُلُق القويم، واجعلوه لكم شعارًا ودثارًا، وإيَّاكم وتقليد الأخسرين أعمالًا، واسمعوا إلى الإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي وهو يقول:

لا يَخْدَعَنَّك عَنْ دينِ الهُدَى نَفَرٌ ... لم يُرزَقوا في التمَاسِ الحَقّ تأييدا
عُمْي القلوب عَرُوا عن كُلّ قائدةٍ ... لأنَّهم كَفَروا بالله تَقليدا

هَذَا، واعلموا أنَّ مَن جَعَلَ نَفْسَه عَظْمًا أكلته الكلاب، نسأل الله تعالى أن يستر عوارتنا.

آمين... آمين... آمين.

❂❂❂❂❂

---

(١) رواه البخاريّ ومسلم.
(٢) صحيح: رواه الترمذي.
(٣) صحيح أيضًا.
(٤) «حراسة الفضيلة» (١٣١).

الخطبة السابعة والأربعون:
مع نبي الله سليمان عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبيّ الله سليمان بن داود -عليه السلام-.

عباد الله...

قال الحافظ ابن عساكر: هو سليمانُ بنُ دَاوُدَ بن إيشا بنِ عُوَيدَ بن باعزَ بن سلمونَ بن نحشون بن عميناذب بن إرم بنِ حصرون بن فارصَ بن يَهوذا بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ، أبو الرَّبيع، نبيُّ الله ابنُ نَبِيِّ الله.

جاء في بعض الآثار أَنَّهُ دخلَ دِمشْقَ.

قال ابنُ ماكُولا: فارصُ - بالصاد المهملة - وذكر نَسبَهُ قَريبًا مما ذكرَهُ ابن

عساكرَ.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَـهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. أي وِرِثَهُ في النُّبوَّة والمُلك، وليس المرادُ وِرَاثِة المال، لأنه قَدْ كان له بنون غيرهُ، فَما كان لِيُخَصَّ بالمالِ دُونَهُم، ولأَنَّهُ قَدْ ثَبَت في «الصحاح» من غير وجهٍ عن جماعةٍ مِن الصَّحابة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُو صدقةٌ»[1].

فأخبر الصادق المصدوقُ أنَّ الأنبياء لا تُورَثُ أموالُهم عَنهم كما يُورَثُ غيرهم، بَل تكونُ أموالُهم صَدقةً مِن بَعدِهم عَلَى الفقراء والمَحاويج لا يَخُصُّون بها أقرباؤهم، لأنَّ الدُّنْيَا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذَلِكَ، كما هي عند الَّذِي أرسلَهم واصطفاهُم وفَضَّلَهم.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ يعني: أَنَّهُ عليه السلام كان يعرفُ، ما تَتَخاطَبُ به الطُّيور بِلُغاتها ويُعَبِّرُ للناسِ عن مقاصِدِها وإرادتِها.

وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل عَلَى هَذَا قولُهُ بعد هَذَا من الآيات: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل ما يحتاجُ المَلِكُ إليه؛ مِن العُدد والآلات، والجُنُود والجُيوشِ، والجماعاتِ مِن الجِنِّ والإنسِ، والطيورِ والوحوشِ، والشَّياطين السارحات، والعلوم والفُهومِ، والتعبيرِ عن ضمائرِ المخلوقات مِن النَّاطقاتِ والصَّامتاتِ.

ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَـهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ أي: من بارئ البَرِيَّات وخالقِ الأرض والسموات، كما قَالَ تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ - ١٩].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٢٧)، ومسلم (٤٥٥٥).

يُخبرُ تَعَالى عن عبده ونبيِّه وابن نَبيِّه سُليمانَ بن دَاود عليهما الصلاة والسلام أَنَّهُ رَكِبَ يَومًا في جَيشِهِ جميعه مِن الجِنِّ والإنسِ والطيرِ، فَالجنُّ والإنسُ يَسيرونَ معهُ، والطيرُ سائرةٌ مَعهُ تُظلُّه بأجنحتِها مِن الحرِّ وغَيره، وعلى كلٍّ من هَذِهِ الجيوش الثَّلاثة وَزَعَةٌ، أي: نُقَباءُ يَرُدُّون أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ، فَلا يَتقدَّمُ أحدٌ عن موضعه الَّذِي يسيرُ فيه ولا يتأخَّرُ عَنهُ، قَالَ الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ فَأَمَرَت وحَذَّرَت واعتَذرَت عَن سليمانَ وجنودِهِ بِعَدمِ الشُّعورِ.

وقد زعم بعضهم: أنه كان إذ ذاك عَلَى البساط، وهذا غير معقول لأَنَّهُ لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطئ، لأنَّ البُساط كان عليه جميعُ ما يَحتاجُون إليه من الجيوشِ والخُيول والجِمال والأثقال والخِيام والأنعامِ، والطَّير مِن فوق ذَلِكَ كُلِّه، كما سَنُبَيِّنُه بعد ذَلِكَ إن شاء الله تعالى.

والمَقْصُودُ: أنَّ سُليمان عليه السلام فَهِمَ ما خَاطَبت بِهِ تلك النملةُ لأمَّتِها من الرَّأي السَّديدِ والأمرِ الحميدِ، وتبسَّم مِن ذَلِكَ عَلَى وَجهِ الاستبشارِ والفَرَحِ والسُّرور بما أطلَعَهُ الله عليه دونَ غيره، وليس كما يَقُوله بعضُ الجَهَلةِ مِن أنَّ الدوابَّ كانت تَنطِقُ قَبلَ سليمانَ وتُخاطِبُ النَّاس، حتَّى أخذَ عَليهم سليمانُ بن داود العَهد وألجَمَها، فلم تَتكلَّم مع النَّاس بعد ذلك، فإنَّ هَذَا لا يَقُولُهُ إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هَذَا هكذا لم يَكُن لسليمان في فَهمِ لُغاتِها مَزِيَّةٌ عَلَى غَيرِهِ، إذ كان النَّاس كُلُّهم يَفهمون ذلك، ولو كَانَ قَدْ أخذ عليها العهدَ أن لا تَتكلَّم مع غيرِهِ وكَان هو يَفهَمُها لم يكن في هَذَا أيضًا فَائدةٌ يُعَوَّلُ عليها، ولهذا قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: أَلهِمني وأرشِدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فَطَلَبَ مِن الله أنْ يُقَيِّضَهُ للشكرِ عَلَى ما أنعم به عليه، وعلى ما خصَّهُ به من المَزيَّة عَلَى غَيرِهِ وأن يُيَسِّرَ عَليه العملَ الصَّالحَ، وأن يَحشُرَهُ إذَا توفاه مع عبادِهِ الصَّالحين، وقد استجابَ الله تعالى له. والمرادُ بوالدَيْهِ: داودُ عليه السلام وأُمُّه، وكانت من العابداتِ الصالحاتِ.

وقَالَ عَبدُ الرَّزَّاقِ، عن مَعمَرٍ، عَن الزُّهريِّ، أنَّ سُليمان بن داود عليه السلام خَرَجَ هُوَ وأصحَابُهُ يَستسْقُونَ فرأَى نملةً قَائمةً رَافعةً إحدى قَوائِمِها تَستَسقِي، فَقَال

لأصحابِهِ: ارجِعوا فقد سُقِيتُم إنَّ هَذِهِ النَّملةَ اسْتَسقَتْ فاستُجِيب لها[١]» ا.هـ[٢].

عباد الله...

ومِن مِنَنِ الله تعالى عَلَى عبدِهِ ونبيِّهِ سُليمان عليه السلام، ما قاله الحقّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل:٢٠- ٣٧].

يَذكُرُ تَعالى ما كانَ مِن أمرِ سُليمانَ والهُدهُدِ، وذلك أنَّ الطيورَ كانَ عَلَى كلِّ صِنفٍ منها مُقَدَّمون يَقْدمُونَ بما يُطلَبُ مِنْهُمْ، ويَحضُرُونَ عِنده بالنَّوبَةِ كما هي عادةُ الجنود مع المُلوك، وكانت وظيفةُ الهدهد عَلَى ما ذَكَرهُ ابن عباس[٣] وغيرهُ أنَّهُمْ كَانوا إذَا أعوزُوا الماء في القِفَار في حال الأسفارِ، يَجيءُ فَيَنظُر لَهُم هَل بهذه البقاعِ مِن ماءٍ، وفيه من القوَّة الَّتِي أودعَهَا الله تعالى فيه، أن يَنظُر إلى الماء تحتَ تُخُومِ

(١) أثرٌ صحيحٌ: رواه عبد الرزّاق في «المصنف» (٤٩٢١).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١ - ٢٣) باختصار شديد.

(٣) صحيح: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٨٩).

الأرضِ، فإذا دَلَّهُم عليه حَفَروا عنه واستَنبطُوه وأَخرجُوهُ واستَعمَلُوه لِحَاجَتهِم.

فَلَمَّا تَطَلَّبَهُ سُليمانُ عليه السلام ذَاتِ يَوم، فَقَدَهُ ولم يَجده في مَوضعِهِ من مَحَلِّ خِدمتِهِ، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي: مَا لَهُ؟ أَمَفقودٌ مِن هَاهُنَا أو قَدْ غَاب عن بَصَري فَلا أراه بِحَضرتي ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تَوعَّدهُ بنَوعٍ مِن العذابِ، اختَلَفَ المُفسِّرون فيه، والمَقْصُودُ حاصلٌ عَلَى كلِّ تَقْديرٍ، ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِحُجَّة تُنْجِيه مِن هَذِهِ الوَرطَةِ.

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: فَغَاب الهُدهُدُ غيبةً لَيست بطويلة ثُمَّ قَدِمَ منها، ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَـمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: اطَّلعتُ عَلَى مَا لم تَطَّلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بِخَبرٍ صادقٍ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يَذكُرُ مَا كَانَ عَليه مُلوك سبأٍ في بلادِ اليمن مِن المملكة العظيمة والتَّبابعَةِ المُتوَّجِينَ، وكَان المُلكُ قَدْ آل في ذَلِكَ الزمانِ إلى امرأةٍ مِنْهُمْ ابنةِ مَلِكِهم، لم يُخلِف غيرَها فَمَلَّكُوها عليهم.

وقد ثبت في «صحيح البُخاريِّ» من حديث عَوْفٌ عَنِ الحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَـمَّا بلغَهُ أنَّ أهل فارس مَلَّكُوا عليهم ابنة كِسرَى قَالَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً». ورَواهُ الترمذيُّ والنَّسائيُّ من حديث حُميد، عن الحسن، عن أبي بكرة، عن النَّبي ﷺ وقال التِّرمِذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِمَّا مِن شَأنِهِ أن تُؤتاهُ المُلوكُ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى سريرَ مَملكَتِها كان مُزَخْرَفًا بِأنواعِ الجواهر واللآلئ والذَّهب والحُلِيِّ الباهر.

ثُمَّ ذَكَرَ كُفرَهم بالله وعِبادَتَهم الشمس من دون الله، وإضلالَ الشَّيطان لهم وصدَّهُ إيَّاهم عن عبادة الله تعالى وحدَهُ لا شريك له، ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلمُ السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويَّاتِ ﴿اللَّـهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: له العرشُ العظيمُ الَّذِي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذَلِكَ بعث معهُ سُليمانُ عليه السلام كتابَهُ يتضَمَّنُ دعوتَهُ لهم إلى طَاعة الله

وطَاعة رَسولِهِ والإنابةِ والإذعانِ إلى الدُّخولِ في الخُضوع لِمُلكهِ وسُلطانِهِ، ولهذا قَالَ لَهُم: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي: لا تستكبروا عن طاعتي وامتثالِ أوامري ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: واقدَمُوا عليَّ سامعينَ مُطِيعينَ بِلا مُعاوَدةٍ وَلا مُراودَةٍ، فَلمَّا جاءها الكتابُ مع الطيرِ، ومِن ثَمَّ اتَّخَذَ الناسُ البَطائِقَ، ولكن أينَ الثُّريَّا مِن الثَّرى، تلك البطاقةُ كانت مع طائرٍ سامعٍ مُطيعٍ فاهمٍ عالمٍ بِما يَقولُ ويُقالُ له.

فَذَكر غيرُ وَاحِدٍ مِن المُفسِّرين وغيرِهم أنَّ الهُدهد حَمل الكِتابَ وجاءَ إلى قَصرِها فَألقاهُ إليها وهي في خَلوةٍ لها، ثُمَّ وقف ناحيةً يَنتظرُ مَا يكونُ مِن جَوابِها عن كتابِها، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها وأُولي مَشُورتِهَا ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ثُمَّ قَرأت عليهم عُنوانَهُ أولاً ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ ثُمَّ قرأته: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١]، ثُمَّ شَاورتْهُم في أمرِها وما قَدْ حلَّ بها وتَأدَّبَت معهم، وخَاطبتهم وهم يَسمعونَ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، تعني: مَا كُنت لأبُتَّ أمرًا إلَّا وأنتم حاضرون، ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يَعنُونَ لنا قُوَّةٌ وقدرةٌ على الجلاد والقتال ومُقاوَمة الأبطال، إن أردتِ مِنَّا ذلك، فإنَّا عليه مِن القادرين، ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿الأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فَبَذَلُوا لها السَّمعَ والطَّاعَةَ وأخبروها بِمَا عِندَهم من الاستطاعة، وفوَّضُوا إليها في ذَلِكَ الأمر، لِتَرَى فيه ما هو الأرشَدُ لها ولهم.

فَكانَ رأيُها أَتمَّ وأَشَدَّ مِن رأيهم، وعَلِمَت أنَّ صَاحِب هَذَا الكِتاب لا يُغَالَبُ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ ولا يُخادَعُ، ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تقول برأيها السَّديد: إنَّ هَذَا المَلِك لَو قَدْ غَلَبَ عَلَى هَذِهِ المملكة لم يَخلُص الأمرَ من بينكم إلا إليَّ، ولم تَكُنِ الحِدَّةُ الشَّديدةُ والسَّطوَةُ البَليغةُ إلا عليَّ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أرادت أن تُصانع عن نفسها، وأهلِ مملكتها بِهَدية تُرسلُها وتُحَف تَبعَثُها، ولم تَعلم أنَّ سُليمان عليه السلام لا يَقبلُ مِنْهُمْ، والحَالة هَذِهِ صَرفًا ولا عَدلاً، لأنَّهم كَافرون، وهو وجُنودُهُ عليهم قَادِرُونَ.

ولهذا ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم

بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ هَذَا وقد كانت تلك الهدايا مُشتملةً عَلَى أمورٍ عظيمة، ذَكرهُ المفسّرون.

ثم قَالَ لِرَسولها إليه ووافدها الَّذِي قَدمَ عليه، والناسُ حاضرونَ يسمعون: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ يقول: ارجع بِهَديَّتك الَّتِي قَدمتَ بها، إلى مَن قَدْ مَنَّ بها، فإنَّ عندي مِمَّا قَدْ أنعمَ الله عليَّ وأسداهُ إليَّ من الأموالِ والتُّحَفِ والرِّجال، ما هو أضعافُ هَذَا وخيرٌ من هَذَا الَّذِي أنتم تفرحونَ به وتفخرون عَلَى أبناء جنسكم بسببه، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: فلأبعثنَّ إليهم بِجُنودٍ لا يستطيعونَ دِفاعَهم ولا نِزالَهم، ولا مُمَانَعتَهَم ولا قِتالَهم، ولأُخرجنَّهم من بَلَدِهم وحوزَتِهم ومُعامَلَتِهم ودَولَتِهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عليهم الصِّغارُ و العارُ وَالدَّمارُ.

فَلَمَّا بَلغَهم ذَلِكَ عَن نبيِّ الله لم يَكُن لَهُم بُدٌّ مِن السَّمعِ والطَّاعةِ، فَبادَرُوا إلى إجابَتِهِ في تلك السَّاعة وأقبَلُوا صُحبَةَ الملكة أجمعين، سامعينَ مُطيعينَ خَاضعينَ.

فَلَمَّا سَمِعَ بِقُدُومِهم عَليه ووُفُودهم إليه قَالَ لمن بَين يديه مِمَّن هُو مُسَخَّرٌ لَهُ من الجانِّ، ما قَصَّهُ الله عنه في القرآن: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٣٨- ٤٤].

لَـمَّا طَلَب سُليمانُ مِن الجَانِّ أن يُحضِروا لَهُ عرش بَلقِيس، وهو سريرُ مملكتِها الذي تَجلسُ عليه وقتَ حُكمها، قبل قُدُومِها عليه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: قَبل أن يَنقَضِي مَجْلس حُكمِكَ، وكان - فيما يُقالُ -

مِن أوَّل النَّهارِ إلى قُرَيب الزوالِ يَتَصَدَّى لِمُهِمَّات بَنِي إسرَائِيل وما لهم من الأشغال، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي: وإنِّي لَذُو قُدرةٍ عَلَى إحضاره إليك، وأمانةٍ عَلَى ما فيه من الجواهر النفيسة لديكَ، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ﴾ المشهور أَنَّهُ آصفُ بنُ برخينا، وهو ابن خالة سُليمان. وقيل: هو رجلٌ مِن مُؤمِني الجان، كان فيما يُقالُ يَحفظ الاسم الأعظم. وقيل: رجلٌ مِن بني إسرائيل مِن عُلَمائهم. وقيل: إنَّهُ سُليمانُ، وهذا غَريبٌ جدًّا. وضَعفَّهُ السُّهيلي بأَنَّهُ لا يصحُّ في سياق الكلام. قال: وقد قيل فيه قول رابع وهو: أَنَّهُ جبريل.

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل: معناه قبل أن تبعث رَسولًا إلى أقصى ما يَنتهى إليه طَرفك مِن الأرض ثُمَّ يَعود إليك. وقيل: قبل أن يَصل إليك أبعد من تراه مِن النَّاس. وقيل: قبل أن يكل طَرفك إذَا أَدَمت النَّظر بِهِ قَبل أن تُطبِق جَفنكَ. وقيل: قبل أن يَرجِع إليك طَرفُك إذَا نَظَرت بِهِ إلى أبعد غاية منك ثُمَّ أغمضته. وهذا أقرب ما قيل.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ أي: فَلَمَّا رَأى عَرش بَلقِيس مُستقرًّا عِندهُ في هَذِهِ المُدّة القَريبة مِن بلاد اليمن إلى بَيت المَقدِس في طَرفة عَينٍ ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي: هَذَا من فضل الله عليَّ وفضله عَلَى عبيده، ليختبرهم عَلَى الشكر أو خلافه. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يَعود نَفع ذَلِكَ عَليهِ ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: غَنيٌّ عَن شُكر الشَّاكِرين وَلا يَتَضرَّرُ بِكُفرِ الكَافرين.

ثم ماذا؟

ثم أمرَ سُليمانُ ﷺ أنْ يُغيَّر حُليَ هَذَا العَرش ويُنكَّرَ لها، لِيَختَبر فَهمَها وعقلها، ولهذا قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا مِن فِطنَتها وغَزارةِ فَهمِها، لأنَّها استبعدَت أن يَكون عَرشَها لأنَّها خَلَّفتهُ ورَاءَها بأرض اليمنِ، ولم تَكن تعلمُ أنَّ أحدًا يَقدرُ عَلَى هَذَا الصُّنعِ العجيب الغريب.

قال الله تعالى إخبارًا عَن سليمان وقومه: ﴿وَأُوتِينَا العِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: ومنعها عبادةُ الشمسِ الَّتِي كانت تَسجدُ لها هِي وقَومُها من دونً الله اتباعًا لِدِينَ آبائهم وأسلافِهِم لا لِدَليلٍ قَادَهم إلى ذَلِكَ ولا حَداهُم عَلَى ذلك.

وكان سليمان قَدْ أمَرَ بِبناءِ صرح من زُجاج وعملَ في مَمَرّه ماءً، وجَعلَ عليه سَقفًا مِن زِجاجٍ، وجعلَ فِيهِ مِن السَّمك وغيرِها من دَوابِّ الماء، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ وأُمِرَت بِدخُول الصَّرح وسُليمانُ جَالسٌ عَلَى سَريرِهِ فيه، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» ا.هـ[1].

وهكذا أسلمت «بلقيس» لَـمَّا رأت الحقّ، وكان من فقهها أنها قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم تقل: «وأسلمت لسليمان».

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الأحداث الَّتِي حدثت في عهد سليمان: قصّته مع الخيل، وهي قصّة أدخلَ عليها الإسرائيليون افتراءات كثيرة، أساءت لنبيّ الله سُليمان ﷺ.

فما هي هَذِهِ الإسرائيليات؟ وما هو التفسير الصحيح لما حدث؟

هذا ما سوف نبيّنهُ في الجمعة التالية، إن شاء الله تعالى.

اللَّهُمَّ اهدنا فيمن هَدَيْت، وعافِنَا فيمَن عافَيْت.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

(١) «البداية» (٢/ ٢٤ – ٢٨) باختصار.

الخطبة الثامنة والأربعون:

فتنة سليمان عليه السلام بين الحقيقة والافتراء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة سليمان عليه السلام.

عباد الله...

قَالَ تعالى في سورة «ص»: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ *

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٠- ٤٠].

ذكر بعض المفسّرين روايات تتنافى مع مقام النبوّة، منها:

- ما أخرجه الفريابيّ والحكيم الترمذي والحاكم وصححه، عن ابن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ [ص: ٣٤]، قَالَ: هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين النَّاس أربعين يومًا، وكان لسليمان عليه السلام امرأة يقال لها «جرادة» وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة، فقضى بينهم بالحقّ إلّا أنَّهُ ودّ أن الحقّ كان لأهلها، فأوحى الله تعالى إليه: أنَّهُ سَيُصيبك بلاءٌ، فكان لا يدري يأتيه من السماء أم من الأرض.

- وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - قَالَ: «أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت امرأته، وكانت أحبّ نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هَاتي خَاتمي، فأعطته، فلما لَبسهُ دَانت الإنس والجنّ والشّياطين، فلَمّا خَرَجَ سليمان قَالَ لها: هَاتي خَاتَمي، قالت: قَدْ أعطيتهُ سُليمان. قَالَ: أنا سليمان، قالت: كذبت لست سُليمان، فجعل لا يأتي أحدًا فيقول له أنا سليمان إلا كذَّبَهُ حَتّى جَعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذَلِكَ عَرف أَنَّهُ مِن أمر الله عَزَّ وَجَلَّ، وقام الشيطان يحكم بين النَّاس.

فلما أراد الله تعالى أن يرد عليه سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذَلِكَ الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهنّ: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حيّض، وما كان يأتينا قبل ذَلِكَ.

فلما رأى الشيطان أنه قَدْ فطن له، ظن أن أمره قَدْ انقطع، فأمر الشياطين فكتبوا كتبًا فيها سحر ومكر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثُمَّ أثاروها وقرأوها عَلَى النَّاس، وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان عَلَى الناس ويغلبهم فأكفر النَّاس سليمان، وبعث ذَلِكَ الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر، فتلقته سمكة فأخذته، وكان عليه السلام يعمل عَلَى شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكًا فيه تلك

السمكة، فَدَعَا سُليمان فَحَمَلَ مَعهُ السّمك إلى باب داره فأعطاه تلك السمكة فَشَقَ بطنها فإذا الخاتم فيه، فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان إلى جزيرة في البحر فأرسل في طلبه وكان مريدًا فلم يقدروا عليه حتى وجدوه نائمًا فبنوا عليه بنيانًا من رصاص، فاستيقظ فأوثقوه وجاءوا به إلى سليمان فأمر فنقر له صندوق من رخام فأدخل في جوفه، ثُمَّ سد بالنحاس ثُمَّ أمر به فطرح في البحر. فذل قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ يعني: الشيطان الذي كان تسلط عليه.

وذكر في سبب ذَلِكَ أنه عليه السلام كان قَدْ غزا صيدون في الجزائر، فقتل ملكها وأصاب ابنته وهي «جرادة» المذكورة فأحبها، وكان لا يرقأ دمعها جزعًا عَلَى أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته، وكان ذَلِكَ جائزًا في شريعته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن في ملكه، فأخبره «آصف» فكسر الصورة، وضرب المرأة، فعوتب بذلك حيث تغافل عن حال أهله. واختلف في اسم ذَلِكَ الشيطان، فعن السّدِّي أَنَّهُ «حبقيق»؛ وعن الأكثرين أنه «صخر» وهو المشهور، وإنما قَالَ سبحانه: ﴿جَسَدًا﴾ لأنه إنما تمثّل بصورة غيره وهو سليمان عليه السلام، وتلك الصورة المتمثلة ليس فيها روح صاحبها الحقيقي، وإنما حلّ في قالبها ذَلِكَ الشيطان، فلذا سُمّيت جسدًا وعبارة «القاموس» صريحة في أن الجسد يطلق عَلَى الجِنِّي» ا.هـ[١].

وقال «المحليّ» في «تفسير الجلالين»: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه بسلب ملكه، وذلك لروّجه بامرأة هواها، وكانت تعبد صنمًا في دارهِ من غير علمه، وكان ملكهُ في خاتمه، فنزعه مرة عند إرادة الخلاء – دورة المياه – ووضعه عند امرأته المسمَّاة بالأمينة عَلَى عادته، فجاءها جني في صورة سُليمان فأخذه منها... إلخ» ا.هـ[٢].

وقال الشيخ السَّعديّ – رحمه الله – في «تفسيره» (٧١٣): ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة

---

(١) «روح المعاني» (٢٣/ ٢٩٢).

(٢) «تفسير الجلالين» (٣٨٢).

البشرية، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ أي: شيطانًا قضى الله وقدَّر أن يجلس عَلَى كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب». ا.هـ.

قلت: وهذه هنة من هنات الشيخ الإمام، وهي مغمورة - إن شاء الله تعالى - في بحر حسناته، فتفسيره من أجلّ كُتب التفسير.

ولله دَرُّ العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - حين قَالَ عقب قول الحقّ سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾: «وما رُويَ[1] عن بعض السَّلف: أن الشَّيطان أخذ خاتم سليمان، وجلس عَلَى كُرسيّه وطرد سليمان إلى آخره... يوضّح بطلانه، قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. ا.هـ[2].

عباد الله...

وقد ردّ العلماء المحققون عَلَى ما تقدَّم وبيَّنوا الصَّواب في هَذِهِ الفتنة.

قَالَ الإمام الآلوسي - رحمه الله تعالى -: «وقال أبو حيان وغيره: إن هَذِهِ المقالة من أوضاع اليهود وزنادقة السوفسطائية ولا ينبغي لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدوا أن ذَلِكَ المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هَذَا لم يوثق بإرسال نبي نسأل الله تعالى سلامة ديننا وعقولنا ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان عَلَى نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض الله أكبر هَذَا بهتان عظيم وخطب جسيم ونسبة الخبر إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تسلم صحتها، وكذا لا تسلم دعوى قوة سنده إليه وإن قَالَ بها من سمعت[3].

---

(١) رُوي: صيغة تمريض، فالآثار الواردة في هَذَا الشأن لا تصحّ كما سيأتي.

(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٣٥٦).

(٣) يقصد الإمام السيوطيّ، فقد قَالَ في «الدر المنثور» (٧/ ١٧٩): وأخرج النسائيّ وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس قَالَ: أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء، فأعطى جرادة خاتمه... إلخ، وقد تقدمت بتمامها.

وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق. وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذَلِكَ من أخبار كعب ومعلوم أن كعبًا يرويه عن كتب اليهود وهي لا يوثق بها عَلَى أن إشعار ما يأتي بأن تسخير الشياطين بعد الفتنة يأبى صحة هَذِهِ المقالة كما لا يخفى، ثُمَّ إن أمر خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواص والعوام ويستبعد جدًا أن يكون الله تعالى قَدْ ربط ما أعطى نبيه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم وعندي أنه لو كان في ذَلِكَ الخاتم السر الَّذِي يقولون لذكره الله عز وجل في كتابه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضًا كالإغماء حتى صار عَلَى كرسيه كأنه جسد بلا روح وقد شاع قولهم في الضعيف: لحم عَلَى وضم وجسد بلا روح فالجسد الملقى عَلَى الكرسي هو عليه السلام نفسه.

وروى ذَلِكَ عن أبي مسلم وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى الصحة وجعل ﴿جَسَدًا﴾ حالًا من مفعول ﴿ألقينا﴾ المحذوف كأنه قيل ولقد فتنا سليمان أي ابتليناه وأمرضناه وألقيناه عَلَى كرسيه ضعيفًا كأنه جسد بلا روح ثُمَّ رجع إلى صحته، ولا يخفى سقمه». ا.هـ[١].

وبيّن **العلّامة الشنقيطي** – رحمه الله تعالى – التفسير الصحيح للآيات، فقال:

«إنَّ الله تعالى عاتب نبيَّه سُليمان عليه السلام عَلَى عدم قوله «إن شاء الله»، فقد أخرج الشيخان في «صحيحيهما» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُدَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ – أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ – كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**».

فإذا علمت هَذَا؛ فاعلم أن هَذَا الحديث الصحيح بيّن معنى قوله تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا...**﴾ الآية.

---

(١) «روح المعاني» (٢٣/ ٢٩٣) ط. دار الفكر.

فما يذكره المفسّرون في تَفْسِيرِقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ الآية، من قصّة الشيطان الَّذِي أخذ الخَاتم وجلس عَلَى كرسي سليمان، وطرد سليمان من ملكه، حتى وجد الخاتم في بطن السمكة الَّتِي أعطاها له مَن كان يعمل عنده بأجر، مطرودًا عن ملكه، إلى آخر القصّة، لا يخفى أَنَّهُ باطلٌ لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوّة، فهي من الإسرائيليات الَّتِي لا يخفى أنها بطلة». ا.هـ[1].

عباد الله...

وبهذا حصحص الحق، والحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقد بقيت في تَفْسِيرِالآيات المتقدمة بقيّة.

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تَفْسِيرِقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٠- ٤٠].

«يَذكُرُ تَعَالى أَنَّهُ وَهبَ لِداودَ سُليمانَ عليهما السلام، ثُمَّ أثْنَى الله تعالى عَليه فقال: ﴿نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاعٌ مُطيعٌ لله.

(١) «أضواء البيان» (٢/ ٣٧٣).

ثُمَّ ذَكَر تَعَالى ما كانَ مِن أمرِهِ في الخَيلِ الصَّافِنات وهي الَّتِي تقفُ عَلَى ثلاثٍ وطَرَف حافِرِ الرابعةِ. الجِياد وهي المُضَمَّرةُ السِّراعُ.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ﴾ يعني: الشمس. وقيل: الخيلُ عَلَى ما سنذكرُهُ من القولين. ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ قيل: مَسحَ عَراقِيبهَا وأعناقَها بالسُّيوف. وقيل: مَسَحَ عنها العَرق لَـمَّا أجراها وسابَقَ بَينها بَيْنَ يَديهِ عَلَى القول الآخر.

والذي عليه أكثرُ السَّلفِ الأوَّلَ، فقالوا: اشتَغَلَ بعرضِ تلك الخيول حَتَّى خَرَجَ وقتُ العصر وغَربَت الشمسُ. رُوي هَذَا عن عليّ بن أبي طالب[١] وغيره.

والذي يُقطَعُ بِهِ: أنَّهُ لم يَترك الصلاة عَمدًا مِن غَيرِ عُذرٍ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يُقال: إنَّهُ كان سائغًا في شريعتهم، فَأَخَّر الصلاة لأجلِ أسباب الجهادِ وعرضُ الخَيلِ من ذلك.

وقد ادَّعى طائفةٌ مِن العُلماء في تَأخير النبي ﷺ صَلاة العصر يوم الخندقِ أنَّ هَذَا كان مشروعًا إذْ ذَاك حَتَّى نُسخَ بِصَلاة الخَوف، قَالهُ الشافعي وغيره.

وقال مكحولٌ والأوزاعيُّ: بل هو حُكمٌ مُحكمٌ إلى اليوم أنَّهُ يَجوز تأخيرها لِعُذرِ القِتَال الشديد. كما ذَكَرْنَا تَقرير ذَلِكَ في سُورة النِّساء عند صَلاة الخوفِ.

وقال آخرون: بل كان تأخير النَّبي ﷺ صلاة العصر يَوم الخَندق نِسيانًا، وعلى هَذَا فَيُحملُ فِعلُ سُليمانَ عليه السلام عَلَى هَذَا، واللَّـهُ أعْلَمُ.

وأما من قال: الضميرُ في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ﴾ عائدٌ عَلَى الخيلِ، وأنَّهُ لم يفتهُ وقت صلاةٍ، وأنَّ المراد بقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ يعني: مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها، فهذا القول اختاره ابن جريرٍ، ورواه الوالبيُّ عن ابن عباس[٢] في مَسح العرق.

وَوَجَّه هَذَا القَول ابنُ جَريرٍ بأنَّهُ ما كان ليُعَذِّب الحيوانَ بالعرقَبةِ، ويُهلِكَ مالًا

---

(١) أثر ضعيف.
(٢) أثر ضعيف.

بلا سببٍ ولا ذنبٍ لها.

وهذا الَّذِي قاله فيهِ نَظر لأنه قَدْ يَكون هَذَا سائغًا في مِلتهم، وقد ذهب بعض علمائنا إلى أَنَّهُ إذَا خَاف المسلمون أنْ يَظفر الكُفار عَلَى شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جَاز ذَبحها وإهلاكَها لئلا يَتَقَووا بها.

وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عَقَر فَرسهُ بِمُؤتة.

وقد قيل: إنها كانت خَيلًا عظيمة. قيل: كانت عشرة آلاف فرس. وقيل: كانت عشرين ألف فرس. وقيل: كان فيها عشرون فرسًا من ذوات الأَجنِحَةِ.

وقَدْ روى أبو داود في «سننه»: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَارَةُ بْنُ غَزِيَّةَ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ فَقَالَ: **«مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟»** قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ فَقَالَ: **«مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟»** قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: **«وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟»** قَالَتْ: جَنَاحَانِ، قَالَ: **«فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟!»** قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ، قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ ﷺ (١).

قال بعض العلماء: لَـمَّا تَركَ الخَيل لله عَوَّضَهُ الله عنها بما هو خَيرٌ له منها، وهو الرِّيح الَّتِي كانت غُدُوُّها شهرًا ورواحها شهرًا، كما سيأتي الكلام عليها.

كما قَالَ الامامُ أحمد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ قَالَا: كَانَا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ هَذَا الْبَيْتِ، قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ الْبَدَوِيُّ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقَالَ: **«إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ»** (٢).

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٣٢)، والنسائي (٨٩٥٠)، وصحّحه الألباني في «آداب الزفاف» (٢٧٥).

(٢) رجاله ثقات: رواه أحمد (٥/ ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ ذكر ابنُ جرير وابن أبي حاتمٍ وغيرهما من المُفسّرين ها هنا آثارًا كَثيرة عن جَماعةٍ من السلفِ، وأكثرُها أو كُلُّها مُتلقَّاةٌ مِن الإسرائيليات، وفي كثيرٍ منها نكارةٌ شَديدةٌ، وقد نَبَّهنا عَلَى ذَلِكَ في كِتابنا «التفسير» واقتَصرناها هنا عَلَى مُجرَّد التَّلاوة.

ومضمون ما ذكروه: أنَّ سُليمان عليه السلام غَابَ عَن سَريرِهِ أربعين يومًا ثُمَّ عَاد إليه، ولَمَّا عَاد أمر بِبناء بَيْتِ المَقدس فَبَناهُ بناءً مُحكمًا.

وقد قدمنا أَنَّهُ جُدِّدَ، وأنَّ أوَّل من جَعَلهُ مَسجدًا إسرائيلُ عليه السلام، كما ذَكَرْنَا ذَلِكَ عند قول أبي ذر: قُلت: يا رسول الله أيُّ مَسجدٍ وُضع أوَّلُ؟ قال: «**المسجدُ الحرام**». قلت: ثُمَّ أيُّ؟ قال: «**مَسجدُ بَيت المَقدِس**»، قلت: كَم بَينهما قال: «**أربعون سنةً**»[(١)].

ومعلومٌ أنَّ بين إبراهيم الَّذِي بنى المسجد الحرام وبين سُليمان بن داود عليهما السلام أزيدَ مِن ألف سنةٍ، دَع أربعينَ سنةً، وكان سؤاله المُلك الَّذِي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدَّس؟ قَالَ الإمامُ أحمد، والنِّسائيّ، وابن مَاجه، وابن خُزَيمة، وابن حِبَّان، والحاكم[(٢)]، بأسانيدهم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَيْرُوز الدَّيْلَمِيِّ، عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ اللَّهَ ثَلَاثاً فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ، وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَهُ الثَّالِثَةَ، فَسَأَلَهُ حُكْماً يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ أَيُّمَا رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ فِي هَذَا المَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**».

فأمَّا الحكم الَّذِي يُوافق حُكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

وقد ذكر شريح القاضي، وغير واحدٍ مِن السَّلف أنَّ هؤلاء القَوم كانَ لَهُم كَرمٌ فَنَفَشَت فيه غَنمُ قَومِ آخرين، أي: رَعَتهُ باللَّيل فَأَكَلت شَجَرَهُ بِالكُليّة، فَتحاكَمُوا إلى داود ﷺ، فحكم لأصحاب الكرم بِقيمته، فلما خَرجُوا عَلَى سُليمانَ قال: بِمَ حَكَمَ لَكُم نَبِيُّ الله؟ فقالوا: بكذا وكذا، فقال: أما لو كنتُ أنا لما حَكمتُ إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم، فَيستغلُّونها نِتَاجًا ودَرًّا حتَّى يُصلحَ أصحابُ الغنم كَرْمَ أولئك ويَرُدُّوه إلى ما كان عليه، ثُمَّ يَتَسَلَّمُوا غَنَمَهَم، فَبَلَغَ داود ﷺ ذَلِكَ فَحكَمَ بِهِ.

وقريبٌ من هَذَا ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي الزِّنَادِ مِمَّا حَدَّثَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجُ عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ. وَقَالَتِ الأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ. فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا. فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى».

ولعلّ كُلاً مِن الحُكمين كَانَ سائغًا في شَريعتهُم، ولكن ما قالهُ سُليمان أرجَح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إيَّاه ومَدح بعد ذَلِكَ أباهُ فَقَال: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي: وسَخرَّنا لسليمان الرِّيح عَاصفةً ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩ - ٨٢].

وقال في سورة «ص»: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص:٣٦- ٤٠].

لَمَّا تَركَ الخَيل ابتغاء وَجه الله عَوَّضهُ الله مِنها الرِّيح الَّتِي هي أسرع سيرًا

وأقوى وأعظم ولا كُلفةَ عليه لها، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيثُ أراد مِن أيِّ البلاد، كان له بِساطٌ مُرَكَّبٌ مِن أخشابٍ بحيثُ إنَّهُ يَسَعُ جميعَ ما يحتاجُ إليه من الدُّورِ المبنيةِ والقصورِ والخيامِ والأمتعةِ، والخيولِ، والجمالِ، والاثقالِ، والرجالِ من الإنس والجان، وغير ذَلِكَ من الحيوانات والطيور فإذا أراد سَفرًا أو مُستنزهًا أو قِتالَ ملكٍ أو أعداءٍ مِن أيِّ بلادِ الله شَاءَ، فإذا حملَ هَذِهِ الأمور المذكورة عَلَى البساط، أمر الريحَ فَدخَلَت تَحتَهُ فَرفعتهُ، فإذا استقَلَّ بين السماء والارض أمر الرُّخاء فسارت به، فإن أراد أسرع من ذَلِكَ أمر العاصفةَ فحملتهُ أسرع مَا يَكُون فوضعتهُ في أيِّ مَكان شَاء، بِحَيث إنَّهُ كَانَ يرتحلُ في أوّلِ النَّهار من بيت المقدسِ فتغدو به الريحُ فتضعه بإصطَخرَ، مَسيرةَ شهرٍ فيُقيمُ هُناكَ إلى آخر النَّهار، ثُمَّ يروحُ من آخرِهِ، فَتَرُدُّهُ إلى بَيت المقدسِ. كما قَالَ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

قال الحسن البصري[1]: كان يغدو من دِمَشقَ فينزلُ بإصطَخرَ فَيَتغَدَّى بها ويذهب رَائحًا مِنها فَيَبيتُ بِكابُلَ، وبينَ دِمَشقَ وبين إصطَخرَ مَسيرةُ شهرٍ، وبين إصطخر وكَابُل مَسيرةُ شهرٍ.

قلت: قَدْ ذَكَرَ المتكلمونَ عَن العُمران والبُلدانِ، أنَّ إصطَخرَ بَنَتها الجَانُّ لسليمانَ، وكان فيها قرارُ مملكَةِ التُّرك قَديمًا، وكذلك غيرُها من بُلدانٍ شَتَّى كَتَدمُرَ، وبيتِ المقدسِ، وبابِ جَيرُونَ، وبابِ البرِيدِ، اللَّذانِ بدمَشقَ عَلَى أحدِ الأقوال.

وأمَّا القِطرُ؛ فقال مجاهدٌ وعِكرمةُ وقَتادَةُ وغير واحدٍ: هو النُّحاسُ.

قال قَتَادَةُ: وكانت باليمن، أنْبَعها الله لَهُ.

قال السُّدِّيُّ: ثلاثةُ أيامٍ فقط أخذَ منها جميعَ ما يحتاجُ إليه للبناياتِ وغيرها.

---

(١) **أثرٌ صحيحٌ**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٢/ ٦٩).

وقوله: ﴿وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: وسخَّر الله لَهُ من الجنِّ عُمالًا يَعملونَ له مَا يَشاء لَا يُفترونَ ولا يُخرجونَ عَن طَاعتهِ، ومَن خَرَجَ مِنْهُمْ عَن الأمر عَذَّبَهُ ونَكَّلَ بِهِ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾وهي الاماكن الحَسَنَةُ وصُدُورُ المجالسِ، ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ وهي الصُّورِ في الجُدرانِ، وكان هَذَا سائغا في شريعتهم ومِلَّتهم. ﴿وَجِفَانٍ كَالجَوابِ﴾ قال ابن عبَّاس: الجِفْنَةُ كالجَوبَةِ مِن الأرضِ. وعنه: كالحياض. وكذا قَالَ الحسنُ، وقَتادةُ، والضَّحاكُ وغَيرُهم.

وعلى هَذِهِ الرواية يكونُ الجوابُ: جمعُ جابيةٍ، وهي الحوضُ الَّذِي يُجْبَى فيه الماءُ، قَالَ الاعشى:

نَفَى الذَّمَّ عَلَى آلِ المُحلَّقِ جَفنَةٌ كجابيةِ السَّيحِ العِراقِيِّ تَفْهَقُ

وأمَّا القُدورُ الرَّاسياتُ، فقال عِكرمةُ: أثَافِيُّها منها، يعني أنهنَّ ثوابتُ لا يَزُلْنَ عن أماكِنِهنَّ، وهَكَذا قَالَ مجاهدٌ وغيرُ واحد.

ولما كان هَذَا بِصددِ إطعام الطَّعام والإحسانِ إلى الخلقِ مِن إنسٍ وجانٍّ وحيوان قَالَ تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. يعني: أنَّ مِنْهُمْ مَن قَدْ سخَّرهُ في البِنَاء ومِنهُم مَن يَأمرهُ بالغَوصِ في الماء لاستخراجِ مَا هُنالكِ مِن الجَواهِر واللآلىءِ وغير ذَلِكَ مِمَّا لا يُوجد إلَّا هُنالِك.

وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ﴾ أي: قَدْ عَصَوا، فَقُيِّدوا مُقرَّنِين اثنين اثنين ﴿فِي الأَصْفَادِ﴾وهي القيود، وهذا كُلُّه من جملة ما هيَّأه الله وسخَّر له من الأشياءِ الَّتِي هي من تمام المُلكِ الَّذِي لا يَنْبَغِي لأحدٍ مِن بَعدهِ ولم يَكن أيضًا لمن كَانَ قَبلَهُ.

وقد قَالَ البخاريّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاَتِي، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾. فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا». وكذا رواه مسلمٌ والنَّسائيُّ من

حديث شُعبةَ.

وقد كان له ﷺ مِن أُمور المُلكِ واتِّساعِ الدَّوْلَة وكثرة الجُنودِ وتَنَوُّعها مَا لم يَكُن لأحدٍ قبلَهُ، ولا يُعطيهِ الله أحدًا بَعدَهُ، كما قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾. وقد أعطاهُ الله ذَلِكَ بنصِّ الصادقِ المصدوقِ.

ولَمَّا ذَكر تعالى ما أنعم به عليهِ وأسداهُ مِن النِّعم الكاملة العظيمة إليه قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾أي: أعَطِ مَن شِئْتَ واحْرِم مَن شِئْتَ، فلا حساب عليكَ، أي: تصرَّف في المال كيف شئت، فإنَّ الله قَدْ سَوَّغَ لك مَا تَفعلُهُ مِن ذَلِكَ ولا يُحاسِبُك عَلَى ذلك، وهَذَا شأنُ النَّبيِّ الملكِ، بخلافِ العبدِ الرسولِ، فإنَّ من شأنه أن لا يُعطى أحدًا إلَّا بإذنِ الله لَهُ في ذَلِكَ.

وقد خُيِّرَ نَبيُّنا مُحمَّد صَلواتُ الله وسَلامهُ عليه، بَيْنَ هَذين المَقامَين فَاختارَ أن يَكون عَبدًا رَسُولًا. وفي بعض الروايات: أنَّهُ استشارَ جبريل في ذَلِكَ فأشار إليه أنْ تَواضَعْ. فَاختارَ أن يَكُونَ عَبدًا رَسُولًا صَلواتُ الله وسَلامهُ عليه. وقد جَعَلَ الله الخلافةِ والملكَ من بَعدِهِ في أُمَّتهِ إلى يَوْمِ القِيامةِ، فَلَا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتهِ ظَاهرينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعةُ. فلله الحمدُ والمِنَّةُ.

ولَـمَّا ذَكَر تَعالى ما وَهَبَهُ لِنَبيِّه سُليمان ﷺ مِن خيرِ الدُّنْيا نَبَّهَ عَلَى ما أعدَّهُ لَهُ في الآخِرَة من الثوابِ الجزيلِ والأجرِ الجميلِ والقُربةِ الَّتي تُقَرِّبُهُ إليه، والفوزِ العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يومَ المعادِ والحساب، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَـهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾» ا.هـ[١].

۞۞۞۞۞

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٩ – ٣٥) باختصار شديد.

الخطبة التاسعة والأربعون:
فوائد وَحِكَم في قِصَّة داود وسليمان - عليهما السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].
اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

وبعد حياة حافة بالعطاء والذِّكر والجِهاد في سبيل الله، تُوفِّيَ سُليمان ﷺ، وكانت لوفاته قصّة.

قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وقال السُّدِّيُّ[1] في خبر ذَكَرَهُ عن أبي مالكٍ وعن أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ،

(١) حسن: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٢/ ٧٥).

وعَن مُرَّةَ، عن ابن مسعودٍ، وعن أُناسٍ من الصحابةِ: كان سُليمانُ ﷺ يتجرَّد في بيت المقدسِ السنةَ والسنتين، والشهرَ والشَّهرينِ، وأقلَّ من ذَلِكَ وأكثرَ، يُدخِلُ طعامَهُ وشرابَهُ.

فأدخله في المرة الَّتِي تُوُفِّيَ فِيها، فكان بَدْءَ ذَلِكَ أَنَّهُ لم يَكن يومٌ يُصبحُ فيه إلَّا نَبتَت في بيت المقدسِ شجرةٌ فَيأتِيها فيسألها: ما اسمُك؟ فتقولُ الشجرة: اسمى كذا وكذا. فإن كانت لغرسٍ غرسَها وإن كانت نبتت دواءً، قالت: نَبَتُّ دواءً لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حَتَّى نَبَتَت شجرةٌ يُقال لها الخروبةُ، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخَرُّوبَةُ.

فقال: ولأيِّ شيءٍ نبتِّ؟ فقالت: نَبَتُّ لِخَرابِ هَذَا المسجدِ، فقال سُليمانُ: ما كان الله لِيخربَهُ وأنا حَيٌّ، أنتِ الَّتِي عَلَى وَجْهِك هَلاكِي وخرابُ بَيت المَقدس. فَنَزعَها وغَرسَهَا في حائطٍ لَهُ.

ثُمَّ دخل المحرابَ فقامَ يُصَلِّي مُتكئًا عَلَى عَصاهُ، فمات ولم تعلم به الشياطينُ. وهم في ذَلِكَ يَعملون له، يخافون أن يَخرُج فَيُعاقِبَهم، وكانت الشياطينُ تَجتمعُ حولَ المحرابِ، وكان المحرابُ له كُوًى بين يديه وخلفَهُ، فكان الشيطانُ الَّذِي يريد أن يخلَعَ يقول: ألستُ جَليدًا إن دخلتُ فخرجتُ من ذَلِكَ الجانب. فَيدخُلُ حَتَّى يَخرجَ مِن الجانب الآخرِ.

فَدخَلَ شيطانٌ مِن أولئكَ فَمَرَّ ولم يكن شيطانٌ ينظرُ إلى سُليمانَ ﷺ وهو في المحرابِ إلا احترقَ، فلم يسمع صوتَ سُليمانَ، ثُمَّ رجَعَ فلم يسمع، ثُمَّ رَجعَ فوقَعَ في البيت ولم يحترق، ونظر إلى سليمان ﷺ قَدْ سَقَطَ مَيِّتًا، فخرجَ فأخبرَ النَّاس أنَّ سُليمانَ قَدْ مات، فَفَتحُوا عَنهُ فأخرجوه، وَوَجَدُوا منسَأَتَهُ - وهي العصا بلسان الحبشة - قَدْ أَكَلَتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم ماتَ، فوضعوا الأرضة عَلَى العصا فَأكلَت مِنها يومًا وليلة.

ثُمَّ حسبُوا عَلَى ذَلِكَ النَّحو فوجدُوه قَدْ مات منذُ سنة، وهي قراءةُ ابن مسعودٍ: «فَمَكَثُوا يَدْأَبُون لَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ حَولًا كَاملًا». فَأيقَنَ النَّاس عِندَ ذَلِكَ أن الجِنّ كانوا يَكذبونَ، ولو أَنَّهُمْ علموا الغيب لعلموا بموت سُليمانَ، ولم يَلبَثُوا في

العَذابِ سنَةً يَعملونَ لَهُ ذَلِكَ، وذلك قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا دَلَّـهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، يقول: تبيَّن أمرهم للنَّاسِ، أنَّهُمْ كانوا يَكذبونَهم، ثمَّ إنَّ الشياطينَ قالوا للأرضَةِ: لو كُنتِ تَأكلينَ الطَّعام لأتَيناكِ بأطيبِ الطعام، ولو كنت تشربين الشَّرابَ سَقَيناكِ أطيبَ الشراب، ولكنَّا سننَقُلُ إليكِ الماءَ والطِّينَ.

قال: فإنهم يَنقلون إليها ذَلِكَ حَيثُ كَانت.

قال: ألم تر إلى الطين الَّذِي يَكون في جَوف الخَشب فَهُو مَا يَأتِيها بِهِ الشّياطين شُكرًا لها.

وهذا فيه من الإسرائيلياتِ الَّتِي لا تُصَدَّقُ ولا تُكَذَّبُ.

وقال أصبغ بن الفرج، وعبد الله بن وَهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[١] قال: قَالَ سُليمانُ لِمَلكِ الموتِ: إذَا أُمرتَ بي فَأَعْلمنِي، فأتاهُ فقال: يَا سُليمانُ قَدْ أُمِرتُ بِكَ، قَدْ بَقِيتْ لَكَ سُوَيعَةٌ.

فدعا الشياطين فَبَنَوا عليه صَرحًا مِن قَواريرَ ليس له بابٌ، فقامَ يُصَلِّي فاتَّكَأَ عَلَى عصاه، قال: فَدخَلَ عليه مَلكُ المَوت فَقَبَضَ رُوحَهُ وهُوَ مُتوكِّئٌ عَلَى عَصَاهُ ولم يصنع ذَلِكَ فِرارًا من ملكِ الموتِ.

قال: والجنُّ تَعمَلُ بين يَديْهِ ويَنظُرون إليه يحسَبُون أَنَّهُ حَيٌّ.

قال: فَبَعثَ الله دابَّة الأرضِ - يعني إلى مِنسَأَتَه - فَأَكَلتها حتَّى إذَا أكلَت جوفَ العَصَا ضَعُفَت وثَقُل عليها فَخَرَّ، فلَمَّا رَأت الجِنُّ ذَلِكَ انْفَضُّوا وذَهَبُوا.

قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّـهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

قال أصبغُ: وبَلَغني عن غَيرِهِ أنَّها مَكَثَت سَنةً تَأكُلُ مِن مِنسَأتِهِ حتَّى خَرَّ.

وقد رُوِيَ نَحوُ هَذَا عَن جماعة من السَّلفِ وغيرهم، واللَّـهُ تَعالى أعلَمُ» اهـ[٢].

---

(١) أثرٌ صحيحٌ: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٢/ ٧٥)، والحاكم (٤/ ١٩٨)، وغيرهما.

(٢) «البداية» (٢/ ٣٦، ٣٧) باختصار.

عباد الله...

وفي قصّة داود وسليمان عليهما السلام فوائد وحِكَم:

فمنها: أن الله تعالى يقص عَلَى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الَّذِي تقربوا له، والصبر عَلَى أذى قومه، ولهذا - في هَذَا الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله عَلَى داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الَّذِي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم، يجاوبنه إذَا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله عَلَى عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به عَلَى عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع مِنْهُمْ بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قَدْ يجري مِنْهُمْ بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود ﷺ، كان في أغلب أحواله ملازما محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذَا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه عَلَى الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول عَلَى الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا عَلَى داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع مِنْهُمْ، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود ﷺ، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذَلِكَ أو باغ علي لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذَا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذَلِكَ عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم عَلَى بعض، وأنه لا يرد عن ذَلِكَ إلا استعمال تقوى الله، والصبر عَلَى الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هَذَا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله، رتب مغفرة ذنب داود عَلَى استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده

المخلصين، أنه إذَا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذَا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هَذِهِ الآثار، وما ذاك بعزيز عَلَى الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه عَلَى بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين»[1].

عباد الله...

هذه بعض الفوائد والحِكم في قصّة داود وسليمان عليهما السلام، وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الفوائد والحِكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام:

أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله عَلَى عبده، أن يهب له ولدا صالحا، فإن كان عالما، كان نورا عَلَى نور.

ومنها: ثناء الله تعالى عَلَى سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبيده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم

---

(١) «تفسير السعدي» (٧١٣، ٧١٤).

الأخلاق، ثُمَّ يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى عَلَى محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشئوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ عَلَى ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرا منه» فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، الَّتِي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار عَلَى الأعمال الَّتِي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملكا نبيا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل»[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (٧١٤).

الخطبة الخمسون:

قصّة زكريا ويحيى - عليهما السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع قصّة نبيّين كريمين، وهما: زكريا ويحيى عليهما السلام.

عباد الله...

قَالَ الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ

بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١ - ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران: ٣٧ - ٤١].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٥].

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في كتابه «التاريخ» المشهور الحافل: زكريّا ابن حنَّا، ويقال زكريّا بن دانٍ، ويقال زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوق بن محمان ابن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برحية بن ملقاطية بن ناحور بن سلوم بن بهفانيا بن حاش بن أني بن خثعم بن سليمان بن داود، أبو يحيى النَّبيُّ ﷺ مِن بني إسرائيل.

دخل البثنيَّة من أعمال دِمشق في طلب ابنه يحيى، وقيل: إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى، واللَّهُ أعْلَمُ. وقد قيل غير ذَلِكَ في نسبه.

ويقال فيه: زكرياءُ، بالمد وبالقصر.

ويقال: زكريٌّ، أيضًا.

والمَقْصُودُ: أنَّ الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقصَّ على النَّاس خَبر زكريا عليه السلام ومَا كان من أمره حين وهبه الله ولدًا عَلَى الكبر، وكانت امرأته مع ذَلِكَ عاقرًا في حال شبيبتها وقد أسنَّت أيضًا، حتى لا ييأس أحدٌ مِن فضل الله ورحمته ولا يقنط من فَضلهِ، تعالى وتقدَّس. فقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ قال قتادة عند تفسيرها: إنَّ الله يعلم القلب النَّقيَّ، ويسمع الصوت الخفيَّ.

وقال بعض السَّلف: قام من الليل فنادى ربه مناداةً أسرَّها عَمَّن كان حاضرًا عنده، مخافةً، فقال: يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ. فقال الله: لبيك لبيك لبيك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف وخار من الكبر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة من اشتعال النَّار في الحطب، أي: غلب عليَّ سواد الشَّعر شَيبهُ، كما قَالَ ابن دريد في مقصورته:

أما تَرَى رأسي حاكَى لونُهُ ... طُرَّة صبحٍ تحت أذيالِ الدُّجَا
واشتعل المبيَضُّ في مسودِّه ... مثل اشتعال النَّار في جمر الغَضَا
وآضَ رَوْضُ اللهو يبسًا ذاويًا ... مِن بَعدِ ما قَدْ كان مجَّاج الثَّرى

يذكر أن الضعف قَدْ استحوذ عليه باطنًا وظاهرًا، وهكذا قَالَ زكريا عليه السلام: ﴿إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾»[1].

وقال الشيخ الشعراوي - رحمه الله -: «الوهن هو الضِّعف، وقال: ﴿وَهَنَ العَظْمُ﴾ عَلَى العظم يُبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب، فإذا أصاب العظامَ ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أوْلى.

والعظم آخر مخزن من مخازن القوت في جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب.

فكأنَّ نبيّ الله زكريا عليه السلام يقول: يا ربّ، ضَعُفَ عظمي، ولم يعد لديَّ إلَّا

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٥٣، ٥٤).

المصدر الأخير لاستبقاء الحياة.

واشتعال الرأس بالشِّيب أيضًا دليلٌ عَلَى ضعف الجسم ووهن قوَّتهُ». ا.هـ[١].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «وقوله: ﴿**وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾ أي: ما عودتني فيما أسألك إلَّا الإجابة، وكان الباعث له عَلَى هَذِهِ المسألة أَنَّهُ لَـمَّا كَفَلَ مريم بنت عمران بن ماثان، وكان كُلّما دَخَل عَليها مِحرابَها وَجَدَ عِندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها، وهذه من كرامات الأولياء، فعلم أن الرَّازق للشيء في غير أوانه قادرٌ عَلَى أن يَرزقه ولدًا، وإن كَانَ قَدْ طَعن في سِنِّه ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ قيل: المراد بالموالى العصبة، وكأنَّه خاف من تصرُّفهم بعده في بني إسرائيل، بما لا يوافق شرع الله وطاعته، فسأل وجود ولدٍ من صلبه، يكون بَرًّا تَقيًّا مَرضيًّا، ولهذا قال: ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ**﴾ أي: من عندك بحولك وقوتك ﴿**وَلِيًّا * يَرِثُنِي**﴾أي: في النبوَّة والحكم في بني إسرائيل.

﴿**وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ يعني: كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء، فاجعله مثلهم في الكرامة الَّتِي أكرمتهم بها من النبوة والوحي، وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذَلِكَ من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا، وحكاه عن أبي صالح من السلف، لوجوه:

أحدها: ما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾ [النمل: ١٦]، أي: في النبوَّة والملك، كما ذَكَرْنَا في الحديث المتفق عليه بين العلماء، المروى في «الصحاح» والمسانيد والسُّنن وغيرها، من طرق عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَث، ما تركنا فَهُو صَدقةٌ**» فهذا نصٌّ عَلَى أنَّ رسول الله ﷺ لا يورث، ولهذا منع الصِّدِّيق أن يصرف ماكان يختصُّ به في حياته إلى أحدٍ من وُرَّاثِهِ الذين لولا هَذَا النصُّ لصرف إليهم، وهم: ابنته فاطمة، وأزواجه التِّسعُ، وعمُّه العباس

(١) انظر «تفسير الشعراوي» للآية الكريمة، وقد نقلنا ما قاله باختصار.

رضي الله عنهم، واحتجَّ عليهم الصِّدِّيق في منعه إيَّاهم بهذا الحديث، وقد وافقه عَلَى روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وأبو هريرة، وآخرون رضي الله عنهم.

الثاني: أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**» وصححه.

الثالث: أن الدُّنْيَا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم، فإن مَن لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها.

الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجارًا يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهادًا يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده.

وهذا أمر بيِّن واضحٌ لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله.

قال الامام أحمد: حَدَّثَنَا يزيد - يعني ابن هارون - حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، قَالَ: أَخبَرَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا**». وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن حماد بن سلمة به»[1]. ا.هـ[2].

عباد الله...

ويذكر ربُّ العزَّة سبحانه في سورة آل عمران: أنَّ زكريا عليه السلام طمع في الولد، في هَذِهِ السِّن المتقدِّمة، لَـمَّا رأى عند مريم عليها السلام فاكهةِ الصيف في الشتاء، وفاكهةِ الشتاء في الصَّيف.

وكان زوج أختها، كما ورد في «الصحيح» في حديث الإسراء والمعراج: «فإذا

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٦)، ومسلم (٦١١٢)، وابن ماجه (٢١٥٠).
(٢) «البداية» (٢/ ٥٥).

بيحى وعيسى وهما ابنا الخالة»(١).

قَالَ تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٥- ٣٨].

فاستجاب الله لدعائه: قَالَ تعالى في سورة مريم: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ وهذا مفسرٌ بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فلما بُشِّر بالولد وتحقق البشارة، شرع يَستعلِم عَلَى وجه التعجب وجود الولد له والحالة هَذِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: كيف يوجد ولدٌ من شيخ كبير، قيل: كان عمره إذ ذاك سبعًا وسبعين سنَة، والأشبه واللَّـهُ أعْلَمُ أنَّهُ كان أسنَّ مِن ذَلِكَ.

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ يعني: وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقرًا لا تلد. واللَّـهُ أعْلَمُ.

كما قَالَ الخليل: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، وقالت سارة: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قَالَ له الملك الَّذِي يوحى إليه بأمر ربه: ﴿كَذَلِكَ

(١) رواه مسلم (١٦٢).

قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي هَذَا سهلٌ يسيرٌ عليه.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أي: قدرته، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا، أفلا يوجد منك ولدًا وإن كنت شيخًا كبيرًا؟!

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ومعنى إصلاح زوجته أنَّها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل: كان في لسانها شيء، أي: بذاءةٌ.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ أي: علامةً عَلَى وقت تَعلَقُ مِنِّي المرأة بهذا الولد المبشَّر به، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ يقول: علامة ذَلِكَ أن يعتريك سكتٌ لا تنطق معه ثلاثة أيام إِلَّا رمزًا، وأنت في ذَلِكَ سويُّ الخَلقِ صحيح المزاج معتدل البنية.

وأمر بكثرة الذِّكر في هَذِهِ الحال بالقلب واستحضار ذَلِكَ بفؤاده بالعشيِّ والإبكار، فلما بشُّر بهذه البشارة خَرَجَ مسرورًا بها عَلَى قومه مِن مِحرابه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ والوحى هَاهُنا هو الأمر الخفى إما بكتابةٍ، كما قاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ، أو إشارةٍ، كما قاله مجاهدٌ، أيضًا ووهب وقَتادة.

قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة(١): اعتقل لسانه من غير مرضٍ.

وقال ابن زيد(٢): كان يقرأ وُيُسَبِّح ولكن لا يستطيع كلام أحدٍ» ا.هـ (٣).

عباد الله...

وأخبر الحقّ سبحانه عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهيّة لأبيه زكريا ﷺ، وأنَّ الله عَلمهُ الكتاب والحكمةَ وهو

(١) **أثرٌ صحيحٌ**: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ٥٣).
(٢) **أثرٌ صحيحٌ**: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ٥٤).
(٣) «البداية» (٢/ ٥٦).

صغيرٌ في حال صباه.

قال عبد الله بن المبارك(١): قَالَ معمرٌ: قَالَ الصبيانُ ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال: ما لِلَّعب خُلقنَا. قال: وذلك قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

أما قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: رحمةً من عندنا رحمنا بها زكريا، فوهبنا له هَذَا الولد.

وعن عكرمة: ﴿وَحَنَانًا﴾ أي محبَّة عليه. ويحتمل أن يكون ذَلِكَ صفةً لتَحَنُّن يحيى عَلَى النَّاس ولا سِيما عَلَى أبويه، وهو محبتهما والشفقة عليهما وبرِّه بهما.

وأما الزكاة: فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل.

والتقوى: طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه وطاعتَهُ لهما أمرًا ونهيًا، وترك عقوقهما قولًا وفعلًا فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

ثُمَّ قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ هَذِهِ الأوقات الثلاثة أشدُّ ما تكون عَلَى الإنسان، فإنَّهُ ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأوّل بَعد مَا كَانَ أَلِفَهُ وعَرفهُ ويَصير إلى الآخر ولا يَدرى مَا بين يديهِ، ولهَذا يَستهل صَارخًا إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنَ الأحشاء وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هَذِهِ الدار ليكابد همومها وغَمّها! وكذلك إذَا فَارقَ هَذِهِ الدَّار وانتقل إلى عالم البَرزخ بينها وبين دار القرار، وصَار بعد الدُّور والقُصور إلى عَرصة الـموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، ومَا بين جبير وكسير، وفريقٌ في الجَنَّة وفريقٌ في السَّعير! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولـدتك أمـك باكـيًا مُستـصرخًا ... والـنَّاس حـولك يَـضحكون سُـرورًا

فاحـرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يـوم مـوتك ضَـاحِكًا مـسرورًا

---

(١) أثرٌ صحيحٌ: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ٥٥).

ولما كانت هَذِهِ المواطن الثلاثة أشقَّ ما تكون عَلَى ابن آدم، سلم الله عَلَى يحيى في كل موطن منها فقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ .

وقال سعيد بن أبي عروبة[١]، عن قَتَادة أنَّ الحَسن قَالَ: إن يحيى وعيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خَيرٌ مِنِّي. فقال له الآخر: استغفر لي أنت خيرٌ منِّي. فقال له عيسى: أنت خيرٌ منِّي، سلمت عَلَى نفسي، وسلم الله عليك. فعرف والله فضلهما.

وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقيل: المراد بالحصور: الَّذِي لا يأتي النساء[٢]. وقيل غير ذلك، وهو أشبه لقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[٣] .

عباد الله...

«وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه: هل مات زكريا عليه السلام موتًا أو قُتل قَتلًا؟ علي روايتين؛ فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان، عن أبيه، عن وهب بن منبّه، أنه قال: هرب من قَومه فدخل شجرةً فجاءوا فوضعوا المنشار عليها، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ، فأوحى الله إليه: «لئن لم يسكن أنينك لأقلبنَّ الأرض ومن عليها». فَسكن أنينه حتى قُطعَ باثنتين.

وروى إسحاق بن بشر، عن إدريس بن سنان، عن وهب أنه قال: الَّذِي انصدعت له الشجرة هو أشعيا، فأما زكريا فمات موتًا، فاللَّـهُ أَعْلَمُ»[٤].

ثم ماذا؟

يخبرنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات، أن يعمل بهنّ وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ.

عَنِ الحَارِثِ الأَشْعَرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ

---

(١) أثرٌ حسنٌ: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ٥٩).
(٢) مع القُدرة.
(٣) «البداية» (٢/ ٥٧، ٥٨) باختصار.
(٤) نفس المرجع (٢/ ٥٩).

زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلأَ الْمَسْجِدُ فَقَعَدَ عَلَى الشُّرَفِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:

أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا.

وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ.

وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا؛ وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ بِالْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يَرْجِعَ وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى قَالَ «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٢٨٦٧)، وغيرهما.

هَذَا؛ وذكروا أن يحيى ﷺ كان من أطيّب النَّاس طعامًا، وكان كثير البكاء حتى أثَّر البُكاءُ في خدّيهِ مِن كثرة دموعه.

وأنبياء الله، أعلم النَّاس بالحقّ، وأرحم النَّاس بالخلق.

وكذلك العلماء من بعدهم، لأنَّ العلم: الخشية.

قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

قال التَّيْمِيُّ - رحمه الله -: «مَن أُوتِيَ العلم ما لم يُبَكِّه لَخَلِيقٌ ألَّا يكون أُوتِيَ علمًا، لأنَّ الله تعالى نَعَتَ العلماء، ثُمَّ تلا هَذِهِ الآية: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾».

اللَّهُمَّ اجعلنا نخشاك حتَّى كأنَّنا نراك، وأسعدنا بتقواك.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد حياةٍ حافلة بالعطاء والخير، قُتل يحيى ﷺ شهيدًا.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «وذكروا في قتله أسبابًا كثيرةً، من أشهرها: أنَّ بعض مُلوك ذَلِكَ الزَّمان بِدِمَشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه، أو مَن لا يحل له تزويجها، فَنهاهُ يحيى ﷺ عن ذَلِكَ فبقي في نفسها منه.

فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيل: بل أحبته امرأة ذَلِكَ الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك ثُمَّ أجابها إلى ذَلِكَ فبعث من قتله وأحضر إليها رأسهُ ودَمهُ في طست.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره ؟ عَلَى قولين: فقال الثوري عن الأعمش عن شمر بن عطية قَالَ: قُتل عَلَى الصخرة الَّتِي بِبَيت المقدسِ سبعون نبيًّا، مِنْهُمْ يحيى بن زكريا الطَّيْلاً.

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى ابن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل عَلَى دمه سبعين ألفًا فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري. فاللَّـهُ أعْلَمُ.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في المستقصى في فضائل الأقصى، من طريق العباس بن صبح، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز، عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هَذِهِ المدينة - يعني دمشق - هداد بن هدار، وكان قَدْ زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قَدْ حلف بطلاقها ثلاثًا.

ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها ثُمَّ أجابها إلى ذَلِكَ وبعث إليه وهو قائم يصلى بمسجد جبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته عَلَى رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها ثُمَّ إلى حقويها، وجعلت أمَّها تولول والجوارى يصرخنَّ ويلطمنّ وجوههنّ، ثُمَّ خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمَّها السياف أن يضرب عُنقها لتتسلى برأسها، ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا في الذُّل والفناء، ولم يزل دم يحيى يَفُور حَتَّى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة

وسبعين ألفًا.

قال سعيد بن عبد العزيز: وهي دم كل نبي.

ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدَّم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله. فسكن، فرفع السَّيف وهرب من هرب من أهل دِمَشق إلى بيت المقدسِ فتبعهم إليها فقتل خلقًا كثيرًا لا يحصون كثرة وسَبَا مِنْهُمْ ثُمَّ رجع عنهم». ا.هـ[1].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى خِتام خطبة اليوم، عَلَى أمل اللِّقاء إن شاء الله مع قصّة عيسى عليه السلام.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك الصِّحَّةَ والعِفَّةَ وحُسنَ الخُلُقِ، والرِّضَا بالقضاء.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٦١ - ٦٣) باختصار.

الخطبة الواحد والخمسون:

مع نبيّ الله عيسى عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِه، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنلتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام.

عباد الله...

قَالَ تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٧].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى - ما مختصره: «يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام، والخُلَّصَ مِن ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثُمَّ خصص فقال: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ثُمَّ ذكر فضل هَذَا البيت الطَّاهر الطيِّب وهُم آل عمران، والمراد بعمران هَذَا والد مريم عليهما السلام.

وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن موثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم بن يهفاشاط ابن أيش بن إبان بن رحبعام سليمان بن داود.

وقال أبو القاسم ابن عساكر: مريم بنت عمران بن ما ثان بن اليعازر بن اليود ابن أجبن بن صادوق بن عيازور بن الياقيم بن أيبود بن زربائيل بن شالتان بن يوحينا بن برستيا بن آمون بن ميشا بن حزقيل بن أجاز بن يوثام بن عزريا بن بورام بن بوسافاط بن أسا بن أبيا بن رخيعم بن سليمان بن داود عليه السلام.

وفيه مخالفةٌ لما ذكره محمد بن إسحاق.

ولا خلاف أنَّها من سلالة داود عليها السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذَلِكَ الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور وقيل زوج خالتها أشياع فاللَّـهُ أَعْلَمُ.

وقد ذكر محمد بن إسحاق[1] وغيره: أنَّ أم مريم كانت لا تحبل فرأت، يومًا طائرًا يزق فرخًا له فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلنّ ولدها محررًا، أي: حبيسا في بيت المقدسِ.

قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها

(١) إسناده ضعيف: فيه ابن حميد.

السلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وقرئ بضم التَّاء ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذَلِكَ الزمان ينذرون لبيت المقدس خُدامًا من أولادهم.

وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ استدل به عَلَى تسمية المولود يوم يُولد، وكما ثبت في «الصحيحين» عن أنسٍ في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنَّك أخاهُ وسَمَّاه «عبد الله».

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعًا: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ». رواه أحمد وأهل السُّنن وصححه الترمذي(١).

وقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قَدْ استجيب لها في هَذَا كما تقبل منها نذرها.

فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمرٌ، عن الزهريّ، عن ابن المسيّب عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلاَّ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أخرجاه من حديث عبد الرزاق(٢).

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ذكر كثيرٌ من المفسِّرين أنَّ أمها حين وضعتها لفتها في خروقها، ثُمَّ خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبَّاد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها عَلَى القولين.

---

(١) وهو صحيح.
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٧٤)، والبخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٦٠٨٦).

فشاحوه في ذَلِكَ وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأمِّ.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: بسبب غلبه لهم في القرعة، كما قَالَ تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قالوا: وذلك أن كلا مِنْهُمْ ألقى قلمه معروفًا به، ثُمَّ حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث فأخرج واحدًا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام.

فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذَلِكَ بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه عَلَى خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الَّذِي جرى عَلَى خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء.

ثُمَّ طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قَدْ انعكس سيرها صعدًا فهو الغالب، ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحقّ بها شرعًا وقدرًا لوجوهٌ عديدة.

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قَالَ المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذَا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها: ﴿أَنَّى لَكِ﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: رزق رزقنيه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. فعند ذَلِكَ وهُنَالِك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قَدْ أسنّ وكبر ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ قال بعضهم: قَالَ يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه ، هب لي ولدًا وإن

كان في غير أوانه» ا.هـ(١).

عباد الله...

وبلغت مريم عليها السلام في منازل العبودية مبلغًا عظيمًا، يخبرنا الله تعالى عنه، فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٥١].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله - عند تَفْسِيرِهذه الآيات: «يذكر تعالى أنَّ الملائكة بَشَّرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولدٍ منها من غير أبٍ، وبشرت بأن يكون نبيًّا شريفًا ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]، أي: في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهوليته، فدل عَلَى أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلا لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هَذِهِ النعمة، فيقال إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى الله عنها

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٦٤ - ٦٦).

ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك واجتباك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة.

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون المراد: عالمى زمانها كقوله لموسَى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

ومعلومٌ أنَّ إبراهيم عليه السلام أفضل من مُوسَى، وأن مُحمدًا ﷺ أفضل منهما، وكذلك هَذِهِ الأُمَّة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عددًا وأفضل علمًا وأزكى عملًا من بني إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدُّنْيَا ممن كان قبلها ووجد بعدها لأنها إن كانت نبية عَلَى قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوّة أم مُوسَى محتجًا بكلام الملائكة والوحى إلى أُمِّ مُوسَى، كما يزعم ذَلِكَ ابن حزم وغيره، فلا يمتنع عَلَى هَذَا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم مُوسَى، لعموم قوله: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ إذ لم يعارضه غيره. واللَّـهُ أعْلَمُ.

وأما قول الجمهور كما قَدْ حكاه أبو الحسن الأشعريُّ وغيره عن أهل السُّنة والجماعة من أنَّ النُّبوّة مختصةٌ بالرجال، وليس في النِّساء نَبيَّةٌ[١]، فيكون أعلى مقامات مريم كما قَالَ الله تعالى: ﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فعلى هَذَا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها. واللَّـهُ أعْلَمُ.

وقد جاء ذكرها مَقرونًا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ، رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ.

وقد روى الإمامُ أحمد والبخاريُّ، ومسلمٌ، والنسائيُّ من طرق عديدة، عَنْ

---

(١) وهذا هو الصحيح، قَالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧].

هِشَامِ بن عروة، عن أبيه، قَالَ: عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ عن عَلِيّ بن أبي طالب - رضىً الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ».

وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ رضى الله عنه، قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ بأربع؛ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ».

ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زنجويه، عن عبد الرزاق به وصححه[1].

فأما الحديث الَّذِي رواه ابن مردويه، من حديث شُعْبَةَ، عَنْ معاوية بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أبيه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ ثلاثٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وخديجة بنت خويلد، وَفَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وهكذا الحديث الَّذِي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق، عَنْ شُعْبَةَ عَنْ عَمْرِو ابْنِ مُرَّةَ عَنْ مُرَّةَ الهَمْدَانِيِّ عَنْ أَبِى مُوسَى الأشعري- رضى الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». فإِنَّهُ حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان عَلَى إخراجه[2]، ولفظه يقتضى حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإنَّ كلا منهما كفلت نبيًّا في حال صغره، فآسية كفلت مُوسَى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفى كمال غيرهما في هَذِهِ الأمة كخديجة وفاطمة.

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها، رضي الله عنها وأرضاها.

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة عَلَى أخواتها لأنها

(١) وهو صحيح.
(٢) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٦٢٢٢)، والترمذي (١٨٣٤)، وغيرهم.

أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ.

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هَذِهِ الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قَالَ لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، وقد عمَّرت بعد رسول الله ﷺ قريبًا من خمسين سنة تُبلغ عنه القرآن والسُّنة، وتفتي المسلمين، وتصلح بين المختلفين، وهي أشرف أمهات المؤمنين، حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقف فيهما - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

وما ذاك إلا لأنَّ قوله ﷺ: «**وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**» يحتمل أن يكون عامًّا بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عامًّا بالنسبة إلى ما عدا المذكورات. واللَّـهُ أَعْلَمُ.

والمَقْصُودُ هاهنا: ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام، فإنَّ الله طهرها واصطفاها عَلَى نساء عالمى زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها عَلَى النساء مطلقا كما قدمنا»[(١)].

عباد الله...

وعن معجزة ميلاد عيسى عليه السلام، يقول الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا *

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٦٧ - ٧٠) باختصار شديد.

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ١٦ - ٣٧].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تَفْسِيرِ هذه الآيات ما مختصره: «ذكر تعالى هَذِهِ القصة بعد قصة زكريا الَّتِي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها، كما ذكر في سورة آل عمران، قرن بينهما في سياق واحد وكما قَالَ في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩- ٩١].

وقَدْ تَقَدَّم أنَّ مريم لَـمَّا جعلتها أمّها مُحررة تخدم بيت المقدس وأَنَّهُ كفلها زوج أختها أو خالتها، نبيُّ ذَلِكَ الزمان زكريا عليه السلام، وأَنَّهُ اتخذ لها محرابًا وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذَلِكَ الزمان نظيرها في فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها، وبأَنَّهُ سيهب لها ولدًا زكيًّا يكون نبيًّا كريمًا طاهرًا مكرمًا مُؤيدًا بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر عَلَى ما يشاء ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هَذَا فيه محنة عظيمة لها

فإنَّ النَّاس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يوما قَدْ خرجت لبعض شئونها و﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا ﴾أي: انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فلما رأته قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

قال أبو العالية: علمت أن التَّقى ذو نُهْيَةٍ.

وهذا يرد قول من زعم أَنَّهُ كان في بني إسرائيل رجلٌ فاسق مشهورٌ بالفسق، اسمه تقيٌّ فإنَّ هَذَا قولٌ باطلٌ بلا دليل، وهو من أسخف الأقوال.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: خاطبها الملك قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: لست ببشر ولكني مَلك بعثني الله إليك ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ أي: ولدًا زكيًا. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ أي: كيف يكون لي غلامٌ أو يوجد لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾أي: ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة. ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: فأجابها الملَك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هَذِهِ قائلا: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: وهذا سهل عليه ويسير لديه، فإنه عَلَى ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: ولنجعل خَلقهُ والحالة هَذِهِ دليلًا على كمال قدرتنا عَلَى أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقيّة الخلق من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾أي: نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفوليته وكهوليته، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن يكون هَذَا من تمام كلام جبريل معها، يعني أن هَذَا أمر قَدْ قضاه الله وحتمه وقدره وقرره، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه، واللَّـهُ أَعْلَمُ.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

فذكر غير واحد من السّلف: أنَّ جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها.

ومن قَالَ: إنَّهُ نفخ في فمها أو أن الَّذِي كان يخاطبها هو الرُّوح الَّذِي ولج فيها من فمها، فقوله خلاف ما يُفهم من سياقات هَذِهِ القصة في محالها من القرآن، فإنَّ هَذَا السياق يدلّ عَلَى أنَّ الَّذِي أرسل إليها مَلكٌ من الملائكة وهو جبريل ، وأنَّهُ إنَّما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها، فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه، كما قَالَ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ فدل عَلَى أنَّ النفخة ولجت فيه لا في فمها، كما رواه السُّدِّيُّ[١] بإسناده عن بعض الصحابة.

ولهذا قَالَ تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: فحملت ولدها ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وذلك لأنَّ مريم عليها السلام لَـمَّا حملت ضاقت به ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من النَّاس سيكون مِنْهُمْ كلام في حقّها، فذكر غير واحد من السَّلف مِنْهُمْ وهب بن منبه[٢] : أنَّها لَـمَّا ظهرت عليها مخايل الحمل كانَ أوَّل من فطن لذلك رجل من عُبَّاد بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النَّجار، وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذَلِكَ عجبًا شديدًا، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذَلِكَ يراها حبلى وليس لها زوج، فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول. ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. قال

---

(١) **حسن الإسناد**: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٣٥٢).
(٢) **حسن الإسناد**: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٣٤٩).

لها: فأخبريني خبرك. فقالت: إن الله بشرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

ويروى مثل هَذَا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هَذَا واللَّـهُ أعْلَمُ.

وذكر السُّدِّيُّ[١] بإسناده عن الصحابة: أن مريم دخلت يومًا عَلَى أُختها فقالت لها أُختها: أشعرت أنِّي حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضًا أنِّي حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أُمّ يحيى: إنِّي أرى ما في بَطني يَسجد لما في بطنك، وذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ومعنى السجود هاهنا: الخُضوع والتعظيم، كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

وقال أبو القاسم: قَالَ مالك: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك.

قال مالك: أرى ذَلِكَ لتفضيل عيسى عليه السلام، لأنَّ الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. رواه ابن أبي حاتم.

وروى عن مجاهد قال: قالت مريم كنت إذَا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبح في بطني.

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهنَّ ووضعنّ، إذ لو كان خلاف ذَلِكَ لذكر.

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته.

قال بعضهم: حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ .

(١) حسن: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٣٥٢)، قاله محققا «البداية» (٢/ ٧٥).

والصحيح: أن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، وكقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ومعلومٌ أنَّ بين كل حالين أربعين يومًا كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل عَلَى أهل بيت ما دخل عَلَى آل بيت زكريا.

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الَّذِي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانًا قصيًّا.

وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة، وهو بنص الحديث الَّذِي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعًا والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعًا أيضًا: «ببيت لحم الَّذِي بنى عليه بعض ملوك الروم فيها بعد».

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فيه دليلٌ عَلَى جواز تمنِّى الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن النَّاس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام عَلَى يدها، مع أنها قَدْ كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذَلِكَ من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هَذَا الحال أو كانت نسيا منسيا أي لم تخلق بالكليّة.

وقوله: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾وقرئ: «مَنْ تحتها» عَلَى الخفض، وفي المضمر قولان:

أحدهما: أنه جبريل. قاله العوف عن ابن عباس قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم. وبهذا قَالَ سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدى وقتادة.

وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية: هو ابنها عيسى.

واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قيل: النهر وإليه ذهب الجمهور.

وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها.

والصحيح: الأول لقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قَالَ: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

ثم قيل: كان جذع النخلة يابسًا. وقيل: كانت نخلة مثمرة، فاللَّـهُ أَعْلَمُ.

ويحتمل أنها كانت نخلة، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك، لأنَّ ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذَلِكَ من قوله تعالى عَلَى سبيل الامتنان: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

قال عمرو بن ميمون: ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب. ثُمَّ تلا هَذِهِ الآية.

وقوله: ﴿إِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وهذا من تمام كلام الَّذِي ناداها من تحتها قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: فإن رأيت أحدًا من النَّاس ﴿فَقُولِي﴾ أي: بلسان الحال والإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صمتًا، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام. قاله قتادة والسدى وابن أسلم.

ويدل عَلَى ذلك: قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ذكر كثير من السَّلف ممن ينقل عن أهل الكتاب: أَنَّهُمْ لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا عَلَى محلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي أمرًا عظيمًا مُنكرًا.

وفي هَذَا الَّذِي قالوه نظر، مع أَنَّهُ كلامٌ ينقض أوله آخره وذلك لأنَّ ظاهر

سياق القرآن العظيم يدل عَلَى أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله.

قال ابن عباس: وذلك بعد ما تعالت من نفاسها بعد أربعين يومًا.

والمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ لما رأوها تحمل معها ولدها قالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ والفَرِيَّة هي الفعلة المنكرة العظيمة من «الفعال» و«المقال».

ثم قالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قيل: شبهوها بعابد من عُبَّاد زمانهم كانت تساميه في العبادة، وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير.

وقيل: أرادوا بهارون أخا مُوسَى، شبهوها به في العبادة.

وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت مُوسَى وهارون نَسبًا، فإن بينهما من الدُّهور الطويلة ما لا يخفى عَلَى أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هَذَا القول الفظيع، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت مُوسَى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله مُوسَى وقومه وأغرق فِرعَون وملاه، فاعتقد أن هَذِهِ هي هذه.

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن.

قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُهُ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى نَجْرَانَ. قَالَ: فَقَالُوا: أَرَأَيْتَ مَا تَقْرَءُونَ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَرَجَعْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلاَ أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ» (١).

وذكر قتادة(٢) وغيره أَنَّهُمْ كانوا يكثرون من التسمية بهرون حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير مِنْهُمْ ممن يسمى بهرون أربعون ألفا! فاللَّـهُ أَعْلَمُ.

والمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ قالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ودل الحديث عَلَى أنها قَدْ كان لها أخ نسبي اسمه هارون وكان مشهورًا بالدِّين والصلاح والخير، ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٢)، ومسلم (٥٥٦٣)، وغيرهما.

(٢) حسن الإسناد: أخرجه ابن جرير (٩/ ١٦/ ٧٧).

أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أي: لستِ من بيت هَذَا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء.

فذكر ابن جرير في «تاريخه» (١) أَنَّهُمْ اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر مِنْهُمْ فلحقوه، وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشره فيها كما قدمناه.

ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار.

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل عَلَى ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: خَاطِبُوه وكَلِمُوه فإنَّ جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه، فعندها قالوا من كان مِنْهُمْ جبارًا شقيًّا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي: كيف تحيلينا في الجواب عَلَى صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذَلِكَ رضيع في مهده ولا يميز بين محض وزبده، وما هَذَا منك إلَّا عَلَى سبيل التهكم بنا والإستهزاء والتنقُّص لنا والإزدراء، إذ لا تردين علينا قولًا نطقيا، بل تحيلين في الجواب عَلَى من كان في المهد صبيًّا.

فعندها قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ اعترف لربّه تعالى بالعبودية، وأنَّ الله ربَّه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أَنَّهُ ابن الله، بل هو عَبدهُ ورسوله وابن أَمتهِ، ثُمَّ برَّأ أُمّه مِمَّا نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فإنَّ الله لا يعطى النبوَّة مَن هو كما زعموا - لعنهم الله وقبحهم.كما قَالَ تعالى:

(١) حسن الإسناد: أخرجه ابن جرير (١/ ٣٥٢) في «التاريخ»، قاله محققا «البداية» (٢/ ٧٨) ط. دار ابن رجب.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، وذلك أن طائفة من اليهود في ذَلِكَ الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا في زمن الحيض، لعنهم الله، فبرأها الله من ذَلِكَ وأخبر عنها أنَّها صديقة واتخذ ولدها نبيًّا مرسلاً أحد أولى العزم الخمسة الكبار، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وذلك أَنَّهُ حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة - تعالى وتقدس - ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل عَلَى طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج عَلَى اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات عَلَى الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات.

ثم قَالَ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: وجعلني برًّا بوالدتي وذلك أَنَّهُ تأكد حقّها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: لست بِفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا يصدر منِّي قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته.

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وهذه المواطن الثلاثة الَّتِي تَقَدَّم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام.

ثم لما ذكر تعالى قصتهُ عَلَى الجليّة وبَيَّن أمره ووضحه وشرحه قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ، كما قَالَ تعالى بعد ذكر قِصّتهُ وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

الـحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْـمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٨- ٦٣].

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين زاكبًا يرجع أمرهم إلى أربعة عشر مِنْهُمْ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم: العاقب، والسيد، وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك، وبيّن أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة، وقال قائلهم - وهو العاقب عبد المسيح : يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمدًا لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أَنَّهُ ما لاعن قوم نبيًّا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قَدْ أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة عَلَى ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرَّجُلُ وانصرفوا إلى بلادكم.

فطلبوا ذَلِكَ من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلًا أمينًا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح.

والمَقْصُودُ: أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْـحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنى: مِن أَنَّهُ عبدٌ مخلوق من امرأة من عباد الله، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَـهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يعجزه شيء ولا يكرثه ولا يؤوده بل هو القدير الفَعَّال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَـهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وإلى هنا انتهى كلام ابن كثير مختصرًا[١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٧٣ - ٨٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فماذا كان ردُّ فعل بني إسرائيل عَلَى هَذِهِ الأحداث؟

قَالَ الله تعالى: ﴿**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [مريم: ٣٧]. أي: فاختلف أهل ذَلِكَ الزمان ومن بعدهم فيه.

فمن قائل من اليهود: إنه ولد زنية، واستمروا عَلَى كفرهم وعنادهم. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هَذِهِ القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [مريم: ٣٧].

عَنْ عُبَادَةَ بن الصامت - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ، أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»[(١)].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نستكمل الحديث عن قصّة عيسى ابن مريم عليه السلام، إن شاء الله تعالى.

اللَّهمَّ يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلوبنا عَلَى دينك، اللَّهمَّ يا مُصرِّف القلوب والأبصارِ صرِّف قلوبنا عَلَى طاعتك.

آمين... آمين... آمين.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (١٣٩).

الخطبة الثانية والخمسون:

منشأ عيسى عليه السلام وبيان بدء الوحي إليه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الله تعالى في أول سورة «المائدة»: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم، وبيَّن أَنَّهُ الخالق القادر على كلِّ شيءٍ، المتصرِّفُ في كلِّ شيءٍ، وأنه ربُّ كل شيءٍ ومليكه وإلهه، وقال في أواخرها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي

وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٥].

حكم تعالى بكفرهم شرعًا وقدرًا، وأخبر أن هذا صدر منهم، مع أنَّ الرسول إليهم وهو عيسى ابن مريم قد بيَّن لهم أنَّهُ عبدٌ مربوبٌ مخلوقٌ، مصوَّرٌ في الرحم، داعٍ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنَّار، وعدم الفوز بدار القرار، والخزي في الدار الآخرة، والهوان والعار، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

قَالَ ابن جرير وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، عَلَى اختلافهم في ذَلِكَ ما بين المليكية واليعقوبية والنسطورية، عليهم لعائن الله، كما سنبين كيفيّة اختلافهم في ذَلِكَ ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة.

ولهذا قَالَ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي: وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له، ولا صاحبة له ولا ولد، ثُمَّ توعدهم وتهددهم فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثُمَّ دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار، من هَذِهِ الأمور الكبار والعظائم الَّتِي توجب النار فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم بيَّن حال المسيح وأمِّه وأنَّهُ عبدٌ رسولٌ ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي: ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله، وفيه دليلٌ عَلَى أنها ليست بِنَبيّة كما زعمه طائفة من علمائنا.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما، أي: ومَن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهًا! تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوًّا كبيرًا.

وقال السُّدِّيُّ[1] وغيره: المراد بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ زعمهم في عيسى وأمه أنَّهما الإلهان مع الله، يعنى كما بَيّن تعالى كفرهم في ذَلِكَ بقوله في آخر هَذِهِ السورة الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة عَلَى سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممَّن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله، أو أنه الله أو أنه شريكه، تعالى الله عما يقولون، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي: تعاليت أن يكون معك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ليس هَذَا يستحقه أحد سواك ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا تأدبٌ عظيمٌ في الخطاب والجواب.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي: ما قلت غير ما أمرتني عليه حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الَّذِي كان يتلى عليهم.

ثم فسر ما قَالَ لهم بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: رفعتني

(١) أثرٌ حسنٌ: رواه ابن جرير (٤/ ٦/ ٣١٤).

إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني مِنْهُمْ وألقيت شبهي عَلَى أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذَلِكَ ﴿كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم قَالَ عَلَى وجه التفويض إلى الرَّب عَزَّ وَجَلَّ والتبرى من أهل النصرانية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: وهم يستحقون ذَلِكَ ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فإنك أنت العزيز الحكيم وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ ولم يقل: «الغفور الرحيم».

عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ، تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا. قَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لأُمَّتِى فَأَعْطَانِيهَا وَهِىَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا»(١).ا.هـ(٢).

عباد الله...

وعن منشأ عيسى عليه السلام وبدء الوحي من الله تعالى، يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره: «قد تَقَدَّم أنه ولد ببيت لحم قريبا من بيت المقدس. وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة عَلَى حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء. وهذا لا يصح. والحديث الَّذِي تَقَدَّم ذكره دليل عَلَى أن مولده كان ببيت لحم.

وذكر وهب بن منبِّهٍ(٣) أَنَّهُ لَمَّا خرَّت الأصنام يومئذٍ في مشارق الأرض ومغاربها، وأنَّ الشَّياطين حارت في سبب ذَلِكَ حتَّى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجدوه في حِجر أُمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذَلِكَ فقالوا: هَذَا لمولد

(١) حسن: رواه أحمد والنسائي والترمذي، وحسنه الشيخ الألباني.
(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٨٣ - ٨٥) باختصار.
(٣) أثرٌ حسنٌ: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٣٥٠).

عظيم في الأرض.

فبعث رسله ومعهم ذهبٌ ومرٌّ ولبانٌ هدية إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذَلِكَ الوقت فإذا قَدْ ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذَا انصرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها: إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك.

فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره.

فذكر منها: أن الدهقان الَّذِي نزلوا عنده افتقد مالا من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها، وعز ذَلِكَ عَلَى مريم عليها السلام وشق عَلَى الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها، فلما رأى عيسى عليه السلام ذَلِكَ عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه فقال للأعمى: احمل هَذَا المقعد وانهض به. فقال: إني لا أستطيع ذلك. فقال: بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هَذَا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قَالَ ذَلِكَ صدقاه فيما قَالَ وأتيا بالمال، فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جدًّا.

ومن ذَلِكَ: أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثُمَّ أراد أن يسقيهم شرابًا يعنى خمرًا، كما كانوا يصنعون في ذَلِكَ الزمان لم يجد في جراره شيئًا فشق ذَلِكَ عليه، فلما رأى عيسى ذَلِكَ منه قام فجعل يمر عَلَى تلك الجرار ويمر يده عَلَى أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذَلِكَ إلا امتلات شرابًا من خيار الشراب، فتعجب الناس من ذَلِكَ جدًّا وعظموه وعرضوا عليه وعلى أُمّه مالًا جَزيلًا فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس. واللَّـهُ أعْلَمُ.

وقال إسحاق بن بشر: قَالَ لنا إدريس عن جده وهب بن منبه[1]، قَالَ إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مِصْرَ إلى بيت إيليا قَالَ

(١) أثرٌ حسنٌ: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٣٥٢) بنحوه.

فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما عَلَى حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره» ا.هـ(١).

عباد الله...

وقد أنزل الله تعالى الإنجيل عَلَى عبدِهِ ونبيِّهِ عيسى ﷺ، وأيَّدهُ بمعجزاتٍ حسِّية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١٠، ١١١].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تَفْسِيرِ هاتين الآيتين، ما مختصره:

«يُذكِّرُهُ تَعَالَى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أبٍ، بل من أُمٍّ بلا ذَكَرٍ، وجعله له آيةً للنّاس ودلالة عَلَى كمال قدرته تعالى ثُمَّ إرساله بعد هَذَا كلِّه، ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة، وإقامة البرهان عَلَى براءتها مما نسبها إليه الجاهلون، ولهذا قَالَ: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أُمّه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به، ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الخطَّ والفهم. نصَّ عليه بعض السَّلف، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾.

---

(١) «البداية» (٢/ ٨٦ - ٨٩) باختصار شديد، فقد ذكر ابن كثير آثارًا كثيرة لا تصح، ضربنا عنها صفحًا.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: تصوّره وتشكّله من الطين عَلَى هيئة الطير عن أمر الله له بذلك، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي: بأمري، يؤكّد تعالى بذكر الإذن لَهُ في ذَلِكَ لِرَفع التوهّم.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾ قَالَ بعض السَّلف: وهو الَّذِي يُولد أعمى ولا سبيل لأحدٍ من الحكماء إلى مداواته، ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ هو الَّذِي لا طبَّ فيه، بل قَدْ مرض بالبرص وصار داؤه عضالًا، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي: من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ وقد تَقَدَّم ما فيه دلالة عَلَى وقوع ذَلِكَ مرارًا متعددة بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهامٌ أي: أرشدهم الله إليه ودلّهم عليه، كما قَالَ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وقيل: المراد: وحيٌ بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحقّ، ولهذا استجابوا قائلين: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله عَلَى عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصارًا وأعوانا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قَالَ تعالى لعبده محمد ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا باللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٨- ٥٤] .

كانت معجزة كل نبيٍّ في زمانه بما يناسب أهل ذَلِكَ الزمان، فذكروا أن مُوسَى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الَّذِي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق عَلَى يديه تصديقا له، أسلموا سراعا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنَّى لحكيم إبراءُ الأكمه الَّذِي هو أسوأ حالا من الاعمى، والابرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هَذَا مما يعلم كل أحد معجزة دالة عَلَى صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الَّذِي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنَّهُمْ لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عَزَّ وَجَلَّ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

عباد الله ...

والمَقْصُودُ: أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم عَلَى كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصارا وأعوانا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين هم به بنو

إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذَلِكَ الزمان، فعزموا عَلَى قتله وصلبه فأنقذه الله مِنْهُمْ ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه عَلَى أحد اصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذَلِكَ غالطون وللحق مكابرون، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين في ذَلِكَ مخطئون. كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٦- ٩]. إلى أن قَالَ بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيبا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذَا شاهدوه، إقامة للحجة عليهم وإحسانا من الله إليهم كما قَالَ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال محمد بن إسحاق[١]: حدثني عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أَنَّهُمْ قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبى إبراهيم وبشرى

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقي، وغيرهما، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٥).

عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خَرَجَ منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام».

وقد روى عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هَذَا وفيه: **«دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى»** وذلك أنَّ إبراهيم لما بنى الكعبة قَالَ: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾الآية [البقرة: ١٢٩]، ولما انتهت النبوّة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيبًا فأخبرهم أن النبوّة قَدْ انقطعت عنهم وأنها بعده في النَّبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الَّذِي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ.

ثم حرض تعالى عباده المؤمنين عَلَى نُصرة الإسلام وأهله ونُصرة نبيّه ومؤازرته ومعاونته عَلَى إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾ أي: من يساعدني في الدعوة إلى الله ﴿**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾ وكان ذَلِكَ في قرية يقال لها الناصرة فسمُّوا بذلك النصارى.

قال الله تعالى: ﴿**فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ**﴾ يعني: لَـمَّا دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى مِنْهُمْ من آمن ومنهم من كفر، وهم جمهور اليهود، فأيَّد الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى مَن آمن به عَلَى مَن كفر فيما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم.

كما قَالَ تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ٥٥]. فكلُّ من كان إليه أقرب كان غالبا لمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الَّذِي لا شك فيه، من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين عَلَى النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به.

ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه، عليهم لعائن الله،

كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله. والله تعالى أعلم» ا.هـ[١].

عباد الله...

وإلى هنا انتهى كلام ابن كثير، ذكرناه مختصرًا، وسيأتي بعد قليل المزيد من الأحداث.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الأحداث الَّتِي وقعت في زمن عيسى عليه السلام قصّة المائدة:

قَالَ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٠-١١٥].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «عن سلمان الفارسي[٢] وعمار بن ياسر[٣] وغيرهم من السلف.

أنَّ عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا، فلما أتموها سألوا من عيسى

---

(١) «البداية والنهاية» (٩٥ - ٩٨) باختصار.

(٢) قال محققا «البداية» (٢/ ٩٨): سنده لا بأس به، رواه ابن أبي حاتم (٧٠١٦)، وابن جرير (٥/ ٧/ ١٣٠).

(٣) قال محققا «البداية» (٢/ ٩٨): الصواب موقوف، رواه ابن أبي حاتم (٧٠٢٣)، وابن جرير (٥/ ٧/ ١٣٤)، وسنده حسن.

إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئنَّ بذلك قلوبهم، أن الله قَدْ تقبَّل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدًا يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم.

فوعظهم عيسى عليه السلام في ذَلِكَ وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذَلِكَ من ربه عَزَّ وَجَلَّ.

فلما لم يقلعوا عن ذَلِكَ قام إلى مصلاه ولبس مسحًا من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلا قليلا، وكلما دنت سأل عيسى ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة.

فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة.

ويقال: وخل ويقال: ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جدًّا، قَالَ الله لها: كوني، فكانت. ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل.

فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها.

فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريبا من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس عَلَى ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك.

ثم قيل: إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل: إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوما بعد يوم.

ثم أمر الله عيسى أن يقصرها عَلَى الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء.

فشق ذَلِكَ عَلَى كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك، فرفعت بالكليّة

ومسخ الذين تكلموا في ذَلِكَ خنازير.

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا: حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ قَزَعَةَ الباهليّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ خِلاَسِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَمَّارِ ابْنِ يَاسِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُنْزِلَتِ المَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا وَأُمِرُوا أَنْ لاَ يَخُونُوا وَلاَ يَدَّخِرُوا لِغَدٍ فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا لِغَدٍ فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ**». ثم رواه ابن جرير عن بندار، عن ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار موقوفا. وهذا أصح.

وكذا رواه من طريق سماك، عن رجل من بني عجل، عن عمار موقوفًا. وهو الصواب واللَّـهُ أعْلَمُ.

وخلاسٌ عن عمارٍ منقطعٌ، فلو صح هَذَا الحديث مرفوعًا لكان فيصلاً في هَذِهِ القصة، فإن العلماء اختلفوا في المائدة: هل نزلت أم لا؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هَذِهِ الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قونه: ﴿**إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**﴾ كما قرره ابن جرير واللَّـهُ أعْلَمُ.

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري، أَنَّهُمَا قالا: لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قَالَ: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ العَالَمِينَ**﴾ ولهذا قيل: إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكورا في كتابهم، مع أن خبرها مما تتوفر الدواعى عَلَى نقله. واللَّـهُ أعْلَمُ». ا.هـ[1].

عباد الله...

وللحديث بقيّة إن شاء الله تعالى.

اللَّهمَّ ألبسنا العافية حتى تُهنّينا بالمعيشة، واختم لنا بالمغفرة حتى لا تَضَرّنا الذُّنوبُ.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

(١) «البداية» (٢/ ٩٩).

الخطبة الثالثة والخمسون:

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، ونزوله آخر الزمان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن قصّة عيسى عليه السلام.

عباد الله...

فنتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن رفع عيسى عليه السلام في حفظ الرَّب سبحانه، وبيان كذب اليهود والنَّصارى في دعوى الصَّلب.

قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّـهُ وَاللَّـهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٤، ٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّـهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَـهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَـهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّـهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّـهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٥- ١٥٩].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند تَفْسِيرِ هذه الآيات، ما مختصره:

«أخبَرَ تَعَالى أَنَّهُ رَفعَهُ إلى السَّماء بعد ما توفاه بالنَّوم، عَلَى الصّحيح المقطوع به، وخلَّصه مِمَّن كان أراد أذيته مِن اليهود الذين وَشَوا به إلى بعضِ الملوكِ الكَفَرةِ في ذَلِكَ الزَّمانِ.

قال ابن أبي حاتم[1]: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لَـمَّا أراد الله أنْ يَرفَع عيسى إلى السَّماء خَرَجَ عَلَى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلًا مِنْهُمْ مِن الحوارِيِّين، يعني فخرجَ عليهم من عين في البيت ورأسه يَقطُرُ ماءً فقال: إنَّ مِنكم من يَكفُرُ بي اثْنَتَى عشرة مرَّة بعد أن آمن بي، ثُمَّ قال: أيكم يُلقَى عليه شَبَهِي فَيُقتَلَ مَكَاني، ويَكُون معى في دَرَجتي؟ فقامَ شَابٌّ من أحدثهم سِنًّا فقال له: اجلس.

ثم أعاد عليهم فقام الشَّابُ فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبَه عيسى، ورُفع عيسى من رَوْزَنَةٍ في البيت إلى السّماء.

قال: وجاء الطَّلَبُ مِن اليهود فأخذوا الشَّبَه فقتلوه ثُمَّ صَلبُوه فَكَفَر به بَعضُهم اثنتى عَشَرةَ مَرَّةً بعد أن آمنَ بِهِ، وافترقوا ثَلاث فِرقٍ، فقالت طائفةٌ: كان

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه ابن أبي حاتم (٦٢٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٩١).

اللَّـهُ فينا ما شاء ثُمَّ صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثُمَّ رَفَعهُ الله إليه. وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثُمَّ رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان عَلَى المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ.

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]». وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس عَلَى شرط مسلم.

ورواه النسائي عن أبي كريب، عن أبي معاوية به نحوه. ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية. وهكذا ذكر غير واحد من السَّلف.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ»[١].

وعن سعيد بن المسيَّب أَنَّهُ قَالَ: «رُفع عيسىٰ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنة» ا.هـ[٢].

عباد الله...

وسينزل عيسى عليه السلام آخر الزَّمان، يحكم بشريعة محمد ﷺ، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويكسر الصليب.

والدليل عَلَى ذَلِكَ:

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

قَالَ الإمام الطبريُّ - رحمه الله -: «وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذَلِكَ،

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ١٩٥)، وابن أبي شيبة (٨/ ٧٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٦، ١٠٧) باختصار، وذكر ابن كثير - رحمه الله - هناك آثارًا كثيرة لا تصح، ضربنا عنها صفحًا.

وأولى الأقوال بالصّحة والصَّواب قول من قَالَ: تأويل ذَلِكَ: وإن من أهل الكتاب إلَّا ليؤمننَّ بعيسى قبل موت عيسى» ا.هـ[(١)].

قلت: ومعلوم أن عيسى عليه السلام قَدْ رُفع إلى السماء حيًّا، ولن يموت إلَّا عَلَى ظهر الأرض، وذلك بعد نزوله آخر الزمان، كما سيأتي بعد قليل.

قَالَ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «المراد بالوفاة هنا: النوم، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وكان ﷺ يقول إذَا قام من النوم: «**الحمد لله الَّذِي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» ا.هـ[(٢)].

وقال الإمام القرطبيُّ - رحمه الله -: «والصّحيح أن الله تعالى رفعه إلى السَّماء من غير وفاة ولا نوم، كما قَالَ الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبريّ وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضَّحاك» ا.هـ[(٣)].

(٢) وعن ابن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - عن النَّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، قال: «**نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة**»[(٤)].

(٣) عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقسطًا[(٥)]، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**»[(٦)].

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ٢٣).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٦).
(٣) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٣٤٢).
(٤) حسن: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٨١٧/ الإحسان)، وحسّنه الشيخ محمد بيومي.
(٥) يعني: ليس نبيًّا، لأنه لا نبيّ بعد نبيّنا ﷺ.
(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

(٤) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟».

قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ.

فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِى عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ(١) عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّى أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالعِرَاقِ(٢) فَعَاثَ(٣) يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِى الأَرْضِ؟

قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ اليَوْمُ الَّذِى كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟

قَالَ: «لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»(٤).

---

(١) قطط: أي: شديد جعودة الشَّعر.

(٢) الخلّة: ما بين البلدين.

(٣) العيث: أشدّ الفساد.

(٤) أي: إذا مضى بعد طلوع الفجر قَدْر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلّوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قَدْر ما يكون بينهما وبين العصر فصلوا العصر، وإذا مضى بعد هَذَا قَدْر ما يكون بينها وبين المغرب فصلّوا المغرب، وكذا العشاء، ثم الظهر، تم العصر، ثم المغرب، وهكذا، حتى ينقضي ذَلِكَ اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة، فرائض كلها مؤداة في وقتها». قاله النووي.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِى الأَرْضِ؟

قَالَ: «كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِى عَلَى القَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِى القَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِى كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ(١) ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ(٢) رَمْيَةَ الغَرَضِ(٣)، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِىَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ(٤) وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِى حَيْثُ يَنْتَهِى طَرْفُهُ(٥)، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ(٦) فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِى الجَنَّةِ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّى قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِى لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِى إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا- وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِىُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ اليَوْمَ. فَيَرْغَبُ نَبِىُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ

---

(١) يعاسيب النحل: ذكورها.

(٢) جزلتين: قطعتين.

(٣) أي: أنَّهُ يجعل بين الجزلتين مقدار رميته.

(٤) مهرودتان: ثوبان مصبوغان بوَرس ثم بزَعفران.

(٥) قَالَ القرطبي: «يعني أن الله قوّى نفس عيسى عليه السلام حتى يصل إلى إدراك بصره، ومعناه: أن الكفار لا يقربونه وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه إليهم» ا.هـ

(٦) بلد معروفة الآن في فلسطين، قريبة من بيت المقدس.

النَّغَفَ(١) فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى(٢) كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ(٣) وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ(٤)، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ. فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا(٥) وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ(٦) مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ(٧).

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ(٨) فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»(٩).

بقاؤه في الأرض:

يمكث عيسى ﷺ أربعين عامًا، يَحجّ خلالها ويَعتمر، ثُمَّ يُتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ - يعني عن عيسى -: «... **فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثُمَّ يُتَوَفَّى ويُصَلِّي عليه المسلمون ويدفنونه**»(١٠).

---

(١) **النّغف**: الدود.
(٢) **فرسى**: موتى.
(٣) أي: دسمهم ورائحتهم المُنتنة.
(٤) **كالزلفة**: المرآة في صفائها ونظافتها.
(٥) **قحفها**: قشرتها.
(٦) **اللّقحة**: القريبة العهد بالولادة. **والفئام**: الجماعة الكثيرة.
(٧) **الفخذ**: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.
(٨) **يتهارجون تهارج الحُمُر**: أي: يجامع الرجال والنساء بحضرة النَّاس.
(٩) رواه مسلم (٢٩٣٧)، وابن ماجه (٤١٤٨)، وغيرهما.
(١٠) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٤٠٦)، وغيره، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

عن أَبَا هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ(١) ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ(٢) الرَّوْحَاءِ(٣) حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا(٤)»(٥).

عباد الله...

وهذا شيء من خوفه عليه السلام ولآلئ من مواعظه ووصاياه:

- روى ابن عساكر عن الشعبيِّ أَنَّهُ قال: كان عيسى عليه السلام إذَا ذكر عنده السَّاعة صاح ويقول: لا ينبغي لابن مريم أن يذكر عنده الساعة ويسكت.
- وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسى كان إذَا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى.
- وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، حدثنا جعفر بن بلقان، أن عيسى كان يقول: اللَّهُمَّ إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيرى، وأصبحت مرتهنا بعملي، فلا فقير أفقر منِّي، اللَّهُمَّ لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بى صديقى، ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تسلط علي من لا يرحمني.
- وقال عبد الله بن المبارك: عن سفيان بن عيينة، عن خلف بن حوشب، قال: قَالَ عيسى للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدُّنْيَا.
- وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى يقول اعبروا الدُّنْيَا ولا تعمروها.
- وكان يقول: حب الدُّنْيَا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة.

---

(١) ليهلنّ: أي: يرفع صوته بالتلبية، يقول: «لبيك اللهمَّ لبيك».

(٢) الفجّ: الطريق بين الجبلين.

(٣) الروحاء: طريق يبعد عن المدينة ستةَّ أميال.

(٤) ليثنيها: أي: يحرم بالحجّ والعمرةَ معًا.

(٥) رواه مسلم (٢٩٧٨)، وغيره.

وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد: ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلًا.

- وعن عيسى عليه السلام: يابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدُّنْيَا ضيفا، واتخذ المساجد بيتا، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة.

- وعنه عليه السلام أنه قَالَ: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ عَلَى موج البحر دارا فلا يتخذ الدُّنْيَا قرارًا.

وفي هَذَا يقول سابق البربري:

لكم بيوتٌ بمستنِّ السُّيوفِ وهل يبنى عَلَى الماء بيت أسُّه مدرُ

- وعن عيسى عليه السلام: إن الشيطان مع الدُّنْيَا ومكره مع المال وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات.

- وقال الاعمش عن خيثمة، كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول: هكذا فاصنعوا بالقرى.

- وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك. فقال: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه.

- وعنه: طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته.

- وعنه: طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم.

- وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، قال: قَالَ عيسى اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هَذِهِ الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها، فإن قلتم: نحن أعظم بطونا من الطير فانظروا إلى هَذِهِ الأباقير من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

- وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبد الله، عن يزيد بن ميسرة، قال: قَالَ

الحواريون للمسيح: يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه. قال: آمين آمين بحق ما أقول لكم لا يترك الله من هَذَا المسجد حجرا قائمًا إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يصنع بالذهب ولا الفضة ولا بهذه الأحجار الَّتِي تعجبكم شيئًا إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض، وبها يخرب الله الأرض إذَا كانت عَلَى غير ذلك.

- وقال سفيان الثوريُّ عن أبيه، عن إبراهيم التيميّ، قَالَ: قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرَّجُلُ حيث كنزه» ا.هـ[1].

عباد الله...

هذه مواعظ ووصايا تستمطر الدَّمع، وتَهزّ الوجدان والقلب، فلتكن منا عَلَى بالٍ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ عَلَى عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن تمَّ هَذَا القصص «قَصص الأنبياء» بفضل الله تعالى ورحمته وعونه، أذكِّر بقول الحقّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١].

فالقصّة القُرآنيّة مدرسةٌ لتخريج الدُّعاة إلى الله، وهي مدرسة لتصحيح

---

(١) هذه الآثار كلّها إمّا صحيحة وإمّا حسنة، انتقيتها من «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٢ - ١٠٤) من بين آثارٌ كثيرة لا تصحّ.

الاعتقاد، واستقامة السُّلوك، وحُسن المُعاملة، وحضور القلب في العبادة، وربط الخَلقُ بالخَالق جلّ وعلا، وتذكير النَّاس بالآخرة.

اللَّهمَّ اهدنا فيمن هَديْتَ، وعافنا فِيمَن عَافِيتْ، وتولَّنا فيمن تولّيت، وبارك لنا فيما أعطيت.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

۞۞۞۞۞

الفهرس